المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

أحمد كسروى تبريزى

تاريخ الحكم النيابى فى إيران

الجزء الثالث

ترجمة: هويدا عزت محمد أحمد

مراجعة: بديع محمد جمعة



1353

تاريخ الحكم النيابى فى إيران
(الجزء الثالث)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٣٥٣
- تاريخ الحكم النيابى فى إيران (الجزء الثالث)
- أحمد كسروى تبريزى
- هويدا عزت محمد أحمد
- بديع محمد جمعة
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة الجزء الثالث من كتاب:

تاريخ مشروطه ايران

احمد كسروى تبريزى

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail egyptcouncil@yahoo.com Tel 27354524-2735426 Fax 27354554

تاريخ الحكم النيابى فى إيران
(الجزء الثالث)

تـأليـف: أحمد كسروى تبريـزى
تـرجمة: هويدا عزت محمد أحمد
مراجعة: بديـع محـمـد جمعـة



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تبريزى، أحمد كسروى

تاريخ الحكم النيابى فى إيران (الجزء الثالث)
تأليف: أحمد كسروى تبريزى، ترجمة: هويدا عزت محمد أحمد، مراجعة: بديع محمد جمعة – ط١ القاهرة: المركز القومى للترجمة ٢٠٠٩، ٣٦٨ص، ٢٤سم.

١- الحكم النيابى
٢- إيران – تاريخ
أ- أحمد، هزيدا عزت محمد (مترجم)
ب- جمعة، بديع محمد (مراجع)
جـ - العنوان ٣٢١,٨

رقم الإيداع: ٩٦٧٨ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى 3 - 208 – 479 – 977 – 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

المقال الحادى عشر: كيف تم إغلاق المجلس النيابى بالمدافع؟..... . ...**9**

المقال الثانى عشر: كيف بدأت الحرب فى تبريز؟.... ....**113**

المقال الثالث عشر: أية معارك دارت مع عين الدولة والسبهسالار؟.... .... .. **163**

المقال الرابع عشر: كيف هبّ المطالبون بالحكم النيابى لفتح المدينة؟. **239**

المقال الخامس عشر: كيف وقعت تبريز فى الأزمة مرة أخرى؟......... . .....**283**

الجزء الثالث

«المقال الحادى عشر»

كيف تم إغلاق المجلس النيابى بالمدافع؟

يُساق الحديث فى هذا المقال حول حادث قصف المجلس النيابى وما وقع فى طهران بعد ذلك.

آخر محاولات محمد على ميرزا:

منذ اليوم الذى بدأت فيه حركة المطالبة بالحكم النيابى فى إيران أبدى محمد على ميرزا - الذى كان وليًا للعهد آنذاك - العداء لأنه تربى منذ نعومة أظافره على الحكم المستبد وكان دومًا يرى الناس تحت سيطرته. وفى هذه المرة اشتد عليه أن ينال الناس كرامتهم ويقفون أمامه يسوقون الأحاديث حول البلاد وشئونها، ولم يكن بالشخص الذى يعلم جيدًا المفهوم الصحيح للحكم النيابى أو كيفية إدارة أزمة الأمور فى المجتمع وكان فى منأى عن فوائد ذلك، ولم يدرك كيفية التغاضى عن الأهواء تحت مسمى التعاطف تجاه البلاد وتقويتها، فلم يكن أكثر من رجل قصير النظر.

من ناحية أخرى، كان الروس - الذين كانت لهم السيطرة فى بلاط ولى العهد - يمتلكون قدرة التأثير عليه وعلى أفكاره، وكانوا يسيرونه فى كل طريق بمساعدة شاپشال، ولما كانت الحكومة الروسية تكن العداء الشديد لحركة الشعب - سواء فى داخل دولتها أو فى إيران - لذا لم يتركوا محمد على ميرزا فى تلك الأثناء، وكانوا يزيدون من عدائه تجاه الحكم النيابى، خاصة بعد إبرام اتفاقية ١٩٠٧م مع انجلترا، وبعد أن أصبحت لهم اليد الطولى على شمال إيران، ولما كانوا يعتقدون أن حركة الشعب حجر عثرة أمامهم كانوا يسعون للإطاحة بها.

فصلاً عن هذا كله كان محمد على ميرزا شديد الميل إلى المذهب الشيعى ومناسكه التى لا معنى لها من قبيل قراءة الروضة وزيارة عاشوراء وحمل السموع إلى المساجد وما أشبه، ولم تكن زوجته الملكة أقل منه فى هذا الشأن، ودوما كان لديهما طائفة من رجال الدين فى البلاط، وبعد مضى عدة أشهر على بداية الحكم النيابى، أعرض رجال الدين عن هذا الطريق، ووقع الانفصال بين المذهب والحكم النيابى وكان هذا باعثاً آخر لعداء محمد على ميرزا.

نعم، لقد كان محمد على ميرزا منذ الخطوة الأولى معاديًا للحكم النيابى، وكان يسعى فى تنفيذ الخطط للإطاحة بالمجلس، سواء أثناء وجوده فى تبريز أو بعد قدومه إلى طهران – وكما ذكرنا ذلك تفصيلياً– كان يرى أحرار تبريز فى مواجهته فى كل مرة، وكانت آخر خططه ثورة أصحاب البغال وحادث ميدان دار المدفعيه، وفيها أخرجه أحرار تبريز من الميدان بعمل عظيم. بعد ذلك مال محمد على ميرزا إلى الصمت لوقت طويل، وكان يتعامل مع المجلس بالنفاق. ويمكن القول إنه يئس من الإطاحه بالمجلس ولم يتبع ذلك بخطة أخرى، لكن الأحداث التالية ومنها حادث إلقاء القنابل على موكبه، وبسط جريدة "مساوات" وغيرها من الجرائد ألسنتها بالمذمة جعله يتحرك ثانية وفكر مرة أخرى فى الإطاحة بالمجلس خاصة وأن الروس كانوا يلحون على القيام بمثل هذا العمل. وهذا ما يتضح فى الايام العشرة الثانية من شهر خرداد عام ١٢٨٧ش (جمادى الآخر ١٣٢٦هـ) حيث بدأ الحديث بين محمد على ميرزا وبين سفارة روسيا والكولونيل لياخوف، وما ألحوا عليه كثيرًا فى هذا الخصوص معه هو ما يتعلق بحادث منزل عضد الملك، لأن محمد على ميرزا – كما ذكرنا – كان يعتبر أن المحرض على هذه الاجتماعات هو ظل السلطان لجعله ملكاً، وكان يعتقد أن ثمة اتفاقًا بين ظل السلطان والأحرار حتى يمنحوه الملك، وأن آل قاجار والأعيان يسعون فى هذا السبيل مع عضد الملك، ويمكن الظن أن الروس هم الذين أوعزوا إليه بسوء الظن هذا لحثه على تنفيذ رغباتهم.

وأيًا ما كان، فقد ألح محمد على ميرزا فى تنفيذ مخططه إلا أنه كان يخشى أمرين، أولهما: انجلترا والدول الأوربية التى اعتبرت إيران ذات حكم نيابى، فقد كان يخشى استياءها وبسط ألسنتها بالنقد. والأمر الآخر: خشيته من أن يقوم الأحرار بإدخال الرعب فى قلوب القادة وأن يجعلوا مرد ذلك هو مضرة الأهالى (كما فعلوا فى حادث ميدان دار المدفعية). وقد قدم الروس حلاً لهذين الأمرين واقترحوا إنه حينما يطيح الشاه بالمجلس ينشرون خبرًا مفاده أنه قام بهذا الأمر للقبض على بعض المفسدين وإلا تم القضاء على الحكم النيابى وأن المجلس سوف يفتتح ثانية بعد ثلاثة شهور.

وعليه فقد أصبحت مهمة الإطاحة بالمجلس فى يد لياخوف – الذى كان يرأس بريكاد القوزاق – ولم تكن الحاجة ماسة إلى الجند. وطائفة (بريكاد القوزاق) هذه لها تاريخ قصير لا تمس الحاجة فى هذا المقام إلى ذكره. فقد ظهرت هذه الطائفة العسكرية مند عهد ناصر الدين شاه بمساعدة القادة الروس، وسعت منذ اليوم الأول لها إلى أن يغلق رجال الجيش أعينهم ويأخذوا أوامرهم من القادة الروس دون أن يتعاطفوا مع إيران أو مع الإيرانيين، لذا كان الروس يؤازرون هؤلاء الجند ويأملون تحقيق مآربهم عن طريقهم.

وكما شاهدنا، فقد انتهت اجتماعات منزل عضد الملك إلى نتيجة؛ ألا وهى أن يطالب القاجاريون والأحرار بطرد ستة من البلاط – ومنهم الأمير بهادر – وفى يوم الثلاثاء الثانى عشر من خرداد (٢ جمادى الأولى) مضى عضد الملك برفقة مشير السلطنة – رئيس الوزراء الجديد– إلى البلاط لدى محمد على ميرزا وعرضا عليه رغبة القاجاريين والأحرار، وزاد سوء ظن محمد على ميرزا، وتوهم أنهم ينتوون إبعاد حاشيته عنه حتى يتركوه وحيدًا ويسهل عليهم خلعه. هذا وازدادت خشيته من ذلك، إلا أنه قبل لأنه كان مضطرًا. وكما رأينا، أصدر مشير السلطنة من غد ذلك اليوم مكتوبًا فى هذا الشأن وسُعد الأحرار به كثيرًا، إلا أن محمد على ميرزا أخذ يفكر فى حل منذ ذلك الحين، واقترح – بمشورة شاپشال

ولياخوف – أن يخرج من المدينة ويجمع جيشًا حوله فى قصر باغشاه بهدف حراسته ويبهى كذلك مخطط الإطاحة بالمجلس. وسوف نرى أنه خرج من المدينة عداة ذلك اليوم، وعلى هدا النحو بدأ عهد جديد فى النزاع بين الحكم النيابى والاستبداد استمر قرابة الثلاثة عشر شهرًا، وأريقت فيه الدماء من كلا الجانبين، وفى النهاية نحى محمد على ميرزا عن الملك واعتزل. وسوف نورد فى هذا المقام أحداث نلك الفترة بشكل تفصيلى.

خروج محمد على ميرزا من طهران

كان بوم الخميس الرابع عشر من شهر خرداد (٤ جمادى الأولى) يومًا عجيبًا فى طهران، ففى هذا اليوم استيقظ أهالى طهران من نومهم عند حلول الفجر وانشغلوا بأعمالهم، ولم تتملك الخشية شخصاً، ولم يعرف أحد ماذا سيحدث، لكن بعد مضى ثلاث أو أربع ساعات (أى فى الثامنة والنصف صباحاً) ظهرت فجأة جلبة شديدة من وسط المدينة ثم حوتها بالكامل، حيث شمر جند سيلاخورى سواعدهم وخرجوا دفعة واحدة من شارع در الماسى صائحين مستغيثين مهرولين فى الشوارع هنا وهناك وأصواتهم تطوى الطريق "امسك، امسك"، وكان يضربون كل من يقابلونه أو يجردونه من ثيابه، وأحيانًا كانوا يطلقون الرصاص فى الهواء، وظهر خلفهم فوجان من فرسان القوزاق يحملون البنادق ومعهم مدفع، وتقدم المغيرون نحو المجلس النيابى، وكما كان يعتقد كل شخص أسرعوا لاقتلاع أساس المحلس، وفى الوقت نفسه وصل فريق من مشاة القوزاق إلى ميدان دار المدفعية.

وقد أدخلت هذه الغوغاء وتلك الإغارة التى حدثت فى لحظة الرعب فى نفوس الأهالى وأثارت المدينة وتملك الجميع الخوف فى الشوارع، وأسرع كل شخص للاحتماء فى ملجأ، وأغلق أصحاب المحال حوانيتهم، واندفع التلاميذ من المدارس وأسرعوا إلى دورهم خائفين، ولم تبال العربات المسرعة بالمارة، وظن كل شخص أن الحرب قد بدأت وسرعان ما ستعلو أصوات المدافع والبنادق حول

المجلس. ووسط هذا الاضطراب خرجت فجأة عربة ملكية تجرها ستة جياد من شارع در الماسي وقد جلس الشاه بداخلها، وكان لياخوف وشاپشال يجلسان عن يمينه وعن يساره يحملان السيوف البتارة بينما يسرع من خلفه ومن أمامه فرسان القوزاق، ولما بلغوا ميدان دار المدفعية توجهوا إلى شارع فرمان فرما[١] ومن هناك توجهوا إلى مركز القوزاق[٢]، وأدى لواء القوزاق السلام الوطني لكنهم لم يمكثوا هناك إلا قليلا ثم سلكوا الطريق ثانية وخرجوا من الباب الشمالي وطووا الطريق مسرعين حتي بلغوا قصر باغشاه.

أما طائفة القوزاق التى أغارت على المجلس فقد تركته وطوت الشارع حتى آخره وخرجوا منه، وبعد نصف الساعة عادوا من بوابة أخرى ثم ساد الهدوء تدريجياً، واتجه الجند والفرسان وكل رجال البلاط من كل صوب وحدب فى مجموعات إلى قصر باغشاه وفتحوا الحوانيت التى كانت مغلقة.

وكان الشاه يريد الخروج من المدينة لإعداد جيشٍ فى باغشاه لمقاتلة مؤيدى الحكم النيابى بكل هدوء ،وبعد الظهيرة أصدر أمرًا على النحو التالى:

"إلى جناب السيد مشير السلطنة، لما كان طقس طهران حارًا ويصعب علينا تحمله لذا ذهبنا إلى باغشاه".

(الخميس، الرابع من جمادى الأولى، قصر باغشاه)

وفى اليوم نفسه قطعوا أسلاك البرق حتى لا يتمكنوا من توصيل الأخبار إلى المدن الأخرى، كما قطعوا أسلاك الاتصال الخاصة بالشركة التابعة للإنجليز وتعهدوا بدفع غرامة ذلك، كذلك حملوا الأسلحة وأدوات القتال من المدينة إلى باغشاه. وكان واضحًا أن هناك خطة تدعو إلى الريبة، وأن الشاه سوف يستخدم آخر ما تبقى لديه من قوة للإطاحة بالمجلس، كما يتضح أنه نقض كل الأقسام

---

(١) يطلق عليه حاليًا شارع سپه.

(٢) هو نفس المكان الذى يوجد فيه الآن مبنى وزارة الخارجية والحديقة الوطنية .

والعهود التى أداها، فها هو شاپشال ألد أعداء الحكم النيابى والذى طرد هو وغيره من البلاط منذ يومين يجلس الآن بجوار الشاه فى العربة الملكية ومعه سيف بتار بطلب من عضد الملك.

ولما حوت تلك الغوغاء المدينة أسرع أشخاص من كل صوب ممن كانوا يحضرون فى الجمعيات، منهم من كان مدججًا بالسلاح ومنهم من كان أعزل واتجهوا إلى مسجد سپهسالار واحتشدوا هناك، لكنهم حينما رأوا أن ما من مضرة أمامهم تفرقوا. أما المجلس، فلما كان منعقدًا فى نهاية ذلك اليوم فقد قام بعمل ضخم تجاه هذا الحادث، وأرى أنه من الأفضل أن أورد فى هذا المقام بعض أحاديث النواب:

رئيس المجلس: تم التباحث هنا فى الجلسة السابقة بشأن مضى لجنة من قبل المجلس إلى منزل السيد عضد الملك، ومضت هذه اللجنة، وعُلم أن صاحب الجلالة الملك قد وافق على جميع مطالب الأمراء والوزراء، وعندما تشرف كل من جناب السيد عضد الملك والسيد مشير السلطنة بالمثول أمام الملك، استدعى الأخير لجنة النواب المذكورة، ومثلت اللجنة أمامه وأبدت عظيم الشكر للقضاء على هذه الفتنة، وبالأمس مضى كذلك جناب السيد مشير السلطنة إلى البلاط، وهم مشغولون بتنظيم الأمور، وقد قدمت رسالة إلى وزير البلاط كى يمضوا وينشغلوا بتنظيم الأمور فى البلاط. وفى صباح اليوم حضر الموكب الملكى إلى باغشاه بغرض التنزه، ويقال إنه أثناء حضوره حدثت بعض التصرفات غير اللائقة من قبل جند سيلاخورى، وكان التجار يريدون إغلاق الحوانيت، وهنا عُلم عن طريق الهاتف أنهم لم يغلقوا الأسواق لأن المسألة ليست مهمة، وأن وقوع مثل هذه التصرفات ليس من الأهمية بحيث تغلق الحوانيت، بعد ذلك أحضروا مشير السلطنة إلى المجلس – وكان رئيسًا للوزراء وفقًا للأمر الملكى لكنهم لم يقدموه فى المجلس حتى الآن على أنهم سيقدمونه يوم السبت ضمن اللجنة المنتخبة – وقد تم التباحث فيما يختص بأمن المدينة فى حضور هيئة الحكومة ورئيس الإدارة العسكرية، وتقرر أن يقع ثلاثمائة جندى ومائة من لواء القوزاق تحت سيطرة

الإدارة العسكرية حتى يتولوا أمور استقرار المدينة، كما تقرر أن يُعهد بطريق شميران إلى القائد فيروز حتى يحفظ أمن ذلك الطريق. ولما كان لهذا الخبر أهميته لذا تم التصريح به تفصيليًا لإطلاع السادة أعضاء المجلس حتى يعلموا به مسبقًا.

الحاج سيد باقر: لعل جند سيلاخورى هؤلاء ليسوا أصحاب مناصب حتى يقوموا بمثل هذه التصرفات الهمجية فى المدينة ويرعبوا الأهالى دون أن تقع عليم أدنى مسئولية؟!

رئيس المجلس: فيما يختص بهذا الأمر تم استجواب جناب السيد رئيس الوزراء ووزير الحربية: "لم قامت هذه الطائفة من الجند بإرعاب الأهالى بمثل هذه التصرفات؟" فأجاب: "سوف نمضى ونحقق فى هذا الأمر، ونوقع بهم العقاب، ثم نصدر أمرًا للمسئول فيهم بعدم القيام بمثل هذا النوع من الأعمال".

رأيتم كيف يقحمون أنفسهم فى الأمور؟! إنهم يهتمون بتلك التصرفات العدائية بينما كانوا يعربون عن امتنانهم منذ أيام لموافقة الشاه (أو التظاهر بالموافقة) على مطالبهم!

وفى مساء ذلك ِاليوم خرج الأمير بهادر من سفارة روسيا وأسرع إلى باغشاه وتولى زمام الأمور، ومضى يوم الجمعة وكذلك السبت فى هدوء، وكان الشاه ورجال البلاط يستعدون، لكن المجلس لم يقم بشىء أكثر من أنه ألزم الأحرار الهدوء وحال دون قيامهم بأى مسعى.

وفى يوم الأحد السابع عشر من خرداد (٧ جمادى الأولى) مضت طائفة من القاجار – الذين كانوا يمكثون فى منزل عضد الملك – إلى باغشاه. وفى يوم الخميس استدعى محمد على ميرزا عضد الملك، وقال له:

"لقد وافقنا على مطالب الأمراء والوزراء، وطردنا من البلاط من كانوا يريدون طرده، فلمَ يجتمعون ثانية فى منزلك ؟! فليأتوا إلى البلاط كالخدم ويسترضونا ليأمنوا".

ولما عاد عضد الملك إلى منزله شرح ما حدث للقاجاريين وغيرهم، فلم يرتضوا الذهاب وظل النقاش يدور بينهم حتى اختاروا اليوم بعضًا من القادة وأرسلوهم إلى باغشاه برفقة عضد الملك، ومضوا إلى الشاه. وليس لدينا علم بالحديث الذى دار بينهم، لكن بينما كانوا ينتوون الخروج من الحديقة حاصرهم الفوزاق فجأة وقبضوا على ثلاثة منهم هم: جلال الدولة (ابن ظل السلطان)، وعلاء الدولة والقائد منصور. وبالرغم من محاولات عضد الملك ووساطته إلا أنه فشل فى الإفراج عنهم فظل معهم.

وفى اليوم نفسه أخذ الشاه أموالاً باهظة من مخبر الدولة وقدمها إلى مكتب البرق – الذى كان تحت سيطرة القائد منصور – كما قدم الأموال إلى الجند وأفراد الفوزاق، وعزل حاكم طهران – ويدعى ميرزا صالح خان باغميشه اى الوزير الاكرم – ونصب محله مصطفى خانْ حاجى الدولة. وفى نفس اليوم سحبوا المدافع خارج البوابة.

من ناحية أخرى، لما كان المجلس منعقدًا حتى وقت متأخر، دخل مشير السلطنة هناك مع الوزراء الجدد وقدموا الحكومة على النحو التالى:

مشير السلطنة رئيسًا للوزراء ووزيرًا للداخلية، مستوفى الممالك وزيرًا للحربية، علاء السلطنة وزيرًا للخارجية، صنيع الدولة وزيرًا للمالية، مشير الدولة وزيرًا للعلوم، مؤتمن الملك وزيرًا للتجارة، محتشم السلطنة وزيرًا للعدل (ولكن لما كان فى أرومى جعلوا هناك من ينوب عنه).

وما يثير العجب أن النواب لم يستفسروا: لمَ يقدمون هذه الحكومة للمجلس؟ ولمَ يسحبون تلك المدافع خارج البوابات؟

وكأنهم كانوا يجلسون فى مجلس انجلترا النيابى، ووافقوا على الحكومة بفتور، وتناقشوا حول حماسة الدولة!

طريق النجاة:

من غد يوم الإثنين كان أفراد القوزاق يتجولون فى المدينة، وحينما كانوا يرون بندقية أو سلاحًا مع أحد الأشخاص كانوا يصادرونه، واليوم وجهوا بجلال الدولة وعلاء الدولة والقائد منصور إلى مازندران برفقة القوزاق، كما طبعوا أمرًا من قبل الشاه تحت عنوان " طريق النجاة وأمل الشعب " ووزعوه فى المدينة، وينبغى القول إنه كان "إعلانًا للحرب" ضد المجلس والحكم النيابى، وها نحن نورده فى هذا المقام.

طريق النجاة وأمل الشعب

"شعب إيران العريق القويم، أبناؤنا الحقيقيون العابدون، لاريب أنهم لن يسعدوا إذا ما صارت دولتهم التى تبلغ من العمر ستة آلاف عام تحت وطأة هوى حفنة خائنة تبغى تحقيق أغراضها ومنفعتها وهى بعيدة كل البعد عن شرف الوطنية وكرامة الإنسانية وحيثيتها، لا ريب أنهم لن يرتضوا أن يصيروا هدفًا لخيال اللصوص القتلة الفاسدين، فأحدهم يطمع فى الوزارة والآخر يحلم بالرئاسة، والبعض يسعى لتحقيق المنفعة، والبعض الآخر يسعى للحصول على السطوة والنفوذ ويقومون بأعمال غير مشروعة، ويخدعون الأهالى البسطاء المساكين كل يوم وكل ساعة ببيان تحت عناوين مختلفة كى يجعلوا منهم أداة لأعمالهم وأياد لكسب الثقة فيهم. ونحن نعلن على جميع أبنائنا أنه لو مضت فترة على هذه الحال؛ فلن يبقى من الدولة والشعب سوى الاسم فقط وسوف تنهار أمور المملكة، ولم يستطع عقلاء الشعب التخلى عن عهدة الإصلاح لأعوام طوال، ومن البديهى أن ما من شبهة فيما أقدم عليه ملكنا فى هذه الفترة، حيث أمر ببعض الإجراءات فى سبيل تقدم الحياة النيابية وصلاح أوضاع المملكة، فلم نتخل عن القيام بأى إجراء، وقد سمعنا ما قالوه وفعلنا ما أرادوه، وتغاضينا عن كل تصرف سيئ غير لائق، وما أكثر ما تعهدوا ثم نقضوا العهد، وما أكثر الاتفاقيات التى لم يتموها، فهل تبقى شبهة علينا بعد ذلك فى أن هؤلاء المفسدين ليست لديهم نية سوى تدمير دياركم؟ ألا تعلمون أنهم لا يريدون أن تبقى صلة اتحاد حقيقية بين الحكومة والشعب؟ نحن

نقولها لكم صراحة، لا يمكن بأى وجه من الوجوه أن نرى الدولة والشعب تحت وطأة الاضطرابات والثورات ونصرف النظر عن أعمال المغرضين، ونتخيل أن هذه التصرفات غير اللائقة ما هى إلا لعبه، وأن نترك شعب إيران يعانى نير ظلم المفسدين الذين يبغون فناء إيران، وبما أن إيران كما أمرنا وأعلنا على كافة الدول قد صارت نيابية وصارت ضمن الدول التى تتمتع بحياة نيابية فسوف يقوم النواب والمجلس النيابى بما كلفوا به بكامل الأمن والقوة، ونحن نسعى ونجد لتنفيذ الأمر السابق لنا لكى نجعل التجار وكافة الرعايا فى أمان، ليهتموا بأعمالهم ويكون الحدى والنكبه للمفسدين، وكل من يتجاوز حدوده سيوضع تحت المساءلة. ولا ريب أن شعب إيران النجيب وأبنائى الأعزاء يقدرون هذا الإجراء الذى صدر من قبل الشاه وأنهم لن يتخلوا أبدًا عن التعاون بأى وجه من الوجوه".

(محمد على شاه القاجارى)

وقام مخبر الدولة بتوصيل خطوط البرق التى كانوا قد قطعوها، وأبلغ كافة المدن بـــ "طريق النجاة" هذا أو "إعلان الحرب" كى يطبعه الحكام فى كل مكان ويوزعوه فى المدينة، ولم تكن فى المدن قبل ذلك الحين أية معلومات حول حقيقة الأوضاع وكان هذا أحد الأمور غير المفهومة من قبل المجلس، فرغم أن ثمة دلائل كانت تبدو فى الظاهر منذ أسبوعين أو ثلاثة تنم عن خبث نية البلاط إلا أنه لم يتفهم ذلك ولم يكن يهتم ولم يبرق إلى المدن بهذه المعلومات، بل إن أعضاءه – كما شاهدنا – كانوا يخادعون الأهالى بإرسال برقيات الثناء، وبعد ذلك، حينما مضى الشاه إلى باغشاه وانكشف الأمر، لم يرسل – المجلس – إلى المدن بهذه المعلومات حتى تم قطع خطوط البرق.

هذا وقد ظل الأهالى جاهلين بحقيقة الأمر فى كافة المحافظات حتى وصل إليهم "طريق النجاة" هذا يوم الثلاثاء. وفى نفس يوم الإثنين كتب السيد بهبهائى والسيد طباطبائى برقية إلى تبريز وغيرها من المدن للإخبار بحقيقة ما حدث وطلبا العون منها، ولما لم تكن لهما السيطرة على مكتب البرق التابع لطهران لذا أرسلا

ما حدث مع شخصين من مجاهدى جيلان إلى قزوين لدى ميرزا حسن رئيس المجاهدين حتى يقوم بتبليغه إلى المدن، ولم يتوانَ هذان فى ذلك وبلغا قزوين وأبلغا ميرزا حسن بفحوى رسالة السيدين وقام بدوره بتبليغ المدن عن طريق البرقيات، لكن فيما يبدو أن برقياته وصلت متأخرة عن إعلان " طريق النجاة " هذا ونورد فى هذا الموضع برقية السيدين:

"إلى العلماء الأعلام وحصون الإسلام فى الجمعية الإقليمية وسائر الجمعيات، إن طرد بعض الأشخاص من البلاط من أمثال الأمير بهادر ممن كانوا مهتمين بشدة لإفساد العلاقة بين الشعب والملك منذ بداية الحكم النيابى وقد طالت يد فسادهم مما جعل استقلال المملكة عرضة للخطر العاجل، وقد استدعى هذا اعتكاف جميع الأمراء والقادة لعدة أيام فى منزل السيد الأشرف عضد الملك وطالبوا بطردهم من البلاط وقد تم قبول ذلك، لكنه لم ينفذ بشكل عملى، وفى يوم الخميس حضر الملك فجأة وهو فى غاية التوتر إلى باغشاه – وهو خارج البوابة – وأقام معسكرًا هناك، وأمس السبت أمر بتمركز بعض القادة فى هذا الموقع ونصبوا المدافع خارج البوابات واضطرب الأهالى مِّنَ هذه الحال، وقطعت خطوط الاتصال، وأفضت هذه الأعمال من قبل رجال البلاط إلى هدم أساس الحياة النيابية والمجلس النيابى بشكل عاجل".

(عبد الله موسوى بهبهانى، محمد بن صادق طباطبائى)

وكما سنرى فى تقارير لياخوف، إنه فى نفس يوم الإثنين (٢٦ مايو) قام محمد على ميرزا باستدعائه (أى لياخوف) إلى باغشاه وأنبأه بآخر أفكاره فيما يختص بقبول اقتراح الروس وعهد إليه بمهمة القيام بذلك.

عمل آخر غير مفهوم من قبل زعماء الحرية:

فى يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر خرداد (٩ جمادى الأولى) قامت جمعيات طهران بحركة وانتفاضة، وقدموا ثانية إلى مدرسة سپهسالار، وفى البداية

حضرت جمعية شاه آباد – وهى من الجمعيات الكبيرة ذات الصيت – وبحوزتها أدوات القتال والمعدات اللازمة ثم تبعتها الجمعيات الأخرى، واتخذت كل جمعية مقرًا لها فى إحدى الحجرات وعلقت لوحة لها على جدرانها، وقد ذكرت جريدة المجلس أن تعداد اللوحات قد بلغ مائة وثمانين لوحة، ومن هنا يمكن أن ندرك إلى أى حد كان الاحتشاد هناك. وقاموا بفتح بابٍ من فناء المدرسة يؤدى إلى بهارستان، وكان كلا الفناءين مزدحمين بالأهالى، وكالمعتاد، اعتلى ملك المتكلمين والسيد جمال الدين وآخرون المنبر وجعلوا يتحدثون فى الأهالى منتقدين الشاه ونقضه للدستور. ومضى يوم الأربعاء وكذلك الخميس على هذا النحو حيث كان يقوم من فى المدرسة وبهارستان بأعمال الجلبة والثورة. من ناحية أخرى، انتشر أفراد القوزاق فى المدينة وكانوا يصادرون أدوات القتال والسلاح من الأهالى، وبهذه الحجة ألحقوا الأذى بهم، فكثيرًا ما كانوا يسلبون ما فى الجيوب وما على البغال، بينما كان الشاه ولياخوف يستعدان للأمر. ومن ناحية أخرى، كان المجلس يمضى يومه فى فتور ويكتفى بالتصاريح والرسائل.

وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من شهر خرداد (١٢ جمادى الأولى) قدم غلام رضا خان قائد القوزاق من قبل الشاه إلى المجلس، وأبلغ رسالة مفادها " إن تجمع الجمعيات فى المدرسة وفى بهارستان أمر غير مستحسن خاصة وأن بعض الشباب يمتلكون سلاح، فليتفرقوا كى نتابع مباحثاتنا مع المجلس بأنفسنا وننهى الأمر".

فى الوقت نفسه نصبوا المدافع على بوابات دوشان تپه وشميران بأمر الشاه.

وكان لهذه الرسالة ولسحب المدافع تأثير عجيب، ففى الحال أسرع كل من بهبهانى وطباطبائى وتقى زاده وممتاز الدولة ومستشار الدولة وغيرهم إلى المدرسة وطالبوا الأهالى بالتفرق لكنهم رفضوا وقاموا بجلبة، وتردد بهبهانى لكن تقى زاده صمد وأوضح أن ثمة أسرارًا فى الأمر وفرق الأهالى من هناك وبقى فقط شخص أو اثنان من كل جمعية لحراسة الأمتعة والمعدات.

وأخجل هذا العمل الأحرار وأدخل اليأس فى نفوسهم بينما شجع الأعداء على اللوم والمذمة. وفى الليلة نفسها تأذى اليوزباشى مهدى – أحد رواد الحرية فى عهد حكومة عين الدولة – كثيرًا من رجال الحكومة، ومن شدة خوفه ويأسه أدمن الأفيون وانتحر، وكان أول ضحية لرياء النواب. ولم يكن تفرق الأهالى هذا إلا من قبيل العجز، ولم يدرك المجلس ما كان يفعله، لكن النواب لم ينسبوا الهزيمة لأنفسهم، وبينوا أن هذا عمل سياسى عظيم:

"لقد قدموا الشعب على أنه فوضوى، كانوا يريدون الإساءة إليه بين الشعوب المتمدينة، والحقيقة أنهم لم يستطيعوا القيام بعمل وأثبت الشعب براعته أمام العالم".[1]

لقد كانوا يسعدون أنفسهم بهذه الفلسفة، وقد وردت بعض الجمل العجيبة فى صحيفة المجلس، منها:

"إن تفرق كافة الجمعيات الوطنية يوم الجمعة (١٢) ألحق هزيمة نكراء بالمفسدين عديمى الإيمان، وأقام سدًا شديد الإحكام أمام الشر والفساد، وأغلق ألسنة المسيئين التى كانت تتحدث عن الأشياء المخذية وتثير الفتن، وعلم الصديق والعدو أن الشعب ليس أساس البلاء والفتنة، وأنه لا يعمل بالقوة والعنف بل أنه كان يطالب منذ اليوم الأول بكل حرقة وأسى بحقوقه المسلوبة وقد حصل عليها ولم يغير مسلكه من بعد ..."

ونظرًا لوجود تقارير لياخوف لدينا ندرك جيدًا إلى أى مدى كان يهتم هو والشاه بتفريق الأهالى، ولماذا يجب عدم إعطائهم الأهمية، فلو لم يحدث هذا التفرق وقاوم المجلس بشدة لازداد استعداد الأحرار فى تهيئة العدة، وازداد تعداد المحاربين يومًا بعد يوم. لقداستعد البعض بدافع الحماسة والشهامة، والبعض الآخر بدافع الشهرة والصيت وحملوا أسلحتهم، وما أكثر ما كان يميل إلى هذا الجانب

---

(١) كان السيد تقى زاده يتحدث بمثل هذه الجمل .

بعض من رجال الحكومة، وما أكثر ما صعب الأمر على الشاه وعلى لياخوف وفكرا فى الكف عن الاستمرار فى الخطة. كيف تكون رغبتهم إرسال الرسائل وسحب المدافع وحينما رأوا تفرق الأهالى ازدادوا شجاعة؟ وكيف وأن من بين رؤساء الحرية لايوجد من يعرف طريقه إلى البلاط ولا يعدون تفرق الأهالى هذا لصالح البلاط؟! وأيًا ما كان الأمر، فقد كان هذا لغزًا محيرًا وغير مفهوم من قبل زعماء الحرية.

تقارير لياخوف

كما أسلفنا، كان الحديث آنذاك فى تتابع بين محمد على ميرزا ولياخوف والسفارة الروسية، وكان لياخوف وموظفو السفارة يرسلون تقارير تفيد بحقيقة الأوضاع إلى بطرسبورج وتفليس (التى كانت مقرًا لجيوش القوقاز) وكانوا يتلقون الردود. ونظرًا لوقوع أربعة تقارير من تقارير لياخوف تحت أيدينا، وفضلاً عن كونها سندًا تاريخيًا وسياسياً، فهى توضح حقيقة الترتيبات آنذاك، وقد أُرسل اثنان منهما أحدهما فى التاسع عشر من خرداد والآخر فى الثالث والعشرين من نفس الشهر، وسوف أوردهما فيما بعد.

وكما يلاحظ، كانت هذه التقارير سرية، وثمة قصة تتعلق بكيفية الحصول عليها، وهى أن پانوف البلغارى – أحد الأحرار الروس الذين انضموا إلى أحرار إيران وثائريها وسوف نورد اسمه فى موضعه – كان يعيش آنذاك فى طهران على أنه مندوب صحيفة "رچ" الروسية، وكان يزور لياخوف وعلم بوجود هذه التقارير وحصل على نسخ منها بطرق شتى وأرسلها على الفور إلى أحد الإنجليز وكان يعيش فى بطرسبورج، وقد ترجمها ذلك الإنجليزى إلى لغته. وأرسل نسخاً منها إلى لندن لدى البروفسور براون، ولما كان براون ومعه جماعة من الساسة الإنجليز يعارضون سلوك دولتهم، فقد أبدوا تأييدهم لحرية إيران، وكانوا ينتقدون سلوك الروس هذا فى إيران، وعليه اتخذوا هذه التقارير ذريعة لهم ووزعوها فى الحال، وبعد ذلك طبع براون النسختين الروسية والإنجليزية فى كتاب "شورش

ابران" – أى ثورة إيران – كما ترجمها إلى الفارسية الشيخ حسن – وهو من أهالى تبريز – فى كمبريدج وأرسلها إلى صحيفة "شمس" فى إسطنبول حتى تحصل عليها الصحف الأخرى بالفارسية. بعد ذلك نشر أحد الأحرار الروس وبدعى "م. پاولويچ س. ايرانسكى" نسختها الروسية فى إحدى النشريات الروسية السرية، ونتيجة لذلك اضطرت حكومة روسيا إلى تكذيبها والإدعاء بتزويرها، لكن كان واضحًا أن هذا لم يكن إلا من قبيل الاضطرار. وأيًا ما كان، فنحن لدينا الأربعة تقارير بعدة لغات، وسوف نورد النسخة الفارسية لها طبقًا لترجمة الشيخ حسن، ونذكر هنا اثنين من هذه التقارير.

التقرير السرى رقم ٥٩:

"صاحب الجلالة، فى السادس والعشرين من الشهر الروسى (الثامن من يونيه) عاد جلالة الشاه مع المترجم الأول للسفارة إلى باغشاه وأعرب عن موافقته على التكليف السابق الذى عرضته على صاحب المعالى شريطة توضيح التدبير الذى يمكن به الخلاص من معارضة الدول الأوربية بهدف تبديل الحكومة النيابية بالاستبداد القديم، وقال ضمن موافقته إن رغبته أن يقل سفك الدماء بقدر الإمكان لكننى تجرأت على رغبته هذه، وذكرت فى الرد أن سفك الدماء شىء ضرورى وحتمى فى هذه الحرب. ولما عدنا من باغشاه وفى نفس الليلة أعددنا أنا والمترجم المذكور خطة فى السفارة لما سيتم تنفيذه فى المستقبل تجاه وكر اللصوص الذى يطلق عليه فى هذه المدينة المجلس، وفى هذه الخطة يوجد شىء أساسى لتنفيذ الإجراءات الآتية، وأول قرار تم اتخاذه هو وجوب تغافل المجلس ومؤيديه تمامًا حتى اللحظات الأخيرة، ولا يجب إخبار السفارة بشىء حتى لايبدعوا المعارضة دفعة واحدة، وندمر – باستخدام القوة العسكرية – وكر اللصوصية والمرتشين ونقتل المدافعين عنه ممن يقاومون أو يعارضون، ونقوم بإدانة من بقى منهم على قيد الحياة فى المحكمة ونوقع عليهم أشد العقاب لأن جميع المسئولين والشاه يبدون الآن التساهل أو النقد فى كل أمر سواء كان جيدًا أو سيئًا، ولذلك لا ينهون جميع

الأمور وقد رأينا من الضرورى أنه بعد الموافقة على القرارات التى وضعناها أن يفوضنى الشاه فى تنفيذ هذا الأمر بحرية تامة، كما أنه ليس مضطرًا لجعلى أوافق على أمر أحد فى هذا الشأن حتى يتم الأمر بشكل تام، ورغم أن مكانتى وحدود قوتى معلومة تمامًا وفقًا للأوامر السابقة والتعليمات التى أصدرها صاحب الجلالة. إلا أننى أتجرأ ثانية وأطالب بأن تعينوا حدود تدخلى فى هذا الأمر الذى لدى فضلاً عن الخدمات السرية التى سأقوم بها فى حينه، وإذا ما حددنا خطة الأمر وتم تصديق الشاه والسفير عليها فسوف نرسل صورة منها على الفور إلى صاحب الجلالة، وأنا فى انتظار أوامر معاليكم".

(الكولونيل و. لياخوف، ٩ يونيه ١٩٠٨م)

التقرير السرى رقم ٦٠.

"حناب صاحب الجلالة، لقد أخبر السفير بطرسبورج بالترتيبات التى عينت من قبلى ومن قبل مترجم السفارة الأول بشكل تفصيلى، وقد تمت الموافقة عليها بعد إدخال تعديلات مختصرة للغاية دون أية اعتراضات، لكن الشاه – كأى إيرانى – كثير التردد ويخشى من سفك الدماء، وبناءً على بعض التصورات التى لا داعى لها كالصلح وغيره فقد اضطررنا إلى تنفيذ خطة أخرى حتى يتم قبول هذه الترتيبات من قبل روسيا مع ملاحظة أهمها للوقت الحالى، وإذا رفضتم فلن تحميكم حكومة روسيا مرة أخرى على الإطلاق، ولن تعتبر نفسها مسئولة عن كل ما يحدث لكم من بعد، ووسيلتنا القطعية مهمة للغاية ومؤثرة، وقد قبلها الشاه على الفور، ومنح الحرية كاملة لتنفيذ الأمر وإنجازه وفقًا للتالى:

أولاً: يتم تقديم الرشوة من الأموال التى سوف تقدم من قبل الشاه والسفارة إلى أعضاء المجلس المهمين والوزراء الذين يوافقون فى الجلسة الأخيرة على الخطة التى ستقدم إليهم.

ثانيًا: يتم التعامل مع المجلس حتى اللحظات الأخيرة التى يتم فيها الإعداد للخطة بشكل ودى، كذلك يتم الحث على تصالح الشاه مع المجلس والتدخل فى ذلك.

ثالثًا: السعى بالرشوة أو بالوسائل الأخرى لإخراج المسلحين من المجلس والمسجد والجمعيات القريبة .

رابعًا: القيام ببعض الإجراءات حتى تتم مؤازرة رؤساء الجمعية بالرشوة أو بغيرها حتى يمنعوا أعضاء جمعيتهم من التجمهر فى اليوم المحدد وإعاقة خروجهم.

خامسًا: يتم إرسال جند القوزاق قبل تنفيذ الخطة بيوم أو فى نفس اليوم إلى المسجد والمجلس بشكل تنكرى كى يقوموا بإطلاق الرصاص فى الهواء ويتذرعون بالحجة للهجوم على المجلس وتدميره وقتل من يبدون المقاومة فى المجلس والمسجد .

سادسًا: الدقة المتناهية والسعى حتى – لاقدر الله – لا يدخل شخص إلى سفارات الدول الأوربية وبخاصة انجلترا .

سابعًا: وقتما تتهيأ جميع الترتيبات تتم محاصرة المجلس وأعضائه فى اليوم المحدد بجند القوزاق والمدافع، ويتم تدمير المجلس وقتل من يبدون المقاومة.

ثامنًا: تسليم منازل الزعماء المطالبين بالحياة النيابية والنواب بعد تدمير المجلس إلى الجند وعامة الناس ممن قاموا بالإغارة.

تاسعًا: القبض على رؤساء المطالبين بالحياة النيابية والنواب ومؤيدى المجلس وشنقهم أو نفيهم وفقًا لمكانة كل منهم وهويته .

عاشرًا: من أجل طمأنة الجماهير والدول الأوربية يتم الإعلان عن أن المجلس سوف يُفتَح ثانية.

وقد أبدى الشاه موافقته على هذه الترتيبات وقال: "إنه من الأفضل مشاركة الجند والفرسان الإيرانيين فى هذا العمل". لكننى أرى أن هذا هو الوقت المناسب

للواء القوزاق كى يقوموا بمهمتهم الحقيقية لإحكام استقرارهم التام فى حياة إيران السياسية، وليكون تنفيذ أفكارهم المستقبلية من السهولة بمكان، لذلك رفضت بكل إصرار. أما فيما يختص بتدخلى الشخصى والفعلى فى يوم القصف بالمدافع فلم يرتض السفير ذلك وكان يخشى من اعتراض سائر الدول، لكننى أراعى أمر صاحب الجلالة. وفيما يختص بعدم تسليمى الأمر ليقع فى يد الضباط الإيرانيين (مع أنهم يكنون المحبة الخالصة لروسيا، ولكن أيًا ما كان فهم إيرانيون ومن الممكن أن يمنعهم حسهم الوطنى عن تنفيذ الأمر ويفسدون الأمور) فقد قررت أن أطمئن جناب صاحب الجلالة أن لواء القوزاق الذين هم تحت سيطرتى، الضباط منهم وغير الضباط، لديهم النية الصادقة لإنجاز الأمر. وفى حالة ما لم يظهر أى عائق خارجى فأنا مسئول عن نجاح هدا الأمر وفى انتظار أوامركم".

(١٣ يونيه، الكولونيل و. لياخوف)

استدعاء محمد على ميرزا لثمانية أشخاص

كان نواب المجلس الذين فرقوا أعضاء الجمعيات يأملون فى أن يقلل محمد على ميرزا من غضبه وحدته وأن يميل إلى اللين، لكنه زاد من وقاحته، فمن غد ذلك اليوم طالب بطرد ثمانية من زعماء الحرية، وكانت نيته هى طردهم من إيران أو تسليمهم إليه، ومن هؤلاء الثمانية ميرزا جهانگير خان مدير صحيفة "صور إسرافيل"، والسيد محمد رضا الشيرازى مدير صحيفة "مساوات"، وملك المتكلمين والسيد حمال الواعظ، وبهاء الواعظين وميرزا داود خان. لكننا لم نتعرف على الشخصين الآخرين .

كانت جريدة "صور إسرافيل" تكتب دومًا مقالات شديدة اللهجة وتكثر من الذم فى الشاه وفى المقربين له من رجال البلاط، ولم تكف عن توبيخ شاپشال وكانت تطلق عليه اسم "اليهودى". وأكثر هذه المذمات كانت صادرة عن ميرزا على أكبر خان دهخدا، ولكن لما كان أحد الشخصين مالكًا لجريدة ميرزا

جهانگيزخان فقد وقع الجرم كله على عاتقه، وسوف نرى أن هذا الشاب الغيور صار ضحية فى هذا السبيل .

وقد ذكرنا عن السيد محمد رضا أنه كان لجوجًا وكان يكتب فى جريدته كل أنواع الحديث الحاد، وقد ذكر قصة لويس السادس عشر ملك فرنسا وبث الخشية فى قلب محمد على ميرزا. وفضلاً عن هذا كله فعندما زاد من جرأته هذه فى أحد أعداد جريدته طالب محمد على ميرزا بالإنصاف من المحكمة، لكن السيد محمد رضا امتنع ولم يمض إلى المحكمة بل وخصص عددًا من أعداد جريدته (الثانى والعشرين) للسخرية من المحكمة والذم فيها، ثم قام بعمل أكثر وقاحة حيث كتب المساوئ باسم محمد على ميرزا وأمه أم الخاقان على قماش وأرسله إلى السوق حتى يدون الأهالى شهادتهم أسفلها ويختمون عليها، وإذا ما كان من بين الأحرار من هو جدير بالقتل يجب أن يكون هذا الرجل فى مقدمتهم.

ولما كان ملك المتكلمين من الناطقين باسم الشعب فكان لا يكف فى أحاديثه عن توبيخ محمد على ميرزا لكننا لا نملك دليلاً على وقاحته، وكان حقد الشاه عليه لشيء آخر: فقبل سنوات من الحكم النيابى مضى ملك المتكلمين إلى كردستان، وكان يعيش لفترة فى بلاط سالار الدولة، بعد ذلك، حينما أبدى عين الدولة فى عهد صدارته عداءه للشاه وكان يريد عزله عن ولاية العهد وأن يحل محله أحد أبناء مظفر الدين شاه، وجه سالار الدولة بملك المتكلمين إلى طهران حتى يسعى فى ذلك الشأن، وعليه فقد كان ملك المتكلمين مندوبًا عن سالار الدولة فى طهران، لكن حينما ظهرت الحركة المطالبة بالحكم النيابى أبدى تعاونه ونسى سالار الدولة، لكن محمد على ميرزا لم ينس حقده عليه .

وفيما يختص بالسيد جمال الدين فيجب أن نقول فى حقه نفس الكلام، لقد كان هو كذلك من الناطقين باسم الشعب لكنه لم يكن وقحًا، وقد طبعوا معظم أحاديثه فى جريدة خاصة تحت اسم "الجمال" ولم نعثر فيها على أقوال بذيئة، وهنا كذلك كان يوجد باعث آخر: فالسيد جمال رغم زيه المتدين واحترافه الوعظ لم

يكن إيمانه بالإسلام ولا بمؤسسته قوياً، وكان ذلك يتردد خفية بين هذا وذاك، لذا كانوا يذكرون اسمه ضمن الملاحدة، وهذا ما شجع محمد على ميرزا على قتله، خاصة وأنه كان يعد ضمن مؤسسى الحكم النيابى، وللحقيقة كان لسانه عاملاً مؤثرًا للغاية فى تقدم الحركة .

وكان بهاء الواعظين كذلك من الوعظاء والخطباء، وكما قيل كان يكشف المستور من فوق المنابر ويطلق على محمد على ميرزا " ابن أم الخاقان ".

أما ميرزا داود خان فقد كان أحد الرواد الأحرار لكننا لا نعلم القصة التى أثارت محمد على ميرزا لعدائه. ومن ناحية أخرى فسوف نرى أنهم لم يلحقوا به عقابًا أشد من الآخرين عند القبض عليه بعد قصف المجلس ومكوثه فى باغشاه مقيدًا بالسلاسل.

أما فيما يختص بالشخصين الآخرين من هؤلاء الثمانية فالأحاديث حولهما فى تباين، فقد ورد فى كتاب آبى أنهما: تقى زاده ومستشار الدولة، لكن لا يصدق ذلك على مستشار الدولة ولا نرى باعثًا عليه. كما ذكر البعض اسم الحاج ميرزا إبراهيم آقا، لكننا نعتبر هذا أيضًا عاريا من الصحة. وقد ذكر السيد براون أسماء ظهير السلطان والحاج ميرزا يحيى دولت آبادى والحاج ميرزا على محمد برادر، إلا أن هذا كذب دون شك. فبعد قصف المجلس خرج بعض الأحرار من إيران وتوجه بعضهم إلى لندن، وقد زاروا السيد براون ولما كان يستفسر منهم عن أحداث إيران اغتنم كل منهم الفرصة وجعل ينسج الأكاذيب لمصلحته الخاصة ويسردها عليه، ومن هؤلاء ظهير السلطان حيث اختلق قصة هى عن آخرها محض افتراء تدور حول حمله إلى باغشاه وأمر الشاه بقتله وقام بسردها على براون. وآخر يدعى الحاج ميرزا يحيى حيث جعل نفسه[1] وأخاه ضمن هؤلاء الثمانية. وقد ذاع هذا النوع من الأكاذيب فى اسطنبول كذلك، فثمة شخص يدعى الشيخ مرتضى – يعيش الآن فى طهران – قام بتزريق رقبته بوساطة حبل وجعل يتحدث فى اسطنبول بأنهم "حملونى إلى باغشاه وألقوا بحبل على عنقى كى

يشنقونى إلا أن فلانًا تصدى لهم وخلصنى منهم". وكان يعتبر ذلك أساسًا لرفعة مكانته.

وإذا ما اعتبرنا أن هذين الشخصين هما سلطان العلماء مدير صحيفة "روح القدس" والقاضى أرداقى بدلاً من هؤلاء السابقين لكان ذلك أقرب إلى الصواب، لأن استدعاء محمد على ميرزا كان لمن تصرفوا بوقاحة، وقد رأينا أية وقاحات غير لائقة قام بها السلطان العلماء. أما القاضى أرداقى فرغم أنه لم يكن رجلاً سليط اللسان، ولم يتفوه بشىء لكنه كان يلح كثيرًا فى المحكمة لإلحاق العقاب بصنيع حضرت وغيره، وسوف نرى أن هذين الشخصين الذين قبضوا عليهما قد قاموا بقتلهما فى باغشاه.

وأيًا ما كان، لم يخضع المجلس لرغبة محمد على ميرزا هذه ورأى بعض النواب أفضلية القبض على هؤلاء الأشخاص وتسليمهم لإنهاء النزاع، وكان رد السيد بهبهانى: إذا ما قبلنا رغبة البلاط هذه سنوافق من بعد على رغبات أخرى. هذا وأبدوا مقاومة، خاصة فى هذه الأيام حيث علا صوت تبريز وغيرها من المدن، وكنت البرقيات تصل على التوالى إلى المجلس وغيره، وهذا ما دعم موقف المحلس وزاد من هيبته.

ثورة تبريز:

كما ذكرنا، لم يكن لتبريز وغيرها من المدن علم بالحادث لعدة أيام، فلم تصل الأنباء إلى تبريز عن أى شىء قط حتى يوم الإثنين ١٨ خرداد (٨ جمادى الأولى) وفى هذا اليوم مضى رئيس الجمعية الوطنية الإقليمية إلى مكتب البرق وكان يريد التحدث برقيًا مع نواب جمعية أردبيل، وعُلم هناك أن سلوك الاتصال لا تعمل، أثناء ذلك وصل مخبر السلطنة وكان يريد هو أيضًا التحدث مع طهران بشأن حادث بيله سوار، وردوا عليه كذلك بأن البرق لا يعمل، وأرسلوا شخصًا إلى شركة البرق وسمعوا الرد من هناك بأن ثمة ثورة عظيمة قد وقعت فى طهران،

وعلم رئيس البرق أن الشاه خرج من طهران مع جماعة من الفرسان وجند القوزاق وأقام معسكرًا هناك وزادت معلوماته هذه من المخاوف.

ومن الغد، ومع حلول الفجر، اجتمعت الجمعية وبدأ الحديث حول الحادث، وقال الشيخ سليم: الآن يعتبر الشاه ضمن أفراد الشعب، وبما أنه نقض القانون فيبغى مجازاته. وقال آخر ولم تكن لديه نفس الشجاعة: لا مجال اليوم لمثل هذا الحديث، فليبحثوا عن طريق للحصول على الأنباء من طهران. وقال ثالث: نرسل شخصًا إلى باكو ويحصل على معلومات واضحة من الرشت. وقال رابع: نوجه بشخص إلى قزوين... وظلوا فى هذا الحديث حتى دخل رئيس البرق فجأة، وأحضر برقية الشاه التى قد أرسلها إلى مخبر السلطنة (برقية "طريق النجاة" التى ذكرناها من قبل).

وعلم النواب بحقيقة الحال وبمجرد أن استأنفت خطوط البرق العمل انتهزوا الفرصة وأسرعوا إلى مكتب البرق حتى يستدعوا نواب آذربايجان إلى مكتب البرق فى طهران ويتباحثوا معهم. لكن كيف يأتى النواب فى طهران إلى مكتب البرق؟ ومن ناحية أخرى لما انتشر ما حدث فى المدينة قام الأحرار بثورة عارمة وحل على تبريز يوم الاختبار، فمنذ اليوم الأول كان أهالى تبريز يعتبرون أنفسهم رعاة النيابية المحافظين عليها، وينبغى عليهم الآن القيام بعمل. وفى ذلك اليوم الذى سار فيه نواب آذربايجان من هذه المدينة، وقع بينهم اتفاق حيث تعهدوا بأن يمضوا إلى طهران ويسعوا للمحافظة على المجلس والحياة النيابية، وتعهدوا بالتضحية فى سبيل الحفاظ عليها بالروح والمال حتى آخر قطرة فى دمائهم والآن رغم أنهم لم يعلموا بالأحوال كما ينبغى لكن لم يكن من الجدير بهم أن يتراجعوا ولا يجدر بهم نقض اتفاقهم. ورغم ما حدث فى المدينة من انقسام فكانت الخشية من نشوب حرب داخلية، لكن حجة نقض العهد هذه مع النواب لم تكن فى الإمكان.

واتسم تصرف تبريز بالشهامة كما تم الاتفاق عليه. ففى نفس اليوم أرسل العلماء المطالبون بالحرية برقية إلى الشاه كتبوا فيها:

"إن الصدمة التى لا قدر الله سوف تحدث من هذه المخالفات السبب فى الجزء الأعظم منها هو أسرة السلطنة".

ولم يدرك أهالى تبريز بواطن الأمور، ولم يعلموا أن للسفارة الروسية ضلعًا فى الأمر، ولم يكن لديهم علم بالخطة التى ستنفذ على يد لياخوف، بل إنهم لم يكونوا يدركون عدم جدارة المجلس ونوابه، لذا أخذوا يفكرون فيما كانوا يفكرون فيه منذ عدة شهور، واعتبروا الحل فى إعلان النفور من حكم محمد على ميرزا. ومن غد يوم الأربعاء ٢٠ خرداد (١٠ جمادى الأولى) أرسلوا البرقية التالية إلى الجمعيات فى شيراز وخراسان وإصفهان وكرمان:

"لقد ظهر السلوك والتصرفات المعارضة الخائنة لهذا الشخص الخائن للدولة والشعب والوطن منذ وقت سابق ويجب أن نقوم سريعًا بالإجراءات المادية والمعنوية المؤثرة حتى يقوم المجلس النيابى ونواب الشعب المبجلون بعملهم تجاه خطر الخائنين الداهم، لقد حان وقت الحمية والفتوة كى نخلص كافة الشعب فى إيران من شر الخائنين وفسادهم ببركة قوة الاتحاد الوطنى لنحظى بالسعادة الأبدية".

(جمعية آذربايجان الإقليمية)

وأفضت هذه البرقية إلى نتيجة وهى أن الأصوات علت فى جميع المدن معبرة عن استيائها من حكم محمد على ميرزا، وكما سنرى بدأ تبادل البرقيات بين المدن وعلمت مدينة الرشت قبل تبريز وقامت بثورة وكانت تعلن عن أعمالها فى ذلك الوقت.

ومن غد يوم الخميس ازدادت الثورة فى المدينة، ولما اتخذ الرؤساء مكتب البرق مقرًا للاعتصام فيه كان المجاهدون يجيئون ويروحون فى جماعات إلى هناك، ولم يصل من طهران الرد الذى كانوا يأملونه، وخشى النواب من القدوم إلى مكتب البرق والتمسوا العذر وأرسلت الجمعية اليوم البرقية التالية إلى العلماء فى النجف:

"لقد نقض الشاه القسم على القرآن المجيد وعارض المجلس وهو فى صدد تدمير أساس الحكم النيابى المقدس، وشعب آذربايجان مستعد للتضحية بالروح والمال لمجابهته، ونحن فى انتظار أمر السادة المبارك".

(جمعية آذربايجان الإقليمية)

ومن قزوين قدم رئيس المجاهدين إلى مكتب البرق وأرسل الأخبار، وعن طريقه أرسلوا البرقية التالية إلى رؤساء آذربايجان فى طهران:

"من مكتب البرق فى قزوين عن طريق رئيس المجاهدين إلى عامة الفرسان وأصحاب المناصب فى آذربايجان الحضور فى معسكر طهران بموجب هذه البرقية تم إخطار جميع الإخوة المتدينين والوطنيين، وثبت لشعب آذربايجان الغيور أن الشاه مخالف ومعارض لأساس الحكم النيابى المقدس وللمجلس النيابى، ونحن نكتب فى صراحة أن تخبرونا بمجرد وصول هذه البرقية إلى المجلس النيابى وإلا فلتعلموا أنه لن يكون لكم بقاء بمعاملة خائن الشعب والوطن هذا، ولا ريب أنكم ستزيلون هذا العار الوطنى عنكم".

(جمعية آذربايجان الإقليمية)

ولم يُعلم بوصول هذه البرقية إلى الرؤساء، ولو كانت قد وصلت فلم تفض إلى نتيجة. وكما سبق وذكرنا، إنهم لم يبدوا اهتمامًا هذه المرة برؤساء آذربايجان وكان زمام الأمور يقع فى أيدى القوزاق بشكل أكثر.

وقامت تبريز بثورة عميقة حيث كانت تريد مساندة المجلس النيابى قدر إمكانها بالقوات التى أعدتها، لكن البعد عن طهران وعدم العلم بحقيقة الأمور، وقبل هذا كله وجودها بمفردها، كل ذلك جعل مساعيها تنتهى دون نتيجة. وسوف نعقب على ثورة تبريز فيما بعد، ويجب فى هذا الموضع أن ننتقل إلى المدن الأخرى ونستعرض عروضها التى لا أساس لها، ونذكر بعض أعمال المجلس النيابى.

ثورة المدن أو العروض الواهية:

كما ذكرنا، حثت البرقية التى أرسلتها الجمعية الإقليمية فيما يختص بالاستياء من ملك محمد على ميرزا جميع المدن على التعبير عن الاستياء، وأخذت البرقيات فى الوصول من همدان وإصفهان وشيراز والرشت وكرمانشاه واسترآباد والعراق وزنجان وغيرها من المدن إلى تبريز وطهران أو إلى المدن الأخرى. وهذه المدن التى لا تملك أى نوع قط من الاستعداد، ولم تسلك فى طريق المطالبة بالحرية والحكم النيابى إلا الصخب والضجيج، ولم يتعلم أهلها إلا إرسال البرقيات إلى هذه الناحية وتلك (وكما سنرى لم تبد أية مدينة أدنى مقاومة فيما بعد باستثناء مدينة الرشت) استأنفت العمل ثانية وأرسلت برقيات لا طائل من ورائها وبشرت بوعود واهية.

والأكثر من هذا، أن مدينة إصفهان كانت تبدى أعمالاً سفيهة، فلم يظهر أهلها استياءهم من حكم محمد على ميرزا ولم يطالبوا بعزله، وتتقدم إصفهان ويقترح نائب السلطنة (ويقال ظل السلطان) أن يبشروا بإرسال قوة لمساندة المجلس النيابى على سبيل التملق، وتسوق إصفهان الأحاديث حول إرسال خمسة آلاف شخص. أثناء ذلك أبدى ظل السلطان تعاونه، وكان يرسل البرقيات، ونورد فى هذا الموضع نموذجًا من تلك البرقيات.

من شيراز إلى تبريز (**٢٢ خرداد**):

"جناب السادة أعضاء الجمعية الإقليمية المبجلة دام الله توفيقاتهم، لقد وصلت البرقية التى تفيد بنقض محمد على ميرزا لعهده وقسمه، ومن الغريب أن شعب إيران النجيب لا يزال يعترف بحكمه رغم هذه المعارضات المتتالية والمتزايدة التى تُلاحظ كل يوم، وأهالى فارس البالغ عددهم المليونين من الأتراك والعرب وعامة الرعايا يتفقون فى الرأى مع أهالى آذربايجان حيث لهم السبق فى مثل هذه الأمور ويصدرون القرارات بكل وسيلة ولا يضنون قط بأرواحهم وأموالهم (من

الصديق الإشارة ومنا المبادرة) إن المعسكر الذى يتألف من عشرين ألف جندى من العرب وسائر الولايات مستعد للتحرك صوب طهران ولن يضن عن بذلك الروح والمال فى سبيل الحفاظ على حقوق المجلس المقدس وأساس النيابية ".

من إصفهان إلى تبريز (٢٢ خرداد)

"جناب السادة أعضاء الجمعية الإقليمية دامت بركاتهم، ما أن تم الاستماع إلى الخبر الموحش لمعارضة محمد على ميرزا الخائن للمجلس النيابى المقدس شيد الله أركانه حتى قامت الجمعية الإقليمية وسائر الجمعيات الوطنية وعامة الشعب بإغلاق الإدارات الحكومية فى ثورة عامة وقبضوا على رؤسائها، وثمة مقولة واحدة تقال بأعلى صوت وهو أننا ننفق معكم، ولا يمكن من بعد أن نقبل هذا الشخص – الخائن الهوائى الذى يفتقد الجدارة للقيام بأى عمل – فى الحكم، ومن الآن فصاعدًا يكون تعيين الملك من قبل المجلس النيابى، وقد أخبرنا المناطق الأخرى عن طريق البرقيات المتتالية".

(جمعية إصفهان الإقليمية)

من شيراز إلى تبريز وغيرها من المدن (٢٤ خرداد)

"يتم إعلام كافة الولايات والمحافظات فى ممالك إيران المحروسة بعدم إمكانية نسب هذه الخيانة الظاهرة والسعى فى تدمير المملكة من قبل محمد على ميرزا إلا لمجنون، وقد حكم عقلاء المملكة عليه بذلك، وعليه يستدعى الحال خلع هذا المجنون الخائن وتقديم ملك جديد من قبل المجلس المقدس، وقد اجتمع أفراد الشعب المسلحون من كل طرف ليتحركوا إلى دار الخلافة وسوف يزداد تعدادهم فى القريب عن الخمسة آلاف فارس، وهم يتوافدون من كل صوب ساعة بعد ساعة".

(من قبل عامة الشعب، جمعية فارس الإقليمية)

من الرشت إلى كرمانشاه

" إن الجمعية الإقليمية التى هى أساس النيابية تقع تحت وطأة نفوذ الاستبداد بسبب الأعمال العدائية التى يقوم بها محمد على ميرزا لتدمير المجلس النيابى، وعامة الشعب على أهبة الاستعداد لتنفيذ النوايا المقدسة للمجلس النيابى، وعازم على التوجه صوب طهران بكل قواه، فلتطلعوا سائر الجمعيات".

(المجاهدون)

من إصفهان إلى كرمانشاهان.

"الجمعية الوطنية لكرمانشاه، لقد عينا نائب السلطنة، وقد وقعت أربع عشرة ولاية وتبقت كرمانشاه فقط، نرجو الرد فورًا".

(جمعية إصفهان الوطنية)

من شيراز إلى تبريز (٢٢ خرداد)

"تبدى فى ردنا عظيم الشكر حيث بلغ امتناننا غايته من هذه البرقية، لقد اختبرت الجميع فى طريق الوطنية، وكان من الضرورى اختبار الأبناء كى ينكشفوا جيدًا للأخوة الأعزاء، ونحن نتباهى ولا سبيل للقلق قط بل إن الرأس والابن اللذين لا يكونان فى طريق الأعزاء يصبحان حملاً ثقيلاً...".

(ظل السلطان)

من شيراز إلى ....

"لو يتم التساهل فى اتحاد الشعب وخلاص علاء الدولة وجلال الدولة لن يبقى ملك ولا عبد".

(ظل السلطان)

ويمكن القول إنه تم تبادل ما يربو على الخمسمائة برقية من هذا النوع، ومن أعجبها تلك البرقية التى أرسلها رحيم خان إلى المجلس النيابى، وأوردها فى هذا الموضع.

من أهر إلى طهران (٢٣ خرداد) :

"أعددت أنا خادم الوطن اليوم بواسطة نواب آذربايجان المبجلين الحاضرين فى المجلس النيابى شيد الله أركانه ألف فارس مسلح وسبعمائة جندى فى معسكر أهر لاستقرار الأمور فى قرجه داغ وكشگين وأردبيل، وحينما تم سماع بعض الأخبار المتعلقة بتحرك المستبدين المعارضين للنيابية وجدت من الضرورى أن أتجرأ بهذه الكلمات:

الرأس التى لا يطاح بها فى طريق الأعزاء

هى حمل ثقيل فوق الأكتاف

وأحمد الله أنه أكرم هذا الحقير اليوم، وبمجرد الإشارة من قبل شعبه سيجهز فى أقل من ثلاثة أيام ثلاثة آلاف محارب معظمهم مدججون بالبنادق والذخيرة وما من أمنية لديهم سوى اكتساب السمعة الطيبة وشرف الأمة، وأستطيع بفضل الله أن أتحمل نفقات ألفين من المشاة والبنادقة بالإضافة إلى من تم ذكرهم وأمد يد العون للشعب المظلوم وأقول (الأذن على الحكم والعين على الأمر) وأنا فى الانتظار وسوف أسعى حتى آخر نفس لى ولأسلافى فى تنفيذ الأوامر المقدسة لنواب دار الشورى الوطنى فقد وصلت بشرى النداء الغيبى (هيا يا رحيم) وقد جئت أنا الخادم من طهران إلى تبريز منذ أربعة أيام، والآن من الصديق إشارة ومنى المبادرة".

(رحيم چليبا نلو سردار نصرت)

عدم مبالاة المجلس إزاء هذه المطالب

هذه البرقيات التى لم يكن معظمها سوى هراء وخداعٍ كانوا يقدرونها فى طهران ويتباهون بهذه العروض التى لا طائل من ورائها، ومع هذا لم يقرأوا البرقيات فى المجلس ولم يسلموا ردًا إلى شخص، وذلك الاستياء الذى كانت تظهره تبريز وغيرها من المدن على حكم محمد على ميرزا لم يجد أدنى صدى فى المجلس، وهكذا كان النواب يقضون يومهم. وقبل أن يمضى محمد على ميرزا إلى باغشاه ويبدأ ذلك الصراع شكلوا لجنة باسم "إزالة الخلافات" حيث كان يأتى كل من مشير الدولة ومؤتمن الملك ونير الدولة وغيرهم إلى المجلس، ويجلس معهم من الجانب الآخر مستشار الدولة وممتاز الدولة وغيرهما ويتباحثون. وفى هذه الأثناء كان أمل المجلس بشكل أكثر على هذه المباحثات، وكانوا لا يبغون من وساطة مشير الدولة ومؤتمن الملك ومن أشبههم سوى منفعتهم الخاصة، وكان كلا الجانبين يخادع الآخر ويأملون فى نتيجة. لقد سلمت دولة كبيرة أزمة الأمور فيها فى يد هؤلاء، وكان هؤلاء يسلمون زمامهم فى يد هؤلاء المنافقين.

وإذا ما أردنا الصدق، كان نواب المجلس زعماء الحرية فى تلك الأثناء على عدة طوائف: طائفة فصلت قلبها عن المجلس وعن الحكم النيابى ولم يكتفوا فقط بعدم إنجاز الأمور بل كانوا يفسدونها، وبعد سقوط المجلس على يد الشاه لم يلحق بهم أذى، بل حصلوا على الرعاية والمكافأة. وطائفة أخرى بالرغم من أنها لم تتعاطف مع البلاط إلا أن أفرادها كانوا أشخاصًا لا لون لهم، ينظرون إلى الحكم النيابى والاستبداد بنظرة واحدة، واضطروا فى تلك الأثناء إلى التنحى. وطائفة ثالثة كانت تبغى الحكم النيابى لكن أفرادها كانوا يحبون أنفسهم بشكل أكثر، وكانوا يبتعدون فى تلك الأيام قدر الإمكان. وكان البعض كذلك أداة فى يد الأجانب ولم يتحركوا فى كل حادث إلا بأمر منهم، وكان الجزء الأعظم من النواب من هذا النوع الذى لا أمل لديه قط. وكانت هناك طائفة قليلة فقط تبغى الحكم النيابى من أعماقها، وهؤلاء أيضًا أضاعوا الزمام ولم يكونوا على علم بما يفعلونه خاصة

عندما اختلطوا بالطوائف الأخرى، ولم يكونوا منفصلين أو أحرارًا فى أفكارهم وجهودهم.

ونموذج على وضع النواب نجده فى سلوك الحاج ميرزا آقا فرشى الذى طلب فى نفس هذه الأيام الإذن من المجلس بحجة "إن أمورى الخاصة فى تبريز فى اضطراب"، ولما ذكر بعض النواب الحادث أبدوا عدم رضاهم فرد عليهم بقوله: " لن أمضى طالما هذه الثورات قائمة"، ولكن ما أن منح له الإذن حتى اتجه على الفور إلى آذربايجان، وحينما كان يقع القصف كان هو فى الطريق، ولما بلغ تبريز لم يبق فيها واتجه على الفور إلى مدينة جلفا حتى يسرع من هناك بالاتجاه إلى أوربا، ونظرًا لكونه أحد نواب المجلس فقد مضى فى رفقته حسين خان باغبان وبعض البنادقة حتى جلفا.

وإذا أمعنا النظر نجد أن المجلس لم يكن يعتقد حتى الآن فى استخدام محمد على ميرزا للمدافع والبنادق، ولما كان (المجلس) يحقق أعماله دومًا بإرسال أحد المندوبين وكتابة لائحة ففى هذه المرة لم يفكر سوى فى هذا. وسعى فى تلك الفترة لكتابة لائحة (يقال إنها بقلم مستشار الدولة) كى يرسلها إلى البلاط معربًا فيها عن الاستياء من نقض الشاه للقوانين وانتقاد سلوكه، ولما كانت برقيات تبريز وغيرها من المدن باعثًا لحماسته فكان يستخدم لهجة حادة قدر الإمكان فى اللائحة.

وعلى أية حال، فمنذ يوم السبت الثالث والعشرين من شهر خرداد (١٣ جمادى الأولى) بدأت أيام الحداد وأغلقوا أسواق طهران لمدة ثلاثة أيام، لكن الهدوء عم وكان أفراد القوزاق يسيرون فى المدينة ويصادرون الأسلحة من الأهالى. وفى هذه الأيام أخرجوا مدافع القوزاق وأرسلوها إلى باغشاه وقدموا البنادق والذخيرة والملابس إلى الجند والفرسان من الاحتياطى. وفى يوم الإثنين قبضوا على ميرزا سليمان خان رئيس جمعية الأخوة فى قزوين وكان مساعدًا لوزير الحربية، وأرسلوه إلى باغشاه وقيدوه بالسلاسل وتحفظوا عليه هناك، وكان أول شخص يتم القبض عليه من الأحرار.

وفى اليوم نفسه أعلنوا إنذارًا فى السوق:

"كل من يمتنع عن فتح حانوته فى الغد ولا يقوم بعمله يستولى الجند والفرسان على أمواله ولا يكون له حق الشكوى".

وأدحل هذا الإنذار الرعب فى نفوس البزازين وغيرهم من تجار السوق ورعبوا فى فتح الأسواق من الغد، لكن المغفور له بهبهانى وقف بجانبهم ولذلك طبعت جمعية النجار بالاتفاق مع الجمعيات الأخرى إعلانًا ووزعوه فى السوق، يتصمن: "نظرًا لأننا أقسمنا على الحفاظ على الدستور، وهم ينقضونه فى هذه الأيام فينبغى علينا أن نقاوم وأن نغلق الأسواق، وألا نخشى من الإنذار الذى قدمتموه ".

وأثر هذا الإعلان فى تجار السوق وظلت أسواقهم مغلقة.

لائحة المجلس

فى نفس هذه الأبام انتهت اللائحة التى كان يعدها المجلس، وقد اختاروا ستة من العلماء النواب حتى يحملوها إلى الشاه ويتلقوا الرد، وتوجه هؤلاء الستة فى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من خرداد (١٦ جمادى الأولى) إلى البلاط ومعهم اللائحة، ونورد فى هذا المقام نسخة منها:

"من المجلس النيابى الوطنى بتاريخ الخامس عشر من حمادى الأولى ١٣٢٦ ق إلى حضرة صاحب الجلالة الملك المقدس خلد الله ملكه وسلطانه، فى الوقت الذى لم يبق فيه من إيران – التى لها من العمر عدة آلاف من الأعوام – سوى اسم بلا مسمى، وسقطت قواها الحيوية تحت سيطرة الأجانب والجهل والفوضى الداحلية إلى أدنى المراتب، وانتهى أمنها واستقلالها... وتم نشر المشيئة الإلهية ولم يأمروا باضمحلالها، وقد أيقظ نداء إسلامك الغيبى وقوميتك الإيرانية الأهالى من سبات الغفلة الطويل وأمر بالهداية حيث اختار هداية العقل والتجربة فى مراحل التاريخ، لهذا حمل الخاص والعام فى المملكة مع وجود الاختلاف إلى الخطر والمهالك وأبعد نفسه عن فضيحة عدم الإحساس وتنبهوا لهذين المبدأين، وهما:

استقلال الشعب واستحكام القومية، حيث أن قوة المملكة ناشئة من الشعب والسلطنة وديعة إلهية فوضت إلى الملك من قبل الشعب بالموهبة الإلهية. وما من جرم فى مطالبتهم بتغيير مسلك السلطنة، وصاحب الجلالة أنار الله برهانه بتوقيعه على الأمر بالحكم النيابى ومنحه سعادة الحرية قد منَّ منة كبيرة على الشعب وزينوا تاريخ إيران باسمه، ولكن استكمالاً لهذه العطية وإتمامًا لهذه الموهبة وحتى يقدس الزمان اسم صاحب الجلالة ويكرمه فقد وافق على التصديق على الحكم النيابى فى أواخر ولاية عهده وبداية جلوسك الميمون. وفى السابع والعشرين من شهر ذى الحجة أمر باستكمال النواقص فى الدستور، وفى الوقت الذى ينتظر فيه العالم من هذا التفاعل الحقيقى الذى تم بين الشاه والرعية، وسبب هذه السعادة التى تمت بتوفيق الله أن يرووا آثار الرقى والمدنية بسرعة وسهولة بما يليق بالنجابة الوطنية والفطنة الإيرانية وينشر الأمن والأمان، إلا أن الفتن فى الولايات تزداد يومًا بعد يوم، وانتشر عدم الأمان فى الطرقات والشوارع ونشبت الثورات على الحدود بل وفى العاصمة نفسها التى تقع مباشرة تحت نظر صاحب الجلالة الملك والحكومة والمجلس النيابى، فكثيرًا ما وقعت أحداث غير لائقة، إذا ما وقفنا عليها وعلى أسبابها وجدناها شيئًا يدعو إلى الخجل، والتاريخ الذى لا يزال يدور فى محور حقائق الأمور فمن سوء الطالع لن يقوم بثبت ذلك الخجل لتعداد تلك القبائح وتذكار تلك الفضائح، وأية حاجة لاجتماعات حضرة الشاه عبد العظيم وحادث ميدان دار المدفعية وغير ذلك مما لا يزال يتردد على الألسنة وفى الأفواه مثل عام الوباء والطاعون فى تاريخ سوء الطالع لهذه المملكة ولايزال حتى الآن فى الذاكرة. فمن آثار تلك الأحداث المخزية لم تهدأ قلوب الرعية ولم تلتئم جراح قلوب الشعب بشكل تام حيث لا يمنح المفسدون الأمان كى يوقعوا الخلل فى العلاقة بين الشاه والشعب، وما يدل على ذلك أحداث الأيام السابقة وما تم فى شهر ذى القعدة حيث تم خلال يومين الإخلال بنتاج مشقة عامين، ومن ذلك نقضهم للبنود: ٩، ١٠، ١٢، ١٤، ٢٣ التى هى روح الدستور، واقتلعوا ثانية غصن الأمل الذى ارتوى بآلاف التدابير ودماء قلوب الرعايا من جذوره، وأحلوا محله اليأس والحيرة والشدة، خاصة فى

الوقت الذى تتعرض فيه حدود المملكة إلى أخطار جسيمة وأوقعوا النفاق كى يشغلوا خاطر الملك المقدس مثل مساعى نواب الأمة ووزراء الدولة وقوى المملكة المادية والمعنوية عن خدمة الرعية، وقاموا بتحقيق أغراضهم السيئة. ومن البديهى أن استمرار هذه الحال يستلزم اضمحلال دولة إيران العريقة القويمة، ومسلمو إيران الذين يرتشفون ماء الحياة من "حب الوطن من الإيمان" لن يتحملوا رؤية إسلامهم وبلدهم لعبة فى يد حفنة من المفسدين من رجال البلاط، وبناءً على أمر الملك الذى تم نشره يوم الجمعة على فرق متعددة من الرعايا بشكل يدعو فيه إلى التصالح والسلم وجبر الكسور الواقعة وإعادة الحقوق المفقودة فقد طالب المتظلمون مجلس الشورى الوطنى كى يسعى بشتى الطرق لتنفيذ القانون، لكن هذا الإجراء وما أشبه من قبيل التظاهر، ولما كانت دماء القلوب فى فوران، وجميع إيران فى ثورة حيث ملأ نقض القوانين إيران من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب بالعويل والنواح، وإذا ما اجتمع هذا العويل وذلك النواح فى مكان واحد، فما أكثر ما يظهر منه – لا قدر الله – من المعارضين.

وباختصار، إن مهمة نواب الشعب شديدة للغاية، وانتظار شعب طهران وضغط الولايات لإعادة احترام القوانين وإصلاح الأمور فى تزايد وسوف تضيع الفرصة والمجال، وما هو ثابت بشكل قطعى لعقلاء المملكة أن السبب الأساسى لهذه المفاسد وتكرار الأحداث غير اللائقة التى تكسر القلوب وتطيح بحرمة القانون ونواميس القسم الإسلامى هو أمران:

الأول: إن شبهات المغرضين تمنع حتى الآن أن يرسخ هذا الاعتقاد فى قلب الملك وهو أن جميع الأمور ينبغى أن تسير وتنفذ وفقًا للقانون فى جميع الأوقات حتى تخرج بنود المتمم للدستور من حيز اللفظ إلى حيز المعنى (ينص البند ٤٤ على تبرئة الشاه من المسئولية ويكون وزراء الحكومة مسئولين أمام المجلس عن كافة الشئون) (وينص البند ٤٥ على أن جميع القوانين والأوامر التى يصدرها الشاه الخاصة بأمور المملكة تنفذ عندما يتم توقيعها من قبل الوزير المسئول، والوزير مسئول عن صحة هذه الأوامر) (وينص البند ٥٧ على أن السلطة

والهيمنة الملكية تكون فقط فى القوانين التى صرحت بها النيابية الحالية) (وينص البند ٦٤ على أن الوزراء لا يستطيعون أن يسقطوا عن أنفسهم المسئولية عن الأحكام الشفهية والتحريرية للملك) وفى حالة ما إذا تم البت فى كافة الأمور بشكل جزئى أو تفصيلى من قبل الوزارات تنتفى المسئولية عن شخص الملك ويكون التحقيق فيها فى عهدة الوزراء، ويبقى مقام السلطنة المقدس المنيع محفوظًا تمامًا وفى حالة عدم علم الوزير عن أمر ما بشكل جزئى أو تفصيلى فإن وقوع المسئولية على ذلك الوزير أمر بديهى حيث أن ذلك صادر عن طريق العقل والعدل. وفى الأساس الذى قد نظم وفقًا لتجارب آلاف الأعوام من قبل العقلاء والحكماء فى العالم، فلاشك أن تصور مثل هذا الأمر يكون من الأمور العجيبة، ففيها يكون زيد مسئولاً عن فعل عمرو.

الأمر الآخر: ما هو بعين أن أعراض المفسدين من أعداء الملك والحكومة وحائنى الملكية تمنع نية الملك الطاهرة وفطرته الصافية – وهى مزايا الملوك العظام الشأن – وتعوق حقوق الرعايا، وفى كل ساعة يحثون الملك على ما يبعد عن خير العامة وصلاحهم بفراسخ عديدة، وفى كل دقيقة يصرفون قلب الملك عن معانى النيابة والدستور بإلقاء الشبهات المغرضة، وبمقتضى الأنانية والاستبداد الذاتى لديهم، أو فى سبيل خدمة مصالحهم يقدمون قوانين المملكة لدى الحضور المبارك بما يتنافى والشئون الملكية، ويتحينون الفرص قدر الإمكان لحث الخاطر المقدس على إبقاء الألفاظ وهدم المعانى الخاصة ببنود الدستور، لهذا، فما دامت الكسور التى حدثت فى الدستور لم تُجبر، ولم يتم إعادة احترام القانون، ولن يتم البت مستقبلاً فى كافة الأمور وفقًا للقانون، فلن ينال نواب الشعب الطمأنينة التامة حتى يستطيعوا الحفاظ على كافة حقوق الشعب، فإن تم ذلك فلن يكون هناك نقض للقانون، وسوف يضطر نواب الشعب بمقتضى المهمة الموكلة إليهم دينيًا ووجدانيًا بشهادة الله وعن طريق القرآن المجيد إلى الإعلان عن عدم إمكانية تحملهم مسئولية الشعب".

(موضع خاتم ممتاز الدولة)

آخر اجتماعات المجلس:

هذه اللائحة التى حملوها كان يقال فى الخارج عنها بين الأهالى: "لم يكترث الشاه بالمبعوثين ولم يقرأ اللائحة التى أخذها، بل إنه دخل واستدعى الوزراء وقال غاضبًا: لقد فتح آبائى هذه البلاد بالسيف، وأنا ابن هؤلاء، وسوف أفتح البلاد بالسيف ثانية، ولما كانت الجمعيات تعزلنى عن الملك، فأنا أيضًا لا أعترف بنفسى ملكًا حتى أحصل ثانية على العرش".

ولكن كان عكس ذلك الحديث يدور فى المجلس، فقد انعقدت جلسة فى نفس اليوم ليلاً، وأخبر ممتاز الدولة أنهم عندما قدموا اللائحة إلى الشاه، قال: " إننى مستعد لتقديم كافة المساعدات الآن إلى المجلس كما كان فى السابق وكما سيكون فى المستقبل، فأنا نفسى أعشق هذا الأساس، وسوف يصدر الرد على اللائحة ويتم إرساله ". ولما استفسر أحد النواب: لِمَ لمْ تُقرأ اللائحة ؟! أجاب ممتاز الدولة: لقد قرأها الشاه من أولها إلى آخرها.

ويتضح من ذلك نفاق ممتاز الدولة كعادة الجميع فى المجلس وأنه كان يتستر على الأمور. ففى الوقت الذى ظهر فيه الصراع ؛ أى مجال لمثل هذا الرد من قبل محمد على ميرزا؟! وعندما علمت أنه قال مثل هذا الرد، فهل كان يتقبله فى دخيلته؟ وإذا كان الشاه يريد مساعدة المجلس المقدس ومعاونته، فلمَ كان نقل المدافع وإعداد القوات بعد ذلك ؟!

وفى يوم الأربعاء حملوا المدافع ثانية من ميدان دار المدفعية إلى باغشاه، وفى يوم الخميس الثامن والعشرين من خرداد (١٨ جمادى الأولى) حيث انعقد المجلس ثانية وصلت رسالة من قبل جمعيات طهران تفيد بأنهم يحصلون على البرقيات التى وردت إلى مكتب البرق لكنهم لم يرسلوها، أو أنهم سيرسلونها بعد عدة أيام، وتحدث النواب بشأن هذا، ومن العجيب أنهم قالوا: " يجب أن يتم التحقيق فى هذا مع الوزير المسئول".

واقترح السيد حسن – أحد النواب – أن تُتلى البرقيات التى وصلت من المدن، والتى تبدى الاستياء من ملك محمد على ميرزا، لكن ممتاز الدولة رفض وقال إن البرقيات التى وصلت من الولايات والمحافظات لم تكن واحدة أو اثنتين، بل ثلاثمائة أو أربعمائة برقية، ولن يُسمح الآن بتلاوتها فى المجلس.

وفى نفس الجلسة تليت برقية واحدة من تبريز، ونوردها فى هذا المقام: "من تبريز فى الثامن عشر من جمادى الأولى – رقم ٢٦٦- إن حال المدينة يتضح من تقريرنا الآن نحن العاجزون أن شباب الشعب مستعد للتضحية بروحه من أجل حماية الهدف المقدس وحراسة دار الشورى، وتم تحديد إعانة عن طريق لجنة، ويتسابق الأهالى فى تقديم هذه الإعانة عن طيب خاطر، ويعلم الله ويشهد أن نساء آذربايجان الغيورات سلبن اليوم شرف الوطنية من جميع العاملين حيث يقمن تباعًا بتقديم أقراطهن وحليهن إلى صندوق الإعانة رغم شدة الاحتياج، وكما أن جميع الأهالى مستعدون بالتضحية بالمال والروح من أجل حماية الهدف المقدس، ولاريب أن هؤلاء السادة لا يمنعوننا من معرفة أحداث طهران".

(جمعية تبريز المتحدة)

وفى يوم السبت ٣٠ خرداد (٢٠ جمادى الأولى) حيث انعقد المجلس ثانية، وكانت هذه هى آخر جلسة له، ولما كان من يدعى الحاج سيد محمد – أحد رجال الدين – قد عاد من النجف وقدم اليوم لزيارة المجلس، قام أعضاء المجلس باستقباله ومدحه والثناء عليه، وانتهت الجلسة على هذا النحو.

وهكذا اعتبر المجلس نفسه غريبًا عن الحدث، وعلى هذا النحو أبدى عدم اتخاذه موقفًا ما، وما أن قال الشاه: "لدى النية الكاملة لمساعدة المجلس المقدس والتعاون معه". أو بمجرد أن قال: "سوف يصدر الرد على اللائحة ويتم إرساله". حتى قدم الحجة للمجلس للتغاضى عما يتم من إعداد العدة والقوات فى باغشاه، والتغاضى كذلك عن الشدائد التى كانت تحدث فى المدينة ولم يقم بشيء. كم كان هذا المجلس جديرًا بما وكل به!!

الاستعدادات الساذجة التى كانت تتم فى الخارج:

لكن رغم عدم الاكتراث هذا من قبل المجلس فى هذه الأيام الأخيرة، كان يتم فى الخارج نوع آخر من الاستعدادات. والاستعدادات الساذجة التى سوف نراها لم تثمر عن نتيجة. وكيفية ذلك أن نية محمد على ميرزا فيما يتعلق بالإطاحة بالمجلس قد انكشفت، وأصبح هذا يقينًا لدى كل شخص، ولم يبق المجال ثانية للضعف وعدم الاكتراث. لذا انتفضت جماعة من الشغوفين بالنيابية أو من النواب ورؤساء الحرية، وأيضًا ممن تحملوا الأذى والضرر من جراء هذا، وجعلوا يفكرون فى الحل، وعلموا منذ اليوم الذى حملوا فيه اللائحة إلى الشاه ورأوا ذلك المسلك أن ما من حل سوى المقاومة، وهذا ما فكروا فيه.

حقيقة أن الأحرار كانوا كتلة قوية فى طهران آنذاك رغم عدم الاستقرار فى أمورهم ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم قوة، وكان يوجد بينهم محاربون ومهرة ومحنكون خاصة من الآذربايجانيين الذين كانوا رجالاً ذوى شجاعة فائقة. هؤلاء لم يكونوا ممن ضعفوا أمام لواء القوزاق وكتيبة سيلاخور. وواقع الحال إنهم لم يكونوا رؤساء متملقين.

وكما رأينا، إنه فى يوم الجمعة ٢٢ خرداد (١٢ جمادى الأولى) تملكهم الرعب من رسالة الشاه وقاموا بتفريق الجمعيات من مدرسة سپهسالار، ولم يكن هذا العمل سوى إظهارٍ لضعفهم وجعل الناس فى حزن وألم، وتفلسف تقى زاده وقال: "إن الشعب يظهر براعته أمام العالم". وعلى هذا النحو قضوا أسبوعًا من الأيام النادرة بإبداء ضعفهم وينبغى أن نطلق عليه "أسبوع الضعف" – فى مقابل أسبوع الغليان والثورة لتبريز الذى سنورده من بعد – ثم تتبعوا جهلهم، وسعوا ثانية، ومن يوم الجمعة ٢٩ خرداد (١٩ جمادى الأولى) دعوا الجمعيات ثانية للتجمهر فى المدرسة، فتوجهت الجمعيات إليها وعاد الاحتشاد هناك مرة أخرى .

لكن ثمة عمل غير مفهوم بدر هناك من قبل الرؤساء وهو أنهم أوصوا الأهالى بألا يحضر أى منهم السلاح، وكأنهم قد استدعوا الأهالى إلى حفل عُرس.

والأسوأ من هذا أن الأحاديث لم تتبادل فيما بينهم آنذاك، فضلاً عن ذلك أبدى بعض النواب وضاعتهم، وكانوا يقولون:

"يحرج هؤلاء الثمانية ويخمدون غضب الشاه".

ولم يكن للآخرين الذين كانوا يفكرون فى المقاومة اتفاق فى الكلمة، ولم يرتض السيدان بهبهانى وطباطبائى الحرب، بينما طالب بها كل من الحاج ميرزا إبراهيم آقا وتقى زاده وغيرهما. وكان السيد تقى زاده من المتعصبين فى المطالبة بالحرب فعندما كان رئيسًا لجمعية آذربايجان، وكان يؤيد شجاعة أهالى آذربايجان كان يلح علانية على القتال. وبدا واضحًا أن ما من حل سوى القتال، وواقع الحال أنهم تأخروا، وعندئذ – كما سنرى – لم يكونوا مستعدين للأمر. فكان أملهم فى مساندة المدن لهم وأرسلوا البرقيات يطالبون بذلك دون أدنى صعوبة. من ناحية أخرى فقد شكلوا لجنتين فى طهران، إحداهما باسم "النظام" والأخرى باسم "القتال" تتألفان من قادة خراسان المعظمين وغيرهم ممن زاروا أوربا وكان أفراد كلتا اللجنتين يجتمعون فى الفناء الشمالى لبهارستان فوق أسطح المنازل ويقومون ببعض الأعمال ويزفون البشرى للأهالى.

يقول مستشار الدولة: "كان الشاه يقول إننى قدمت الأموال لهؤلاء الثمانية حتى يخرجوا من إيران وكان يسترضيهم بنفسه. " لكن تقى زاده لم يقر ذلك وأقول: إن هذا الجرم لم يكن من قبل تقى زاده، فإذا خرج هؤلاء الثمانية من إيران فلم يتطاول محمد على ميرزا ثانية؟ وكان جرم تقى زاده هو الرياء الذى جعل الناس فى حيرة من أمره، فمن ناحية كان يريد من قلبه أن يقوم بعمل ما يحقق له الشهرة. ومن ناحية أخرى كان يخشى على نفسه ويهرب قدر استطاعته من أى أذى أو ضرر.

وثمة شيء أعجب من هذا حدث فى هذه الأثناء وهو أن كثيرًا من الأحرار السذج لم يكونوا يصدقون أن الجند والقوزاق يتلقون الأوامر من لياخوف، أو أنهم سيقاتلون المجلس، وفى هذه الأثناء كانوا يريدون أن يستميلوهم، والشاهد على هذا الحديث تلك الجمل التى نشاهدها فى صحف ذلك اليوم.

وكانت جريدة "تمدن" تطلب عون سفراء الدول الصديقة، وكان محرر جريدة "الحبل المتين" يقول: "لا تدع للخوف مكاناً فى نفسك، كيف تخشى جنديًا ظل يكسر الحطب لعدة أعوام ويرتدى زى الحمال ولا يعرف السهام ؟! ... إن سبعين شخصًا من السيلاخور حملوا البنادق فى هذه الأيام وفروا هاربين، فلتهدأ، وكما يقول المثل: كادت أن تصطدم المغرفة بقاع القدر، إذ كادت تنفذ الأموال التى أعدت للقيام بهذه الأعمال الشنيعة فى القريب العاجل، وسوف يتفرق أصحاب البغال والأشرار والأوباش بعد نفاذ تلك الأموال".

لقد امتدحت صحيفة "صور إسرافيل" فى المقال الذى يقال إنه بقلم ميرزا جهانگير نفسه قوزاق إيران قائلة إنهم أبناء حلال، ومن المستبعد على مثل هؤلاء أن يطلقوا الرصاص على صدور سادات بنى فاطمة وعلمائهم التى تجب طاعتهم، ويعدون ستة طومانات شهريًا لهم من سوء الحظ فى الدنيا ومن الغضب الإلهى، وبعد ذلك يقولون إلى القوزاق: "إذا ما أبديتم القسوة فلتجعلوا صدورنا هدفاً لرصاصكم، فلدينا نحن أيضًا هذه التضحية وذلك الفداء، ولا نقول فى أى وقت قط لمَ أصبحنا مهزومين تحت وطأة المستبدين والملاحدة؟ لمَ يكون إخواننا من أهالى آذربايجان وجيلان وفارس وإصفهان فى الطريق وسوف يصلون قريبًا؟ نحن نريد أن نفترش بأبداننا الأرض تحت حوافر جيادهم، ونزين أرض طهران بدمائنا من أجل استقبال هؤلاء الضيوف الذين حلوا مؤخراً، ونتحدث مع هؤلاء الإخوة الأعزاء ونفتخر بأننا فى مقدمة صفوف شهداء طريق الحرية؟ وبأننا أول حماة للدين الإسلامى وبأننا من نضحى بمقدم هؤلاء الضيوف المبجلين ونضحى بوجودنا من قبيل الإخلاص".

عمل بطولى من قبل علماء النجف:

فى هذه الأيام بدر عمل شهم وفى محله من ثلاثة من علماء النجف، وكيفية ذلك أنه كان من بين مساعى المطالبين بالنيابية أن يبرق أحدهم إلى النجف لطلب

العون من آخوند الخرسانى والحاج طهرانى والحاج الشيخ المازندرانى. وكما رأينا، أبرقت الجمعية الإقليمية فى آذربايجان ببرقية وتبعتها فى ذلك جمعيات طهران والرشت وغيرها من المدن وأرسل السيدان أيضًا البرقية التالية مع المغفور له افجه اى:

"منذ عدة أيام وصاحب الجلالة يقيم معسكرًا خارج البوابة، ونفى بعض الأمراء بعد حبسهم يومين ثلاثة، والأهالى فى غاية الوحشة والخوف حيث زاد قتل الأنفس وقامت ولايات إيران بالإضراب العام، ومن الضرورى القيام بإجراءات عاجلة."

(الداعى عبد الله موسوى البهبهانى والراجـــــى جمال الدين الحسينى محمد بن صادق الطباطبائى)

وفى النجف قام ثلاثة علماء بحركة ولكن ما استطاعوا سوى إصدار الفتوى لمساندة المجلس، وأرسلو الرد التالى إلى ثلاثتهم:

"لقد أرسلتم البرقية الموحشة التى استوجبت القلق فلتقوموا بإجراءات يتوقف عليها الحفاظ على الإسلام والمسلمين وعلى كافة المسلمين الطاعة، ولتطلعونا على النتيجة فى العاجل".

(محمد حسين محمد كاظم عبد الله المازندرانى)

كما أرسلوا البرقية التالية:

"من طهران إلى السادة حجج الإسلام بهبهانى وطباطبائى وافجه اى دامت بركاتهم نبلغ السلام الوفير لأصحاب المناصب والأمراء والقوزاق والخدم العسكرى والقبائل ولمن على حدود إيران أيدهم الله تعالى، فعلى الدوام كان الحفاظ على الحدود والأنفس وأعراض المسلمين وأموالهم على عاتق هؤلاء الإخوة المحترمين ولا يزال، والجميع يعلم أنه ينبغى اجتناب مساندة معارضى أساس النيابية وإلا فإن التعرض للمسلمين وحماة هذا الأساس القويم هو بمثابة الحرب

ضد إمام العصر عجل الله فرجه، ولا ينبغى قط أن يقوموا بأى إجراء ضد النيابية".

ثم أرسلوا برقية أوضح وذكروا الملك ومساوئه، كما ردوا كذلك على برقية جمعية تبريز وغيرها من البرقيات بمثل هذه الفتاوى. ومع أن هذه البرقيات لم تنشر فى الصحف لكن الأحرار فى تبريز وطهران قاموا بتوزيعها بين الأهالى، هذا وقد تملك الرعب من قلب محمد على ميرزا وخشى من صدور فتاوى أسوأ من تلك، وفى الثامن والعشرين من خرداد (١٨ جمادى الأولى) أرسل برقية مطولة إلى علماء النجف، هذا ونورد ملخصًا لها فى هذا الموضع [١]:

"لقد قمنا بعدة إجراءات لصد الأشرار واستقرار الأمن الداخلى بناء على القرار الذى عُرض ولم يترك المفسدون الفرصة... وكانوا يلقون بعض الشبهات فى أذهان العامة بنقل عناوين من هنا وهناك... وأثناء ارتحال أبى الملك... فإن الدستور الذى كان من علامات نيابية الدولة لم يتم التوقيع عليه من قبل الملك المغفور له بل إنه لم يمر بسبب بعض العوائق... وبما أننى أعلم أن رقى الدولة وحضانة (؟) الشعب بما يسهم فى ظهور النيابية واستقرارها لذا تصديت بنفسى لهذا الأمر... ولم يبق الدستور بالصورة التى وقع عليها أبى الملك، وبعد ذلك ومنذ اللحظة التى جلست فيها على العرش صار شغلى الشاغل هو إتمام ذلك الأمر واستقرار أساس النيابية، ولم أقصر فى تهيئة أسباب تقدم هذا الأساس بكل ما لدى من قوة حتى استقرت نيابية الدولة التى فيها حرية الشعب واستحكم بناؤها. ولكن من المؤسف أن هذه الحرية التى هى من لوازم استقرار النيابية جعلها بعض المفسدين وسيلة لتحقيق أغراضهم الدنيئة التى تتنافى وأسس الشريعة الإسلامية المقدسة ورسخوها فى أذهان العامة بأشكال أخرى. والخلاصة، عندما نظروا فى المتمم للدستور كان المذهب الرسمى لشعب إيران هو المذهب الشيعى الاثنى

---

(١) تتضمن النسخة التى لدينا فى هذه البرقية أخطاء عديدة لذا لم نوردها كاملة .

عشرى المقدس... ولن يكون فى الإمكان حرية المذهب لهم ثانية فشكلوا جمعية البابيه وأوردوا الحديث حول حرية الطوائف... مثلما شاهدتم جزءًا من أعمالهم... ووفقا لمنصبى فمن الضرورى أن أعلم أنه لا يجوز التحمل والصمت أكثر من هذا... وبما أننى أعلم أنهم سوف يقومون بالمغالطة فى الأمور من أجل حفظ الحدود (؟) والمغالطة تجاه الخواطر المحترمة... لذا جدير بالذكر القول بأننى وقعت على نيابية الدولة بكامل رغبتى وسوف أجتهد فى استقرار هذا الأساس والحفاظ على المجلس النيابى وحمايته، وآمل بإذن الله تعالى وببركة الأدعية الخالصه للسادة المستطابين أن أوفق لرقى الدولة وسعادة الشعب وأطلب كل أنواع العون من الذوات المقدسة".

(١٨ جمادى الأولى ١٣٢٦ق، محمد على شاه القاجارى)

وهذه البرقية دليل على عدم الحياء. لقد كان يظهر نفسه على أنه مؤيد للنيابية وكان يطلق على المطالبين بها اسم " البابيه"، كان يظن أنه سوف يخدع العلماء بهذه الأكاذيب، لكن العلماء الثلاثة – الذين كانوا يدركون حقيقة الحال ويصرون فى شجاعة على تأييد المجلس والنيابية – أرسلوا الرد التالى:

"من طهران بوساطة السادة حجج الإسلام بهبهانى وطباطبائى وافجه أى إلى صاحب الجلالة الملك خلد الله ملكه، نعرض بعد الدعاء الخالص أنه من الواضح البين أن الإجراءات الشجاعة للداعين كانت لمجرد الحفاظ على الدين المبين وقوة الدولة وشوكتها ورقى الشعب ورفاهية الرعية وحماية أنفس المسلمين وأعراضهم، وقد كررنا هذا المعنى مرارًا ولم نحظ بجواب، والآن فإن مذكرة البرقية تستوجب الأسف والحيرة لأنه من المعلوم أن أنفاس الخائنين تبث سمها، ونحن نعرض إنه إذا كانت تصرفات الملك هى نفس القسم المأمول وتتطابق مع أقوال حضرة شاه الولاية عليه أفضل الصلاة والسلام فخير القول ما صدقه الفعل، ومثل هذا الزمان السوء لا يساند هذه الدولة وهذا الشعب ولم ينته هلاك الأنفس وأعراض المسلمين وأموالهم إلى هذا الحد، ولما كانت الهمم الكاملة فى هذا الوقت تهتم جديًا بإصلاح

المملكة وقد أهلكت هذه الفتن المدمرة المملكة وخاصة آذربايجان حيث هلكت آلاف الأنفس والأعراض، ولم تكن لتبقى حدود المملكة بلا صاحب، ولم تُفتح قدم الأجانب على المملكة ولم تأمروا فى طهران بمثلِ هذه اللجنة الموحشة بتشكيل معسكر، ولترجعوا قمع المفسدين والقضاء على البابية الضالة خذلهم الله تعالى إلى وزارة العدل، وبعد ثبوت الشرع وفق قوانين النيابية فسيكون من السهل اليسير الاتحاد بين الحكومة والشعب ولعل أمر اعتقال صاحب إعلانات الكفر التى تنتشر على لسان البابية لم يصل إلى الملك! وألف حسرة أن المفسدين الناكرين للجميل لوثوا الساحة الملكية المقدسة بهذه الإجراءات التى تثير الناس كلية وتكرر نقض العهود والأيمان المؤكدة وذلك لأغراضهم الدنيئة، وهذا العهد الميمون الجديد بأن يكون فى مقدمة دفتر السعادة لم تتم وطأته بسوء السمعة الأبدية، وعلى أية حال، فإن الحفاظ على الدين المبين واستقلال الدولة الشيعية الاثنى عشرية شيد الله تعالى أركانها يتوقف على عدم تخطى قوانين النيابية والالتزام بها من قبل جميع المسلمين من أهم الواجبات وخاصة من قبل شخص الشاه. وهذا الإجراء الأخير مع أنه يستوجب اليأس التام، لكنا نأمل بإذن الله تعالى أن تبادروا برفع وحشة العامة بحسن التدارك والإجراءات الكاملة للحفاظ على الدين والدولة وأعراض المسلمين وأموالهم إن شاء الله تعالى والأمر لمن له الأمر".

(الأحد ٢١ جمادى الأولى نجـــل خليـــل

محمد كاظم الخراساني عبد الله المازندراني)

وكما يُلاحظ، كانت هذه البرقية فى الحادى والعشرين من جمادى الأولى وأرسلت قبل القصف بيومين إلى النجف، وليس معلومًا إن كانت قد وصلت إلى السادة الثلاثة أم لا.

الرد على لائحة المجلس من قبل الشاه

فيما يتعلق باللائحة التى أرسلها المجلس إلى الشاه وكان ينبغى على الشاه

الرد عليها فيقال إن رده عليها قد وصل فى الأيام الأخيرة، ولا نجد فى الصحف التى كانت تنشر أحوال المجلس وأعماله حتى الثلاثين من خرداد (٢٠ جمادى الأولى) أى أثر لهذا الرد، وواضح إنه قد أرسله فيما بعد. يقول أحدهم [١] :

"إنهم قد كتبوا الرد لكنهم لم يجدوا الفرصة مواتية لإرساله".

وأيًا ما كان، لما كانت صورة ذلك الرد فى متناول أيدينا[٢]، فسوف نوردها فى هذا المقام:

"السلطان بن السلطان بن السلطان بن السلطان بن السلطان بن السلطان" محمد على شاه القاجارى، ١٣٢٦ ق.

"إلى المجلس النيابى الوطنى، لقد عرضت اللائحة التى تشتمل على مكنون خاطر النواب الوطنيين على الحضرة الملكية، ومع أن جميع شعب إيران ودائع قد أمرنى الله تعالى بحكمة بالغة على حفظهم وحراستهم وراحتهم وأمنهم جميعاً، ولم يكن هدفى قط إلا رفاهية الرعية وأمن الأهالى، والمقصود هو مسألة واحدة، وهى إظهار المحبة للجميع، واستكمال تربية العامة، لكننا قررنا لزوم إظهار بعض المطالب، ونوجه نظر هيئة المجلس النيابى أنه قد تجاوز حدوده المعنية فى عدة مواضع.

فأولاً، إن عزة كل قوم أو شعب وذله، وفناء كل دولة وسلطنة وبقاؤها يتم بمشيئة وحكمة خالق العالمين جلت عظمته، ومما يستدعى الاستياء أن تعدلوا عن ملك مكتوب أو قاعدة دون رعاية حشمة السلطنة، وليتذكروا مثل هذه العبارة (إن الأمن والاستقلال ينتهى إلى شعرة) وواقع الحال، علاوة على أنه فى إزاء المصاعب والضرب بالسيوف فإن الإرث المحقق والحق المسلم لأجداد السلطنة

---

(١) المقصود اعتصام الملك الذى كان يرأس مكتبة المجلس وتوفى منذ أعوام.

(٢) توجد هذه النسخة فى مكتبة المجلس، ونورد فى هذا الموضع النسخة التى صورها الحاج محمد آقا نخجوانى وأرسلها.

الإيرانية نفس نفيس حتى يتم – بمشيئة الخالق الأحد بمقتضى الآية الكريمة ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ – انتظام أمن هذا الشعب على يد ملكنا، ونحن ندرك أن استقلال السلطنة وثباتها، والمحافظة على شعبها وقومها سيكون على الدوام ولايزال من نفس القوة وبنفس الإرادة الأزلية. وبنفس هذه الملاحظة كان العطف الأبوى لمجرد إتمام العدل ونشره وتهيئة أسباب رفاهية الشعب ورقيه والخلاص من مذلة الجهل، ولنطمئن العامة بأن سوف يتم التدخل فى كافة الأمور، لذا ومن قبيل الجود والسخاء فقد أعلنت سلطنة ودولة إيران على جميع دول العالم إنها فى عداد الدول النيابية، ومن أجل تحديد أمور المملكة ونظام الجمهور الذى ينحصر فى ثلاث قوى، هى: القوة القانونية، والقوة التنفيذية والقوة القضائية، فقد قبلنا الدستور برغبتنا ووقعنا عليه، ويتضمن البند الثامن والعشرون هذه القوى الثلاث للوصول إلى نتيجة واحدة ألا وهى سريان نظام الملك والشعب، أى إنه وفق الدستور يتم تنفيذ الأمور وفق القوى الثلاث، ونحن ننتظر رقى المملكة ونجاة الشعب من ذلك الطريق، وفى هذه المدة يتم متابعة كل ما نص عليه الدستور وحتى خروج المسئولية من ذمتى بحكم الدستور، ولا أعترض على كل ما يتم من قبل اللجان المنبثقة من الشعب سواء أكانت صحيحة أم لا فى الأمور الكلية والجزئية، وقد قدمت غاية التعاون مع الشعب وأرضيت ضميرى، ونحن فى انتظار النتيجة .

وبناءً على متابعة الدستور، ومن منطلق الحلم والصبر الذى أقره الخالق وديعة فى وجودنا، فإنه كلما قامت القوى الثلاث بإصلاح الأمور، ورفع ثورات المملكة لم نر نتيجة إلا عكس ما نأمل، بل إنه فى كل مسألة تتم ويظهر فيها نقض للدستور ويُرى عدم الاكتراث من قبل هيئة النواب والشعب الجاهل، وعلى عكس جميع قوانين العالم، بتحريض الجهال وإغواء المفسدين تستخدم الجمعيات كل موضوع بسيط وسيلة للثورة العامة، ويتم شهر السلاح فى مدارس المدينة، وأحياناً

حول المجلس نفسه، ويرتكبون آلاف الأعمال التى لا أساس لها، وبذلك يعرضون نظام المملكة للدمار حيث تواجه إدارتها بمثل هذه المشاكل والصعوبات التى لا حد لها، ومن ذلك إن أحد التكاليف الواجبة على المجلس النيابى وهو فى مقدمة التكاليف والمجلس ملزم بها، سن القانون القضائى الذى هو عبارة عن المحكمة، فعن طريقها لا يسلك أى شخص مسلكاً وفق هواه الشخصى أو أغراضه النفسية غير أنه تقاعس عن القيام بتنفيذ هذا الواجب الأساسى، ولم تؤسس الإدارة القضائية حتى الآن، ولذلك ورغم وجود الحكم النيابى فإن أرواح العامة وأموالهم وشرفهم فى خطر، ويصل صياح الحسرة على العدل إلى الثريا، وعن طريق تدخل كل شخص فى الإجراءات لم يبق الأمن لأحد، ويصرح بعدم مسئولية السلطان وتقديسه فى صورة القانون وبمسئولية اللجنة التنفيذية التى تتألف من الدولة والمجلس النيابى والتى ليس لها من مهمة سوى سن القوانين اللازمة ومراقبة الأمور، فقد جعلوها طرفاً فى كل أمر يتعلق بشخص الملك وتدخلوا فى الأمور الشخصية ونقضوا عدة بنود من الدستور فى هذا الشأن، فبحكم الدستور فإن القوة التنفيذية وانتخاب الوزراء مفوض إلى الملك، فكل من نبغيه نجعله يتصدى للعمل ونقرر كذلك ما يقتضيه الوقت وصلاح الأمور وانتظامها مع رعاية العلاقات مع الدول الأجنبية، وقد خالفوا القانون وقاموا ببعض الإجراءات غير اللائقة والتى لا داعى لذكرها، بل أن حلم السلطنة ووقارها ينبعان من التصريح بها والكشف عنها.

وقد سلكوا بعض السلوك خلافاً لما ينص عليه البند الثامن والتاسع فى بعض الأمور، وقد صرح القانون بأن السلطان مقدس، وينص البند العاشر بأنه أثناء ارتكاب الجنح والجنايات، فعلى القوة التابعة لوزارة الداخلية اتخاذ الإجراءات اللازمة فوراً، وفى مقدمة ذلك حادث إلقاء القنبلة، فالاستجواب ومحاكمة الجناة بناءً على توضيحات صحيفة الدعوى تدل على مدى وقاحة ما ارتكبوه، ولا يوجد أى قانون أو أية قاعدة تتساهل فى مثل هذه الخيانة إلا من قبيل عظمة الذات الملكية ورأفتها تجاه الشعب الذى هو كأبنائها.

ويساوى البند الثامن بين أفراد الشعب أمام القانون، ويحصر البند الثانى عشر العقاب وفق قانون، وقد تم نقض هذين البندين فى عدة مواضع. ومع أن التدخل فى الإجراءات خارج عن وظيفة المجلس، فقد صدر من قبل هيئة النواب نقض للبند الخامس عشر من اللائحة، كذلك تم نقض البند السادس عشر الذى يتضمن نفس هذه الفقرة التى تنص على أن القانون قد صرح بأن الملك مقدس. ويتم نقض البند العشرين فى كل يوم وكل ساعة، ولم يتم منع ذلك بأية صورة من الصور، والشاهد على ذلك مسألة الصحف الصادرة وأحاديث المتحدثين، كذلك يتم عامة وعلناً نقض البند الحادى والعشرين فيما يختص بالأسلحة وذلك فى ساحة المجلس نفسه. وعلاوة على ذلك فإنهم يشيعون وينشرون عدم معاونة شخصنا مع الحياة النيابية، وهذا من منطلق عدم المبالاة، وهذا ما يدل على عدم اطلاع هيئة النواب على المسائل السياسية وتبث فى شخصنا اليأس من الاستعدادات والاطلاعات اللازمة لنواب شعبى لأنهم لم يهتموا حتى الآن إلى هذا الحد بعلاقات الدول وحقوق الأمم ولوازم الملك، وبفرض المحال – لاقدر الله – لو لم يساعد شخصنا المجلس والحياة النيابية، لكننا سوف نسعى للحفاظ على الحياة النيابية لإبقاء شرف السلطنة واستقلالها والحفاظ على مقام قولنا وقلمنا بين الأمم العظمى، ولم نقبل قط هتكاً لهذا الكلام الذى هو من منطلق المعرفة.

وتعتقد جماعة لا علم لها بأساس المسائل المهمة فى المملكة بتفرقة بنود الدستور حسب اختلاف المواقع وهؤلاء لا يُعهد إليهم بمسئولية نظام هذه المملكة ورفاهية هذا الشعب وأمنه الذى أمرنى به الله تعالى، ولن نتحمل الخضوع أكثر من هذا تحقيقًا لأغراض حفنة من الناس حتى يتم – بمشيئة القادر المتعال توجيهات أئمة الهدى وتأييد حضرة حجة الإسلام عجل الله فرجه – تنظيم السلطنة، ويتم تنفيذ الدستور بدون تفرقة كى يتمتع عامة الشعب بفوائده، ويعيشون فى أمن وأمان ورفاهية".

الأيام الأخيرة:

نظرًا لعدم طباعة الصحف في يومي الأحد ٣١ خرداد والإثنين ١ تير (٢١، ٢٢ جمادى الأولى) لم نحصل على معلومات واضحة. وعلى ما يبدو أن الغلبة كانت أكثر في هذه الأيام للشاه، وأن الأمر كان يزداد صعوبة لدرجة أن الصحف لم تتمكن من الصدور.

وكان المجلس في هذه الأيام ينعقد تحت مسمىٰ الوساطة، ودارت الأحاديث بينه وبين البلاط عن طريق مؤتمن الملك ومشير الدولة (حيث اختار هذان الأخان الوساطة لإرضاء الطرفين) وغيرهما، وكان واضحًا عدم ظهور نتيجة من وراء الملك.

من ناحية أخرى، كان الأحرار يحتشدون في مسجد السپهسالار وقصر بهارستان، وكانوا يحضرون البنادق والذخيرة معهم خفية، وانكشف المستور ثانية، وانتهى الأمر إلى العداء الشديد. وكان تقي زاده وغيره يأملون كثيرًا في مساعدة المدن، وكانت البرقيات تتبادل بين المدن وطهران، وكانت البرقيات الحماسية ترسل من طهران إلى كافة المدن، وتتوالى الردود عليها، ووعدت كل من تبريز والرشت وإصفهان وشيراز وقزوين وهمدان وكرمانشاه بإرسال المساعدات، وكانت هذه الوعود (باستثناء تبريز) التي لا أساس لها ذات قيمة في طهران.

وقد وعدت إصفهان بتقديم خمسة آلاف طومان لتغطية نفقات القتال فضلاً عن البنادقة. وكان السيد نجفي وغيره من رجال الدين يرسلون فتاوى الجهاد برقيًا من أجل المحافظة على الحياة النيابية. وفي نفس هذه الأيام كانت الوعود تصل من قبل علماء النجف بالمساعدة، لأنه كما ذكرنا، كان السادة الثلاثة وكذلك جمعيات تبريز والرشت وغيرها يرسلون البرقيات وينبئون بحقيقة الحال.

في هذه الأيام الأخيرة حيث كانت الغلبة للبلاط وكان الرعب يزداد، كانت المباحثات تتم مع قزوين وساوه برقيًا كي يرسلوا البنادقة التابعين لهم في أسرع وقت حيث أنهما أقرب، ولم يتم الأمر في أوانه وتأزمت الأمور الآن.

في نفس هذه الأيام بدر أمران أيضًا من قبل محمد على ميرزا، أولهما: عندما أرسل الحاج ميرزا حسن وغيره من رجال الدين فى تبريز برقية فى ذم الحياة النيابية والمجلس، واتهموا المطالبين بالحياة النيابية بالإلحاد، فقد أمر الشاه أن يطبعوا هذه الرسالة ويوزعوها فى المدينة، وكانت هذه هزيمة للأحرار لأنهم كانوا يعقدون الأمل كثيرًا على تبريز، ولما لم تكن هناك معلومات واضحة عن انقسام رجال الدين والأحرار، وجدوا هذا على عكس آمالهم، وسوف نذكر أن نواب آذربايجان أرسلوا إلى تبريز برقية يعتبون فيها من هذا الأمر.

والأمر الآخر: إنه فى يوم الإثنين الأول من شهر تير، والذى كان هو نفسه آخر يوم فى حياة النيابية والمجلس، أرسل الشاه البرقية التالية إلى المدن: "إن هذا المجلس يخالف الحياة النيابية، وكل من يتجاوز أوامرنا من بعد سوف يتعرض للعقاب".

ويتضح من هذه البرقية أية نوايا كانت لديه إزاء المجلس. وفى ليلة ذلك اليوم قدم مشير الدولة ومؤتمن الملك وأخبرا بأن الشاه يلح على الإطاحة بالمجلس، وسوف يقدم على تنفيذ ذلك فى الغد.

ويقال إنه فى نفس هذه الليلة انتهى أمر الحكومة وشكل مشير السلطنة حكومة أخرى تتألف من الوزراء الآتى ذكرهم:

مشير السلطنة رئيس الوزراء ووزير الداخلية، علاء السلطنة وزير الخارجية، الأمير بهادر جنگ وزير الحربية، قوام الدولة وزير المالية، محتشم السلطنة وزير العدل، مخبر الدولة وزير البريد والبرق، مؤتمن الملك وزير التجارة والمنافع العامة ومشير الدولة وزير العلوم والأوقاف.

وكما يلاحظ لم يكن صنيع الدولة ولا مستوفى الملك من بينهم، وليس معلومًا هل كان هذا وفق رغبتهما أم أن الشاه هو الذى لم يقبلهما. وكما يلاحظ أيضًا أن مؤتمن الملك ومشير الدولة اللذين سيعتبران من بعد رؤساء للمجلس وللحكومة النيابية كانا وزيرين فى هذه الحكومة.

وهكذا كانت تسير الأيام الأخيرة من الحياة النيابية، وقد بلغنا الآن إلى حادث قصف المجلس بالقنابل، ولكن علينا أن نعود إلى أحداث تبريز ثانية والتى تمت حتى ذاك العهد ثم نذكر من بعد حادث القصف .

أسبوع الثورة والضجيج فى تبريز

كما ذكرنا، إنه منذ يوم الثلاثاء ١٩ خرداد (٩ جمادى الأولى) حيث علم أهالى تبريز بأحداث طهران، واعتكف زعماء الحرية فى مكتب البرق، وقاموا بإرسال البرقيات إلى طهران وغيرها من المدن، مرت الأيام علىَ نفس المنوال حتى يوم الجمعة الثانى والعشرين من خرداد (١٢ جمادى الأولى)، حيث تبدلت الأحوال فى المدينة، ونشبت ثورة فى تبريز منذ يوم الجمعة هذا وحتى الجمعة التالية، لذا نطلق عليه "أسبوع الثورة والضجيج" مثلما قلنا فى طهران "أسبوع الضعف".

وقد استعد المجاهدون من يوم الجمعة هذا بالمعدات الحربية، وقدموا إلى مكتب البرق فى جماعات، ولما علموا بالأحداث من خلال البرقيات التى كانت تصل تباعًا اشتدت ثورتهم وصياحهم، قائلين:

"لم نقف فى منأى هكذا"؟، "هل بُذلت كل هذه المساعى خلال هذين العامين من أجل هذا اليوم؟"، "ما الذى سيصدر على أثر البرقية "؟، "لمَ لانبادر بمساندة مجلس الشورى"...

وقد بدر هذا التفكير عنهم فى البداية، ووافق المركز الغيبى والجمعية الإقليمية، واقترحوا فى نفس اليوم أن يفتحوا مكتبًا فى ثكنة الجند كى يُسجل فيه أسماء الراغبين فى السفر، كما فتحوا كذلك مكتبًا لجمع الإعانات التى يحتاجون إليها أثناء السفر. ومن اليوم صارت ثكنات الجند مقرًا للثورة حيث تحتشد المجاميع هناك كل يوم، وامتلأ الميدان الشاسع بالأهالى، ولم يكن فى الإمكان معرفة شخص

من صوته دون أن تراه، أية ثورة وحركة نشبت آنذاك سواء قبل الظهيرة أو بعدها، وحينما احتشد الأهالى قام الخطباء بإلقاء الأحاديث التى يلهبون بها حمية الأهالى وكان المجاهدون من ناحية يقومون بتدوين المنشورات، ومن ناحية أخرى، كان الثرى والفقير – كل قدر استطاعته – يقدم الأموال إلى صندوق الإعانة، ومن الأفضل الاستشهاد بحديث براون فى هذا الشأن، يقول:

"تم تحصيل ألف وثلاثمائة طومان فى يوم واحد من بدايته وحتى حلول الليل من قبل الأهالى المساكين، وفى غد ذلك اليوم، تم دفع عشرة آلاف طومان، وورد فى برقية الجمعية التى كتبناها من قبل إلى مجلس الشورى أن النساء شاركن كذلك فى هذه الثورة، وأحضرت بعضهن الحلى للتبرع بها إلى الصندوق حتى يتم بيعها واستخدام ثمنها فى طريق المجاهدين ".

وكان السيد حسن شريف زاده أحد الخطباء المعروفين فى هذه الأيام حيث كان يحرك القلوب بأحاديثه النارية فوق الثكنات ويوقظ مشاعر الحمية والغيرة. واختار الجيش – الذى رغب فى المضى إلى طهران – تقى خان رشيد الملك رئيسًا له. وكما ذكرنا، كان هذا الرجل من بين أحرار ذلك العهد إلا أنه كان يقوم بالتحايل والرياء. وكان ستارخان ومعه خمسون فارساً، وباقرخان ومعه خمسون فارساً، ومحمد قلى خان آقبلاغى ومعه عدة مجاميع من الفرسان ضمن ذلك الجيش، ولم يكن عددهم يقل عن الألف، ولكن لما كانوا فى عجلة من أمرهم، فمبجرد أن استعد ثلاثمائة فارس منهم حتى خرجوا من المدينة فى السابع والعشرين من خرداد (١٧جمادى الأولى) وأقاموا معسكرًا فى منطقة باسمنج التى تبعد عن المدينة بفر سخين حتى ينضم إليهم من يريد.

ولم يكن يصل من طهران سوى الأكاذيب، فقد قيل فى إحدى البرقيات :

"أعلن الشعب على الشاه أنه ما لم يوافق على حقوق الشعب خلال ثمانية وأربعين ساعة، وما لم يوضع البديل لما تم نقضه فى الدستور، سيقوم الشعب فى هذه الحالة بمهمته".

ووصلت برقية مشفرة غاية فى الطول من قبل تقى زاده، يقول فيها:

"أعلن مجلس الشعب الشاه لإتمام الحجة أن هذه الأعمال المنافية للشريعة والدستور توجب فضح مقام السلطنة، ومن الضرورى تعويض ما تم نقضه من الدستور حتى يطمئن الأهالى، وكان الشاه مصرًا على أفعاله وتصرفاته، لذا أرسلت الجمعية جميع نوابها إلى المجلس وتم من قبلهم ما كلفوا به، وبسبب عدم انعقاد(؟) ونقض الشاه للشرع والدستور، فجميع الأهالى يرون فى ذلك اضمحلالاً للإسلام، وطالبوا جديًا بخلعه، كذلك توالت البرقيات شديدة اللهجة المطالبة بخلع الشاه من الولايات والمحافظات، ودخل المحلس كذلك فى نقاش حاد مع الشاه، والجيش الوطنى على أهبة الاستعداد للتحرك فى كل ناحية، وأكثر المدن استعدادًا هى همدان، وقزوين، والرشت وشيراز، ومن البديهى أن يكون لأهالى آذربايجان السبق فى كافة الأمور. ومن الله التوفيق وعليه التكلان".

(فداء الشعب، تقى زاده)

كانت هذه البرقية لإثارة أهالى تبريز كى يرسلوا الجيوش فى أسرع وقت ممكن، ولم يتمكن السيد تقى زاده من الاستفادة من قوة الأحرار فى طهران، وسوف نرى أنه لم يخرج من داره يوم القتال خوفًا على حياته، وكان يرسل هذه البرقية المخادعة لإثارة أهالى تبريز، ولم يكن يفكر قط فى أية صعوبات كانت تواجه عملية إرسال الجند من تبريز، وكان أهالى تبريز أنفسهم راغبين فى ذلك، وتمكنوا من إرسال ثلاثة أو أربعة آلاف جندى إلى طهران، لكن هذا التصرف ساهم من ناحية فى إخلاء المدينة من الأحرار، وجعلها تقع فى أيدى المسيئين. ومن ناحية أخرى وقعت الجيوش التى كانت فى طريقها من تبريز إلى طهران تحت وطأة جند الشاهسون وغيرهم، ورأوا الأهوال فى الهضاب والممرات الجبلية قبل بلوغهم طهران، وبعد ذلك وبعد أن تم لهم الوصول كان المجلس قد قُضى عليه.

ثورة رجال الدين وبداية الفتنة:

عندما كان أهالى تبريز متحمسين هكذا للقيام بثورة، وكانوا يريدون إرسال الجيوش إلى طهران للنضال ضد أعداء الحرية، انكشف الستار فجأة، وعُلم أن محمد على ميرزا لم ينس تبريز فى مخططه وأعد جهازًا لذلك، وكان على أهالى تبريز مواجهة ذلك الجهاز فى مدينتهم، ولم تمس الحاجة للمضى إلى طهران.

وقد ذكرنا قدوم الحاج ميرزا حسن وإمام الجمعة إلى تبريز، وكان قدومهما هذا من أجل التضامن مع رجال الدين من أعداء النيابية أثناء الصراع. هذا وفى يوم الجمعة التاسع والعشرين من خرداد (١٩ جمادى الأولى) انعقد اجتماع كبير فى منزل المجتهد واشترك فيه جميع المجتهدين ورجال الدين المشاهير، كما قدم ميرهاشم – الذى ذكرنا أنه كان يحكم فى الدوتشى وسرخاب – وأعوانه، كذلك توجه إلى هناك إجلال الملك – رئيس البلدية – وبعض الأحرار المعروفين منهم وغير المعروفين، ولما حان دوره، كشف المجتهد الستار، وتحدث قائلاً:

"إن النيابية لا تتفق والإسلام، والآن، حيث قام الشاه لاقتلاع شأفتها، يجب علينا نحن كذلك أن نساعده وأن نبرق إليه".

وقبل رجال الدين – من أعداء الحكم النيابى – هذا الاقتراح بكل الرضا، وكُتبت برقية وقع عليها الجميع، وكأنهم قاموا بعمل عظيم وتباهوا بذلك، وفى الظهيرة عندما انتهت الجلسة وتفرق الحضور، وقع حادث مفاجئ حيث توجه أحد الأشخاص بمسدسه لقتل ميرهاشم وأطلق عليه رصاصة غير أنها لم تصبه لأنه كان يمتطى حماره، واندفع من حوله وقبضوا على ذلك الشخص وعلى أحد أعوانه ويدعى تقى مسكر، ووجهوا بهما إلى الدوتشى، وبهذه الكيفية تهيأ المجال فى تبريز للقتال وإراقة الدماء. وكان هذا الشخص الذى أطلق النار – كما يقولون – من أهالى زنجان، ومن المبعوثين من قبل لجنة القوقاز وقد قدم من هناك لقتل السيد هاشم، وكان يرتدى العمامة السوداء وينسب نفسه إلى السادة دون أن يكون له أية

جذور بهم، وكان يسعى منذ فترة لتحين الفرصة وها هى قد واتته اليوم، لكن أية فائدة وطلقته لم تصب الهدف! هذا وقد تم اعتقاله وقتله فى نفس الليلة فى جمعية "إسلاميه" على أثر التعذيب.

وفى النهاية أوردت صحيفة "ملاعمو" – التى كانت لا تزال تصدر حتى الآن – إحدى عرائض استجواب تقى مسكر، وها نحن نوردها فى هذا الموضع:

"صورة الاستجواب الذى تم فى حضور كافة العلماء الأعلام والسادة ذوى العز والاحترام وسائر المسلمين بخصوص محاولة اغتيال جناب السيد المستطاب السيد ميرهاشم سلمه الله تعالى فى العشرين من شهر جمادى الأولى عام ١٣٢٦ ق لنفى مسكر أحد مرتكبى الحادث، وكانت كالتالى:

س: ما اسمك؟ وماذا تعمل؟

ج : اسمى تقى مسكر. بائع نحاس.

س: حسناً جداً، ما الباعث لديك فى قتل السيد ميرهاشم؟ هل أساء إليك؟ أم أن هناك باعثًا آخر؟

ج : لم يبد إساءة فى حقى، سوَّد الله وجه المتسبب الذى حرضنى على ذلك العمل .

س: يتصح من حديثك أنه تم تحريضك للقيام بذلك العمل .

ح : نعم، لقد حضرت أنا تقى مسكر إلى مكتب البرق برفقة أربعة أشخاص، هم: مشهدى محمد، وصلاح خيابانى، وسيد زنجانى وميرزا جواد الساعاتى، وتم خداعنا من قبل: بصير السلطنة، وميرزا محمد على خان، والشيخ سليم، وميرزا اسماعيل، والحاج حسين شقيق ميرزا محمد على خان حيث قالوا لنا إن العلماء اتفقوا مع السيد هاشم ويريدون الإطاحة بالحكم النيابى، وأنه ينبغى قتل المجتهد، والحاج ميرزا محسن آقا، وميرزا صادق آقا والسيد ميرهاشم والحيلولة دون تحقق أفكارهم، وكل من يقوم بذلك، ففضلاً عما

سنقدمه إليه من أموال باهظة، سوف يكون من الوجهاء وسيشغل منصبًا كبيراً، قالوا مثل هذا الحديث وحرضونا على القيام بهذا العمل .

س: هل يوجد شخص آخر سواك؟

ج : الأربعة السالف ذكرهم فقط.

وكما ذكرنا، اهتم محمد على ميرزا بتلك البرقية التى أرسلها إليه رجال الدين، وأمر فطبعوها ووزعوها فى طهران. وقد ذكرنا أن هذا ما اشتد وقعه على الأحرار وما أوقع اليأس فى نفوس أهالى آذربايجان، خاصة مع تلك البرقيات التى كانت تصل من قبل علماء إصفهان. وسوف نرى أن نواب آذربايجان أرسلوا برقية لوم وعتاب بسبب ذلك.

تضامن رجال الدين ونهضة جمعية " إسلاميه "

فى اللحظات الأخيرة من نفس يوم الجمعة هذا اجتمع إمام الجمعة وميرزا صادق وأخوه ميرزا محسن وغيرهم من مشاهير رجال الدين كل منهم مع عدد من أتباعه فى الدوتشى واتخذوا من جمعية إسلاميه مقرًا لهم وأعربوا عن تأييدهم لميرهاشم وبنادقة الدوتشى ورفعوا راية العداء ضد الحياة النيابية، وعُلم أن الحاج ميرزا حسن قد تلقى الأوامر من محمد على ميرزا وتضامن معه.

وفى الغد من يوم السبت الحادى والثلاثين من شهر خرداد (٢١جمادى الأولى) حدثت انتفاضة أخرى فى المدينة، لأن الأئمة قد مضوا من كل ناحية إلى الدوتشى كل منهم برفقة أتباعه وتوجهوا إلى جمعية إسلاميه فهم الذين لم ترج سوقهم بسبب ظهور الحياة النيابية، لذا امتلأت قلوبهم حقداً، وقد واتتهم الفرصة الآن، وكان جديرًا بالمشاهدة رؤية كُلٍّ منهم وقد سحب خلفه بعض العامة الجاهلين وهم يسحبون النعال من قشر البطيخ ويطوون الطريق. وقد انفصل عدد كبير من أولئك الذين كانوا لا يزالون حتى الآن يطوون طريق الحياة النيابية واتجهوا إلى تلك الناحية، واختار البعض أن يلزم داره من أمثال ثقة الإسلام والحاج ميرزا أبى

الحسن انگجى، ولم يبق برفقة المطالبين بالحياة النيابية سوى القليل من رجال الدين، وما أن أسرع رجال البلاط الرجعيين وأعداء الحياة النيابية من كل ناحية إلى الدوتشى حتى تضامن أهالى قراملك – التى عرفت من بين مناطق تبريز بشجاعتها – معهم، وأرسلوا – تحت مسمى الدين – الشباب بأسلحتهم ومعداتهم إلى جمعية إسلامية.

وفى اليوم نفسه أو فى غده حل شكر الله خان شجاع نظام مع فرسان مرند المنتخبين، وسامخان وأخيه ضرغام والحاج فرامرزخان وفرسان محنكين إلى قره داغ وانضم إليهم فرسان آخرون. وقد علم أن محمد على ميرزا لم ينس تبريز فى خطته هذه، لذا كانت الخشية هنا أيضًا.

والخلاصة، أُفعمت جمعية إسلاميه بالقوات، وامتلأت أنحاء الدوتشى بالبنادق وضاقت الضواحى وأقام أوباش الدوتشى فوق الأسطح وفى كل مكان، وجلس رجال الدين فى الحجرات وقاموا بإصدار فتاوى الجهاه، ولما لم تكن هناك حجة أخرى يتذرعون بها لكى يثيروا فرسان مرند وقره داغ أطلقوا على المطالبين بالحياة النيابية "البابية"، وأصدروا الفتاوى بقتلهم، وأحصوا عددًا من زعماء الحرية، وقالوا: "يجب طردهم من المدينة".

ونظرًا لأن الحرب لم تكن قد بدأت، ولم تغلق الطرق، كانت المجاميع تأتى من كل صوب لرؤية ذلك، وقد مضيت أنا كذلك – مؤلف هذا الكتاب – إلى هناك برفقة أصدقائى، ورأيت بأم عينى تلك الفتنة وذلك الحشد: كان رجال الدين يجلسون فى إحدى الحجرات الكبيرة يتغنون بذم الحياة النيابية، وكل منهم يستعرض، أحدهم بذكر آية كريمة، وآخر بذكر حديث شريف، وثالث يقص رؤيا شاهدها، ورابع يقسم بأن الأحرار بابية ولا يسعون إلا لنشر مذهبهم. والبعض ممن كانوا أكثر حكمة وذكاء تنحوا بعيدًا وهم مطأطئو الرؤوس يسبحون بالمسبحة ويحركون شفاهم. وقد شغل الحاج ميرزا حسن وإمام الجمعة وميرزا صادق

وغيرهم صدر الحجرة، وفهموا من سلوكهم وأقوالهم أنهم اجتمعوا فى ذلك المكان لإتمام عمل جسيم. وفى النهاية استخاروا بالقرآن الكريم، وجاءت الآية:

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾.

وسر الجميع كثيرًا من سماعها.

ولما كان ميرهاشم قد أصيب بطلقة الرصاص فكان يرقد فى داره، لكن أوباش الدوتشى ورؤساءهم كانوا يروحون ويجيئون وكان واضحًا أنهم يتأهبون لشيء ما. لقد كانوا فى وفاق مع طهران، وكانوا يحصلون على أخبار محمد على ميرزا وأعماله عن طريق البرق، ولم يكونوا كالمطالبين بالحياة النيابية لا يحصلون إلا على البرقيات المخادعة من قبل تقى زاده وغيره، وكانوا على علم أكيد بما يحدث فى طهران.

صمود الأحرار واستعدادهم:

كما ذكرنا، كان الأحرار منذ أسبوع يجتمعون كل يوم فى ثكنة الجند ويقومون بالجلبة والصياح باسم الحفاظ على مجلس دار الشورى وإرسال المساعدات إلى طهران، ولما حدث اجتماع المجتهدين وسلوك رجال الدين هذا يوم الجمعة أدرك زعماء الحرية حقيقة المستور، وعلموا أن ثمة حربًا سوف تنشب بين رجال الدين وأهالى الدوتشى. وفى الغد اتخذت الجلبة طابعًا آخر، ففى هذه المرة كانت مذمة رجال الدين أكثر من أى وقت آخر، وأخذوا يذكرون الأهالى بأفعال الحاج ميرزا حسن وإمام الجمعة والحاج ميرزا محسن، وقال المغفور له شريف زاده بصوت عالٍ: "إن الناس تصير كالكلاب المسعورة، ومن كثرة ما امتص رجال الدين هؤلاء دماءكم فقد أصابهم السعار، ويقومون بأذى الأهالى، وسلوك رجال الدين القبيح هذا يوضح أنهم لايكترثون بشيء ولا يبالون، لذا انفتح الباب على مصراعيه فى أذاهم ومساوئهم؟".

وأثناء ذلك بدر تصرف من مخبر السلطنة، فقد قال: "يقوم حشد بإفساد أمر ثكنة الجند لمنع النزاع." ولما كان الأحرار يحسنون الظن به فقد قبلوا حديثه، وذات يوم أخلوا الثكنة، ولكن لما لم يرووا نتيجة عادوا أدراجهم ورأت الجمعية أنه من الأفضل استدعاء ستارخان وباقر خان ومحمد قلى خان – الذين كانوا يقيمون معسكرًا فى باسمنج – إلى المدينة، وتخلوا عن فكرة تقديم المساعدة إلى مجلس الشورى، وأصدرت أوامرها بالعودة إلى المدينة. ولم تكن تبريز فى وفاق مع طهران: فكان يوجد هنا بضعة آلاف من المجاهدين المدربين وفى حوزتهم المعدات اللازمة وكانوا على استعداد تام، وسوف نرى أى رجال اتسموا بالشجاعة والحنكة قد خرجوا من بين هؤلاء، من ناحية أخرى كان زعماء الحرية من أمثال على مسيو والحاج على دوا فروش ومن أشبه ممن لم يبالوا بأرواحهم وممتلكاتهم، ولم يكفوا عن إبداء أية تضحية. نعم كان يوجد هنا أيضًا رجال ضعاف الطوية من بين الرواد، وكانوا فى البداية باعثًا على الهزيمة لكننا سوف نرى أنهم سرعان ما خرجوا من الميدان وانتهت تلك الهزائم بشكل سريع.

ومضى يوم السبت وكذلك الأحد على هذا النحو، فهؤلاء فى الدوتشى وجمعية إسلاميه، وأولئك فى نصف المدينة الآخر وفى نكنة الجند يصيحون ويثورون وكل منهم يستعد، وبدأ أهالى الدوتشى فى إعمال الظلم ويقال إنهم قتلوا أحد الأشخاص، لكن على الجانب الآخر لم يتم تطاولهم على شىء.

وفى يوم الإثنين وصلت البرقية التالية من طهران:

"تم بالأمس طبع ونشر برقية من قبل الشاه بتوقيع علماء تبريز: المجتهد، والحاج ميرزا محسن، وميرزا صادق إمام الجمعة، والحاج ميرزا رضا، والحاج ميرزا تقى، والحاج سيد أحمد، والحاج ميرزا على أصغر، والحاج ميرزا أبو الحسن، وآقا سيد على، والحاج ميرزا أحمد، والحاج ميرزا عبد الحسين، وميرزا يوسف، وميرزا حسن، وميرزا عبد العلى، وآقا سيد رضى وشيخ العلماء تتضمن

دعم الدولة ومعارضة الحياة النيابية. وقد دب اليأس فى نفوس كافة أهالى آذربايجان فى طهران بسبب هذه البرقية، وتعرض الأهالى فى الضواحى والأسواق للسحق. وفى المقابل وصلت برقية من إصفهان تفيد فى مجملها بوصول البرقيات المتضمنة فتاوى تكفير الجند والفرسان الذين يساندون الاستبداد وتستوجب استدعاءهم من الولايات إلى طهران، واعتبروهم فى حكم جيش كربلاء وأنصار بنى أمية ومن ألقى السهام على الجسد الطاهر لجناب سيد الشهداء عليه السلام. وفضلاً عن تحويلهم مبلغ خمسة آلاف طومان نقدًا إلى البنك لسد نفقات مجلس الشورى فإن كافة ولايات إيران (باستثناء تبريز) قد أعربت عن استعدادها للتضحية فداء لمجلس الشورى الوطنى بكل ما لديها من قوى وأرواح وأموال، وقد قرروا التوجه صوب طهران؛ قائلين لتكفوا عن هذا النفاق، ولا تسمحوا فى هذا الموقف العصيب لأصابع المستبدين أن تلقى الشقاق والخلاف بينكم، وأن يحصل الأعداء من الأجانب على الفرصة لتقدم أهدافهم فى قيام حرب أهلية. إن عيب وطننا التعس هو أنه سرعان ما يتلألأ وسرعان ما يخمد، لتبدوا الجسارة والمواساة فى هذا الوقت. إن الأمر يزداد صعوبة فى طهران، ولم يتم الوصول إلى شىء حتى الآن، وقد وقع الإضراب العام فى طهران لمدة خمسة عشر يوماً، ومنذ ثلاثة أيام يجتمع عامة التجار والحرفيين ليل نهار فى مسجد السپهسالار."

(نواب آذربايجان)

كانت هذه هى آخر برقية تصل من نواب آذربايجان إلى تبريز. وهى من ناحية توضح مدى التأثير السئ لبرقية رجال الدين على طهران. ومن ناحية أخرى فهى دليل على أن النواب لم يفيقوا بعد وكانوا يسيرون فى إثر جهلهم. وكما ذكرنا، أرسلت تبريز الحاج ميرزا حسن إلى المجلس، ولما كان أهالى تبريز يخشون من فتنته لم يرتضوا مجيئه، وجاء نفس هؤلاء النواب إلى مكتب البرق وألحوا كى يتخلى أهالى تبريز عن عدم رضاهم، وحينما جاء الحاج ميرزا حسن جاء كذلك إمام الجمعة وغيره. حقيقة أن هذا أوجد أزمة لتبريز، رغم ذلك فقد بسطوا ألسنتهم فى ذم الآخرين. والأعجب من هذا أن إصفهان وغيرها من المدن قد قدرت كل

هذه العروض الواهية وكانوا يعتبرون تبريز - رغم تلك الاستعدادات التى كانت لديها وما قامت به من أعمال كما سنرى - فى مرتبة أقل.

على أية حال، ساهمت هذه البرقية بدورها فى ازدياد غضب الأحرار من رجال الدين، وقاموا فى نفس اليوم بطبعها - مع بعض أحاديثهم - وتوزيعها فى المدينة، وهكذا قضت تبريز اللحظات الأخيرة من الحياة النيابية. وسوف نقوم بتدوين أحداث هذه المدينة منذ يوم الثلاثاء الثانى من شهر تير (٢٣ جمادى الأولى) حتى انتهاء الحروب فى المقالات التالية، ونعود فى هذا المقام إلى طهران لنسرد قصة قصف المجلس.

الثلاثاء الثانى من شهر تير

كان يوم الثلاثاء من شهر تير (٢٣ جمادى الأولى) يوما لا نظير له فى تاريخ الحياة النيابية، فالصراع بين المطالبة بالحرية والاستبداد كان يدور منذ عامين، واليوم اتخذ طابع القتال وإراقة الدماء وسقطت الحياة النيابية والمجلس بعد عامين من الصمود. وقام محمد على ميرزا - الذى كان يجاهر بعدائه منذ عشرين يومًا - بالعمل الآن بعدما رأى المجال وقد تهيأ، من ناحية أخرى قام الأحرار - كما ذكرنا - بعد أسبوع من الضعف بالاستعدادات اللازمة فى الأيام الأخيرة، ومع كل التباطؤ الذى حدث فقد جمعوا مايقرب من ستمائة من البنادقة والمحاربين الشجعان من بينهم بعض قادة لواء القوزاق (أبو الفتح زاده وغيره ممن سنذكر أسماءهم) ممن انشقوا منذ عامين عن القوزاق وتضامنوا مع الأحرار فى ذلك الوقت. كما انضم ميرزا صالح خان وزير اكرم - الذى خلعه محمد على ميرزا من حكم طهران - وبعض أتباعه إلى المجاهدين. وعلى هذا النحو شكلوا قوة وكانوا يسعون للحفاظ على المجلس حيث استقرت طائفة منهم فى أعلى السبنى الشمالى للمجلس[١]، وأقامت طائفة أخرى - وكانوا من أهالى آذربايجان -

---

(١) هو الآن مقر مطبعة المجلس.

الاستحكامات فوق أسطح المسجد والمجلس والمنارات، وعسكرت طائفة أخرى من أهالى آذربايجان فوق فناء جمعية أهالى آذربايجان[1]، كذلك احتلوا منازل ظل السلطان. ولو كان لديهم القادة المحنكون، ولو كان عملهم يتم بالتنسيق والتنظيم لازدادت فعاليتهم وقويت ولكانت لهم الغلبة والسيطرة، لكن – كما ذكرنا – افتقدوا القادة المحنكين، وانعدم التنسيق فيما بينهم، وسوف نرى أى سلوك قام به تقى زاده وغيره بسبب ذلك.

من ناحية أخرى، اختفى الكثيرون من البنادقة يوم القتال، ولم يأتوا، فقد انفصلت طائفة منهم عن المجلس، ومع حلول الفجر حيث بدأ القتال كان عددهم فى تناقص وليس العكس. وقد دوّن بعضهم (وهم ممن على قيد الحياة حتى الآن) بعض خواطرهم، فيقول أحدهم :

"حينما حل الصباح وصلت الأنباء تفيد بأنهم اقتحموا المجلس فارتديت الزى العسكرى ورغبت فى رفع بندقيتى وصحت: أين بندقيتى؟!... وجاءت زوجتى وفى يدها القرآن وبرفقتها أخواتى، وقالت لى: اعلم أن مامن شخص سيؤازرك، وأنك سوف تمضى بمفردك إلى المجلس، وأنهم سوف يقتلونك... أثناء ذلك ارتفعت أصوات المدافع فتوجهت أعلى سطح المنزل، وجلست فى ركن وجعلت أبكى".

نعم، لقد اجتمع جند القوزاق وجند الدولة حول المجلس ومسجد السپهسالار منذ صباح يوم الثلاثاء وأغلقوا الطرق لمنع التجوال، وقد قدم مامانتوف – أحد الصحفيين الروس وكان يعيش آنذاك فى طهران ودوّن قصة هذا الحادث – إلينا معلومات جيدة فى هذا الشأن، وخلاصة حديثه :

"فى الثامنة مساءً استدعى الشاه لياخوف إلى قصر باغشاه، وأصدر إليه

---

(١) هو مقر مبنى وزارة الثقافة الحالى وكان ضمن منازل ظل السلطان ،وكانت تليه منازل السيدة العظمى ولا تزال موجودة حتى الآن.

تعليمات الغد، وحينما عاد إلى منزله (بالقرب من ثكنة جند القوزاق) استدعى قائد القوزاق الروسى وعرض عليه الأمر، وبعد التباحث معه أمره بأن يتجه القائد على آقا[1] مع كتيبة من جند القوزاق (١٢٠ جندى) ويحاصرون مدرسة السپهسالار، ونصبوا أربعة مدافع فى الميدان فى واجهة المجلس، وتم تقسيم فرسان كتيبة قاسم آقا إلى مجموعات انتشرت فى الشوارع المحيطة بالمجلس ومنعوا الأهالى من التجمهر. وقد صدرت هذه التعليمات فى تمام الثانية عشرة مساءً.

وفى الغد، فى تمام الساعة الخامسة توجه على آقا وفقًا لتعليمات البارحة مع جند القوزاق، ورغم خشية المجاهدين من إطلاق النار إلا أنهم لم يبالوا وتوجهوا إلى فناء المدرسة وأحاطوا به وأرسلوا يخبرون بنصرهم هذا إلى القائد (لياخوف) لكن بعد عدة دقائق اندفعت جماعة من الأحرار من داخل المدرسة وضغطوا على جند القوزاق فتراجعوا وخرجوا من المدرسة وأغلقوا الباب. ولما كان على آقا قد أصدر أوامره بعدم إطلاق النار فلم يستطع الصمود ووقف جند القوزاق مصطفين خلف البوابة.

وحينما وصلت أنباء ذلك الإخفاق إلى لياخوف أمر بتوجه عدة كتائب أخرى من القوزاق (تتضمن ٢٥٠ فارس و٢٥ من المشاة وأربعة مدافع) إلى المجلس، ووصلوا إلى هناك فى الساعة السابعة. كما توجه لياخوف فى الوقت نفسه إلى هناك (طبقًا لقول براون كان برفقته فى العربة ستة من القادة الروس) وتفقد لياخوف ميدان بهارستان والمناطق المحيطة به، ونصبوا – طبقًا لأوامره – أحد المدافع الأربعة فى شارع "دروازه دولت"، والآخر فى الشارع المواجه له،والثالث والرابع فى شارع "شاه آباد"، ووجهوا فوهات تلك المدافع تجاه المجلس ،والتف

---

(١) كانوا ثلاثة إخوة: على آقا، وقاسم آقا، وكاظم آقا، وكان ثلاثتهم قادة فى لواء القوزاق، وقاسم آقا هو نفسه الذى ذكرناه من قبل وقُتل بعد ذلك على يد الأحرار فى قزوين، كما قُتل كذلك كاظم آقا فى باسمنج فى ليلة عزاء حسن ولى، أما على آقا الذى كان على قيد الحياة حتى العام الماضى فكان يعرف باسم "سرلشكر نقدى".

حول كل مدفع مجموعة من جند القوزاق والفرسان والمشاة، بعد ذلك عاد لياخوف (مستقلاً عربته) ليتوجه إلى باغشاه ويُخبر الشاه بكيفية الأحداث".

هذه هى أقوال مامانتوف، لكن يجب أن نقول إنه أنقص كثيرًا من تعداد جند القوزاق. ففى ذلك الوقت لم يكن تعدادهم يقل عن ألفى جندى. من ناحية أخرى، إنه لم يذكر جند الدولة فى حين أن إحدى كتائب جند سيلاخورى كانت برفقة القوزاق وعهد لياخوف إليهم بحراسة البوابات الشرقية للمسجد والمجلس وما حولهما. كذلك فنحن نعلم أن على خان أرشد الدولة – وهو نفس الشخص الذى كان حتى وقت قريب من المؤيدين للأحرار وتولى رئاسة الجمعية المركزية – كان مشتركًا فى هذه الحرب هو وغيره من المقربين إلى محمد على ميرزا. ويقول ماما نتوف:

"إنه لم يتخل عن هذا الصمود، لذا لم يأمر القوزاق بإطلاق النار.

لكن هذا الحديث كان وفقًا لتقارير لياخوف. من ناحية أخرى، كيف أنه لم يتخل عن ذلك الصمود مع الاستعدادات التى كانت للمجاهدين ومع إقامة تلك الاستحكامات؟!... نعم إنه لمن العجيب أن القوزاق لم يغلقوا استحكامًا وهذا ما يأتى موائمًا لحديث مامانتوف. ويمكن الظن أن البعض من النواب والأحرار ممن كانوا يتفقون مع البلاط كانوا يبدون مثل هذا التعاطف مع البلاط من قبيل المجاملة.

بداية الحرب.

لم يسمح القوزاق ولا جند الدولة لشخص بالخروج من المجلس، كما لم يسمحوا لأحد بالدخول، رغم ذلك كان هناك من يأتى ويريد الدخول حتى هذه الأوقات من أمثال بهبهانى، وطباطبائى، وإمام الجمعة خوى، والحاج ميرزا إبراهيم آقا، ومستشار الدولة، وممتاز الدولة، وميرزا محمد صادق وحكيم الملك. وثمة طائفة من زعماء الحرية من أمثال ميرزا جهانگير، وملك المتكلمين والقاضى أرداقى وغيرهم ممن كانوا يخشون على أرواحهم قد لجأت إلى المجلس

منذ عدة أيام ومكثوا فيه. ونظرًا لاتسام معظم النواب بعدم الحمية فلم يأتوا اليوم إلى المجلس، وكان هناك حشد أيضًا اليوم، وأعرب الأهالى فى الخارج عن تأييدهم للمجلس واستعدت مجموعات للدخول فيه، وكان السيدان وغيرهما يسعون للحيلولة دون وقوع القتال وإراقة الدماء، وأرسل السيد بهبهانى شخصًا إلى قاسم آقا ليستدعيه إليه. يقول براون: جاء قاسم آقا ولم يصغ إلى حديث بهبهانى. لكن مستشار الدولة قال: إن أحدًا لم يعد، ولا نعلم هل أرسلت رسالة السيد إلى قاسم آقا أم لا؟ وقد اشتد على المجاهدين عدم تقدم أمرهم. وعلى أية حال فهم ممتنعون عن إطلاق النار تجاه الضباط الروس.

وكان هذا نموذجًا لسذاجتهم، إذ كانوا يرون عدم وجوب إطلاق النار على الضباط الروس!

واستعد كلا الفريقين، لكن لم يحدث قتال، وفى تلك الأثناء خرج المغفور له السيد جمال افجه اى – ذلك الشيخ الثائر – من منزله فى پامنار ممتطيًا بغلته وتبعه حشد من الأهالى بلغ عدة مئات واتجهوا إلى المجلس، ولكى يسيروا فى طريق مختصر دخلوا من محلة مسجد سراج الملك ومروا بشارع البريد وحينما رأوا عدم إنصاتهم لهم قرروا توجيه فوهة أحد المدافع تجاههم بغرض إرعابهم وأطلقوا النيران، وكان هذا طلقًا فى الهواء (أو بدون طلقات)، ولم يصب شخص غير أن بغلة السيد افجه اى قد خرت على الأرض على أثر صوت المدفع وسقط السيد من فوقها والتف أتباعه حوله. فى تلك اللحظة أحضر أحد الضباط الروس مسدسه وأطلق رصاصة فى الهواء وكانت هذه هى علامة بدأ الحرب، وقام القوزاق دفعة واحدة بإطلاق الرصاص، ورد المجاهدون عليهم، وبذلك بدأ سفك الدماء ونشبت معركة عجيبة. فمن ناحية، فإن السيد افجه اى ومن ظل معه تحت القصف قد فقدوا ثلاثة من بينهم – وكان أحدهم معلمًا شابًا – حيث قتلوا برصاص القوزاق بينما جُرح شخص واحد بإصابات حادة. وفتح أتباع وزير أكرم باب منزل السيدة العظمى للسيد افجه اى – الذى كان لايزال موجوداً– وحملوه إلى الداخل مع أبنائه وأتباعه. ومن ناحية أخرى، نظرًا لعدم وجود استحكامات للقوزاق فقد أسقط

الرماة الماهرون فى المجلس وفى جمعية آذربايجان العديد منهم بحيث لم يستطع القوزاق الصمود وتراجعوا إلى الشارع، لكن ثمة ضابطًا روسيًا لم يتخل عن مكانه على المدفع واستمر فى إطلاق النيران، واستأنفت الحرب واشتدت وفلت زمام الأمر. وخرجت جياد دار المدفعية – التى كانت تحمل المؤن والذخيرة – من تحت الأشجار(١) مسرعة تندفع فى الميدان وسط الدماء. وكان يبدو أن النصر حليف الأحرار، وبلغت غلبتهم أن اندفع البعض ورغبوا تحطيم المدفع وحمله إلى المجلس، ولو كانوا قد نحوا السذاجة لضربوا الضباط الروس ولكان النصر حليفهم، وأدى عدم ضربهم لهم أن يقفوا فى الميدان دون خشية ويعيدوا القوزاق ورجال المدفعية ويحثوهم على إطلاق النار والرصاص. من ناحية أخرى، لما علم لياخوف بأحداث المعركة توجه على الفور إلى ميدان القتال وأصدر أوامره بإطلاق نيران المدافع من جميع الجهات، ووجه بالبعض سريعًا إلى باغشاه لإحضار مدافع أخرى. والمدفع الذى وُضع فى وسط الميدان ولم يمنح الفرصة لطلقات المجاهدين تم سحبه، ووضعوه فى أحد الأكمنة الموجودة فى الشارع وقاموا بإطلاق النيران.

هزيمة الأحرار :

استمر القتال مايقرب من الساعة، وأثناء ذلك، لما كان بهبهانى وطباطبائى وغيرهما ممن كانوا فى المجلس ليسوا رجال حرب وقد أرعبتهم طلقات الرصاص التى كانت تتوالى على المجلس، لذا حطموا جزءًا من حائط المجلس الخلفى ومروا عبر الخرابات الموجودة آنذاك وتوجهوا من هناك إلى حديقة أمين الدولة، وعلى هذا النحو تم إخلاء المجلس. وقد رأى البنادقة الذين كانوا يحاربون من فوق منابر المساجد ذلك فلم يستطيعوا الصمود لقلتهم وأخلوا الاستحكامات وبذلك خمدت الحرب.

إلا أن جمعية آذربايجان وميرزا صالح خان وأتباعه لم يكفوا عن المقاومة

(١) نذكر إنه حتى مايقرب من عشرة أعوام ونيف سابقة كانت توجد الأشجار فى الميدان أمام مقر بهارستان وقد اقتلعوها وزرعوا الورود بدلاً منها.

وأخذوا يحاربون ببسالة، فأمر لياخوف أن يسحبوا المدافع من شارع شاه آباد إلى الميدان ويوجهوها ناحية الجمعية ومنازل السيدة العظمى، كما أرسل كتيبة من القوزاق خلف سطح دار المدفعية ليبدأوا القتال من هناك.

يقول مامانتوف:

"أطلق المدفع عدة طلقات، وسرعان ما ظهر أحد الرماة الماهرين ببندقيته من إحدى شرفات منزل ظل السلطان (ويقال إنه كان أحد منازل السيدة العظمى)، وكان البنادقة يقعون الواحد تلو الآخر، وأصاب قائد المدفعية القائد لياخوف إصابة بالغة، وبعد إعادة المدفع إلى هذا المنزل تدفقت الطلقات على تلك المنطقة وتمكنوا من إبعاد ذلك الرامى الماهر الذى أصاب مايربو عن العشرة أفراد".

على هذا النحو دار القتال، وفى الوقت نفسه أخذت مدافع أخرى فى قصف المجلس وظهرت آثار التدمير، وبعد العصر بنصف الساعة خمدت نار الحرب بعد أن استمر القتال لمدة أربع ساعات، كما كفت كذلك جمعية آذربايجان وكتيبة ميرزا صالح خان، وانتهت المعركة مرة واحدة، غير أن المدافع كانت لاتزال فى قصفها، وكانت تسحق وتدمر الأبواب والنوافذ فى منازل السيدة العظمى وظل السلطان وفناء الجمعية، وبعد فترة هدأت المدافع وحل الدور على أعمال السلب، ودخل جند سيلاخورى وحشود أخرى إلى قصر بهارستان وجمعية أذربايجان، كما أغارت مجموعة كانت تقوم بالقصف هناك على جمعية مظفريه.

وكما يلاحظ قد خارت عزائم الأحرار وإلا لكانوا قد أبدوا شجاعة فائقة، ونورد فى هذا المقام أسماء من شاركوا فى هذه الحرب حيث أنها فى متناول أيدينا:

- أبو الفتح زاده (أسد الله خان) وأخواه، وكان من المهاجرين والتحق ضابطًا فى لواء القوزاق إلا أنه اختلف مع لياخوف منذ عامين وخرج من لواء القوزاق هو وأخوه وكان اليوم ضمن المحاربين فوق مبانى المجلس.
- حسن خان بولادى وكان أحد قادة القوزاق وانشق عنهم هو كذلك منذ عامين

وكان اليوم ضمن المحاربين.

- منشى زاده، وكان من الإداريين فى لواء القوزاق، وانشق عنهم هو أيضًا وكان اليوم ضمن المحاربين.

- حاجب السلطان، وكان يحارب برفقة جماعة من البنادقة التابعين لجمعية مظفريه، ولما كانوا من الرماة الماهرين كانت سهامهم تصيب جميع الأهداف الموجهة إليها.

- إسماعيل خان سرابى وكان كذلك ضمن بنادقة جمعية مظفريه، وسوف نرى من بعد أنه اعتقل فى حادث آخر وتم شنقه.

- حامد الملك الذى ذاع صيته من بعد بين المجاهدين وقُتل فى كاشان بيد نائب حسين.

- سيد عبد الرازق الشاب الثائر الذى فر إلى اسطنبول ومن هناك انضم إلى مجاهدى جيلان وقدم إلى طهران وقُتل مع ميرزا على خان .

- ابن أخت ميرزا جهانگيرخان صاحب صحيفة صور اسرافيل (يقال إن اسمه أسد الله خان) وقتل فى نفس المعارك.

- شجاع لشكر خلخالى، وكان أحد المحاربين البارزين فى جمعية آذربايجان وقد فر من بعد واتجه إلى باكو.

- مسيب خان وكان كذلك من آذربايجان وتولى القيادة من بعد.

- سلطان العلماء خراسانى مدير صحيفة صور اسرافيل الذى كان يحارب من مبنى إدارة صحيفته فى شارع "چراغ برق" وألقى قنبلة على جند القوزاق.

- ميرزا صالح خان وزير أكرم، وكان من أسرة كلانتر باغميشه فى تبريز (نال من بعد لقب آصف الدولة) وقد ذكرنا أنه انضم إلى الأحرار وأبدى شجاعة فائقة، وربما يكون هو ذلك الرامى الماهر الذى ذكر مامانتوف أنه قتل مايربو

عن العشرة أفراد.

هؤلاء هم الأشخاص الذين عرفناهم، وكما ذكرنا أن القتال استمر من استحكامات المجلس لمدة ساعة، ومن جمعية آذربايجان ومنزل وزير أكرم لمدة أربع ساعات، وتم قتل جماعة من جند القوزاق، لكن لم يقتل من أحرارنا الذين نعرفهم سوى ابن أخت ميرزا جهانگيرخان.

يقول مامانتوف فيما يتعلق بالقوزاق:

"لم يشترك في هذه الحرب أكثر من أربعمائة وخمسين شخصاً، قُتل وجُرح منهم أربعة وعشرون من بينهم قائدان، بينما أصيب خمسة وثلاثون جنديًا من جند القوزاق إصابات بالغة، كما أصيب حوالى أربعين جنديًا روسيًا بإصابات طفيفة، بينما هلك ثلاثون جواداً."

ويقول:

"كان حجم الدمار لهذه الحرب التى استمرت أربع ساعات بالغاً."

لكن كما ذكرنا، لايمكن تصديق الأعداد الواردة على لسان مامانتوف، فكان أحد الصحفيين الإنجليز (ويدعى ديفيد فريزر) يعيش فى طهران فى تلك الفترة،وكتب الحادث بشكل موجز قائلاً:

"لقد قامت حفنة قليلة من مجاهدى جمعية آذربايجان بالحرب، ولم يتمكنوا من القيام بأكثر مما قاموا به بسبب عدم وجود حماية لهم." "وتلك الطائفة التى أقسمت على الحفاظ على الحياة النيابية بأرواحها من الأفضل أن نوجز الحديث عنها، حقيقة أن مامن شخص ذكر عملاً لهم."

وورد فى كتاب آبى الإنجليزى:

"أطلق أحد الجنود فى البداية طلقة (فى الهواء)، وبعد ذلك بدأ المجاهدون فى إطلاق النيران."

لكننا ذكرنا أن أحد الضباط الروس هو الذى بدأ فى إطلاق الرصاص وهذا بشهادة من رأوا الحادث بأم أعينهم وقمنا بسؤالهم.

يقول:

"كان القادة الروس يتجولون بلا خشية ،وقال أحد النواب لى: فى استطاعة الأحرار إصابة لياخوف أينما رغبوا، ولو قتل هؤلاء القادة لكانت النتيجة بلا شك على نحو آخر. وكان امتناعهم عن إصابتهم لأنهم كانوا يفكرون أنهم لو قتلوهم ستتطاول حكومة روسيا وتتدخل فى شئون إيران".

ما هى رؤية مامانتوف ؟

فى الوقت الذى انتهى فيه القتال بدأت أعمال السلب والنهب ،وقد هب مامانتوف بنفسه لتفقد الأوضاع، ولما كانت كتاباته فى هذا الشأن ذات قيمة تاريخية وتوضح حقيقة الأحداث، فقد وقفنا عليها أكثر من غيرها، ونوردها فى هذا المقام، يقول:

"حينما علت أصوات المدافع والبنادق مع بزوغ الفجر رغبت فى أن أستقل مركبة وأسرع إلى مكان القتال لكننى افتقدت الشجاعة للقيام بذلك واكتفيت بالنظر من فوق السطح حيث كنت أرى دخان الطلقات فقط من بعيد. وبعد فترة لم أستطع الصبر ووصلت أمام المجلس عبر ضواحى طهران الخاوية وكانت دار المدفعية تتعرض لقصف المجاهدين الذين كانوا يتخذون من منزل ظل السلطان ثكنات لهم، وكان الجنود يتدفقون من المنازل التى تم تدميرها على أثر المدافع كالنمل يحمل كل منهم مايقع تحت يديه ويضعون الوسادات والبسط والأثاث والعديد من الأمتعة فوق دانة المدفع النحاسية، كما وضعوا فوق أحد صناديق المدافع جهاز بيانو مكسور، وسقط أمام المجلس وسط الميدان عشرون جواداً، وكان بحر الدماء يموج ولم يهدأ بعد. كانوا يوجهون بجند القوزاق الجرحى والقتلى إلى ثكنة القوزاق، وسقط رجل واحد بجوار الإسطبل، بينما تسرى الدماء الحمراء والسوداء من الجروح.

وبدا الأسى على المنازل التى كان رعاة المجلس يلقون بسهامهم من خلالها، حيث سقطت أجزاء من جدرانها بينما تشققت باقى الجدران، ولم يُر زجاج واحد فى النوافذ ،واقتلعت الأبواب من مكانها، وامتلأت جدران الأسطح بالثغرات والثقوب على أثر قذف الطلقات الحارقة خاصة فى منازل ظل السلطان حيث كانت أكثر الأماكن التى تم تدميرها بعد سلب الحنود لها. ولم يسلبوا مابها فقط من أمتعة بل أنهم اقتلعوا الأطر والأبواب والنوافذ وبُسط الأرض والأسقف وحملوها معهم.

وكان سلوك القوزاق جيدًا للغاية، ففى الوقت الذى انشغل فيه الجند بأعمال السلب والنهب كانوا يبدون صمودًا فى القتال، وتوجهوا إلى دورهم بكل عزة فى هذه الحرب الشديدة المباغتة."

وبعد رؤيتهم بادر مامانتوف بالتوجه إلى ثكنة القوزاق، وكانت ثمة جلبة قد حدثت هناك، ونورد فى هذا الموضع أيضًا بعضًا مما قاله:

"حقيقة، وكما ذكرنا سالفاً، إن ما رآه القوزاق من ضرر كان شديدًا للغاية، لقد امتلأت جميع المستشفيات بالجرحى عن آخرها، وتوجه كل من كانت إصابته طفيفة إلى داره، وسقط طبيبان إيرانيان والطبيب فيسيوشكو مغشيًا عليهم من كثرة الجرحى، كانت الدماء تموج فى السرادقات والحجرات وتفوح رائحة الجثث، ووضعوا القتلى فى صفين فى فناء ثكنة الجند بالقرب من المستشفى والتف حولهم جمع غفير من الأهالى، وكان بعضهم يبكى بحرقة بينما أغرورقت أعين الباقين بالدمع. تقدمت بصعوبة، كان القتلى يتدحرجون فى دمائهم ورؤوسهم مشجوجة وأيديهم غرقى فى الدماء كأنهم يبحثون عن الانتقام... أردت العودة، وعندئذ وقع بصرى على أحد القوزاق، كان يفرق الأهالى وعيناه تتلألآن بالدموع ويضغط فى يده على خنجر مسنون وألقى بنفسه وهو يئن على أحد القتلى وكان نائبًا ذا لحية ويحمل شريطين على كتفه، وهمس أحد الروس الذين كانوا بجوارى فى أذنى: "إنه أخوه، حينما رغب العودة إلى ثكنة القوزاق بعد الحرب تم قتله فى شارع چراغ

گاز". وعندما كسر القوزاق خنجره استسلم أخوه واعتقدت أن الجنون قد أصابه وهمس ببعض كلمات ومزج سن خنجره المتلألئ بالدماء التى كانت لاتزال تسرى من جرح أخيه وغطى الخنجر ونهض من جواره وسار من بين الأهالى الذين كانوا يتعاطفون معه متجهًا إلى ميدان التدريب. وقال أحد المجاورين لى: "ذهب لينتقم ولا يمكن منعه."

والآن لا يُفهم شيء، سيد يُقتل أخوه ولا يستطيعون القبض على القاتل.

وبعد عدة دقائق أحضروا شخصين إلى منزل القائد يمسك بهم ثلاثة من القوزاق بحبل يعقدونه على رقبتيهما وأيديهما ورابع يمسك ببندقية صيد فى يده، كانوا قد قبضوا على هذين الشخصين فى شارع چراغ گاز رمعهما بندقيتان خاليتان من الذخيرة إلا أنهما ساخنتان، فقال القائد "اقسموا بالله أنكم لم تخطئوا". فقال القوزاق: نقسم أن هذين الشخصين هما اللذان قتلا النائب، وكان أمر القائد بسيطًا للغاية: "اشنقوهما فى ميدان التدريب حتى يراهما الجميع". وأخرجوهما دون أن يتفوها بشيء من شدة يأسهما، وكان كلاهما طويل البنية يطأطآن رأسيهما وخرجا بضربة من ظهر بندقية، كان شبح الموت ظاهرًا أمامهما، وما أن أخرجوهما من منزل القائد حتى التف حولهما جمع من الأهالى كانوا يسيرون صائحين فى طريقهم إلى ثكنة القوزاق، وكان الاحتشاد يتزايد كل دقيقة فى فناء ثكنة القوزاق، ووقفوا فجأة بجوار نعوش القتلى وحدثت جلبة عظيمة، كان بريق السيوف والخناجر يُشاهد، وفى لمح البصر قاموا بتمزيق المعتقلين، وكانت السيوف البراقة تلمع فى الهواء وتسقط ثانية على الجسدين الممزقين المرة تلو الأخرى حتى كاد القوزاق أن يصيبوا بعضهم البعض، بعد ذلك سحبوهما إلى ميدان التدريب ووجهوا إليهما عدة طلقات، وسمع الصياح: "الدم فى مقابل الدم، جئنا ننتقم لإخوتنا". ورأيت عضو القوزاق الذى تم قتل أخيه يجلس على حجر ويسند رأسه على يده ويغوص فى حزن عميق وخنجره الممزوج بالدم ملقى بجواره على الأرض. وفى اللحظات الأخيرة وضعوا جثث القتلى أزواجًا أزواجًا فى توابيت

خشبية بسيطة وحملوها فى هدوء داخل عربات وتوجهوا بها إلى القبور خارج المدينة".

كانت هذه هى أحاديث مامانتوف، وللأسف لم نتعرف على هذين الشخصين الذين قتلا على هذا النحو فى سبيل الحرية .

ماذا حدث للسيدين وغيرهما؟

فى تلك الأثناء التى كانت تقع فيها هذه الأحداث داخل ثكنة القوزاق، كانت أحداث محزنة أخرى تحدث داخل حديقة أمين الدولة وغيرها من الأماكن، ونحن لم نذكر قط أية أحداث وقعت للنواب وغيرهم ممن خرجوا مع السيدين من المجلس، ولم يتم ذكر ذلك فى أى مكان آخر، وقد استفسرنا حول ذلك من مستشار الدولة، وها نحن نورد أقواله فى هذا الموضع، يقول:

"فى نفس اليوم، حينما أشرقت الشمس، جاء شخص من قبل المجلس إلى ديارنا وأخبر:" إن جند القوزاق قد أتوا إلى المجلس، فلتأتوا بسرعة". ثم رحل، وارتديت ثيابى، وتوجهت إلى المجلس الذى حضر فيه البعض من قبلى، كما وصل إليه البعض من بعدى، كنا هناك وحينما بدأت الحرب أبدى البعض ممن كانوا أمام طباطبائى وبهبهانى عدم التحمل، ولكى تهدأ الجلبة، بل ولكى نفكر فى حل، أردنا أن نرسلهم إلى مكان آخر. وكنا قد شققنا شقًا فى جدار قصر بهارستان أثناء حادث دار المدفعية، وفتحنا طريقًا يؤدى إلى المنطقة الخلفية للمجلس التى لم تكن فى ذاك الوقت سوى جزء من قرية صغيرة. وفى هذه اللحظة أعدنا شق نفس المكان وأخرجنا بهبهانى وطباطبائى وإمام الجمعة وغيرهم مع حشد من الأهالى ممن كانوا فى المجلس وبقى بعض الأشخاص وكنا نريد البحث عن حل. ولكن لم يمر طويل زمان حتى أتى شخص من قبل السادة ومعه رسالة، مفادها:

"إننا فى مكان آمن، فلتأتوا أنتم أيضًا حتى نفكر سويًا ونعثر على حل".

واضطررنا إلى مغادرة المجلس وذهبنا إلى هناك، وحينما تتبعنا من أحضر الرسالة وجدنا أنفسنا قد وصلنا إلى حديقة أمين الدولة،[1] وكان السادة هناك بينما أمين الدولة غاضبًا للغاية ويقول: "لقد دمروا دارى". وتحاور مع السادة، وبعد طرح عدة مقترحات ورفضها، قررنا فى النهاية أن يتجهوا إلى حضرة الشاه عبد العظيم للاعتصام هناك، فربما يبادر الأهالى إلى هناك أيضًا ويحدث تجمهر. وعلى هذا النحو اتجه السادة لكنهم عادوا بعد فترة وقالوا: لقد ضللنا الطريق".

ويقول:

من ضمن الإدعاءات التى كان يدعيها مؤيدو الحرب تلك البشرى التى زفتها لجان الأمن والحرب: لدينا قلب محكم، لم نكن نظن قط أن تنتهى الحرب بمثل هذه السرعة، حينما كانت زمجرة القلوب الدامية تبلغ مسامعنا كنا نظن أنها أصوات من أماكن أخرى، والإمدادات ستصل من الخلف إلى مجاهدى المجلس وجمعية آذربايجان، كم انكسرت قلوبنا عندما علمنا بسقوط قصر بهارستان وتعرضه للسلب والنهب، بعد ذلك خمدت أصوات البنادق والمدافع وعلمنا أن الأمر قد انتهى دفعة واحدة".

وكتب البروفسور براون:

"اتصل أمين الدولة بثكنة القوزاق هاتفيا، وأخبر: "إن السادة فى منزلى". ويقول مستشار الدولة:

"إنه قال: هل تسمحوا لى بأن أتوجه إلى منزل نير الدولة وأعود؟ قلت: لتذهب. لكننى لا أعلم هل اتصل من هناك أم لا؟ يقول: على أية حال، فى خضم هذه الخشية وذلك الاضطراب الذى حل فجأة فى الحديقة، وما أن تم فتحها حتى اندفع إليها حشد كبير من الجند والخدم والفراشين والرعاع وتوجهوا إلينا بجلبة وصياح حيث كنا واقفين فى الفناء، وكان من بحوزتهم البنادق والمسدسات يطلقون

---

(١) ابن ميرزا على خان أمين الدولة.

الرصاص، وثمة معركة حامية الوطيس كانت على وشك الحدوث. وكانوا يصوبون بشكل أكثر على ذوى العمائم، وكأنهم يريدون الانتقام منهم، كانوا يضربونهم ويسبونهم، ويجردونهم من الثياب. كنت واقفًا فى أحد الأركان، ولما كانوا لا يعتبروننى منهم لم يلحق بى أى أذى لكن قلبى كاد ينخلع بسبب الأذى الذى تعرض له السادة، فقد ضربوا بهبهانى وطباطبائى وإمام الجمعة خويى ضربًا مبرحاَ، وكان أحدهم يوجه إليهم ضربة بيده والآخر بقبضته والثالث ببندقيته ولم يدعوا لهم الفرصة، كنت أرى رأس السيد عبد الله تطير فى الهواء يمينًا ويساراً، ووسط هذا الأذى كله لم يبدر من لسانهم سوى جملة واحدة: " لا إله إلا الله " .، خاصة من السيد بهبهانى الذى لم يسق جملة أخرى على لسانه. وبعد أن أشبعوهم ضربًا قاموا باقتلاع لحاهم، كانوا يقتلعون الشعر خصلة خصلة، ويلقونه بعيدًا أثناء ذلك كانوا يقومون بإصابة البعض بالسيوف أو بأى أداة أخرى حتى يسيل الدم من رؤوسهم أو أعناقهم أو وجوههم. وفى هذه المعركة المحزنة قتلوا الحاج ميرزا إبراهيم آقا، [1] ويقال إن سلاحًا كان بحوزته وما أن فتح يديه حتى أراقوا دمه دون خشية. لكن كم كان ذلك اليوم مضطربًا ومزدحمًا بحيث أننى لم أعلم بهذا الحدث حتى سمعته من بعد من الآخرين. وبعد فترة حيث كانت هذه المعركة قائمة وفعلوا فيها كل ما لا يُفعل أرادوا إخراجنا من هناك، وعندما سرنا ووصلنا على مقربة من باب الحديقة حيث كان هناك ميدان صغير، نشبت معركة أخرى هناك كادت أن تهلكنا جميعاً. كان قاسم آقا واقفًا هناك مع مجموعة من القوزاق، وكانت قلوب جند القوزاق – الذين فقدوا ذويهم – تدمى وما أن شاهدونا على هذه الحال حتى أمسكوا بسيوفهم وهجموا علينا، لا ريب أنهم كانوا سيمزقوننا لو لم يتقدم قاسم آقا صائحًا: "لا دخل لهم بالأمر". وحينما رأى عدم استجابتهم لندائه، أمر القادة: "امنعوا تقدم القوزاق". وسحب القادة سيوفهم وسحب قاسم آقا سيفه أيضًا حالوا بيننا وبين القوزاق وأبعدوهم عنا بالسيوف والسياط، وحينما خمدت الغوغاء وبدأ الهدوء

---

(١) كما يقول الآخرون، لما كان يمسك ببندقيته فى يده بدأ القوزاق به وقتلوه.

النسبى التفت قاسم آقا إلى من يقومون باعتقالنا وسألهم: "لمَ قبضتم على السادة؟! ألم يستدعهم صاحب الجلالة!" ولما لم يرد أحد، قال قاسم آقا: "إن السادة لم يتناولوا الطعام أو الشاى منذ الفجر وقد رأوا كل هذه الأهوال، فلتعثروا على مكان قريب كى يتناولوا الغذاء ويستريحوا قليلاً". وهكذا أخرجونا من هناك حيث طرقوا بابًا فى أحد الضواحى (يقال إنه شارع كمال الملك) فخرج رب البيت وعلم بحقيقة الحال ولم يفسح لهم الطريق. وفعلوا ذلك أيضًا فى الباب الثانى، لكن حينما طرقوا الباب الثالث خرجت بضعة نساء وبعد رؤيتهن لنا فى هذه الحال فتحن الباب وقلن إلى قاسم آقا كل ما لم يُقَل: "أيها الكافر! هؤلاء هم أئمة ديننا! نواب مجلسنا! ما الذى فعلوه حتى يصل بهم الحال إلى هذا النحو؟! " فقال قاسم آقا دون أن يفقد زمام أمره: "أيتها الأخوات ! لا داعى لذلك الحديث، افتحن الباب كى يستريح السادة قليلاً ويُقدم إليهم الخبز والشاى".

ويقول:

"كان ذلك منزل السيد على وخرج هو كذلك وأدخلنا وأعدوا لنا مكانًا تحت الدهليز حيث كان حوض المنزل وأحضروا الماء فى الحال وغسلوا وجوهنا وأيدينا وأقدامنا، وأحضروا المراوح للتهوية علينا، كما أحضروا الخبز والشاى. ولم يضن قاسم آقا عن إبداء الود والعطف. وبعدما ارتحنا قليلاً أمر جند القوزاق أن يحضروا العربات التى تمر من هنا حتى يجلس العلماء – الذين تقترب منازلهم من المكان – كل ثلاثة على عربة ونبعث بهم إلى دورهم. ونفذ القوزاق الأمر، لكن ثمة رجلاً – أعتقد أنه من الشرطة– التفت إلى قاسم آقا، وقال: "لا نستطيع إرسال السادة إلى منازلهم، يجب أن اتصل هاتفيًا بباغشاه لتلقى الأوامر". وخرج. وبعد فترة، كانت العربات تقف أمام الباب، لكن هذا الرجل عاد وأخبر بوجوب نقله السادة إلى باغشاه، فغضب قاسم آقا بشدة إلا أنه تماسك. وأجلسونا فى العربات وسلكنا الطريق إلى باغشاه، وأثناء الطريق كان الأهالى يقفون للمشاهدة، ولم يكف البعض عن قول ما لا يليق ووصلنا إلى باغشاه على هذا النحو، لكن ثمة معركة

ثالثة كانت قائمة هناك، حيث اجتمع جند سيلاخورى ورجال مدفعية قره داغ وفرسانها والخدم الموالين للبلاط والرعاع، ووجدوا الفرصة سانحة، فكلما شاهدوا واحدًا من الأحرار قاموا بالثأر منه نتيجة ما بهم من حقد خلال عامين، وما أن هبطنا من العربات حتى التفوا حولنا، ووقع جيب رداء كل منا فى يد مائة شخص، ومن حسن الطالع أنهم لم يمنحوا الفرصة إلى بعضهم البعض، وكنا ننتقل من يد إلى أخرى وإلا لكنا قد أهلكنا فى لمح البصر. ووصل حشمت الدولة لنجدتنا حيث كان متواجدًا بالقرب من المكان، وما أن رآنا فى أيدى هؤلاء حتى عاد إلى الحديقة وصاح واستدعى الآخرين لمساندتنا. وفى شدة الأسر اندفعت جماعة من كبار رجال البلاط وأنقذتنا من أيديهم وأدخلونا الحديقة ونحن فى حال يرثى لها، وهناك حملوا كل شخص فى مكان وقيدوه، وحملونى أنا أيضًا فى إحدى الخيام حيث كان يوجد أبو الحسن ميرزا شيخ الرئيس والشيخ مهدى ابن الشيخ فضل الله، وقد ربطوا شيخ الرئيس بسلاسل طويلة، بينما ربطوا رأسه فى شجرة، وكان ثلاثتنا نعيش فى تلك الخيمة".

مصير ميرزا جهانگير والآخرين.

كانت هذه هى أقوال مستشار الدولة لكنها كانت تحكى قصة إحدى الجماعات فقط، فثمة قصة محزنة أخرى كانت لجماعة أخرى مثلها ميرزا جهانگيرخان وملك المتكلمين والقاضى أرداغى وغيرهم ممن لم يرافقوا السيدين ومن معهما إلى حديقة أمين الدولة ويجدر بنا أن نذكرها فى هذا المقام، ولما كنا قد سمعنا هذه القصة عن لسان ميرزا على أكبر خان أرداغى – شقيق القاضى أرداغى ومرافقه فى كل مكان – لذا نورد فى هذا الموضع ما قاله فى هذا الشأن، يقول:

"لما كان أخى القاضى ضمن من لجأوا إلى المجلس برفقة ميرزا جهانگيرخان وملك المتكلمين وغيرهما، وكان يعيش هناك ليل نهار، لذا كنت

مضطرًا للذهاب إلى المجلس عدة مرات يوميًا لأحمل إليه الغذاء والعشاء، وفى الثانى من شهر تير توجهت إلى المجلس كالمعتاد، ولكن حينما وصت بالقرب منه تقدم جند القوزاق منى ولم يفسحوا لى طريقاً. أثناء ذلك وصلت عربة السيد بهبهانى والأهالى يلتفون حولها، ولما لم يبالوا بتقدم القوزاق إليهم ظلوا فى سيرهم فأدخلت نفسى بينهم ووصلت إلى المجلس، وهناك كنت برفقة أخى وغيره حتى بدأت الحرب. ولما كان بهبهانى وغيره من السادة يخرجون من هناك فقد تتبعناهم، وفى حديقة أمين الدولة حملونا – ملك المتكلمين وميرزا جهانگيرخان وأخى القاضى وآقا محمد على بن ملك المتكلمين وأنا – إلى مكان فى الدور العلوى وجعلوا لنا مقرًا فيه، وجاء إلينا أمين الدولة وأبدى تعاطفه معنا لكن بهبهانى استدعاه وحينما توجه إليه وعاد، قال: "يقول السيد لما كان الشاه يتعقب هؤلاء وقد شاهدهم الأهالى وهم يدخلون هذه الدار فما أكثر من يخبرونه فيأتوا للقبض عليهم، من الأفضل أن ترسل بهم إلى مكان آخر".

قال أمين الدولة هذا ونزلنا أنا وهو من هناك وعهد بنا إلى خادم كى يوصلنا إلى مكان آخر، وتوجه الخادم بنا حتى مقربة من البوابة ثم أشار فى اتجاه الشارع إلى مبنى لم يكتمل بناؤه على أنه مكان أمين. قال هذا وعاد وأغلق البوابة أمامنا، ونظرًا لأن ما من اختيار آخر لدينا فقد اتجهنا إلى المبنى المذكور، لكن حينما وصلنا إلى هناك رأيناه مفتوحًا من كل مكان بدرجة تمكن المارة من رؤيتنا جميعًا، وعلمنا هناك أن أمين الدولة كان يرغب فقط فى إخراجنا وكان منزل السيد حسن مدير صحيفة " الحبل المتين " الصادرة فى طهران قريبًا من هذا المكان، فأرسلنا شخصًا إليه، وحينما جاء ورآنا على هذه الحال حزن حزناً شديدًا واصطحبنا حتى منزله. وهناك، حيث استشعرنا قليلاً من الأمان قام ملك المتكلمين وميرزا جهانگير وأخى بالبحث عن حل، وقال أحدهم: "تذهب إلى السفارة الإنجليزية". ولم يرتض أخى ذلك، وقال: "لن أذهب لأحتمى تحت راية الأجانب". وبعد نقاش دام طويلاً اقترحوا البقاء هناك حتى غروب الشمس، وحينما يحل الليل يخرجون فرادى

ويعبرون الخندق ويتجهون إلى حضرة الشاه عبد العظيم للاعتصام هناك. وشعرنا بالارتياح قليلاً بعد هذا الاقتراح، لكن لم يمر طويل زمان حتى نشبت جلبة بالخارج وأخبرونا بأن القوزاق حاصروا المنزل، فقال أخى وملك وميرزا جهانگير: " جاء القوزاق للقبض علينا ولا يجدر بهم الاندفاع داخل المنزل وإدخال الرعب فى قلوب النساء والأطفال ". فنهض الجميع وبادروا بالخروج بأنفسهم من المنزل، وكان قاسم آقا هو قائد القوزاق فأمر أن يقبضوا على ثلاثتهم – ملك وجهانگير وأخى – وأن يمتطوا الجياد دون أن يتعرض لهم أحد بأذى على أى نحو كان، لكنه عهد بى أنا وآقا محمد على مع الحاج محمد تقى الصراف – الذى قبضوا عليه فى مكان آخر وأحضروه معهم – إلى أحد المشاة التابعين للبلاط، وخلعوا ملابسنا وأحذيتنا وتركونا أمامهم حفاة عراة، وسلكنا الطريق، القوزاق بهؤلاء الثلاثة من الأمام، ونحن مع هذه الجماعة من الخلف، وكان جمع من الأرمن والأوربيين يقفون أمام السفارة، ورآهم ميرزا جهانگيرخان وأراد الحديث معهم، ولكن ما أن تفوه بـــ: "نحن الأحرار..." حتى طعنه أحد القوزاق من خلفه بالسيف وسال الدم منه بشدة، ولم يستكمل حديثه.

وعلى هذا النحو وصلوا بنا حتى ثكنة القوزاق. وحينما أنهى قوزاق المجلس الأمر عادوا إلى هناك [1]، وكانوا يتعطشون لدماء الأحرار، وما أن رأونا حتى هجموا على رؤوس الثلاثة بالسيوف البتارة، وقام القوزاق – الذين أحضرونا – بالحيلولة دون ذلك، لكن من يستطيع منعهم! وتفرقنا جميعًا، ولما رأى القادة كيفية الأوضاع من الحجرات نزلوا إلى أسفل وصاحوا فى القوزاق: "لقد طلبهم صاحب الجلالة ويجب أن نرسلهم إلى باغشاه، لا دخل لكم بهم".

وهكذا تم إنقاذنا وحملونا إلى مكان وعقدوا رقاب كل منا بالسلاسل، لكن

---

(١) كان واضحًا أن قاسم آقا قد قبض عليهم فى البداية وعهد بهم إلى القوزاق ليوجهوا بهم إلى ثكنة القوزاق ثم يبادرون بالقبض على بهبهانى وغيره من السادة، ويقال إن البعض قد اقتفى أثر ملك المتكلمين ورفاقه وأبلغ عن أماكنهم.

القوزاق ظلوا في توجيه الأذى حيث كانوا يقتربون منا في جماعات ويمطروننا بالسباب وهم يتغنون، ولم يستطع أخي أن يمنع نفسه، وبدأ يتحدث بصوت عالٍ فيما معناه: " نحن نعرف أن ثمة إدارة واحدة في إيران تسير بالنظام ألا وهي إدارة القوزاق، فما حدث كي يُرى من مثل هذه الإدارة مثل هذه الفوضى والاضطرابات؟! لقد قبضتم علينا بأمر الشاه وسوف تتوجهون بنا إلى باغشاه، ونحن لا نعلم هل سيقوم الشاه بقتلنا أم سيعفو عنا؟ وأيًا ما كان، لمَ كل هذا السباب المخجل؟"

كان يقول ذلك بصوت عالٍ، وجاء بعض القادة ممن سمعوه وتأثروا به وأبعدوا القوزاق من حولنا، وعينوا حارسًا كي لا يُسمح لشخص بالاقتراب منا. كما جاء البعض وضمدوا جرح رأس ميرزا جهانگيرخان الذي كان لايزال يتدفق منه الدم وأبدوا تعاطفهم، وأحضروا معهم الشاي والدخان، ومرت ساعات على هذا النحو، وقبل الغروب بساعة جاءوا قائلين: "انهضوا سنتوجه بكم إلى باغشاه". وحينما نهضنا أحضرونا بين القوزاق والمدافع وأجلسوا كل زوجين على مدفع وعقدوا أعناقنا بالسلاسل. كان جند القوزاق يقولون: "سوف نضعكم على هذه المدافع التي دمرنا بها المجلس ". أثناء ذلك، وبينما كانوا يرغبون في أن يرسلونا وصل أحد القادة الروس ورأى هذه الحال فتغير وأمر أن ينزلونا من فوق المدافع، وطبقًا لأوامره عهدوا بنا إلى إحدى كتائب القوزاق وسلكوا طريقهم. وكان الأهالي يمطروننا بالسباب من الشوارع التي مررنا بها ويلقون علينا بالأحجار والتراب، وحينما وصلنا أمام باغشاه قام أحد جند سيلاخوري بإصابة جبهة أخي بخنجر وسال الدم منه.

وفي باغشاه أوصلونا إلى خيمة كان يوجد بها العديد من الأشخاص- من أتباع السيدين بهبهاني وطباطبائي وغيرهما - واتخذنا مكانًا بينهم دون أن يتحدث أحد مع الآخر، وانكمش كل واحد منا في نفسه خشية على روحه، وبعد فترة، حيث حل الظلام جاء بعض الأشخاص وأخذوا ملك المتكلمين وميرزا جهانگيرخان

وأخى القاضى كلاً على حدة، كنا لا نشك فى أنهم يأخذونهم للقتل واغتممنا جميعاً. لكن لم تمض ربع الساعة حتى أعادوهم وقال من أعادهم إلى القوزاق: " يأمر قائد الكتيبة أن يظل من تم القبض عليهم فى أمان هنا، ولا ينبغى لأحد أن يقوم بأذيتهم، بل يجب الاحتفاء بهم والمحافظة عليهم، كما أنه أمر أن يتم التعامل مع هؤلاء الثلاثة على حدة، وألا يكونوا مع الآخرين فى مكان واحد".

وكانت هذه الرسالة فى محلها للغاية، فقبل وصولها لم يكن القوزاق يضنون عن توجيه كل أنواع السباب والإهانات إليهم، لكنهم تعاملوا بشىء من الرأفة فى هذا الوقت، كما أحضروا الدخان ومستلزماته وقدموه إلينا، وكانوا يتحفظون على ملك وميرزا جهانگيرخان وأخى القاصى فى مكان منفصل بعيد عنا، كان قلبى يحترق على حال أخى الجريح فطلبت من الضابط الذى يقوم بحراستنا السماح بالتوجه إليه لتضميد جراحه، وحينما وصلنا إلى هناك قدمت إلى أخى سيجارة مشتعلة، وقمت بتمزيق ذيل ردائى وضمدت به جرحه، وظللنا على هذه الحال كل منا ينكمش على نفسه ويغط فى بحر الغم. وبعد فترة تقدمت نحونا إحدى كتائب القوزاق بالخطوة العسكرية. فنهضنا جميعًا ومشينا، وكان الكثيرون منا يرتعدون ظناً منهم أنهم سيقومون بقتلنا وسط هذا الظلام، إلا أننا رأيناهم يتجهون ناحية أحد المبانى، ووصلوا إلى إحدى الحجرات الكبيرة، وأحضروا العشاء هناك ثم أجلسوا كل ثمانية مقيدين فى سلسلة حول الحجرة ودقوا المسامير وسط الحجرة وقالوا: " ناموا، وكل من يقوم من مكانه سيتم إطلاق النار عليه". وتمدد الجميع ونمنا. ويعلم الله كيف مرت علينا هذه الليلة".

مصير الآخرين.

كان هذا هو مصير إحدى الجماعات، ولما كان للجماعات الأخرى مصير آخر لذا نورد ذكرهم فى هذا الموضع:

"كان ممتاز الدولة وحكيم الملك – اللذان تم ذكرهما – فى رفقة السيدين

وغيرهما فى حديقة أمين الدولة، ولما كان جند القوزاق يندفعون هناك وقامت تلك الجلبة، قام هذان بإخفاء وجهيهما بالشعر، وبعد رحيل القوزاق وإخلاء الحديقة وصلا بمساعدة أحد خدام أمين الدولة الذى كان على علاقة وطيدة بأحد خدام ممتاز الدولة إلى حجرته ومكثا هناك حتى الليل. وفى الظلام، تنكرا وخرجا متوجهين إلى منزل خادم ممتاز الدولة، ومن هناك اتجها إلى السفارة الفرنسية كى يتوجها من بعد إلى أوربا.

أما السيد محمد رضا مساوات – الذى ذكرناه ضمن الأشخاص الثمانية الذين استدعاهم محمد على ميرزا، وإذا ما كان قد وقع فى الأسر للحق به الأذى الشديد بسبب أحاديثه – فقد اختفى فى مكان ما قبل اندلاع الحرب وتوجه متنكرًا إلى باكو عن طريق مازندران كى يتوجه من هناك إلى تبريز.

أما السيد جمال الواعظ – وكان كذلك ضمن الثمانية السالف ذكرهم – فقد اختفى هو كذلك قبل اندلاع الحرب ثم خرج من المدينة متنكرًا وتوجه إلى بروجرد حيث تم قتله هناك، وسوف نقص حكايته من بعد.

أم ميرزا داود خان – وكان ضمن الثمانية السالف ذكرهم – فلا علم لنا بمصيره لكننا سوف نرى أنه تم القبض عليه من بعد وأُرسل إلى باغشاه مع غيره.

أما الشيخ مهدى – أحد المطالبين بالحياة النيابية وهو ابن الحاج الشيخ فضل الله – فكان فى ذلك اليوم يتقدم إحدى الجماعات لمساعدة المجلس، ولا علم لنا بمصيره سوى أنه كان ضمن المقبوض عليهم ووجه به إلى باغشاه وقد ذكر مستشار الدولة اسمه .

وكذلك كان مصير أبى الحسن ميرزا الشيخ الرئيس الذى عُرف بمطالبته بالحرية، وكما رأينا كان أيضًا ضمن المعتقلين الذين ذكرهم مستشار الدولة.

أما السيد حسن مدير صحيفة "الحبل المتين" فقد أفسح مكانًا لميرزا جهانگير خان وغيره، ولكن لما قدم القوزاق للقبض على هؤلاء اختبأ السيد حسن فى مياه

أحد الآبار، وتوجه فى نفس الليلة أو فى غدها إلى السفارة الإنجليزية.

أما السيد جمال الدين افجه اى فقد قدم لمساندة المجلس وتعرض رفقاؤه لقصف الرصاص، وفتح ميرزا صالح خان باب منزله وأدخله ومن معه. ويقص ابنه الأكبر (السيد مهدى) الذى كان مرافقًا له بقية القصة على النحو التالى:

"أفسحوا لنا مكانًا فى أحد الأفنية وكان وزير أكرم وأتباعه مشغولين بالقتال من أعلى المنزل وكانوا فى تلك الشدة يطهون طعام الغذاء وبسطوا لنا المائدة لكن بدا واضحًا أن قليلين للغاية من تناولوا الطعام. ومكثنا هناك حتى اقترب العصر وأدركنا عندئذ أن المنزل صار خاليًا ولم يبق شخص فيه، وحينما خرجنا وبحثنا رأينا أن ميرزا صالح قد غادر المنزل هو وأتباعه وخرجوا، ولم نر مكانًا للخروج وجعلنا نبحث عن طريق من هذا المنزل إلى ذاك حتى خرجنا بصعوبة، واختبأ أبى لفترة فى منزل إحدى جاراتنا ثم حرج من عندها وغادر طهران بأوامر من محمد على ميرزا.

إن قصة خلاص ميرزا صالح وغيره من المقاتلين لعجيبة. فنظرًا لأنهم كانوا يقاتلون بحنكة ومهارة فلم يفقدوا سوى أعداء قليلة للغاية، وبنفس الحنكة خرجوا من طهران دون أن يسقط منهم واحد (سوى مدير جريدة روح القدس وهذين الشخصين اللذين ذكر مامانتوف قصة قتلهما).

هذه هى مصائر من كنا نعلمهم، وواضح أن ثمة مصائر أخرى للآخرين، وبصفة عامة، ففى ذلك اليوم اضطر كل من عُرف بمطالبته بالحرية- سواء من خرجوا منهم وشاركوا فى المعركة وسواء من لزموا دورهم ولم يشاركوا - إلى الاختباء، ثم مضى الكثيرون منهم إلى باكو أو اسطنبول، وهناك طائفة - من أعضاء المجلس أو من الأحرار - سلكت طريقها إلى البلاط ليأمنوا فى ذلك الوقت وليعيشوا فى طهران فى راحة بال".

لجوء تقى زاده إلى السفارة الإنجليزية:

ومن الحكايات الأخرى التى يجب ذكرها حكاية لجوء تقى زاده وغيره إلى السفارة الإنجليزية، وكما شاهدنا، كان هذا الشاب نائب آذربايجان من راغبى الحرية فى تلك الأيام الأخيرة، ورغم ذلك لم يخرج من منزله فى ذلك اليوم ولم يبد أى تصرف فى حين أنه كان رئيسًا لجمعية آذربايجان – التى اشتركت فى هذا القتال – فضلاً عن نيابته فى المجلس، وكان يجب عليه الخروج للمشاركة فى المعركة. والأعجب من ذلك أنهم كانوا يقولون:

"إن تقى زاده كان على علم بنبأ هذه المعركة قبل غيره فقد كان يرسل خادمه بالرسائل إلى منازل بعض الأشخاص عند حلول الفجر، يقول فيها: " ستندلع الحرب الليلة، فلتبادروا بالمجئ".

ومع هذا لم يخرج هو من بيته، وقد اتفق معه فى هذا المسلك ميرزا على أكبر خان دهخدا وغيره.

كتب براون قائلاً:

"تأخر تقى زاده ولم يترك القوزاق طريقًا، لكن لا علم لنا عن كيفية ذلك وما نعلمه أن كل من أتى، بحث عن طريق، وكان تقى زاده – الذى كان يقطن خلف المجلس – (١) يستطيع أن يأتى أسرع من الآخرين".

ولدينا فى هذا الشأن أيضًا أقوال السيد عبد الرحيم خلخالى – الذى كان معاونًا لمدير صحيفة "مساوات" ورافق تقى زاده فى ذلك اليوم – ونوردها فى هذا المقام، يقول:

"أردت فى ذلك اليوم الذهاب إلى بهارستان وكلما اتجهت إلى ناحية لم أجد

---

(١) كان منزله يقع فى مواجهة المجلس وقد غادره قبل قصف المجلس بيومين وأقام فى منزل آخر يقع خلفه.

طريقاً، أثناء ذلك، وفى طريق عودتى، تقابلت مع خادم تقى زاده فى شارع دوشان تپه حيث نادانى، فاستفسرت منه عن مكان السيد، فقال: فى المنزل. وتوجهت معه حتى منزل تقى زاده ووجدت هناك الأمير حشمت وميرزا على أكبر خان دهخدا وغيرهما وجلسنا ودار نقاش بيننا، وإذا بأصوات الطلقات تعلو فجأة فأدركنا أن الحرب قد بدأت وظللنا هناك حتى انتهت المعركة. ولما كان الجند قد حاصروا المناطق المحيطة لم يكن بمقدور أحد منا الخروج، وجلسنا ونحن نشعر بالجوع ولا نعلم ما الذى ينبغى عمله، وتملكنا الخوف لدرجة أننى شاهدت بعينى شعر رأس دهخدا وقد تخضب بالبياض. ومكثنا على هذا النحو حتى قبل الغروب بساعة، ولما ضقنا ذرعًا طلب محمد على خان الخروج وبحث عن حيلة، وبعد أن رحل وحل الظلام على المكان فكرنا نحن كذلك فى الخروج من المنزل، لكن أثناء ذلك عاد على محمد خان[1] محضرًا عربة معه استقلها كل من تقى زاده وهذا وأنا وأحد الأشخاص. [2] واتخذ على محمد خان – الذى كان يرتدى قبعة على رأسه – مكاناً له بجوار السائق، ووصل بنا إلى السفارة الإنجليزية، وظل الأمير حشمت – الذى لم يجد له مكاناً فى العربة – إلا أنه لحق بنا بعد فترة قليلة. وعلى هذا النحو استرحنا من الخشية والقلق الذين سيطرا علينا".

وورد فى كتاب آبى حول هذا الشأن:

"إنه فى حوالى الساعة التاسعة وصلت رسالة من تقى زاده إلى الميچور استوكس يخبره فيها برغبته هو وثلاثة من أتباعه فى اللجوء إلى السفارة لأن الجند يبحثون عنهم، ويخشون كل دقيقة من القبض عليهم، وإذا ما رفضت السفارة مطلبهم سيتعرضون للقتل دون شك. وقد رد الميچور استوكس وفقًا لما ورد إليه

---

(١) هو شقيق ميرزا محمد على خان تربيت وقريب تقى زاده، درس فى المدارس الأمريكية وكان يجيد الإنجليزية وسوف نرى أنه صار أحد رؤساء المجاهدين فى العام التالى وقتل فى الصراع الذى دار بين الاعتداليين والثوريين .

(٢) لم يذكر اسم ذلك الشخص .

من أوامر، ولم تمض فترة حتى قدم تقى زاده ومعه ستة آخرون، منهم مدير صحيفة "الحبل المتين"، ونائبى مديرى "مساوات" و"صور إسرافيل" إلى السفارة وسمحوا لهم. ومما لاشك فيه أنهم لو لم يسمحوا لهم لحل بهم نفس مصير ميرزا جهانگير وملك المتكلمين اللذين تم شنقهما فى غد ذلك اليوم دون تحقيق".

ويقول خلخالى عن السيد حسن مدير صحيفة " الحبل المتين " إنه وصل إلى السفارة فى غد ذلك اليوم وهذا هو الأصدق. وعلى أية حال، وكما نعلم إنه لم يكن من رفقاء تقى زاده.

على هذا النحو انتهى يوم الثانى من شهر تير الكئيب، وعلى هذا النحو خمدت ثورة طهران التى امتدت عدة أعوام. ومن الأحداث التى تمت فى ذلك اليوم أنهم فى تلك المعركة وذلك الصراع، ووفقًا لأوامر محمد على شاه، أطلقوا سراح الشيخ محمود ورامينى والسيد محمد اليزدى – اللذين كانا ممن زعماء النهضة فى ميدان دار المدفعية – وشخصين أو ثلاثة آخرين ممن تم القبض عليهم بأمر المحكمة ووجهوا بهم إلى باغشاه. وهناك أبدى الشاه التعاطف تجاه الشيخ محمود والسيد محمد ومنح كل منهما خلعة، كما أبرق كذلك لعودة صنيع حضرت وأعوانه الذين كانوا فى كلات.

غداة ذلك اليوم

بعدما انتصر لياخوف أطاح بأساس الحياة النيابية، وكانت أزمة الأمور كلها تقع فى يده. وفى الأربعاء الثالث من شهرتير (٢٤ جمادى الأولى) أعلن الحكم العسكرى فى طهران، وقد دُوِّن من قبل (أى قبل القصف بيوم واحد) – ٢٢ جمادى الأولى – بيان فى هذا الشأن بخط لياخوف وتم طبعه وتوزيعه على المدينة، مفاده:

"لا يجب على الأهالى التجمع فى الشوارع، وسوف يقوم الجند بإطلاق الرصاص على كل من يخالف ذلك لتفريقهم، ومحذور على أى شخص حمل

الأسلحة أو أدوات القتال، وسوف يتم ضرب كل من يتعارك مع الجند".

لقد محى كل آثار الحياة النيابية، ولم يكن هناك وجود لا لصحيفة ولا لجمعية ولا لحديث، ومع ذلك انتظمت الأمور وعلت الأصوات لفتح الأسواق خشية، وانتشر القوزاق فى المدينة وكانوا يحولون دون تطاول جند سيلاخورى وفرسان قره داغ وغيرهم، وكانوا يغيرون فقط على المنازل التى أمر بها الشاه، فقد أغاروا اليوم على منازل جلال الدولة بن ظل السلطان وظهير الدولة زوج أخت ظل السلطان، وسلب الجند والقوزاق كل محتوياتها. والعجيب أنهم نصبوا مدفعًا فى منزل ظهير الدولة ثم قاموا بأعمال السلب رغم عدم وجود أى شخص هناك لإبداء المقاومة، فقد كان ظهير الدولة نفسه فى جيلان يحكم هناك.

وكما ذكرنا سالفاً، كان عداء محمد على ميرزا بشكل أكبر تجاه ظل السلطان، ولما كان يمت له بصلة قربى ويعد من مؤيديه رأى فى ذلك ضرراً، وما أشاعوه بأن الرصاص كان يطلق على القوزاق من جمعية "الأخوة " التى كان مقرها فى ذلك المنزل، أو أن ابن ظهير الدولة (ظهير السلطان) كان من الأحرار لهو محض افتراء.

واليوم كتب محمد على ميرزا المرسوم التالى إلى مشير السلطنة رئيس الوزراء:

"لما كان إنشاء الجمعيات دون إعداد اللوائح من دواعى الفوضى، وتقوم الصحف وكذلك الخطباء بمساندتها، ويفسدون أمور المملكة، ولما كان زمام الأمور يجب أن يكون فى يد عدد معدود من العقلاء، فكل ما نبغيه هو الحيلولة دون مفاسدهم هذه وحث الجمعيات على القيام بوظائفها، وبسبب حماية المجلس لهم ليس فى الإمكان إقرار النظام والراحة للعامـــة – وهى الوظيفة المفوضة إلينا من قبل البارى تعالى – إلا بالقبض على المفسدين، إلا أن المجلس قام بحمايتهم، ولجأ عدد من الأشرار للاعتصام فيه، وأقاموا الاستحكامات أمام قوات الحكومة واستخدموا

القنابل والآلات النارية، لذا قمنا بحل المجلس ابتداءً من اليوم ولمدة ثلاثة أشهر، وخلال هذه الفترة سيتم انتخاب أعضاء من الشعب ومن محبى الدولة ممن يتسمون بالتدين، وسوف يتم افتتاح المجلس النيابى مع مجلس الشيوخ طبقًا للدستور ليعمل على استتباب النظام".

وكما نعلم أن تدوين هذا المرسوم كان فى أعقاب خطة تم رسمها مع لياخوف والسفارة الروسية لمنع انتقادات الحكومات الأجنبية، فهم يؤكدون فيه على شيئين، أولهما: اضطرارهم للتطاول على المجلس. والأمر الآخر: التأكيد على أنهم لم يطيحوا بالحياة النيابية، بل إن الشاه قد نحى المجلس من منطلق القانون، وسوف يتم افتتاحه بعد ثلاثة أشهر مع مجلس الشيوخ.

ومن نفس اليوم أو من غده كتب مرسومًا آخر إلى مشير السلطنة نورده فى هذا المقام:

"إن هدفنا هو تحقيق استقرار المملكة وراحة عامة الرعية، والإجراءات التى تمت بشأن القبض على المفسدين والأشرار كانت تحقيقًا لهذا الهدف، ولكى يحظى الأهالى الأبرياء والرعايا المسالمون برأفة الذات الملكية ورحمتها نقر فى هذا الأمر العفو العام على جميع الأهالى وسوف نغض الطرف عن جميع المتهمين ونشكل جلسة استجواب من أشخاص منصفين لمن تم القبض عليهم يحققون بدقة ويعفون عن البرئ شريطة ألا يتحاوز الأهالى حدود القانون الذى صدر من قبل الحكومة العسكرية وألا يرتكبوا فعلاً مخالفًا للقانون".

وبهذا المرسوم تم منح العفو العام للمطالبين بالحياة النيابية، غير أن هذا لم يكن إلا رياء، ولم يكن الهدف من ورائه سوى عقد ألسنة الأجانب. ولما كان هذا المرسوم من أجل الأجانب لذا أرسلوا مسودات من هذين الأمرين إلى السفارات كما أبرق علاء السلطنة – وزير الخارجية– بهما إلى جميع الأرجاء.

قتل ملك وميرزا جهانگير خان.

كان البحث لايزال جاريًا اليوم عن الأحرار، وقبضوا على كل من عثروا عليه وأرسلوهم إلى باغشاه. هذا وقد قضوا اليوم على ملك المتكلمين وميرزا جهانگير دون التحقيق معهما أو محاكمتهما، وقد شاعت أحاديث كثيرة فى هذا الشأن، ولكن نظرًا لاستفسارنا عن هذا الحدث من ميرزا على أكبر خان أرداقى – الذى كان مقيدًا معهما ومع الآخرين فى باغشاه – فسوف نورد فى هذا المقام نفس الحديث الذى ذكره، يقول:

"أنهينا ليلة الأربعاء فى تلك الشدة واستيقظنا مع حلول الفجر وعقد جند القوزاق كل ثمانية منا فى سلسلة وأخذوهم إلى الخارج ثم يأخذون ثمانية غيرهم بعد أن يعيدوهم. وكان الحاج ملك المتكلمين وأخى القاضى يتناولان علاجًا وكانوا يحضرونه لهما، وبعد فترة وجيزة جاء خادمان لأخذ ملك وميرزا جهانگيرخان وأخرجوهما من الصف وعقدا على عنق كل منهما بسلسلة يدوية (كسلسلة الصيد) وقالا: "انهضا وتعالا". وبدا كل منهما وكأنهما يعلمان أنهما سيقتلان، وقال ملك المتكلمين على عتبة الباب بصوت مسموع وحزين البيت التالى:

– لقد عهدنا بالظلم الواقع علينا إلى بلاط الملك، فأى خذى لحق ببلاط العدوان!

ثم خرج من الباب وتملكنا جميعًا الحزن، وتضاعف حزننا بعد ما رأينا هذين الخادمين أعادا السلستين اللتين كانتا على عنقى ملك وميرزا جهانگير وألقياها أمام الحجرة فوق السلاسل الأخرى، حيث تأكدنا بما لا يدعو للشك أن أمر هذين المسكينين قد انتهى.

فى تلك الأثناء بدأ الحوار – ولأول مرة – بين المعتقلين، وسأل الحاج محمد تقى: أين ذهبتم حينما أخذوكم بالأمس؟ وكيف عدتم؟ فأجاب أخى: أخذونا إلى لياخوف حيث رغب فى رؤيتنا، ولم يتحدث معنا لكن شاپشال – الذى كان بجواره

– استهزأ بميرزا جهانگير، وقال له: "أنا ابن يهودى؟!" [1] ثم قدم الضابط الذى احتجزنا تقريرًا بأقوالنا فى ثكنة القوزاق إلى لياخوف وحينما أعادونا كنا على يقين من أنهم سيقتلون ثلاثتنا، ولا أعلم الآن لمَ لمْ يقتلونا؟!".

هذه هى الرواية التى ذكرها السيد ميرزا على أكبر خان، ونحن نعدها صحيحة من كل جانب. ويقول ماما نتوف أيضًا:

"كان مصير هذين الشخصين يسيرًا للغاية، فقد وجهوا بهما اليوم إلى الحديقة (باغشاه) وتحفظوا عليهما بجوار النافورة، وألقى حارسان بحبل حول عنقيهما، وسحبوهما من الجانبين وسالت الدماء من فيهما وفى تلك اللحظة أصاب حارس ثالث قلبيهما بخنجر، كما قتلوا مدير الصحيفة[2] كذلك بهذه الكيفية".

ويقول فى موضع آخر:

"قلت لشاپشال معلم الشاه: ماذا حدث لهذين الشخصين – مدير الصحيفة والخطيب – اللذين أُخذا لمعاقبتهما؟ فأجاب: أتسأل عن صور اسرافيل مدير الصحيفة وملك المتكلمين؟ قلت: نعم. قال: لقد ألح الشاه كى يُعاقبا، لكنهم سوف يتحفظون على الآخرين فى القيد إلى أن يتم افتتاح المجلس القادم".

وحينما ذاع نبأ مقتل هذين الشخصين على هذا النحو فى المدينة ازدادت خشية الأهالى، وسعى نواب المجلس زعماء الحرية للبحث عن ملجأ أو مخبأ ولما لجأ معظمهم إلى السفارة الإنجليزية، وكما ورد فى كتاب آبى، وأضيف حوالى ثلاثة وأربعين أو أربعة وأربعين شخصًا مع فجر ذلك اليوم إلى عدد المعتصمين هناك، لذا عين لياخوف بعض الأشخاص من القوزاق والجند للحراسة حول السفارة كى يحولوا دون توجيه الأهالى إلى هناك وكان لهذا الحدث توابع أخرى سوف نذكرها فى موضعها.

---

(١) كان شاپشال يعرف فى إيران باليهودى، ودومًا ما كانوا يطلقون عليه فى صحيفة صور اسرافيل " ابن اليهودى ".

(٢) لم يُعلم أى مدير صحيفة يتحدث عنه.

كان محمد على ميرزا منفعلاً بتلك الأحداث الواقعة فى باغشاه (مقر الاستبداد) بسبب أحقاد عامين سابقين. من ناحية أخرى فإن رجال البلاط ذوى الفطرة الظالمة الذين تضرروا كثيرًا من الحياة النيابية قد وجدوا الفرصة سانحة أمامهم لكى يتعاملوا بقسوة لا حد لها مع كل من يقع تحت أيديهم.

وكما رأينا، فقد أحضروا العديد من الأفراد إلى الحديقة الليلة الماضية، وأضافوا إليهم اليوم عددًا آخر، ونعلم أنه من الأفضل أن نستهل حديثنا بحكايات المعتقلين التى نعرفها ثم ننتقل من بعد إلى حكايات أخرى. ولو تمكن من كانوا فى باعشاه اليوم من كتابة ما رأوه بأم أعينهم لظهر كتاب شديد العجب، ولكن لما كانت معلوماتنا ضئيلة فى هذا الصدد فسوف نقتصر فى حديثنا :

على الرغم من ذلك التأييد الذى كان يبديه المغفور له بهبهانى وطباطبائى تجاه محمد على ميرزا، وعلى الرغم من انخداعهما به، إلا أنهما كانا عنده من أشد المذنبين نظرًا لكونهما من مؤسسى الحياة النيابية، لكن نظرًا لأنهما كانا يحملان لقب "سيد" و"ملا" لم يستطع محمد على ميرزا أن يفعل معهما أكثر مما فعل. لقد ظل بهبهانى فى القيد لمدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك وجهوا به إلى "كلهرش" أما طباطبائى فنظرًا لدعم زوجة الشاه (أخت كاميران ميرزا) له، فكان يتم التعامل معه بشىء من الرفق منذ اللحظة التى وصل فيها إلى الحديقة وتم إطلاق سراحه بعد ثلاثة أيام وأقام فى " ونك " ثم اتجه من بعد إلى خراسان، وتم طرد ابنه ميرزا محمد صادق من إيران بأمر من الشاه واتجه إلى أوربا. كما تم إطلاق سراح الحاج خويى إمام الجمعة وأقام فى طهران، وظل مستشار الدولة عدة شهور فى القيد حتى تم إطلاق سراحه هو أيضًا واختاره محمد على ميرزا ليكون كاتبًا له. وليست لدينا معلومات حول الشيخ مهدى وأبى الحسن ميرزا، وكل ما نعرفه أنه تم إطلاق سراحهما وطُردا من إيران. أما القاضى أرداقى وبقية المعتقلين فسوف نورد قصتهم وفقًا لأقوال ميرزا على أكبر خان، يقول:

"فى نفس اليوم الذى قتلوا فيه ملك وميرزا جهانگير اقاموا محاكمة فى إحدى الحجرات للتحقيق، وكان القائمون عليها: مؤيد الدولة حاكم طهران، والأمير مؤيد السلطنة، والسيد محسن صدر الأشراف، وأرشد الدولة، وأحد ضباط القوزاق وميرزا عبد المطلب اليزدى (مدير صحيفة آدميت). وكان محقق الشرطة هو ميرزا أحمد خان (اشترى). [1] وفى اليوم نفسه أخذوا إلى تلك الحجرة كل من كانوا حول السيد طباطبائى ممن لم يبدر عنهم أى عمل، وأطلقوا سراحهم بعد التحقيق معهم. كما أطلقوا سراح السيد محمد على بن ملك بعد حادث أبيه، وعلى هذا النحو قل عددنا. أثناء ذلك أحضروا ميرزا يحيى – الذى تم القبض عليه – إلينا، ثم أخذونا جميعًا – وكنا حوالى اثنين وعشرين شخصًا – ونحن مقيدون بالسلاسل وبتلك الحالة المزرية التقطوا صورًا لنا. بعد ذلك أحضروا معنا السيد يعقوب الشيرازى، وقضينا يومنا هذا ونحن فى القيد، وقدموا لنا الغذاء والعشاء، وكان عبارة عن الخبز مع الخيار وكانوا يقومون يوميًا بإخراجنا ثمانية ثمانية ونحن مقيدين بالسلاسل وكنا نفكر: أى ذنب اقترفناه؟ ولم يتورعوا عن إلحاق الأذى بنا، خاصة تجاه بعض الأشخاص وفى مقدمتهم مدير روح القدس المسكين وضياء السلطنة.

وكانت المحكمة التى عقدوها تتحرى حول ثلاثة أشياء وتريد الحصول على معلومات حولها باستخدام الضغط والتعذيب، وأول هذه الأشياء: من الذى ألقى القنبلة على الشاه؟ والثانى: من هو مؤسس الجمعية المنعقدة فى منزل عضد الملك؟ والأخير: من الذى قدم البنادق إلى المجاهدين؟

هذا ما كانوا يتتبعونه دون أن يكون لهم أدنى اهتمام بالحياة النيابية أو بالمجلس. ولما كانوا يعتقدون أن مدير روح القدس وضياء السلطنة لديهما معلومات حول إلقاء القنبلة على الشاه فقد أوقعوا بهما أشد ألوان العذاب حيث كانوا

---

(1) هو ميرزا أحمد خان (أو السيد اشترى) الذى طردوه من المحكمة الآن، وقد أبدى مواساته وتعاطفه الشديدين تجاه المعتقلين.

يخرجونهما كل ليلة ويبرحونهما ضرباً، ورغم أن صياحهما – الذى كان يفطر القلوب – كان يعم أرجاء باغشاه، لكن ما من وزير ولا أمير هب لنجدتهما. وكنا نعانى سوء حالنا من جانب، ونتأذى على حال هذين المسكينين من جانب آخر. وفى النهاية قال لقمان الملك – حكيم الشاه وكان مستاءً على حالهما المزرى – فى غضب: إلامَ ترعبوننا؟! ومتى تكفون أيديكم عن أرواح هؤلاء المساكين ؟! ورُفعت يد التعذيب عنهم نتيجة لغضبه ولومه. وقام لقمان الملك هذا – غفر الله له– بعمل حسن آخر تجاهنا، فقد مكثنا هناك لشهور وليس على جسد كل منا سوى قميص واحد وسروال واحد وقد بليت بعد عدة أيام وتمزقت، وحلت بنا جميعًا حالة سيئة، وأرسل ذلك المغفور له قميصًا وسروالاً لكل منا، واشترى بعمله هذا كرامتنا.

وكان قائد الحرس الخاص بنا يدعى سلطان باقر وهو الذى كان يتولى التعذيب، وكالمعتاد، أخذ مدير روح القدس ذات ليلة وأنهكه ضربًا ثم أخذه تحت إبطه وهو فى حالة مزرية وأحضره إلى الحجرة وأجلسه مكانه وأراد أن يلقى بالسلاسل على عنقه وهو يوبخه ويسبه، فقال روح القدس المسكين وهو فى هذه الحالة المزرية: " جناب السلطان، ما الذى أعلمه كى أقوله؟ " فاضطرب باقر خان من رده هذا ورفع يده بالسوط وضرب ذلك المسكين بجسده الواهن عشرين أو ثلاثين جلدة، ولم يكتم غضبه والتفت إلى الآخرين وأخذ يطيح فيهم ونال بسوطه الحاج محمد تقى، وأخى القاضى، ويحيى ميرزا، وميرزا داود خان. وفى تلك الليلة أبدى يحيى ميرزا رد فعل غريب أوقعنا جميعًا فى الدهشة. فقد سدد باقر خان عدة سياط على رأسه ووجهه ولم يحرك ساكناً، أثناء ذلك تراجع باقر خان قليلاً وأفسح المسافة بين قدميه بما يفيد أنه سيبرحه ضربًا فأحنى ميرزا يحيى رأسه بكل هدوء من تحت السلسلة واستدار إلى الحائط وأسلم ظهره إلى السوط، وعندئذ لم يقف باقر خان ساكنًا بل أخذ يسدد إليه ضربات السوط التى بلغت ستين أو سبعين ضربة متتالية على جسده الذى لا يستره سوى قميص بالٍ، واعتقدنا أنه غاب عن الوعى، ولكن ما أن سدد باقر خان ضرباته وخرج من الباب حتى استدار ميرزا

يحيى بوجهه البشوش الهادئ وقال" "رحل ذلك الخسيس؟!" ووقعنا فى الدهشة من هيئته، وكان صبره هذا وهدوؤه مما شد من أزرنا وقلل من حزننا، بعد ذلك تحدث إلينا وقص بعض الأحداث الخاصة بفدائية أحرار فرنسا والضرر الذى لحق بهم، وصب الماء على نار قلوبنا بأحاديثه تلك وسلوكه هذا.

كان ميرزا يحيى هذا يتسم ببياض البشرة وبشاشة الوجه والجمال إلا أن سلوكه كان أجمل من ذلك وكان حديثه هو الشىء الوحيد الذى يريح قلوبنا منذ اليوم الذى جاء فيه، فكان يسدينا النصح ويسوق الحكايات فيهون من تلك الشدة التى حلت بنا. وفى نفس الليلة التى تلقى فيها ضربات السوط تلك لم يتخل عن بشاشة وجهه وحلاوة حديثه لدرجة أوقعتنا فى الدهشة والشك، وتساءلنا: هل لم تصل ضربات السوط تلك إلى جسده؟! ولكى نتحرى حقيقة الأمر، رفعنا قميصه فوجدنا ظهره كله تعلوه ألوان زرقاء وسوداء وهذا ما ضاعف من دهشتنا.

وقضينا اثنى عشر يومًا على هذه الحال، وفى اليوم الثالث عشر قتلوا أخى القاضى، وكيفية ذلك أنهم كانوا يحضرون إليه العلاج كل يوم وكان يتناوله مع بزوغ الفجر وفى العشاء. وبعد عدة أيام جاءنا رضا بالا رئيس الشرطة وكان صديقًا لأخى، واستفسر عن أحوالنا، فأوصاه أخى أن يرسل إلى منزلنا فى طلب علبة الحبوب الخاصة بعلاجه، وقد أنجز هذا الأمر وأحضروا العلبة، وكان يتناول كل يوم حبتين إحداهما مع حلول الفجر والأخرى فى العشاء وكان أخى يتلو القرآن دومًا أثناء الليل، ولما كان يتمتع بصوت عذب كان جند القوزاق يستمعون إليه، وفى الليلة الثانية عشرة قرأ بعض آيات من القرآن الكريم، ونظرًا لما كان ينتابه من الضيق، وما كان ينتابنا أيضًا، أنشد بعض أشعار قارئى الروضة:

حينما طوى بساط آل النبى فى لحظة، حل ربيع روضة الدين.

فبكينا جميعًا واغتم القوزاق كذلك، ومن الغد حينما جاء باقر خان، سأل: من الذى قرأ الروضة البارحة؟ فقدموا تقريرًا بذلك إلى جنابه وذكرنا له الوضع، فقال:

لا يجب أن تفعلوا ذلك ثانية. ثم وجه حديثه إلى أخى، قائلاً: "هات علبة الحبوب تلك عندى". فرفض أخى، فضغط باقر خان وأخذ منه العلبة وأحضرها وقت العشاء، وأخرج منها حبتين إلا أن أخى رفض تناولهما. وليلاً، وبينما كنا نائمين قدم باقر خان وأيقظنا وأبدى بعض اللين وتحدث برفق، ولم نعلم سر تصرفه هذا. ومع الفجر، حينما استيقظنا ونظرًا لعدم وجود دواء آخر، تناول أخى الحبتين اللتين كانتا بجوارى البارحة، ولم تمض ربع الساعة حتى اضطرب حاله، وصاح قائلاً: خذونى. والتففنا حوله ولم نعلم ماذا نفعل. أثناء ذلك وصل الخبر إلى باقر خان فنهض من نومه وسارع إلى هناك، ودون أن يستفسر أو يظهر دهشته حل السلاسل من عنق أخى وحمله، وبعد ساعة، أخبرونا بوفاته، وعلمنا عندئذ السبب فى مجئ باقر خان البارحة.

بعد ذلك الحدث مكثنا فى القيد لفترة حتى سألونا عن كل ما يجب أن نُسأل عنه ولما لم يتمر ذلك عن نتيجة أرسلونى أنا ويحيى ميرزا وميرزا داود خان إلى منزل مؤيد السلطنة حاكم طهران، وهناك أطلقوا سراحنا بعد أن حلوا قيودنا. وكان لمحمد على ميرزا تفكير آخر فيما يتعلق بيحيى ميرزا، لكن حشمت الدولة أبدى دعمه له، وعليه تم إرساله إلى جمرك آستارا بعد إطلاق سراحه وتوفى هناك بعد فترة. وأرسلوا مدير روح القدس إلى الأنبار وقضوا على ذلك المسكين هناك[1]. كما أطلقوا سراح الآخرين الواحد تلو الآخر، وهذا ما ورد على لسان ميرزا على أكبر خان.

الاستياء بين محمد على ميرزا والإنجليز:

كان هذا قليل مما لحق بالمعتقلين، وعلينا الآن أن نتعرض لموضوع المعتصمين، فقد كان اللجوء إلى السفارات الأجنبية أحد الأعمال السيئة فى تاريخ

---

(١) ألقوا بمدير روح القدس فى أحد الآبار، وتوفى بعد عدة أيام على أثر التعذيب والجوع.

الحياة النيابية، وقد قاموا بذلك الأمر فى مستهل الحركة فى طهران ثم تبعتهم تبريز. وقد نهضت مجاميع فى هذا الحدث ولم يكونوا يعتبرون ذلك الأمر قبيحًا آنذاك، لكن هناك من كان يرفضه، وقد شاهدنا ميرزا جهانگيز خان وأتباعه عندما امتنعوا عن المضى إلى السفارة الإنجليزية.

وكما رأينا كان عملاء الحكومة الروسية يساعدون محمد على ميرزا للإطاحة بالحكم النيابى وكان نتيجة ذلك أن نهض عملاء انجلترا لمساندة الأحرار وفتحوا سفارتهم للجوء إليها، بل إننا رأينا أنهم أرسلوا أحد الغلمان ومعه عربة لإحضار تقى زاده، وقد حث لياخوف القوزاق والجند لمنع ذلك، وعلى الرغم من هذا سلك البعض طريقه ودخلوا السفارة. وفضلاً عن تقى زاده وأعوانه، فقد لجأ البعض إلى هناك من أمثال بهاء الواعظين ومعاضد السلطنة وصديق الحرم وميرزا مرتضى قلى (نائب إصفهان). من ناحية أخرى، فإن العديد من المطالبين بالحكم النيابى قد أقاموا خيمة فى قلهك – المقر الصيفى للسفارة – وأقاموا فيها وازدادت أعدادهم تدريجياً. حقيقة أن البعض اعتقدوا أن هذا من قبيل التدلل وكانوا ينافسون بعضهم البعض، ولما اجتمع هناك ما يقرب من مائتى شخص قاموا بإبداء العروض. لقد أبدى عديمو القيمة خسة يوم القتال وأخفوا وجوههم، وصاروا باعثًا لهزيمة الحياة النيابية، والآن يقومون بمثل هذه العروض بسذاجة تحت راية الأجانب. وعلى أية حال، فقد استاء محمد على ميرزا ولياخوف من تصرف السفارة هذا، وأرسل لياخوف بقوات من القوزاق لمحاصرة السفارة والتضييق عليها، وهذا ما اشتد وقعه على السفارة وحث السفير على إعلان استيائه وطلب العون والتدخل من حكومته.

من ناحية أخرى أرسل محمد على ميرزا رسالة إلى ملك انجلترا يقول فيها:

"إن ظل السلطان يحث جماعة من مثيرى الفتن لسلب التاج والعرش منى، ولما قمت بسحقهم أرسلت سفارة انجلترا غلمانها ودعت مثيرى الفتن إلى اللجوء إليها، وهذا تطاول على شئون إيران".

فرد ملك انجلترا قائلاً:

"إن الاعتصام موجود فى إيران على الدوام، وإذا ما مُنح الأمان لهؤلاء المتواجدين فى السفارة بطهران سيخرجون منها، غير أن جندك قد حاصروا السفارة، ويقومون باعتقال كل من يخرج منها، وهذا أمر غير لائق ولا يمكن التغاضى عنه، وإذا ما لم يبدر تصرف آخر من قبلك ستضطر دولتى إلى القيام ببعض الأعمال لحماية كرامة رايتها".

وكان لهذا الصراع آثار عديدة، ومارس الإنجليز ضغوطهم رغبة منهم فى اعتذار إيران رسمياً، وأخذوا يناقشون قضية اللاجئين، وانتقد الإنجليز حادث مقتل ملك المتكلمين وجهانگير خان دون تحقيق أو محاكمة، وكانوا يقولون: " جدير بالأهالى أن يخشوا على أنفسهم فى مثل هذه الأوضاع ويلجأوا إلى السفارة ". وكان محمد على ميرزا يصر على خروج اللاجئين من السفارة وإبعاد تقى زاده وغيره عن إيران لعدة أعوام، وقد ماطلت السفارة حتى تقلل من مدة النفى، وهكذا كان النقاش يدور حتى خرج فى النهاية بعض اللاجئين من السفارة، وتوجه معاضد السلطنة إلى أوربا، وفيما يتعلق بأمير حشمت وغيره من أهالى آذربايجان فقد تقرر عودتهم إلى آذربايجان، وفيما يتعلق بتقى زاده ودهخدا وبهاء الواعظين وصديق الحرم ومدير صحيفة "الحبل المتين" فقد اتفق على أن يقدم محمد على ميرزا نفقات سفرهم للخروج من إيران، ولم يقبل تقى زاده تلك الأموال نظرًا لعدم حاجته إليها بينما قبل الآخرون (بل – وكما يقول كتاب آبى – طالبوا بالمزيد من الأموال) واستقل الجميع عربات الدولة برفقة غلمان السفارة وتوجهوا إلى القوقاز عن طريق جيلان ولما وصلوا إلى باكو توجه كل منهم إلى طريق.

ولما كان التقرير الثالث للياخوف فى هذا الشأن يوضح مطالب الإنجليز من لياخوف خلال تلك الأزمة لذا نورده فى هذا المقام:

(سرى – التقرير رقم ٦٢)

"صاحب الجلالة الملك، بشأن سؤالكم فيما يتعلق بتعامل القوزاق بالقرب من السفارة الإنجليزية ومنعهم لأى شخص اللجوء إلى السفارة، أتشرف بأن أعرض على جنابكم ما يلى:

من التقرير الذى قدمته إلى جناب صاحب الجلالة الملك تم الاتفاق على محاصرة السفارة من جميع الجهات خلال ذلك اليوم حتى لا يتمكن شخص من دخولها واللجوء فيها. أما فيما يختص بالحفاظ على السفارة الإنجليزية ومراعاة حقها، فقد استدعانى السفير من قبل السفارة فى الثامن عشر من شهر يونيه هاتفياً، وقال: نظرًا للمعلومات التى وصلت إليهم فإن السفارة الإنجليزية تتفهم الأمر وتعلم ما الذى سيحدث، وتقرر أن يتم قبول البعض ممن لجأوا إليها وأن تقوم بحمايتهم، وهذا يقلل من نجاحنا ويضعفه، لذا أمرنى السفير أن أراعى حق السفارة الإنجليزية بشكل أكثر، أما فيما يتعلق بما قاله السفير لى – كما قدمت فى التقرير – أنه من الأفضل أن نحاصر المحال والمنازل الخاصة بالرعايا الروس الواقعة حول السفارة الإنجليزية بدلاً من محاصرة السفارة حتى يتم منع دخول الأهالى إلى السفارة الإنجليزية، وحين تم وضع الترتيبات لم تتأت هذه الفكرة، وأقر بأن هذا الاقتراح كان أفضل وأكثر حكمة لأنه من ناحية يمنع الأهالى من دخول السفارة، ومن ناحية أخرى يحرم السفارة من حق الاعتراض، ولم نتمسك به آنذاك لأنه فى ذلك الموقف الدقيق الذى كنا مشغولين فيه بهذه الترتيبات لم نفكر فى أى شخص. وأتشرف بأن أقدم لجلالتكم نسخة من أسماء الضباط الذين أبدوا كفاءة أكثر من غيرهم أثناء تنفيذ تلك المهام الجديدة، وأعتبرهم جديرين بمكافأتهم بنيشان الحكومة الروسية. وأنا فى انتظار الأوامر السامية ".

(الكولونيل. لياخوف)

آثار ضعف طهران:

إلى هنا ننهى أحداث طهران، ويجب أن نعلم أن جهل مجلس الشورى ووهنه هذا أمام محمد على ميرزا، وهزيمة أحرار طهران أمام القوزاق والجند يعد بقعة سوداء تلحق بتاريخ إيران وقد تبع ذلك آثار عديدة. فالأهالى الذين نهضوا منذ ثلاثة أعوام يطالبون بالحرية وبلغت أصواتهم الثائرة أرجاء العالم، ونوابهم الذين كانوا يتشدقون فى المجلس بقولهم: "لقد عقدنا الحلف بدمائنا".(١) وصحفهم التى كانت تبدى تلك الشجاعة الفائقة، كل هذا سقط أمام عدة آلاف من القوزاق والجند، وضاعت معاناة ثلاثة أعوام هباء فى أربع ساعات، وكل من كان يردد ما كانوا جديرين به ينظر إليهم الآن بنظرة مغايرة.

من ناحية أخرى، فإن هذا الحادث فضلاً عن قضائه على الحياة النيابية وإدخاله الإيرانيين ثانية تحت نير العبودية قد أوجد بعض المشاكل فى سياسة الدولة، ونحن لا نتناول السياسة فى هذا الكتاب، لكن ينبغى أن نذكر هنا أنه ما أسهل أن تفقد إيران حريتها دفعة واحدة وأن يتم تقسيمها بين الجارتين نتيجة لضعف الأحرار، لأن محمد على ميرزا – الذى أطاح بالمجلس – قد تولى أزمة الأمور، ولم يكن هو نفسه سوى أداة فى يد الروس، وكان من الواضح أن الإنجليز لن يرتضوا هذا الوضع، وكان واضحًا أيضًا أن ثمة أمورًا سوف تحدث. ولكى نعلم إلى أى مدى قللت هذه الأحداث من قيمة الإيرانيين فى أعين الآخرين نورد جملة أو اثنتين من جريدة الـ " تايمز " كبرى الصحف الصادرة فى لندن وهى صحيفة شبه رسمية ناطقة بلسان الحكومة الإنجليزية، وقد كتبت آنذاك مقالين أو ثلاثة حول إيران تحوى الذم والتوبيخ من أولها إلى آخرها.

فقد ورد فى إحدى مقالاتها بعد حادث قصف المجلس بيومين (٢٥ يونيه) بعد قيامها بتوبيخ المجلس واتهامه بعدم الجدارة:.

---

(١) عنوان إحدى الخطب التى تلاها أحد النواب فى المجلس .

"هذا نموذج يوضح عدم جدارة الشرقيين بالحرية".

ترون أية جملة مسممة قامت الصحيفة بتدوينها!

والأسوأ من هذا العار إنه حينما وقعت هذه الحادثة فى طهران وبلغت أخبارها المدن لم تبد أى منها أدنى مقاومة لحماية حكومة الحكم النيابى، وخمدت تلك الضجة دفعة واحدة، وكان هذا نموذج آخر لرياء شعب إيران مما فتح ألسنة الجميع بالذم.

ومن الأمور المستحسنة أن تمحو مقاومة تبريز الشجاعة هذه البقعة السوداء عن رداء إيران. هذا ونحن نقدر تلك المدينة وما قامت به من مقاومة، وسوف نتناول أحداثها بشكل أكثر فيما بعد. ونورد فى هذا الموضع التقرير الرابع للياخوف فى نفس هذا الموضوع والذى يوضح مدى السعادة التى شعر بها الروس نتيجة لظفر القوزاق ولياخوف:

(**التقرير السرى رقم ٦٣ – طهران – ١٢ يونيه ١٩٠٨م**).

"صاحب الجلالة الملك، وصلت البرقية السامية فى حضور الضباط الذين هم على أهبة الاستعداد للتضحية بأرواحهم فى سبيل روسيا وتنفيذًا لطموحاتها. وفيما يتعلق بما رآه صاحب الجلالة الإمبراطور مناسباً، فقد قرأت فى البرقية التى كتبها جناب قائد القوقاز الخاصة بخدمة لواء القوزاق فى تدمير المجلس عبارة "عفارم على القوزاق"، "شكرًا للضباط الشجعان"، وقد غمرتهم جميعًا الفرحة بشكل لا يمكن وصفه وعلت أصواتهم تنادى بحياته، وظلت تدوى لفترة بشكل مسموع وقوى، ومن الصعوبة بمكان شرح سعادة الضباط، وقد اتفقوا على أن أطلب من جنابكم أن تطلبوا من جناب قائد القوقاز توضيح الحس الصادق للضباط فى سبيل تنفيذ أوامر ملك روسيا العظمى وتضحياتهم بكل كيانهم لتنفيذ أوامر إمبراطورهم الأعظم. وأشكر ألطاف صاحب الجلالة الإمبراطور الأعظم".

(الكولونيل و. لياخوف)

ردود الأفعال فى المدن الأخرى

حرى بنا فى هذا المقام أن نسوق الحديث قليلاً عن المدن الأخرى، فكما ذكرنا، منذ اليوم الذى مضى فيه محمد على شاه إلى باغشاه ونشب الخلاف بينه وبين المجلس، كانت البرقيات تتوالى من جميع المدن تعد بالمقاومة وتقديم العون، لكن كان هذا كله من قبيل الرياء، فلم يكن الاستعداد كافيًا فى هذه المدن – باستثناء تبريز والرشت – ولو كانوا يريدون لم يكن فى مقدورهم، ويبدو أنهم لم يرغبوا ولم يكن حديثهم هذا إلا من قبيل الرياء.

وما أن أطاح محمد على ميرزا بالمجلس فى طهران حتى بسط الحكام أيديهم فى المدن – بأمر منه – وأغلقوا الجمعيات، وقضوا على القانون، وألحقوا الأذى بالأحرار، واستخدموا العصا والفلكة ثانية وبسطوا الحكم المستبد، ولم تُشاهد أية مقاومة من قبل الأحرار إلا فى مدينة الرشت حيث دار عراك قصير، وقصة ذلك كما وردت فى كتاب آبى:

"وصلت الأنباء فى الرابع والعشرين من يونيه عن انقلاب الشاه – بعد ثلاثة أيام من حدوثه – ونصب الحراس أمام بيت الحاكم ثلاثة مدافع فى أماكن مختلفة، وفى السابع والعشرين وصلت الأوامر للأهالى بفتح الأسواق، ولكن لم يلق أحد بالاً، فأرسل الحاكم جماعة من الجند لإجبارهم على هذا، وحدث عراك وقُتل ثلاثة وجُرح أربعة عشر، وفتحت الأسواق فى التاسع والعشرين من يونيه واستتب الأمن".

والعجيب أن ظهير الدولة كان حاكم جيلان آنذاك وهو يُعد من مؤيدى الحياة النيابية ولم يكن يليق به القيام بمثل هذا السلوك. أما إصفهان وشيراز اللتان كانتا ترسلان البرقيات بتحريض من ظل السلطان وتقدمان هذه الوعود لم تبديا أية مقاومة، ولم يفعل ظل السلطان أكثر من أنه سعى لدى الدول المجاورة وطلب الأمان لحماية نفسه وأمواله.

وهذا ما ُكان يدور فى مدن آذربايجان – باستثناء تبريز – فقد قام الحكام بغلق الجمعيات فى كل مكان، واشتدوا مع الأحرار.

والأكثر من ذلك قصة أردبيل، حيث قام الأمير معززگروسى بأعمال قبيحة وترك السمعة السيئة تذكارًا عنه فى التاريخ. [1] وأمر ميرزا محسن بن ميرزا هادى إمام – الذى كان من شباب الأحرار – أن يثقبوا أنفه ويضعوا فيه حبلاً ويتجولون به كالجمل فى الأسواق، ثم ربطوه فى فلكة وجعلوا يضربونه حتى أزهقت روحه بعد يومين.

وكان الملا إمام موردى مشگينى أحد رجال الدين الغيورين المطالبين بالحياة النيابية فى آذربايجان، وفى الأيام التى كان يطلب فيها مجلس الشورى المساعدة من المدن وكانت تلك الجلبة تدور فى تبريز، قدم هذا الرجل إلى المدينة ووعد بأن يتجه إلى مشگين لجلب المساعدة من فرسان قره داغ ثم يتجه إلى هناك لكن حينما وصلت الأنباء تفيد بقصف المجلس قبض البعض على ذلك الرجل الغيور وأرسلوه إلى أردبيل بأمر من معزز وتجولوا به هناك فى الأسواق بشكل مخز قلما شوهد من قبل ثم شنقوه فوق سطح قلعة نارين. وعلى هذا النحو حدثت هاتان القصتان المحزنتان الواحدة تلو الأخرى.

فى تلك الأيام كان ميرزا إبراهيم أرباب – أحد الأحرار – يعيش فى السجن وقد أغاروا على منزله بأمر الأمير معزز، وسلب الفرسان والخدم كل ما عثروا عليه هناك. ولم تبد هذه المدن مقاومتها، بل وفى الأيام التى بدأت فيها تبريز الصمود، وظلت تعانى الحروب والصراعات لمدة أحد عشر شهراً، ورغم ما أبداه الكرج والأرمن والترك والقوقاز من مساعدة لكن ما من شخص قدم من هذه المدن، والذى نهض لمساندة تبريز من مدن إيران هو يار محمد خان كرمانشاهى ورفاقه، ولما كانت حكايتهم ذات علاقة بأحداث طهران نوردها فى هذا المقام:

---

(١) هو والد سرتيپ بايندر الذى أبدى شهامة فى الجنوب فى أحداث شهريور من عام ١٣٢٠ ش – ١٩٤١م وتم قتله، وظلت السمعة الحسنة للإبن وسوء السمعة للأب.

فى تلك الأيام التى أرسل فيها المجلس إلى جميع المدن يطلب المساندة قام يار محمد خان وأخوه وصديقه – وكلاهما يدعى حسين خان – بشراء البنادق والجياد، واتجهوا إلى طهران ومعهم أحد الخدم لمساندة دار الشورى، لكن حينما بلغوا قم علموا هناك بقصة قصف المجلس فاضطروا للاختباء، لكن بعد مضى عدة أيام وصلت إلى هناك أنباء صمود تبريز، فتوجه إليها مع رفاقه وظلوا بها حتى انتهت الحروب فيها وأبدوا دومًا البسالة والشجاعة .

ونورد فى نهاية المقال الأشعار التى كانت تُنشر فى طهران فى نفس تلك الأيام باسم ظهير الدولة وكانت تذكارًا عن الحياة النيابية وتاريخها. فكما سبق وأشرنا، لقد تم القضاء على الصحف بعد قصف المجلس، ولم تبق جريدة حكومية واحدة لم تعن سوى بأخبار البلاط، ثم بدأت صحيفة أخرى فى الصدور تحت اسم "اقيانوس" لكن صدر منها عدة أعداد فقط، ولما انعدم وجود الصحف فى هذه المدينة لم يتم تدوين ما كان يدور من أحداث كلية نظرًا لصدور الصحف فى كل من تبريز واسطنبول وغيرهما وكانت الأنباء تصل إليها عن طهران لذا كان يتم تدوينها فى صحف هذه البلدان بعد وقوعها بفترة قليلة، وكان يتم تداول هذه الأشعار فى طهران وتُرسل نسخ منها إلى اسطنبول وتبريز وتطبع فى رسالتى "شمس" و"نالهء ملت".

هذا ونورد بعضًا منها فى هذا الموضع:

- يا (نسيم) الصبا، أبلغ الشاه نقلاً عن صفا؛ يا ملك ملوك العصر وخليفة الكيانيين.
- لعل أحد لم يبلغك أن حبة القمح لا تختفى تحت الثرى.
- فحينما تنمو فى البداية تكون صغيرة نحيلة، لا يستحسنها الزارع ولا الفلاح.
- وحينما يمر يومان أو ثلاثة على تلك الحبة، تنمو من جديد ويخضر منها البستان.

- ويتم حصاد سبع سنابل من كل حبة، كما وعد الله فى القرآن.
- لقد بذر الشعب المسكين بذرة الحرية، بعد عبودية دامت قرونًا طويلة .
- وحينما أطلت الرأس من الثرى، أمرت الشياطين الكفرة،
- كى يساووا المجلس والمسجد بالتراب، ويقتلوا الأهالى الأبرياء كهولاً وشبابا.
- ما أكثر ما دمرت منازل الأبرياء بإشارة من هوى نفسك.
- أيها الملك، لو تغير على محصول الشعب فلتحذر، إن منبته هو إله العالم.
- ما أقوى المحصول وأينعه فى بدايته، رغم تعاقب الصباح عليه.
- فهذا هو جزاء كل عمل بلا ريب، فالمنان هو الذى يهب الجزاء.
- لو أنك دمرت منزلاً لبرئ، فمن الجرأة أن يتم تدمير منزلك.
- وحينما تكون أنت الملك فى مملكتنا، تكون إيران لك كمنزلك.
- لقد دمرت وخربت، أنت ميت أم حى؟ لقد سحبت خطًا وعلامة لك بقول العامة.
- لقد طال اللسان، اعف عنى أيها الملك، وعمر المنزل مثلما رغبت.

«المقال الثانى عشر»

كيف بدأت الحرب فى تبريز؟

يدور الحديث فى هذا المقال حول حروب تبريز منذ بدايتها وحتى وصول عين الدولة إلى هناك، وكذلك عن بعض الأحداث الأخرى.

بداية الحرب والقضاء على الجمعية.

كما ذكرنا، لقد خطط محمد على ميرزا لتبريز، وعهد بمهمة تنفيذ تلك الخطة إلى رجال الدين ورؤساء آذربايجان. من ناحية أخرى، كان رجال الدولة والأحرار هنا يقفون فى مواجهة بعضهم البعض، وفى يوم الثلاثاء الثانى من شهرتير (٢٣ جمادى الأولى) – حيث وقع القصف فى طهران – بدأ رجال الدولة الحرب هنا أيضًا وأغاروا على المجاهدين، وكانوا يسلكون نفس التصرف الحادث فى طهران حيث كانوا على علم بالأحداث هناك. ومن بين البرقيات التى وقعت تحت أيدينا توجد برقية تم إرسالها من قبل محمد على ميرزا إلى مير هاشم يبشره فيها بالنصر، وها نحن نوردها فى هذا الموضع:

"جناب المستطاب السيد ميرهاشم آقا سلمه الله تعالى، لقد تصرفت بكامل القدرة واعتقلت جميع المفسدين، وأرسلت السيد عبد الله إلى كربلاء، كما وجهت بالسيد محمد إلى خراسان وعاقبت ملك المتكلمين وميرزا جهانگير، فجميع المفسدين معتقلون وعليكم أنتم أيضًا أن تبذلوا كل طاقتكم فى القضاء على المفسدين، وأنا على استعداد لتقديم أى نوع تريده من الدعم، ومنتظر الرد، وإننى أستفسر عن أحوال حجج الإسلام سلمهم الله، ولتعرض عليهم هذه البرقية".

(محمد على شاه القاجارى)

وقد أرسلت هذه البرقية بعد القصف بيومين أو ثلاثة، وواضح من ذلك أن البرقيات كانت تتبادل فيما بينهما قبل أن يتم القصف .

وإذا ما نظرنا على خريطة تبريز نجد نهر مهران الذى يعبر من وسط المدينة، وتقع مناطق الدوتشى وسرخاب وششكلان وباغميشه على شماله، وجميعها كانت مؤيدة للاستبداد وتقع فى يد رجال الدولة. ومن نواحى النهر الشمالية نجد منطقة أميرخيز فقط هى المؤيدة للحياة النيابية، وإذا نحيناها جانبًا يكون مجرى النهر خطًا فاصلاً بين رجال الدولة والأحرار. هذا وقد دارت معظم الحروب وإراقة الدماء بالقرب من هذا النهر. ومن نفس اليوم الذى قام فيه رجال الدولة بالقتال أقاموا الاستحكامات فى منارات السيد حمزة وصاحب الأمر وغيرهما من المناطق المرتفعة على ساحل النهر وبدأوا فى إطلاق الرصاص.

وكان القائد فى هذه المعركة هو شجاع نظام الذى كان يطلق الرصاص بنفسه من فوق المنارات، ولما كان بارعًا فى الرماية قلما كان يخطئ الهدف، كما أبدى بنادقة مرند وقراملك والدوتشى مهارة فائقة فى الحرب.

من ناحية أخرى أقام مجاهدو محال مجيد الملك وغيرها الاستحكامات وأبدوا مقاومة أمامهم، وتولى الإشراف على هذه المنطقة السيد باقر خان ومجاهدو خيابان ونوبر، كما تولى ستارخان المقاومة فى منطقة أميرخيز وضواحيها. واستمر القتال حتى الغروب، وكانت الطلقات تتساقط كالمطر، واستخدم رجال الحكومة – الذين كانوا يرغبون فى التقدم والاستيلاء على المدينة – كل ما لديهم من طاقة، وكانوا يتقدمون بخطوات كثيرة لكنهم عجزوا عن صد مقاومة المجاهدين. وبعد الغروب عم الهدوء. أثناء ذلك وردت الأنباء من مكتب البرق تفيد بقصف المجلس والقضاء على الحياة النيابية فى طهران، وكان ذلك باعثًا على قنوط العديد من المطالبين بالنيابية، وتملك الرعب الكثير من رؤساء الجمعية وأعضائها وخشى كل منهم على روحه وماله، وفسد أمر المجلس الإقليمى – الذى كان ينبغى عليه أن يكون مؤيدًا للمجاهدين ومواسيًا لهم فى ذلك الوقت – واختبأ

النواب كل منهم فى مكان حيث اعتصم اجلال الملك وبصير السلطنة فى القنصلية الروسية، واحتمى ميرزا حسين الواعظ فى القنصلية الفرنسية، حيث ظنوا أن الأمر قد انتهى وأن النيابية قد آلت إلى السقوط. غير أن المجاهدين لم يفسحوا للخوف طريقًا إلى نفوسهم ولم يكفوا عن المقاومة ولم يتخل البعض عن الصمود من أمثال على مسيو والحاج على دوافروش والحاج مهدى آقا وغيرهم. وفى الغد، قام رجال الدولة بمعركة أخرى مع حلول الفجر وظلوا يضغطون، وقد تصدى المجاهدون لهم واستمر القتال حتى المساء. وفى اليوم الثالث، الخميس الرابع من شهرتير (٢٥ جمادى الأولى) استمر العراك، وصمد كل من ستار خان وباقر خان كل فى موضعه، ولم يعلم شجاع نظام وغيره من القادة مدى شجاعة الأحرار، وكانوا يظنون أنهم يستطيعون السيطرة على المدينة بقليل من الضغط وأنهم يستطيعون أن يفعلوا فى تبريز ما فعله لياخوف فى طهران.

وكان رجال الدين المقيمون فى جمعية " إسلامية " – الذين كانوا متعطشين لدماء المطالبين بالنيابية – يأملون فى التسلط عليهم سريعًا وإصدار فتوى تهدر دماءهم، عير أنهم أدركوا فى الثلاثة أيام تلك خطأ فهمهم، فقد عُلم فى تلك الأيام الثلاثة أن أمر تبريز يغاير تمامًا أمر طهران.

فى تلك الأثناء حدثت مشكلة أخرى للأحرار تمثلت فى جهود باختيانوف القنصل الروسى الذى كان يدعو الأحرار هو وكبير التجار وغيره تحت مسمى الوساطة كى يكفوا عن القتال ويخنعوا لرغبة محمد على شاه، وكانت حيلته تلك باعثًا لضعف عدد كبير من الأحرار، إلا أن المجاهدين لم يكترثوا بذلك، وهكذا استمرت الحرب ونشب العراك عدة أيام كانت طلقات الرصاص تتساقط خلالها كوابل من الأمطار، وكانت الطلقات النارية فى الهواء تسلب النوم والراحة من كل شخص أثناء الليل، وقد تم إخلاء المنازل الواقعة وسط الاستحكامات أو القريبة منها، وهاجر أهلها إلى مناطق أخرى، وتملك الخوف الجميع، ولم يعلم أحد موعد انتهاء هذه الحرب، وأية نتيجة يحصدها المجاهدون من جراء هذا الصمود.

وفى يوم الثلاثاء السادس من شهر تير (٢٧ جمادى الأولى) استأنفت الحرب ثانية واشتدت وطأتها، وفى ذلك اليوم كان كل جانب يقوم باقتلاع شأفة الجانب الآخر وأفضى ذلك إلى وقوع خسائر فى الأرواح من كلا الجانبين. وكان منزل الحاج ميرزا حسن – الواقع بالقرب من السوق – يقع فى ذلك الوقت فى أيدى الدوتشى، ولما كان الحاج ميرزا يجلس آنذاك فى جمعية " إسلامية " يصدر الفتاوى، فقد احتمى عدد من الفرسان فى بيته، وكانوا يتحينون الفرص أحيانًا ويندفعون إلى الخارج ويقومون بأعمال السلب والنهب فى النواحى المجاورة، واليوم عزم مجاهدو خيابان وماراالان على إخراجهم من هناك فضغطوا كثيرًا ونجحوا بعد عراك شديد، ولضمان عدم عودتهم ثانية قاموا بأعمال السلب والنهب والتدمير، وأغاروا كذلك على منازل الحاج ملك التجار – الواقع بالقرب منهم – حيث كان من مؤسسى جمعية " إسلامية " .

أثناء ذلك استمر العراك، وثار الفرسان ثانية وأغاروا على المجاهدين وأخرجوهم من منازل الحاج ميرزا حسن، ولكن لم تمض ساعة حتى عاد المجاهدون ثانية، وهزموا الفرسان واحتلوا المكان. وفى خضم هذا الرحيل وتلك العودة تم قتل الكثيرين، ووقعت قصة محزنة أخرى.

كيفية ذلك أن الفرسان استولوا على منزل الحاج ميرزا حسن ثانية بعد عودتهم، ولم يتمكن بالاخيابانى – ابن أخت ميرزا آقا وكان شابًا مغوارًا ينتمى إلى المجاهدين – من الهروب، ووجد نفسه فى مأزق، وحينما اقترب الفرسان أصاب اثنين منهم بالرصاص وخشى على روحه فاختبأ فى مدفأة – داخل الحائط – وحاول أن يجد طريقًا إلى السطح، لكن الفرسان وصلوا، وأطلقوا عليه عدة سهام وقتلوه، ثم أضرموا النيران فى جسده. وعندما استولى المجاهدون على المكان ثانية ورأوا جثته على هذا النحو ثاروا بشدة، ولم يعلم ميرزا آقا بالاخان وأقاربه ما الذى ينبغى عليهم عمله، وفى الحال وضعوا جثته شبه المحترقة داخل تابوت وخرجوا. ولكى يبينوا سوء مسلك رجال الدولة تجولوا به فى الطرقات والشوارع والأسواق،

كما توجهوا إلى مقار القنصليات ثم قام مير آقا بالاخان وأتباعه بعمل مخذ بذريعة ذلك الحادث:

كان الحاج ميرزا أحمد أخو إمام الجمعة شابًا وقورًا رزينًا، ولم يُعلم لمَ ظل فى بيته ولم يتوجه إلى جمعية "إسلامية" خلال تلك الأحداث؟! وقد اعتقله المجاهدون مع اثنين من أتباعه، أحدهما يدعى ميرزا رضا داش آتانى، والآخر شقيق شيخ الإسلام، وعهدوا بهم إلى مير أبى الحسن فشنگچى – أحد رؤساء الأحرار – وقد تحفظ عليهم فى داره. واليوم (أو فى غده) قرر ميرزا آقا بالا وأقاربه – الذين كانوا يهرولون هنا وهناك – قتل هؤلاء الثلاثة انتقامًا لابن أخته، وأخذوا ثلاثتهم عنوة من مير أبى الحسن وحملوهم إلى الشارع، وانتهز ميرزا رضا الفرصة من منتصف الطريق وفر هاربًا ليخلص نفسه، لكن تم قتل ميرزا أحمد الشاب وشيخ الإسلام الكهل البرئ.

وكان هذا العمل أحد الأعمال المخذية التى قام بها المطالبون بالحياة النيابية، وتذرع المجاهدون بذلك وأغاروا على منازل الحاج ميرزا حسن وملك التجار، ولم يرتض الرؤساء ذلك، وجمعوا قدر طاقتهم الأدوات والأمتعة التى تم سلبها فى جمعية " مساوات " لإعادتها. وكان واضحًا فى هذا الموضع أنهم لم يرتضوا ذلك تحت أى مسمى إلا أنهم لم يستطيعوا أن يحولوا دون حدوثه فى تلك الفتنة وذلك الاضطراب. وظل اسم ميرزا آقا بالا يُذكر بالسوء دومًا بين الأحرار لإقدامه على مثل هذا العمل المشين .

قدوم بيوك خان واحتدام الحرب وأعمال السلب والنهب:

(يقال) إن يومى الأحد والإثنين قد مرا فى هدوء ثم استأنفت الحرب ثانية فى الثلاثاء التاسع من شهر تير (الأول من جمادى الآخر) وتقدم الفرسان فى خضم القصف واستولوا على منازل إجلال الملك ومعين الرعايا وأمين التجار – وثلاثتهم

من نواب دار الشورى – وأغاروا عليها، [١] وأخلوها من محتوياتها فى فترة وجيرة ثم توجهوا من منزل أمين التجار إلى قصر آقا – وهو أحد القصور العامرة العظيمة فى تبريز وكان مملوءًا ببضائع التجار – وأغاروا على غرفه ولم يبقوا فيه شيئًا باستثناء ما كان موجودًا فى غرف المقيمين فى جمعية " إسلامية " وما كان يوجد بكثرة أكثر من غيره هو الفرش الكرمانى وقد أوصلوا بعضه إلى شجاع نظام وأرسل به إلى مرند.

ولما شاعت هذه الأخبار فى المدينة أدرك الأهالى أن الفرسان سينهبون كل مكان يقع تحت أيديهم، فأخلى التجار حوانيتهم ونقلوا البضائع إلى منازلهم ومن لم يتمكن من ذلك تملكته الخشية .

وكما ذكرنا، كان رجال الدين يطلقون على المطالبين بالحياة النيابية اسم "البابية" وكانوا يقولون للفرسان: " إن أموالهم وأرواحهم حلال". لذا لم يتورع الفرسان عن القيام بأعمال القتل والنهب. فى تلك الأثناء اعتقل شجاع نظام ميرزا أبا الحسن – الطبيب الذى كان على نصيب قليل من العلوم الأوربية وكان يقيم فى الدوتشي – لأنه كان من المطالبين بالحياة النيابية، وقضى عليه تحت مسمى إنه بابى، ولما كانت برقيته التى أرسلها إلى الشاه توضح بجلاء عدم ورع رجال الدولة فى قتلهم للمطالبين بالحياة النيابية، لذا نوردها فى هذا المقام:

"طهران – من حضرة المستطاب الأشرف السپهسالار الأعظم وزير الحربية إلى الموطئ المبارك لصاحب الجلالة الملك المفخم أرواح العالمين فداه، لقد اعتقلت ميرزا أبا الحسن الحكيم حفيد ميرزا سلمان الحكيم – رئيس ومعلم جميع البابية – وتم إعدامه".

(ربيب دارك)

---

(١) قال البعض إن إغارة الفرسان تلك كانت قبل الإغارة على منزل الحاج ميرزا حسن، وأولئك الفرسان هم الذين بدأوا بالإغارة وليس المجاهدون، لكن ما يوجد فى الخواطر هو نفسه ما كتبناه.

وكان البابيون (وهم أنفسهم من يُطلق عليهم البهائية) يعلنون عن عدم انحيازهم فى الحركة المطالبة بالحكم النيابى، لكنهم فى الخفاء كانوا يؤيدون محمد على ميرزا، وقد أطلق رجال الدين اسمهم على المطالبين بالحياة النيابية كى يريقوا دماءهم .

وفى نفس اليوم – التاسع من شهر تير – وصل بيوك خان بن رحيم خان مع سبعمائة فارس وجندى من قره داغ لمساندة رجال الدولة، وكما رأينا، لقد فر رحيم خان من طهران إلى تبريز، وأقسم هنا على تأييده للحكم النيابى وكان يحصل على الأموال والمدافع والأسلحة من الجمعية ومضى إلى قره داغ وأعد جيشًا هناك، ومضى للحاق بجند الشاهسون. وكما رأينا، فقد أرسل إلى المجلس برقية مواساة فى الصراع الأخير الذى دار بين المجلس وبين محمد على ميرزا لكن هذا كله كان محض افتراء، فقد كان متواطئًا مع محمد على ميرزا، وكان يستعد لمثل هذا اليوم، ولما لم تنته الحرب سريعًا فى تبريز أرسل محمد على ميرزا إليه كى يحضر إلى تلك المدينة، لكن رحيم خان قلل من شأن الموضوع وظل فى منطقة اهر وأرسل ابنه – وكان عدوًا لدودًا للحياة النيابية – وما أن وصل واستقر فى حديقة صاحب ديوان – شرق المدينة – حتى بسط يديه بالسطو والنهب، ومنع التجوال وظهرت أزمة فى المدينة. وفى الغد استعد بيوك خان للقتال، وهاجم المدينة عن طريق خيابان، وأقام باقر خان استحكامًا وسط خيابان وترك فيه طائفة من المجاهدين ومعهم مدفع، وحينما بدأ فرسان بيوك خان بالإغارة، أبدى هؤلاء مقاومة حتى وصلوا إلى موضع السهام وعندئذ قاموا بإطلاق النيران من المدافع والبنادق وأسقطوا جماعة منهم أرضًا، فغير الفرسان وجهتهم وهربوا، وتتبعهم المجاهدون وقتلوا منهم الكثيرين، حيث قُتل من سبعين إلى ثمانين فارسًا، وعاد بيوك خان خجلاً ذليلاً إلى حديقة صاحب ديوان، وراجت سوق السرقة والنهب وقطع الطرق أكثر من ذى قبل .

وفى نفس اليوم، وبينما كان باقر خان وأهالى خيابان منهمكين فى هذه

الحرب، انتهز فرسان الدوتشى الفرصة، وقاموا بالقتال والضغط ثانية، وتقدموا من أمام ميدان المدفعية حتى محلة المسجد، وأغاروا على جميع الحوانيت والدكاكين وحملوا بضائع كثيرة. وكان هذا ضررًا بالغًا لحق بأهالى تبريز حيث عانت على أثره مئات الأسر من الحاجة والفقر.

وغداة ذلك اليوم هاجم بيوك خان وفرسانه باغ ميشه، وقاموا هناك بأعمال السلب والنهب. وكما ذكرنا، كانت باغ ميشه إحدى الضواحى المؤيدة للدولة، وكان بنادقتها مع غيرهم فى الدوتشى يحاربون المطالبين بالحياة النيابية، وكان مستبعدًا أن يصل أذاهم إلى هذا الحد، غير أن بيوك خان – الذى احترف الإغارة والنهب – لم يفرق بين العدو والصديق، ولما كان يستطيع بالأمس الاستيلاء على خيابان كان يقوم اليوم بالانتقام من باغ ميشه، لقد استيقظ الأهالى توًا من النوم، وكانوا يجلسون فى كل مكان لا علم لهم بشىء، وفجأة علت أصوات قصف البنادق، وأغار الفرسان دفعة واحدة على المنازل وقاموا بنهبها دون ورع، ولم يستطع الأهالى القيام بشئ سوى الإحاطة بالنساء والأبناء والهرب إلى الحدائق، واستولى الفرسان على كل ما عثروا عليه وقاموا بتحميله على ظهور الجياد وأرسلوه إلى قره داغ مع أشخاص أحضروهم معهم لتلك المهمة. وفى نفس هذه الأيام وصلت الأنباء من طهران تفيد بأن محمد على ميرزا قام بعزل مخبر السلطنة من ولاية آذربايجان واختار عين الدولة – عدو الحياة النيابية اللدود – بدلاً منه، وأنه سيتوجه إليها فى العاجل. وكان مخبر السلطنة منذ اليوم الذى وصل فيه إلى تبريز يتعامل مع المطالبين بالحياة النيابية بالحسنى، لذا حظى بالمكانة لديهم، وبعد فساد أمر المدينة واندلاع الحرب، عزل نفسه بعيدًا وعاش فى منزل أحد الأعيان. ولما وصلت هذه الأنباء لم يبق فى مكانه واتجه إلى جلفا ومن هناك توجه إلى أوربا.

من ناحية أخرى، انتخب محمد على ميرزا مقتدر الدولة – وهو نفس الشخص الذى أدخل نفسه ضمن الأحرار وكان يعيش فى الدوتشى آنذاك – ليحل محل الوالى وعهد إليه بأمور المدينة. وفى تلك الأيام وصلت كذلك كتائب ملاير – التى أرسلها محمد على ميرزا من طهران – خارج المدينة.

وصول رحيم خان خارج المدينة:

كما ذكرنا، كان رحيم خان يعتبر أمر المدينة هينًا لذا ظل فى اهر وأرسل فى البداية ضرغام وار ومن بعده ابنه، ولكى تتضح رؤية رحيم خان تجاه صمود المجاهدين، نورد فى هذا الموضع البرقية التى أرسلها إلى ابنه بيوك خان وضرغام فى الرابع عشر من شهر تير (٦ جمادى الآخر) :

"جناب نصر الممالك وضرغام نظام، لن يعتقل محمد قلى[١] وستار وباقر فى وجودكما، ومن العجيب أن تقوما باعتقالهم، إن بقية الفرسان يتحركون الآن، فعليكما بالتحرك، ومما لاشك فيه أنكما ستأمران ثلاثمائة شخص للتحرك معكما أينما تكونان، والخلاصة، لقد تم قتل عشرة أفراد ولم تُقبل الوساطة بشأنهم بأى وجه قط، ولو لم يأت نبأ موتهم أو حياتهم لى فى الغد ستكون جميع خدماتكما مبتورة، ولن يُقبل أى عذر فى هذا الشأن، وأؤكد ثانية وبكل قوة إذا ما تعرض أحد الفرسان لشخص من الفقراء والضعفاء سآخذكما بالعقاب بشدة".

(سردار نصرت)

ولم يكن رحيم خان هو فقط الذى يستهين بأمر المدينة، فكان هذا الظن لدى الآخرين كذلك، وفى نفس اليوم استدعى عين الدولة مقتدر الدولة إلى مكتب البرق، وقال أثناء حديثه:

"أية مقدرة لدى ستارخان هذا كى يصمد أمام كل هذه الاستعدادات التى فى الولاية؟!".

وأيًا ما كان، لما طالت الحرب ولم يُر من بيوك خان وفرسانه سوى قيامهم بأعمال اللصوصية والإغارة، اضطر مقتدر الدولة إلى استدعاء رحيم خان إلى مكتب البرق فى السادس عشر من شهر تير (٨ جمادى الآخر) وطالبه بالتحرك

---

(١) محمد قلى هذا الذى ذُكر اسمه قبل ستارخان وباقر خان هو محمد قلى خان آغبلاغ، وكان من أعوان رحيم خان ثم دخل فى زمرة الأحرار.

صوب تبريز، ويقال إن رحيم خان استدعى ابنه إلى اهر فى نفس اليوم ثم توجه فى الغد إلى تبريز بحشد كبير من الفرسان والجند الذين اجتمعوا حوله، وبالمدافع التى حصل عليها من الجمعية الإقليمية، ونزل فى حديقة صاحب ديوان وزاد مقدمه هذا من صلابة أعداء الحياة النيابية.

قد مر الآن ثمانية عشر يومًا على القتال فى تبريز، وكان لايزال قائماً، وخلال هذه الفترة بذل المجاهدون والأحرار أقصى ما فى إمكانهم وأبدوا بسالة وصموداً، غير أن قوة العدو كانت تزداد يومًا بعد يوم مما كان يصعب الأمور أمام المجاهدين. وينبغى ألا ننسى أن الحياة النيابية قد قضى عليها فى أرجاء إيران كافة، وأن الإيرانيين وقعوا فى كل مكان تحت نير الاستبداد ثانية، ولم تصمد سوى تبريز، وفضلاً عن أن نصف الأهالى فى هذه المدينة كانوا يميلون إلى جانب الدولة ويحاربون الأحرار، فقد كان من بينهم أيضًا أعداد كثيرة لا تبالى بالحياة النيابية أو كانوا يظنون أنها قد زالت، لذا لم يتفهموا معنى صمود المجاهدين الباسل، ونتيجة لذلك لم يعرفوا سوى إفشاء الرعب وعدم الأمان فى المدينة والسلوك المتشدد تجاه الأسر، ومن هذا المنطلق كانوا يضغطون على المجاهدين، ولم يكفوا عن مذمتهم والسخرية منهم.

والأكثر من ذلك كله كان بعض الموالين للروس – من القوقازيين المسلمين – يختلطون مع أهالى تبريز ويندسون بينهم بأوامر القنصل الروسى – باختيانوف – ويشيعون أنه لا جدوى من المقاومة فى مواجهة الدولة، وكان هؤلاء يدعون كذلك إلى الاتحاد والنهوض لطلب وساطة الجنرال القنصل الروسى كى يطلب الصفح من الشاه ليأمنوا من الأذى والضرر.

ترون أية صعوبات كانت تضغط علىّ هؤلاء، وللحق، يجب أن نعترف بشهامتهم خاصة لو تذكرنا أن معظم قادة الحركات ونواب الجمعية قد توهموا زوال الحياة النيابية. ومنذ الثانى من شهر تير – حيث سمعوا بقصة طهران – نحوا أنفسهم جانبًا، واعتصم البعض منهم فى القنصليات، وظل هؤلاء المجاهدون

فقط وبعض الرؤساء يبدون صمودًا وبسالة .

نعم، حينما وصل رحيم خان خارج المدينة، وشاعت الأنباء فى المدينة تفيد بقدومه ومن معه من حشود الفرسان ومعداتهم زادت خشية الأهالى وازداد ضغطهم على المجاهدين، كما زاد عملاء القنصلية الروسية من مسعاهم وكانوا من مشاهير التجار من أمثال الحاج حبيب لك والحاج محمد رضا شكويى والحاج إبراهيم الصراف وحسن آقا كبير التجار وغيرهم. وكانت مساعى حسن آقا كبير التجار تفوقهم جميعًا حيث كان يستقر فى خيابان، ولما كان رجلاً ثريًا كان يعقد مجالس قراءة الروضة، وبذلك نال مكانة خاصة بين أهالى تلك المنطقة. ومن هذا المنطلق شاع فى تلك الأثناء أنه تباحث مع ملا حمزة – وهو من رؤساء خيابان وكان قارئًا للروضة – ومع غيره، ونتيجة تلك المساعى ارتضى ملا حمزة والآخرون الكف عن الحرب، وسلموا البنادق ومعدات القتال الأخرى إلى رحيم خان، وفتحوا له طريق الدخول إلى المدينة، ووعد القنصل الروسى بمنح الأمان لهم جميعاً، وأنه لن يتم استدعاء أيًا منهم. ولم يرتض باقر خان ومير هاشم خان هذا، لكن لما كانت الأمور على أشدها والخشية تسيطر على الأهالى تنازلا عن رأيهما، واضطر باقر خان للجوء إلى منزل مير هاشم خان حيث كان البعض هناك يقوم برعايته .

وعلى هذا النحو ظهرت فجوة بين المجاهدين وانحل زمام الأمور، وأرسل القنصل الروسى راية إلى خيابان كى تُرفع فى الميدان. من ناحية أخرى فإن رجال الدين المقيمين فى جمعية " إسلامية " – الذين كانوا يرون أنفسهم منتصرين ويرون الأهالى فى قبضتهم – قد استسلموا للأمر. ولما كان محمد على ميرزا قد عهد بأزمة الأمور فى المدينة إلى رحيم خان، قام الحاج ميرزا حسن المجتهد وإمام الجمعية بدورهم بتسليمه أزمة الأمور، ولما كان المرسوم الذى دوناه فى هذا الصدد يقع تحت أيدينا لذا نورده فى هذا الموضع:

"هو الله، لما فقدت مدينة تبريز والمناطق من حولها الاستقرار، وأظهر

الأشرار غاية الطغيان، ولم يتبق الأمان لشخص سواء كان وضيعًا أو شريفًا ويصعب استعادة الأمن بسبب قوة الفساد، ويتوقع وقوع أخطار جسام فى حال تأخر استتباب الأمن، وللحق، لا يوجد فى هذه المدينة رجل ذو إرادة يستطيع إنجاز هذا الأمر المهم سوى جناب حضرة الأجل السيد سردار نصرت زيد إجلاله الذى لدنه الاستعداد الكامل، وقد جُربت مقدرته وحنكته فى مثل هذه المواقف. لذا، ومثلما فوض صاحب الجلالة الملك صاحب القدرة المقدس خلد الله سلطانه إلى السيد المذكور بموجب الفرمانات العديدة المباركة مهمة انتظام المدينة ودفع الأشرار والمفسدين، فنحن نطالبه جديًا ببذل الهمة والقضاء على الأشرار وقمع أساس الفتنة والفساد بإجراءاته المجيدة، وهو بذلك يقوم من جهة بإنجاز المهمة الموكلة إليه من قبل ولى النعمة، ومن جهة أخرى سينال التواب فى الآخرة والمنزلة الرفيعة لدى الله عز وجل نظرًا لتهيئته أسباب الراحة للمسلمين والقضاء على ضلال المضلين، ولينتخب صاحب ذلك الرأى الشريف الطريقة التى يراها لإنجاز هذا الأمر، وليس لأى شخص آخر الحق فى المناقشة أو الاعتراض – تحريرًا فى ١٢ جمادى الآخر ١٣٢٦ق".

(خاتم الحاج ميرزا حسن والحاج ميرزا كريم)

وكان رحال الدين السفاحون هؤلاء يظنون (ويأملون) أن يبسط الجند والفرسان أيديهم بالقتل فى المدينة، وما حدث أنهم اختاروا أماكن من منازل رجال الدين وغيرهم ورفعوا عليها راية بيضاء على أنها راية الإسلام، وكل من لجأ إلى تلك الأماكن كان آمناً. كما كانوا يرسلون أيضًا البيارق البيضاء من جمعية " إسلامية " إلى هذا وذاك كى يرفعوها فوق منازلهم ليحظوا بالأمن، ولما كنا قد حصلنا على إحدى الرسائل فى هذا الشأن لذا نوردها فى هذا الموضع:

"لقد تم الإعلان فى جميع المناطق إنه لما كان الرأى المبارك لصاحب الجلالة الملك المقدس أدام الله سلطانه هو العفو عن الأهالى ولم يستطع صدمة خلق الله وأنه لا يجب أن يؤخذ عامة الأهالى بسبب القضاء على شر الأشرار وهم حفنة

معدودة، خاصة وأن البعض قد اتسسلَّم واستظل براية الإسلام، وهؤلاء فى أمان فى منزل جناب المستطاب السيد ميرزا صادق آقا سلمهم الله، وكل من استظل بتلك الراية واستسلم لن يتعرض له أو يضايقه أى شخص قط " .

(خاتم جمعية " إسلامية " والحاج ميرزا حسن)

وانعدمت المعلومات من يوم الثانى عشر والأيام التالية عليه، وما نعلمه أن الحرب كانت لا تزال قائمة، وكان رعاع الدوتشى وفرسان الدولة يتحينون الفرص ويتجهون إلى إحدى الجهات ويبسطون أيديهم بالإغارة. وفى هذه الأيام، اتجهت جماعة منهم مع بزوغ الفجر من عدة جهات إلى سويقة صفى والضَاحية المجاورة لها حيث يقع مبنى الجمعية الإقليمية ومنزل الحاج مهدى آقا، وتقدم المقاتلون من منزل الحاج مهدى وقام ابنه الحاج حسن آقا ومعه بعض البنادقة بصدهم والقتال معهم. كما نهض پاشا بيك – أحد المجاهدين الشجعان – لقتالهم بالقرب من تلك المنطقة، لكن نظرًا لانعدام المقاومة من قبل الجمعيةِ فقد دخلوها وقاموا بأعمال السلب وحملوا كل ما عثروا عليه. لكن فى تلك الأثناء وصلت الأنباء إلى ستارخان والآخرين، فأسرع ستارخان من جهة، وأصغر سسكين[1] ومجاهدى ويجويه من جهة أخرى إلى ميدان المعركة وألحقوا الهزيمة بالرعاع والفرسان.

وفى تلك الأيام تم طرد فتح الله الطحان – أحد رعاع الدوتشى – من المدينة بأمر المقيمين فى جمعية " إسلامية " مما زاد من أزمة الخبز فى المدينة .

دخول رحيم خان إلى المدينة:

والأعجب من ذلك أن رحيم خان لم يرض بهذا الحادث بسبب جهله وكان يرغب فى الإغارة على خيابان ودخول المدينة بالقتال وكان يعتبر أن تحقيق ذلك من الهين، ولما تحجج القنصل – الذى كان يتطاول على شئون إيران – قائلاً: "

---

(١) هو أحد رؤساء المجاهدين وكان يُدعى بنفس الاسم .

يوجد عدد كبير من الرعايا الروس فى تبريز، وإذا ما استولى على المدينة بالحرب سينالهم الأذى". فاقترح رحيم خان أن يرحل الرعايا الروس من خيابان، فكتب إليه القنصل فى نفس اليوم الموافق ٢٠ من شهر تير (١٢ جمادى الآخر) وأصدر إليه الأوامر بشكل دبلوماسى، ولما كانت هذه الرسالة تقع تحت أيدينا نوردها فى هذا الموضع:

"١٢ جمادى الآخر ١٣٢٦ق – جناب حضرة الأجل الصديق المشفق الكريم، إن هدفى الصادق فى تلك الأيام أن أتحمل المشاق للمحافظة على الرعايا الروس الذين يقيمون فى العديد من مناطق خيابان، والراية التى قدمتها كانت بغرض أمن الرعايا الروس من أعمال الهجوم والإغارة والقتل عند رفعها، وضمناً فإن جميع أهالى خيابان يعدون بصدق بإطاعتهم التامة والتسليم لسردار، وهم الآن لا يزالون عند وعدهم هذا، ولم يعترضوا بكلمة واحدة بشأن تسليم الأسلحة، وسوف يسلمون كذلك المدفع الموجود فى خيابان دون أية أعذار إلى الحكومة، وفى رأيىّ أنهم عرضوا الموضوع على الجناب العالى بشكل خاطئ، وأنا شخصيًا أكن كل الخير لعبيد صاحب الجلالة الملك خلد الله ملكه وسلطانه، ومن منطلق الصداقة أرى أنه من اللازم أن أشق عليك وأقول لو تريد أن تسلك فى خيابان مثل هذا المسلك وأن تشتد على أهلها وهم يبدون الطاعة والاستسلام فهذا ما يفضى إلى غضب الأهالى جميعًا وسوف يعقب ذلك نتيجة سيئة – لا قدر الله – وسوف يتعرض مسعاكم لانجاز مهامكم إلى مشكلات جمة. وأنا لا أتدخل قط فى الخاص من شئون إيران لكننى أعرض من باب إظهار حسن النوايا بوجوب أن تتعرف فى مثل هذا الموقف المهم من منطلق الحيطة، لمَ تجبر منطقة خيابان وهى تبدى طاعتها بما يحث على قيام فتنة مرة أخرى، وسوف يكون إخماد تلك الفتنة من الصعوبة بمكان، فلتبد الاهتمام بحديثى هذا بما لديك من تجارب وأنا على يقيم من عدم ظهور أية حركة مخالفة للقانون فى محلة خيابان وأنهم على أتم الاستعداد لتسليم المدفع والأسلحة، والحيطة وقت الحرب مهمة عسكرية لقائد الجيش، وفيما يختص بما أعلنتموه من أن أقوم خلال ساعة واحدة بإخراج الرعايا الروس من

خيابان، فأنت نفسك لا تعلم أن هؤلاء كثيرون فى خيابان وليس فى الإمكان إخراجهم خلال ساعة، من الضرورى أن يتروى جنابكم كثيرًا فى هذا الأمر حتى لا تذهب المشقة هباء ولا يتأذى خاطر صاحب الجلالة الملك المبارك وعليك القيام بما يجب تنفيذه بشكل أيسر، لمَ يوقع الشخص نفسه فى خضم المشاكل إذا ما كان عاقلاً؟

وفيما يتعلق بالمسألة المعهودة التى أشرتم إليها، فنحن بصدد الرد عليها. والخلاصة، أقول أن أهالى خيابان قد أزالوا الاستحكامات ولا توجد لديهم أية نوايا سوى الاستسلام، وليس فى الإمكان إخراج الرعايا الروس – الذين يمثلون عدة أسر فى خيابان – خلال ساعة واحدة، ولو أحكم بإخراج الرعايا الروس من خيابان ستنشب فتنة كبرى، وستتهيأ أسباب المشقة لجنابكم، ولتأمروا نفس القائد الذى يحمل الرسالة بتسليم المدفع، وسوف يحضر كبير التجار ويعرض الأمر تفصيلياً، ويوضح أية مشقة سوف تكون من جراء ذلك ".

و"المسألة المعهودة" التى ذُكرت فى تلك الرسالة هى تقديم الذخيرة التى ورد ذكرها فى برقيات شجاع نظام وغيره. فلما كانت الذخيرة قليلة فى يد رجال الدولة فى تبريز كان يتم تقديمها من قبل القنصلية الروسية إليهم .

والخلاصة، قام مجاهدو خيابان، وتبعهم أيضًا مجاهدو مارالان ونوبر بنصب المدافع وفتحوا طريق خيابان أمام رجال الدولة. وفى يوم الإثنين الثانى والعشرين من شهر تير (١٣ جمادى الآخر) دخل رحيم خان بجميع فرسانه وجند قره داغ المدينة بكامل العظمة والجلال، كما دخل سهام الدولة كذلك المدينة ومعه كتائب الملاير الذين وصلوا من طهران واستقر رحيم خان فى باغ شمال التى تقع وسط المدينة وتوجد فيها المبانى الحكومية. ومن يوم الثلاثاء عينوا حراسة من الفرسان والمشاة فى نوبر وما حولها فى الطرق والممرات. وقام كل من كان موجودًا من المجاهدين فى تلك النواحى بإخفاء نفسه، وكان واضحًا أن رحيم خان وغيره قاموا بزف بشرى هذا النصر إلى طهران، وهذا ما يتضح من برقية مقتدر

الدولة خليفة الوالى التى أرسلها إلى الشاه فى الثالث والعشرين من شهر تير، ولما كانت لدينا نوردها فى هذا الموضع:

"طهران – أعرض الرد على موطئ صاحب الجلالة الملك الشبيه بالجوهر المقدس الأعلى أرواحنا فداه، لقد ورد تقرير يفيد أن سردار نصرت دخل باغ شمال عصر أمس الإثنين، وقد ذهبت برفقة سهام الدولة وتقابلت معه وانشغلت هناك لساعتين بعد الليل بترتيب تنفيذ الأوامر المقدسة كما هو مقرر بشكل عسكرى وتم وضع الفرسان فى الطرقات والممرات كى يقبضوا على كل من يحمل سلاحًا ويصادروا الأسلحة، ومن حسن الحظ أن وقع ابن مير نصير البارحة فى يد الفرسان، وتم إطلاق النار من قبل الطرفين، وأصيب المشار إليه وذهب إلى الدرك الأسفل[1] ولما كان منزل صمصام خان يقع على حدود أرمينيا بالقرب من القنصلية رأينا أنه ليس من الصالح استخدام القوة لمنع الاجتماعات بداخله، لكن تم وضع الاستعدادات الكافية والفرسان فى المناطق المحيطة به ولم يجتمع شخص هناك حتى هذه الساعة – ظهر الثلاثاء – كما تم القبض على شقيق على مسيو وابنه منذ ساعة وتم حبسهما وسوف يتم تهيئة أسباب دفع الأشرار وانتظام المدينة فى أسرع وقت لتحقيق النصر الدائم بإذن الله لصاحب الجلالة قوى الشوكة ملك الملوك أرواحنا فداه. وأنا مشغول بالفعل ليل نهار فى مقر الديوان لتنفيذ الأوامر المقدسة كما أن سردار نصرت مشغول أيضًا فى باغ شمال بتنفيذ مهمته، ولا يغفل كلانا عن الآخر للحظة، فجميعنا يحمل روحه على كفه ومستعدون للتضحية بالروح. والشيء الذى يدعو إلى نكس الأعمال واختلال أمر المخبز وغير ذلك هو عدم وجود المال، وما تم تحويله من الجمرك – عشرة آلاف طومان – لم يصل حتى الآن، ولا يمتلك الحاج إبراهيم أيضًا أى مال بسبب عدم فتح الأسواق، وكما تم العرض على الموطئ المقدس بالأمس أن الاجتماعات فى مسجد صمصام خان

---

(١) عاش مير على أكبر بن مير بصير بقال السنوات، وحينما ظفر المجاهدون بعد هذه الأحداث كان أحد قادتهم، ولا أعلم هل كان لمير نصير ابن آخر بين المجاهدين أم أن مقتدر الدولة قدم تقريرًا كاذبًا !

وبعض المفاسد الأخرى ناتجة جميعها من تحصن بصير السلطنة وإجلال الملك فى القنصلية،[١] وطالما لم يتم إخراجهما من هناك لن ينقطع زمام الفساد، فليأمروا بإخراجهم ونفيهم على أى نحو كان ".

(الغلام الناثر للروح [منوچهر])

مقاومة ستارخان البطولية

اعتبر رجال الدولة أن الأمر قد انتهى بهذا النصر، إلا أن الأمر كان غير ذلك، حقيقة أن اليأس قد تملك من عدد غفير من المجاهدين على أثر هذه الأحداث وألقوا ببنادقهم أرضاً، غير أن ستارخان – الذى عرف منذ أعوام بشجاعته فى تبريز وأبدى حنكة وشجاعة فائقة فى هذه الحروب الأخيرة – صمد مع طائفة صغيرة من أتباعه ولم يأبه بهذه الأحداث. وخلال هذين اليومين، حيث كفت الضواحى الأخرى عن القتال، ودخل رجال الدولة المدينة فإن مجاهدى الفوقاز وبعض الشجعان المشاهير من أمثال حسين باغبان وغيره ممن لم يرتضوا الخنوع لرجال الدولة لجأوا إلى منطقة أمير خيز وأبدوا مقاومة رغم قلتهم .

من ناحية أخرى، كان بعض المجاهدين يحرسون ارك التى كانت إحدى الاستحكامات القوية وتحوى قاعدة للأسلحة، وكان هؤلاء مؤيدين لستارخان، كما استقر المغفور لهما الحاج الشيخ على أصغر ومير كريم فى هذه الأيام فى مسجد صمصام خان، وقاما باستدعاء الأهالى المشتتين إلى المسجد وجعلا يتحدثان عن المطالبة بإقامة حياة نيابية وكان هذا تأييدًا لستار خان. ولم يبال رجال الدولة بهذا، واعتقد كل منهم أن نهاية أمر ستارخان إما القبض عليه أو هروبه خوفًا على حياته، ولم يتخيل شخص قط أنه سيتمكن من الصمود أمام هؤلاء الأعداء وأنه

---

(١) لما كان لإجلال الملك وبصير السلطنة معرفة بالبلاط، وكانا يستقران آنذاك فى القنصلية، شاع أن الشاه عين أحدهما على ولاية تبريز حيث يستطيع مقتدر الدولة بذلك اقتلاع شأفتهما وإلا لما كان لهما شأن فى الأمور آنذاك .

سيظفر فى النهاية. حقيقة أن هذه المقاومة البطولية من قبله تعد أمرًا عظيمًا لا يعادله فى تاريخ الحكم النيابى فى إيران أمر فى عظمته وقيمته. فهذا الرجل العامى أبدى شجاعة وحنكة لا حدود لهما من ناحية، ومن ناحية أخرى أعاد الحكم النيابى إلى إيران. فقد انتزعت الحياة النيابية من جميع المدن الإيرانية لكنها ظلت فى تبريز فقط، وعندما انتزعت من تبريز ظلت المقاومة الأخيرة فى محلة أمير خيز الصغيرة، وعادت ثانية إلى جميع مدن تبريز ثم إلى جميع مدن إيران فى ظل شجاعة ستارخان وحنكته، وبفضل فدائية ذلك الرجل تم تطهير تلك الوصمة السوداء التى لحقت بتاريخ إيران نتيجة ضعف نواب المجلس النيابى وجهلهم، وهزيمة أحرار طهران، وجدير بنا أن نوفى ذلك الرجل حقه فى هذا التاريخ، إنه لم يعد الحياة النيابية إلى إيران فقط، بل إنه أنقذ المئات من القتل والأذى والضرر، ولو كان النصر قد تم لرجال الدولة هؤلاء الذين كانوا عطشى لدماء المطالبين بالحياة النيابية، أو لمحمد على ميرزا ورجال بلاطه الذين كانوا يكنون كل ذلك الحقد تجاه أهالى تبريز لقاموا بأعمال أخرى عديدة .

وفضلاً عما ذكرناهم ممن كانوا مؤيدين لستارخان فى ذلك العهد، فقد سمعنا أسماءً أخرى كذلك مثل: على مسيو، والحاج ميرزا على نقى گنجه اى، والحاج محمد بالا وكربلائى حسين فشنگچى. نعم، لقد أبدى ستارخان صمودًا وكان يدخل الحرب تلو الأخرى ببنادقته وفرسانه الذين جمعهم فى الدوتشى.

وفى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر تير (١٦ جمادى الآخر) حيث أغار رجال الدولة على منطقة أمير خيز ثانية نجدهم وقد ركزوا هجماتهم على استحكامات ستارخان ووجهوا إليه وابلاً من الرصاص، ولما يأسوا من تقدمهم قاموا بقصف المدينة بالمدافع، وكانت هذه هى المرة الأولى التى استخدم رجال الدولة فيها المدافع، ولما كان أهالى تبريز يسمعون فى تلك الأيام عن المدفع، وكانوا يظنون أنه يستطيع تدمير مدينة بأكملها بطلقة أو بطلقتين منه، لذا تملكهم ذعر بلا حدود منه. ولم تسفر هذه الحرب عن نتيجة حاسمة وعاد كلا الطرفين

أدراجه عند حلول الليل، وعم الهدوء غد ذلك اليوم، وقيل إن پاخيتانوف أنبأ أنه سيأتى إلى منطقة أمير خيز فى هذا اليوم أو فى غده، وأعد ستارخان عدته واستدعى بعض الرؤساء للتباحث معهم. و حينما جاء القنصل بدأ حديثه قائلاً: ذهبت اليوم إلى محلة خيابان كما ذهبت إلى الدوتشى وجئت الآن هنا أيضًا كى أعقد عهدًا معكم مفاده عدم استمراركم فى الحرب وإنهاء الأمر بالتباحث ".

فرد ستارخان برد بسيط قائلاً: "نحن لم نبدأ الحرب قط، هم الذين يغيرون علينا دومًا من تلك الناحية ونحن نقف لصدهم." بعد ذلك تحدث الحاج الشيخ على أصغر وغيره، فاقترح القنصل على ستارخان إرسال راية من القنصلية يرفعها على باب داره ليكون فى حماية دولة روسيا ووعده أنه سيأخذ من حكومة إيران ولاية آذربايجان له، فرد ستارخان: " أيها الجنرال القنصل، إننى أرغب فى دخول سبع دول تحت راية إيران، لن أستظل براية الأجانب".

واندهش القنصل الذى لم يكن يتوقع مثل هذا الرد، وحينما نهض ليغادر المكان قدم ستارخان إليه سبعة فرسان من قره داغ ممن تم القبض عليهم فى الحروب كى يقوموا بتوصيله مع أتباعه إلى الدوتشى وقد سر القنصل من هذا الأمر.

لقد بدرت عن ستارخان أعمال جليلة وعجيبة فى تلك الأيام كانت تتردد على الألسنة منها قيامه بضرب عباس على – أحد أتباع الدوتشى – الذى اتجه فجأة إلى الدوتشى وباغت ستارخان وهو بمفرده وأطلق عليه رصاصة وفر هاربًا ولم تتسبب الرصاصة فى قتله إلا أنها أصابته، فربط ستارخان الجرح حتى لا يثير تعاطف الآخرين وأخفى الأمر عن رفاقه.

إثارة ستارخان لتبريز ثانية:

من غد ذلك اليوم حيث عم الهدوء، قام ستارخان بعمل آخر عظيم، عمل يدل على فهمه وحنكته وشجاعته وشهامته فى آن واحد، فكان ستارخان فى ذلك

اليوم مع أتباعه فى منزل الحاج مهدى آقا، وأثناء خروجه قام بتنكيس الرايات البيضاء، وقد أرسل الحاج حسن آقا – ابن الحاج مهدى آقا – رسالة إلى مؤلف هذا التاريخ فى هذا الشأن، يقول فيها:

"جاء ستارخان فى ذلك اليوم إلى منزلنا برفقة جماعة من المجاهدين، وذكر حديث القنصل الروسى واقتراحه، وبعد أن تناولنا وجبة الغذاء، قال:

"أريد أن أذهب اليوم لتنكيس الرايات البيضاء". وبينما كنا نتناقش، وكان المجاهدون يجلسون حول الغرفة نسى حسين بيك – أحد مجاهدى قره داغ – أن يخرج الطلقة من أنبوبة مسدسه، وحينما رغب فى تنظيفه، خرجت الطلقة فجأة واصطدمت بسقف الغرفة، ولم تصب أى شخص من الجمع الذى كان موجوداً، فتفاءل ستارخان بذلك، وقال " " سوف ننكس البيارق دون شك ". ثم خرج مع المجاهدين. ولما كان منزل الحاج محمد رضا شكويى يقع فى سويقة صفى وكان برفع بيرق الروس، أطلق ستارخان رصاصة وأنزل البيرق أرضًا ثم قام بتنكيس البيارق البيضاء الأخرى الواحدة تلو الأخرى.

وكما ذكرنا، كانوا يرسلون البيارق إلى المنازل من جمعية "إسلامية"، وقام الكثيرون كذلك بإعدادها بأنفسهم ورفعوها فوق أبوابهم، ولم يخل منزل من الرايات فى العديد من الضواحى، كما رفع الرعايا الروس علم دولتهم، وأراد ستارخان بتنكيسه لتلك الرايات إثارة الأهالى ثانية وكان هذا أحد أعماله الجليلة .

وكما ذكرنا، كان المجاهدون الملتفون حوله قلة، ولا شك أن عددهم لم يبلغ العشرين، ولم يكن خروجه إلى الضواحى بهذا العدد القليل إلا جرأة منه لأن الفرسان والجند – كما ذكرنا – كانوا فى المدينة، وقام رجال الدولة بكل مسعى للقبض عليه، ومن حسن لم يقع أى صدام بينه وبين الفرسان والجند .

من ناحية أخرى، إنه ما أن ظهر فى الضاحية وعلم الأهالى رغبته حتى عه حشد غفير وعلت صيحاتهم، وأوجدوا جلبة عظيمة. وعلى هذا النحو تقدم

منكسو البيارق حتى بوابة على قاپو ومن هناك أرسل ستارخان شخصًا برسالة إلى باقر خان وعاد هو. وثار الأهالى ثانية من جراء ذلك، وتخلوا عن يأسهم واستعدوا للسعى.

فى هذين اليومين ألحق جند ملاير وفرسان قره داغ الأذى بالأهالى وأخلوا جيوب كل شخص بذريعة البحث عن السلاح ومعدات القتال، وعلى أثر سلوكهم المنحرف هذا تذكر الأهالى عهد الاستبداد ومساوئه، وقوى بداخلهم الأمل فى عودة الحياة النيابية، وكان عمل ستارخان الشجاع هذا متوافقًا معهم وأثر عليهم أيما تأثير.

كذلك كان للرسالة التى بعث بها ستارخان إلى باقرخان فائدة عظيمة، وحمل مجاهدو خيابان – الذين ندموا على مسلكهم – البنادق مرة أخرى، واستعدوا للقتال وبذل المسعى.

ومن غد يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر تير (١٨ جمادى الآخر) وقع حادث عظيم، فقد تجمع اليوم عدد من الأهالى مرة أخرى فى مسجد صمصام خان وكانت الأحاديث تدور هناك. وقد تشجع البعض من عمل ستارخان الذى قام به بالأمس وأبدوا ثورتهم وغضبهم واشتكوا من سلوك الفرسان والجند السئ ثم اقترحوا أن يتوجهوا بنفس تلك الحشود إلى منطقة خيابان عند باقر خان، وتقدم المغفور له مير كريم وتوجه معهم، وأثناء الطريق كانوا يضمون إليهم كل من يرونه، وعبروا من نوبر على هذا النحو إلى أن بلغوا خيابان، وهناك قالوا إلى باقر خان:

"لقد جئنا كى نتحارب مع الفرسان والجند، وإما أن نُقتل أو نَقتل".

فرحب بهم باقر خان.

فى الوقت نفسه وقع حادث آخر حيث قدم إلى خيابان خمسة من فرسان رحيم خان ورغب الأهالى فى القبض عليهم، فحمل الفرسان البنادق وصمدوا

للقتال، إلا أن المجاهدين لم يفسحوا لهم المجال وقبضوا عليهم وقتلوا أربعة منهم، وأحضروا خامسهم حيًا إلى باقر خان، وقالوا:

"إن ذلك الشخص يتحدث ملتمسًا، ويقول" أنا بابى أيضًا:

غير أنهم لم يصغوا إلى تضرعه ذلك وقتلوه هو كذلك .

ويوضح هذا الحادث أن أهالى خيابان قد استعدوا لقتال رحيم خان هذا، ولم يمض طويل زمان حتى انتفض المجاهدون من خيابان ونوبر وغيرهما، وتوجه الجميع إلى باغ شمال واحتشدوا هناك، وقاموا بالقتال وإطلاق النار دفعة واحدة، وكان رحيم خان مستقرًا فى باغ شمال وكأنه لم يعلم بأى شىء قط وما أن انطلقت أصوات المدافع حتى اضطرب الجند ولم يعلموا ماذا يفعلون وهرول البعض هنا وهناك، وفى النهاية لم يروا حلاً سوى الهروب، ولما كانت باغ شمال تتصل بالصحراء من ناحية الجنوب هربوا من هناك لإنقاذ أنفسهم. وقد سلك رحيم خان والقادة نفس المسلك، وما أن دخل المجاهدون باغ شمال حتى أقاموا الخيام وأعدوا قدور الغذاء وأباريق الشاى.

وبهذه الكيفية خرج رحيم خان وجنده من المدينة، وبهذه الكيفية انتقم أهالى خيابان لهزيمتهم، وبهذه الكيفية ضاعت جهود باخيتانوف هباء دفعة واحدة .

احتدام العراك:

لما هرب رحيم خان بهذا الخزى من المدينة توجه إلى حديقة صاحب ديوان، ولا علم لنا بالبرقية التى بعث بها إلى طهران، لكن ثمة برقية تم إرسالها إليه من قبل محمد على ميرزا توجد لدينا، ورغم انعدام التاريخ عليها لكن يبدو أنها تتعلق بنفس هذا الحدث، وكانت ردًا على برقية رحيم خان ومقتدر الدولة، وها نحن نوردها فى هذا المقام :

"جناب أمير الأمراء العظام دام مجده، تم قراءة البرقية التى وصلت إلى

موطئ ملك الملوك الناثر للجوهر أرواح العالمين فداه، وقد أمرنى بالرد عليها كما سيدرج الآن، وقد لاحظنا من برقية سردار نصرت ومقتدر الدولة أن المفسدين والأشرار قد تجرأوا وقاموا بهذه الأعمال السفيهة، فلتبرقوا عاجلاً كى ينشغلوا بكل طاقتهم لصد الأشرار وقمعهم، وأن يعلنوا فى العاجل نتيجة إجراءاتهم. وإلى هذا الحد كان الأمر المبارك، والآن أشق عليكم كى تبذلوا الهمة بإذن الله وأن تقوموا بمهامكم فى دخول جيش طهران ولا تقصروا، وبإذن الله لن يكون قدوم الجيش لازمًا على أى وجه قط ويصدر الحكم أثناء الطريق بعودتهم، ولن يرضى أمثالكم وسائر مسئولى آذربايجان أن يتقدم جيش العراق ويظفر، وتظل وصمة العار هذه على جبين جيش آذربايجان. لقد فتحت الدولة هراة وبخارا بجيش آذربايجان والخلاصة، آمل ألا ترتضوا ذلك وأن تنجزوا الأمر بأسرع ما يكون ولتعلموا أنكم موضع اهتمام الملك، ولكم الرأى بشأن كل من قدم خدماته إليكم وسوف تشملكم رحمة قبلة العالم أرواحنا فداه ".

(مشير السلطنة)

وكان واضحًا من جميع الجهات أنهم سيشتدون فى عراكهم انتقامًا لتلك الهزيمة، واستعد ستارخان وباقرخان كذلك، وسحبا المدافع إلى عدة أماكن من ارك ومسجد جهانشاه (مسجد كبود) وغيرهما من الأماكن المرتفعة وزادا من عدد الاستحكامات. ومر يومان فى هدوء ولكن – كما كانت الخشية – مع بزوغ يوم الإثنين التاسع والعشرين من شهر تير (٢١ جمادى الآخر) نشبت معارك شديدة، وسعى رجال الدولة فى هذه المرة أكثر من أية مرة أخرى للإطاحة بستارخان، لذا تجمعوا فى الدوتشى وضغطوا من هناك على أمير خيز وسُمعت أصوات البنادق منذ الصباح، ولم يمض طويل زمان حتى زمجرت المدافع وبدأ إطلاقها من كلا الجانبين .

وفى يوم الثلاثاء – حيث وصل رحيم خان أيضًا إلى الدوتشى – بدأ القتال يحتدم، واليوم وقع حادث محزن أيضاً، وكيفية ذلك أن طائفة من التجار المساكين

ممن كانوا يعانون من البطالة قد اجتمعت فى المسجد ودار بينهم الحديث التالى :

"إن من يستقرون فى جمعية "إسلامية" هم علماؤنا، فيكف يرتضون إراقة كل هذه الدماء والإغارة على كل هذه الحوانيت؟!.. سوف نذهب ونلقى بأنفسنا تحت أقدامهم ونتوسل إليهم كى يبرقوا إلى طهران لإنهاء هذه المعاناة".

كان بعضهم يقول ذلك من سذاجته، والبعض الآخر يرى منفعة من وراء ذلك للحياة النيابية. وما حدث هو انتفاضة حشد غفير يتقدمهم السادة حاملين القرآن، وسلكوا طريقهم وهم يهتفون: "يا على"، "يا صاحب الزمان"، ورغبت طائفة من النساء مرافقتهم إلا أنهم أعادوهن. واستمر هذا الحشد الغفير فى سيره ولم يستطع شخص أن يحول دون تقدمهم، وحينما اقتربوا من استحكامات الدوتشى، لم يبال من بداخلها بصيحاتهم وأطلقوا النيران عليهم من فوق الأسطح، وسقط منهم ثمانية وأربعون – ممن كانوا فى المقدمة – أرضًا، وكانوا يطأون دماءهم بأقدامهم، واضطرب البعض وعادوا من خشيتهم، واستمر القتال حتى المساء .

وفى الغد الأربعاء، استأنف القتال ثانية واستمر أيضًا حتى المساء، وما كان يحدث فى تلك المعارك أنهم كانوا يحدثون فجوات فى جدران المنازل ويتسللون من هذه الفجوة إلى تلك حتى وجدوا أنفسهم فجأة أمام استحكامات العدو أو بجوارها. وكان تقدمهم وإغارتهم على هذا النحو، حيث كانوا يتعاركون طوال النهار حتى المساء دون أن تكف أصوات المدافع والبنادق، وفى الليل، كانوا يطلقون الرصاص فى الهواء من الاستحكامات، وكثيرًا ما نشب القتال أيضًا أثناء الليل، وبصفة عامة قلما كان الهدوء يعم.

وفى يوم الخميس الأول من شهر مرداد (٢٤ جمادى الآخر) عم الهدوء، وكان كبير التجار الروس يروح ويجئ ثانية للوساطة. وفى يوم الجمعة عم الهدوء حتى العصر، لكن الحرب نشبت فجأة، وارتفعت أصوات البنادق والمدافع من كل صوب. لقد خطط رجال الدولة اليوم، ودخلوا عالى قاپو وميدان دار المدفعية فجأة

كى يغلقوا الطريق بين خيابان وأمير خيز، ويغيرون من ذلك الطريق على خيابان للانتقام، ويبحثون فى باغ شمال عن باقر خان، واستمرت الحرب سواء من ناحية أمير خيز أو من ناحية خيابان، وعاد رجال الدولة دون إنجاز أى عمل.

وفى يوم السبت الثالث من شهر مرداد (٢٦ جمادى الآخر)، نشب العراك مرة أخرى، وخطط رجال الدولة اليوم لستارخان، لذا شقوا جدران المنازل فى أكثر من جهة وتقدموا وحاصروا مقر جمعية "حقيقت" – حيث يستقر ستارخان – وقاموا بالقتال وإطلاق النيران من أكثر من جهة.

فى تلك الأثناء كانت المدافع تزمجر كذلك، وأُمطرت أمير خيز بوابل من الرصاص، بل وأحضر الفرسان مدفعًا معهم وجعلوا يقصفون به المناطق القريبة من استحكامات ستارخان. ولما كان محمد على ميرزا مستاءً بسبب تأخر هذا الأمر، وكان يشتد على رحيم خان وغيره من القادة، فقد قرروا اليوم القضاء على أمير خيز دفعة واحدة، دون أى ورع لكن ستارخان ظل على صموده وجعل ينتقل من هذا الاستحكام إلى ذاك ويطلق الرصاص، وظل فى مسعاه هذا حتى المساء حتى خارت قوى الفرسان وعادوا أدراجهم.

وقد ورد فى كتاب "بلواى تبريز" [(١)]: "تم قتل سبعين أو ثمانين شخصًا من رجال الدولة بينما قُتل أربعة فقط من المجاهدين".

وسوف أورد فى هذا الموضع البرقيات التى لدينا عن رحيم خان وشجاع نظام ورجال الدين بشأن هذه المعارك.

يبرق رحيم خان ردًا على " استفسار طهران " بشأن معارك الثلاثة أيام الأولى قائلاً:

---

(١) دون الحاج محمد باقر ويجويه اى كتابًا تحت عنوان " بلاء تبريز " فى نفس هذه الأيام وطبعه فى العام نفسه ويضم قصة هذه المعارك خلال أربعة أشهر، وقد نقلنا عنه الكثير .

"إلى الموطئ المقدس الأعلى لملك الملوك أرواحنا فداه – لقد أرسلت فى الحادى والعشرين شهر سامخان وحسين باشاخان مع مائة وخمسين فارس من حديقة صاحب ديوان للدفاع عن جمعية " إسلامية "، وقد وقع العراك فى أمير خيز وإحدى عشرة محلة أخرى، وألحقوا الهزيمة بأهالى أمير خيز وسائر المحلات الأخرى وقتلوا أعدادًا غفيرة منها. وجئت يوم الثلاثاء الثانى والعشرين مع ألف ومائتى جندى إلى جمعية "إسلامية" وتم الهجوم على إحدى عشرة محلة وانتهت المعركة. ومن حسن طالعى الأبدى أننى ألحقت بهم الهزيمة وتم قتل بعضهم. ومن فرسان حسين باشاخان أبدى القائد بيرام قلى سلطان – وهو من المحنكين – ولاءً للموطئ المبارك لملك الملوك أرواحنا فداه، وأصاب البعض كما أرسلت إلى جنابكم. وأول أمس الأربعاء الثالث والعشرون جاء أهالى خيابان وأمير خيز وسائر المحلات بكامل الاستعداد الذى هيأته الدولة منذ العام الماضى لدك منزل الأمير مقتدر الدولة، وذهب الفرسان من كل جانب، واستمر القتال حتى الغروب، وبحمد الله تم إلحاق الهزيمة النكراء بهم أيضاً، وتم قتل البعض منهم، بينما قُتل واحد من الفرسان. والبارحة الخميس، جاء حسن آقا كبير التجار كى يدعو أهالى خيابان إلى الاستسلام ولم يعد منذ البارحة وحتى الآن، واليوم نشبت أيضًا معركة بسيطة ولم أغادر المكان، وأنا فى انتظار قدوم كبير التجار اليوم، وقد أرسلت أحد الفرسان منذ خمسة أيام إلى مراغه، وانتظر إرسال المدافع حيث لا يمكن المكوث أكثر من ذلك بدون الذخيرة، ولن يكون فى المقدور منح أكثر مما مُنح ليتم إهداره فى هذه المعارك، ونحن نطلب من الموطئ المبارك أن يأمر فى العاجل القريب بإرسال الذخيرة والمال حتى لا تتعطل الأمور أكثر من ذلك، وأن يبعث أمرًا عن طريق البرق بتحرك أمير معزز ومعه ألف فارس وكتيبة من أردبيل كى يتم ضمهم اليوم إلى السبعمائة فارس والكتيبة الخامسة فى حديقة صاحب ديوان فى معسكر اهر، وهذه هى التقارير الصحيحة".

ودون مرتين فى الحاشية:

"من الجرأة أن يقوم الأهالى فى الضواحى بالعراك بالمدافع كل يوم حيث نصبوا عدة مدافع فى منزل الأمير مقتدر الدولة، والعراك هناك عراك مع رجال الدولة".

(خاتم رحيم خان)

وكانوا يسعون فى هذه البرقيات إلى كشف النقاب عن ضعفهم ويقدمون الحجج والوعود. على سبيل المثال، أبرق شجاع نظام البرقية التالية فى هذا الشأن فى الأول من شهر مرداد حيث كان الهدوء يسود :

"طهران – من حضرت المستطاب الأشرف سپهسالار وزير الحربية دام ظله إلى الموطئ المبارك لصاحب الجلالة ظل الله أرواحنا فداه – نحن مضطرون من مساعدة الإقبال الإبدى للملك روح العالمين فداه، واهتمام حضرة الحجة عجل الله فرجه إلى إرسال واسطة إلى جناب حضرات حجج الإسلام حتى يستسلموا:

– من ذلك الكلب الذى قيد الثعلب المحتال ؟

حتــى يتعدى عليـــــه الأســـــد!

ونأمل أن نعرض فى الغد انتهاء الأمر، ونطمئن خاطر الملك أرواحنا فداه".

(خاتم شجاع نظام)

ومن غد يوم الجمعة أبرق بشأن عراك ذلك اليوم، قائلاً :

"طهران – من جناب المستطاب الأشرف وزير الحربية السپهسالار مد ظله إلى الموطئ المبارك لصاحب الجلالة الملك أرواحنا فداه – لقد تعقبوا الأشرار فى جميع الأماكن، واجتمع عدد من المفسدين فى محلة أمير خيز، وقد استوليت اليوم على معظم استحكامات ستار، وأغلقت اثنين منها، وتم سحب المدافع وهم يطلقونها على الدوام، وحمدًا لله لم تحدث خسائر، لكن المدافع التى نصبتها قد خلت من الذخيرة، ولو يأمر الرأى المبارك الجنرال القنصل كى يرسلوا من السفارة عشرة أو عشرين ألف طلقة سيتم الانتهاء من الأمر على وجه السرعة – ٢٦ جمادى الآخر".

كما أبرق المجتهد وإمام الجمعة بشأن العراك الشديد الذى وقع يوم السبت، يقولان:

"جناب المستطاب الأجل الأكرم السپهسالار الأعظم دامت شكوته – لقد استمر العراك اليوم السبت منذ الصباح وحتى العصر، وهاجم فرسان شجاع نظام وبنادقته شتربان وكان لهم الظفر، كما قام ضرغام نظام وفرسانه بعراك آخر وتقدموا، واشتد اليوم على أمير خيز، وتم الثناء على الحاج موسى خان هجوانى فى هىرطاق ومرنديها".

(خاتم إمام الجمعة والمجتهد)

احتدام العراك ثانية

لم يقم رجال الدولة بالإغارة فى يومى الأحد والإثنين الرابع والخامس من شهر مرداد (٢٧، ٢٨ جمادى الآخر) وكان العراك يدور من خلف الاستحكامات وتنوالى طلقات البنادق والمدافع، وفى تلك الأثناء قدم الحاج إبراهيم الصراف من قبل رحيم خان للتشاور فى الصلح. واليوم الأحد توفى باشا بيك – أحد المجاهدين البواسل وكان من حراس السوق – على أثر إصابته فى قتال اليومين السابقين، وقد اغتم المجاهدون بشدة بسبب وفاته. و كان هذا من صفاء قلوب المجاهدين، حيث كانوا يبادلون بعضهم البعض الحب، ويقدرون من يبدى جدارة، وقد حظى باشا بيك هذا بمكانة فى قلب المجاهدين خلال فترة وجيزة، وقد عهد ستارخان بعد ذلك بحراسة السوق إلى مشهدى محمد خان.

ومن يوم الثلاثاء السادس من مرداد (٢٩ جمادى الآخر) بدأت الحرب من ناحية خيابان وارتفعت أصوات البنادق وزمجرت المدافع. وتقدم شجاع نظام اليوم وكان يريد أن يبدى فضلاً، فقد كان يحدوه الأمل أكثر من غيره من القادة فى الاستيلاء على المدينة وكان يسعى أكثر من غيره ويقوم بنفسه بإطلاق النيران فى

أيام القتال من فوق منارة صاحب الأمر وقلما كان يخطئ الهدف. كما كان محسن خان كوژ پشت من الفرسان الذين سلكوا نفس هذا المسلك أيضاً، وتمكن كلاهما من قتل عدد كبير من أهالى المدينة.

هذا وقد ضغط رجال الدولة فى البداية عن طريق السيد حمزة وششكلان وأحرزوا تقدماً، بيد أن المجاهدين تقدموا وقتلوا ثمانية من فرسانهم وجرحوا عددًا آخر، وكان النصر حليفًا لهم حتى اللحظات الأخيرة حيث وصلت الإمدادات إلى الفرسان وضغطوا ثانية. ولما تم قتل بعض المجاهدين، لم يصمد النوبريون – الذين كانوا متقدمين فى هذه الحرب – وعادوا أدراجهم، ونتيجة لهذا الخور أغار الفرسان على حوانيت مجيد الملك – التى تأسست حديثًا وكانت مفعمة بالبضائع التجارية – ونهبوها عن آخرها، وتخاذل المجاهدون من هذا العمل بينما اعتبره رجال الدولة نصرًا لهم وسعدوا به.

وغداة يوم الأربعاء قاتل الفرسان ثانية وتقدموا وأغاروا على بوابة باغ ميشه، ولما كان باقر خان مستاءً من مسلك النوبريين الذى حدث بالأمس لم يرسل إليهم العون وتطاول الفرسان اليوم أيضًا وقاموا بأعمال السلب والنهب فى تلك النواحى .

وفى هذين اليومين لم يبدأ ستارخان الحرب وأبرق شجاع نظام إلى الشاه بالبرقية التالية:

"من حضرت المستطاب الأشرف السپهسالار الأعظم مد ظله إلى الموطئ المبارك لصاحب الجلالة والقدرة ظل الله أرواح العالمين فداه، لقد تجرعوا البارحة هزيمة نكراء لدرجة أن اليوم – الأربعاء وبعد أن مرت ساعتان على الغروب – بدا الأمر وكأن ما من شئ حدث، وقد أخبروا بأن ستارخان المجرم قد مات وغسلوه وحملوه فى النعش، وسوف أعرض عليكم الأمر بعد التحقق منه، وعلى أثر الظفر الأبدى لا صوت لمدفع ولا لبندقية حتى الآن، هذا وسوف يصل تقرير اليوم إلى الموطئ المبارك".

(الخادم ربيب بيتك)

وعم الهدوء يومى الخميس والجمعة وقدم الحاج مير مناف من الدوتشى للتشاور فى الصلح وانعقدت الجلسات. وقيل إن رجال الدولة لم يكن لهم مقر للأسلحة وصدق ما ورد بأنهم كانوا يحصلون على الذخيرة من القنصلية بأمر من محمد على ميرزا وهذا ما أثنى عليه شجاع نظام فى إحدى برقياته، لكن طلقات المدفع كانت قليلة، وقد ورد فى كتاب "بلواى تبريز" فى هذا الشأن:

"نشبت أربعة وثلاثون معركة حتى الآن، ست عشرة منها بالبنادق والباقى بالبنادق والمدافع ".

ومن يوم السبت تقدم ستارخان وأعلن الحرب - التى دامت حتى المساء - من الاستحكامات، وفى يوم الأحد عم الهدوء، ومن يوم الإثنين الثانى عشر من مرداد (٥ رجب) هب الفرسان للقتال عن طريق السوق رغبة منهم فى نهبه بيد أن حسين خان قاوم بشجاعة وتحارب معهم لعدة ساعات وأعادهم جميعاً، وكان هذا الشاب يتنقل من استحكام إلى آخر ويقاوم فى القتال ويصمد فى المكان الذى يحتدم فيه العراك. فى تلك الأيام كانت الأنباء تصل إلى تبريز تفيد بالحادث المؤسف للإمام مويرى وهذا ما كان باعثًا لاستياء الأحرار. من جهة أخرى كانت أنباء أخرى تصل وتزف البشرى بانتصار الأحرار فى تركيا وقيام الحكم النيابى فيها. وهذا ما كان سببًا فى سعادة القلوب.

ومن غد يوم الثلاثاء، وبعد مضى ساعتين من النهار زمجرت المدافع الحكومية ثانية، وكانوا يردون عليهم من الجانب الآخر بقصف المدافع، وظلت هذه الحال حتى اللحظات الأخيرة دون استخدام البنادق. أثناء ذلك تقدمت جماعة من الفرسان من محلة الحاج ميرزا جواد المجتهد للنهب والإغارة، وقام المجاهدون باعتراضهم واحتدم القتال واقترنت أصوات البنادق بأصوات المدافع وحوت أرجاء المدينة، وبعد فترة لم يتمكن رجال الدولة من المقاومة وتقهقروا، وكما ورد فى كتاب "بلواى تبريز" قُتل منهم تسعة عشر فى ذلك اليوم .

واستأنف القتال بالمدافع ثانية فى يوم الأربعاء ورغبوا فى تدمير المدينة بالمدافع بعدما استيأسوا من تطاولهم، وظلت هذه الجلبة قائمة حتى اللحظات الأخيرة وكانت أصوات المدافع تُسمع من كلا الجانبين. أثناء ذلك تضامن فرسان الدوتشى وسرخاب وجندهم وبنادقتهم وأغاروا من عالى قاپو وميدان دار المدفعية، وتقدم المجاهدون وقامت حرب حامية الوطيس.

فى خضم هذه المعارك وصل السيد ميرهاشم خان لمساندة المجاهدين، وتأججت الحرب، وبعد فترة لحقت الهزيمة بالفرسان وتقهقروا وقُتل من بينهم قرابة العشرين. وفى هذه الفترة نقلوا مخازن الذخيرة – التى نقلها فرما نفرما من المدينة إلى مراغه – إلى الدوتشى، وبدأ تقدم أمر رجال الدولة وظفرهم فى الحرب، وكان صوت الحرب والقصف يُسمع فى ليلة الخميس، ورغب الفرسان فى الوصول إلى السوق بيد أن المجاهدين اعترضوهم، فتقدم الفرسان من الجهة اليمنى للمحلة وما حولها، وصمد المجاهدون وقاتلوهم، واستمر العراك ما يقرب من الساعتين قُتل خلالها بعض الفرسان وعاد الآخرون. وفى يوم الخميس زمجرت مدافع الدولة ثانية وبعد فترة بدأ القصف واستمر حتى الغروب. وفى نهاية ذلك اليوم طالب جمع من القرويين فى اسبران وگيوى ستارخان بمدهم بالبنادق ليتخذوا مكانهم بين المجاهدين، ونشب قتال أيضًا فى يوم الجمعة السادس عشر من مرداد، وظلت زمجرة المدافع من قبل الظهيرة بساعة وحتى الغروب.

برقيات المعتصمين فى جمعية " إسلامية ":

ظل الوضع على هذا النحو، حينًا تنشب الحرب وحينًا آخر يعم الهدوء. وفى هذه الأيام وقعت بعض البرقيات – التى كان يرسلها شجاع نظام ورحيم خان وغيرهما من المقيمين فى جمعية " إسلامية " إلى طهران للشاه أو للأمير بهادر – فى أيدى الأحرار، حيث أخذوا تلك الرسائل الممهورة بخاتمهم من مكتب البرق،

ولما كانت تعتبر سندًا نسخوا منها عدة صور ووزعوها بين الأهالى [١] بأمر من الجمعية. هذا ونورد فى هذا الموضع بعضًا منها، وهى عبارة عن ثلاث برقيات من قبل مقتدر الدولة وميرهاشم ورحيم خان.

برقية مقتدر الدولة

"طهران – إلى الموطئ المبارك لشمس العلا صاحب الجلالة والقدرة ملك الملوك الأقدس أرواحنا فداه، لقد أُنهكت طاقة عارفى الجميل ومحبى الدولة، واضطرت الحاجة إلى تعقب كل الأمور وعرضها، لقد دُمرت تبريز وما حولها تمامًا ... وإن هذين العالمين لا دراية لهما بمقتضيات السياسة وشئون المملكة وقد صارا آلة لتحقيق الأهداف الفاسدة والمنافع الشخصية، ولم يقما بما يجب القيام به، وكثيرًا ما علت صيحاتى وذهبت فى إثرهما حتى أننى التمست إلى نواب الدول الأجنبية وأوضحت أن استقرار حضرات السادة فى جمعية "إسلامية" وتدخلهم فى الأمور السياسة أمر غير صحيح وليس من وظيفتهم، ولم تقبل عرائضى ولحقت الخسائر الجمة بالدولة، واليوم أرسلت إلى صاحب الجلالة الملك ظل الله أرواحنا فداه ببرقية التماس وأخبرته أنه تم وقف إطلاق النار وفقًا للأمر الملكى، وقد قبل جميع القادة والفرسان هذا الأمر وأطاعوه باستثناء شجاع نظام الذى يقوم بإطلاق ما يقرب من ألفى طلقة فى الهواء من فوق السطح ومن منزله، وألقى الوحشة فى المدينة بأكملها، حتى أن إحدى هذه الطلقات أصابت منزل سردار نصرت نفسه حيث اصطدمت بالجدار، وأقسم بجميل صاحب الجلالة قبلة العالم أنه طالما أن داره وروحه وذويه صاروا فى خدمة الدولة واستقلال السلطنة، فلن يكون هناك أى جدال قط وأن الموضوع ليس قابلاً للنقاش، لكن خراب المملكة ودمارها قد تعدى

---

(١) لدى المؤلف عدد كبير من هذه البرقيات، فقد تم تسليمها فى ذلك العهد إلى السيد محمد تقى طباطبائى رئيس الجمعية، ووصلت إلىّ عن طريق أسرته، وكُتبت نسخ من هذه البرقيات باللغة الفرنسية، وليس معلومًا إلى من كانت تُرسل هذه الترجمة، إلا أن براون ذكر أنهم كانوا يُرسلونها إلى القنصل الروسى.

الحدود، وكل هذه الأعمالِ ما هي إلا محض تحقيق المنفعة الخاصةِ وهي خيانة للدولةً والرعية. هذا وقد أقسم ثانية بالجميل المبارك خاصة فيما يتعلق بمحاولة اغتيالي، وذكر أنه سيقوم بكل الوسائل الممكنة لإثارة فتنة أخرى فضلاً عن الثورة الموجودة، وبعد عدة أيام أخرى – بإذن الله – حينما يأتي الأمير عين الدولة سوف يتضح صدق عرائضي، وأقولها صراحة، لقد تمت الإغارة على المنازل والحوانيت والأسواق، ولا يزال يتم، وقد عرضت ذلك على السادة، وبدلاً من أن يقيموا عرائضيَ الخيرة بميزان العقل ويأخذوا في اعتبارهم صلاح المملكة سمعت منهمَ اللوم الشديد، من السادة أنفسهم ومن المرندي المجنون، ولم يمر يوم لم يصل فيه مكتوب رسمي من قبل نوابَ الدول الأجنبية، لكن حضرات السادة لا يهتمون بتلك الأمور، ومن يوافقني الرأي هما سردار نصرت وجناب السيد ميرهاشم، وأطلب منكم أنَ تأمروا في العاجل كي تتفادى المملكة الدمار الذي يفوق ذلك".

برقية مير هاشم

"طهران – جناب المستطاب الأكرم الأعظم السيد السپهسالار أمير جنگ دام إجلاله العالي، إن وضع المدينة كما هو في السابق، لم يكف الأشرار عن إطلاق السهام والمدافع من استحكاماتهم ومن ارك، ويتم الرد عليهم من قبل الطرف الآخر بالمثل، ويعتقد مع عدم الاستقرار هذا عدم إمكانية إنهاء الأمور، فلا يوجد ذو كفاءة ولا وزير حرب ذو سياسة، والأسوأ من هذا كله هو الحال غير الملائم لهذين السيدين اللذين لا يكفان قط عن تحقيق أغراضهما، فلا تمر ساعة لا يقومان فيها بإلقاء الفرقة بين الأصدقاء، كل شخص يقوم بتحقيق ما في خياله، ولا يوجد مصرف يعين ولا استقرار في الأمور، ولا يأمل عدو ولا حبيب فيهما وقد وقعت عهدة الإعداد للمعونات وحتى خبز الفرسان وعامة التوقعات في يد الداعي، وقد أعرض أهالي سرخاب جميعهم عن جمعية "إسلامية" بسبب تصرفاتهما، كما أعرض الداعي كذلك عنها، وأنا لا أتردد، فقد جمعنا الأهالي في الخارج بكل وسيلة

ويأملان فى أن تخصصوا لهما مبلغًا يتصرفان فيه وفقًا لرغبتهما دون أن يتم التدخل فى شئونهما. لقد تم جمع زمام الأمور ثلاث مرات حتى الآن، وانتهت جميع الأمور لكنها تبدلت ثانية بسبب عدم كفاءة الحكومة وإجراءات السادة غير اللائقة، والحال أنه طالما لم يصل حاكم كفء بجيش لترتيب الأمور فإن الدعاء يكون بلا نتيجة وما من أثر له، وأطلب من أعتاب ملاذ العالم إما أن يأمر بوقف إطلاق النار فى نعمت آباد – وهى مقر الأذى – أو يتجه لزيارة الأعتاب المقدسة".

(الأقل هاشم الموسوى)

برقية رحيم خان

"طهران – إلى الموطئ المبارك الأقدس المقدس الأعلى أرواحنا فداه، لقد احتشد جميع المفسدين فى اليومين السابقين بالمدافع والبنادق فى محلة شتربان وسرخاب وأغاروا على تلك المناطق وعلى حوانيت مجيد الملك. لقد سلبوا الدكاكين، ونصبوا الاستحكامات فوق الأسطح هناك، وتقدم الفرسان من هذه الناحية، وبعد عراك طويل تم قتل اثنين من الجند وخمسة من الأشرار، فضلاً عن الإصابات العديدة، وقد تمكن المصابون من الفرار. حقًا، لقد تم إلحاق الهزيمة بالأشرار تمامًا حتى يومين سابقين وعمهم الاضطراب، و لم أقم خلال هذين اليومين بتعقبهم أو بالقيام بأى إجراء نظرًا لعدم وجود الذخيرة حيث نفذت الذخيرة التى كان يقدمها الروس على الفرسان، كما استنفذت كل ما لدى منها، والآن لا يمكن الاتصال بأى حال من الأحوال بحضرة الأجل السپهسالار الأعظم، وقد طلبت من الجنرال فى القنصلية ثلاثين ألف طلقة إلا أنه لم يمنحنى إياها، وسوف أدرج نص رده علىّ كما هو لإطلاع الخاطر المقدس:

"فيما يتعلق بالمسألة المعهودة، فمثلما عرضتم عدة مرات من قبل ومثلما أجبتكم، إننى أعتذر عن تلبية رغبتكم نظرًا للظروف الراهنة، ولا أرى فى قبولها نتيجة جيدة. على أية حال فإن مهمتكم هى تهيأة أسباب الدفاع للفرسان".

وبعد أن تملكنى اليأس أبرقت إلى حضرة السيد السپهسالار الأعظم ولم يصلنى الرد حتى الآن، ولا أعلم الآن ما هى مهمتى فيما يتعلق بالذخيرة ورواتب الفرسان، وماذا سيفعل الفرسان المساكين فى هذا القحط وذلك الغلاء الذى عم المدينة ".

(غلامك رحيم چليبانلو)

ويتضح من البرقيات السابقة أية معاناة قد حلت على رؤساء رجال الدولة حيث صار كل منهم يتحدث بالسوء عن الآخر، وصار كل منهم يعتبر نفسه أكثر جدارة من الآخر، وقد اتضح معنى "المسألة المعهودة" من برقية رحيم خان بشكل مباشر حيث كانت القنصلية تمد رجال الدولة بالذخيرة، لكنها امتنعت فى هذه المرة.

كما يبدو من البرقيات كذلك أنهم كانوا يشتكون من عدم وجود المال والذخيرة إلى حد كبير، وكانوا يريدون التذرع بذلك لتبرير هزائمهم، وكذلك لكى يحصلوا على المال والذخيرة بشكل أكثر .

وقد نشرت صحيفة "الحبل المتين" الصادرة فى كلكته صورة من برقية محمد على ميرزا إلى رحيم خان، كما طبعتها كذلك صحيفة "شمس" الصادرة فى اسطنبول وصحيفة جمعية تبريز، و كانت بتاريخ ٩ جمادى الآخر، ويجدر بنا القول إنها أُرسلت فى الأيام الأولى للحرب، لكن ما من دليل لدينا على صحة تلك البرقية، ولا نشاهدها ضمن البرقيات التى أرسلها الشاه أو رئيس وزرائه أو غيرهما فى تلك الأيام إلى رحيم خان مما يوجد لدينا، لذا لا نعلم إن كانت صحيحة أم مزورة، وعلى أية حال سوف نوردها فى هذا المقام:

"إلى رحيم خان سردار نصرت، لا شك أنك لم تنس الأوامر الشفهية التى أمرنا بها أثناء تحركك من طهران، والآن أصدر أوامرى إليك ثانية بألا تضن بالقيام بأى إجراء فى سبيل سحق معارضى الدولة، وأن تتعامل معهم بشكل لا

ينساه الأهالى حتى فترات بعيدة، ولا تكف عن أعمال القتل وإلحاق العقاب وتدمير المنازل والإغارة على المدينة حيث أنك غير مسئول أمام أحد، وأن تقر نفس الوضع الذى أُقر فى طهران (بيد الكولونيل لياخوف) ولا ريب أنك سمعته، ولتحقق الأمر بأسرع ما يمكن للمدينة ولتسحق معارضى الدولة كى تكون موضع العطف الملكى. ماذا يعنى شرط وشروط المصالحة؟ يجب أن تستسلم الرعية لأحكام الدولة، ويجب أن ينال معارضو الدولة شديد العقاب، لتتشاور مع الجنرال القنصل الروسى ولا تبالى بالاعتصام والتحصن قط".

ونشرت صحيفة الجمعية هذه البرقية فى أواخر شهر يور وعقبت بالتالى :

"أيها الملك، لقد أخفقت برقيتك وأوامرك الشفهية، ولم يتم تنفيذ خطة لياخوف فى آذربايجان:

إلهى ستقلع سفينة تلك البلد

ولو انعدم وجود الربان ستتمزق الأردية".

وسواء كانت هذه البرقية حقيقة أو كذبًا، فما نشرته تلك الصحيفة فى ردها عليها لهو جدير بأن يبقى فى تاريخ الحركة المطالبة بالحياة النيابية .

تنظيم الأمور

كما رأينا، دخل أهل تبريز هذه المعركة مضطرين دون أن يطالبوا بها، فقد اندلعت فجأة، وأثناء ذلك فسدت الأمور فى الجمعية الإقليمية، وخرج مخبر السلطنة من المدينة، وكان ستار خان وباقر خان هما فقط اللذان تمكنا من الصمود أمام رجال الدولة، ولم يقم شخص آخر بأى عمل، لكن فى ذاك الوقت، كما كان المجاهدون يأملون فى الصمود من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت الأنباء تصل من طهران تفيد بتجهيز محمد على ميرزا جيوشه لإرسالها إلى آذربايجان، ووصلت الأنباء من ماكو تفيد بتوجه إقبال السلطنة إلى تبريز، وفُهم من ذلك أن الحرب

ستستمر طويلاً، لذا اجتمع بعض الرؤساء وغيرهم وقرروا تنظيم أعمالهم لتقديم العون حين تحتدم المعارك بين رجال الدولة وبين ستارخان وباقرخان. وكما ذكرنا، كان أعضاء الجمعية يخشون على أرواحهم ولجأ كل منهم إلى مكان، وقدم رعاع الدوتشى من بعد وأغاروا على الجمعية ونكسوا رايتها. ومن أعمال ستارخان الجليلة فى تلك الأيام العصيبة أنه أعد علمًا آخر وأرسله إلى الجمعية بكل إجلال كى يرفعوه على بابها، وانتخب حسين خان باغبان مع جماعة من المجاهدين للحفاظ عليه. وهذا منه دليل على تقديره للجمعية، وكان الأمل يحدوه آنذاك فى استعادة الجمعية نشاطها مرة أخرى، ولما تفرق الأعضاء على هذا النحو، اعتبر عملهم هذا من قبيل التنحى – فضلاً عن سوء طويتهم – وكان لابد من اختيار أعضاء آخرين مع استعادة الجمعية نشاطها، ولما لم يكن الاختيار فى هذه الأثناء مطابقًا للدستور ولم يكن أى شخص يقبل الانتخاب، لذا اضطر لاستدعاء أعوانه وقبلوا العضوية فى الجمعية، ولا نعلم من أسماء هؤلاء سوى ميرزا محمد تقى طباطبائى، والحاج مهدى آقا، والسيد حسين خان عدالت وميرزا اسماعيل النوبرى، وقد تولى ميرزا محمد تقى رئاسة الجمعية. ولكى تتقدم الأمور مست الحاجة إلى المال، فلم يحصل المجاهدون حتى ذلك الوقت على أية أموال، وكان هذا دليلاً على شهامتهم حيث أبدى جميعهم – الثرى منهم والفقير – مثل هذه التضحيات دون أية غضاضة، لكن لم يكن فى الإمكان الاستمرار على هذا الوضع وتم تقديم أجر يومى للكثيرين منهم. من ناحية أخرى، كانت تمس حاجتهم إلى شراء البنادق والذخيرة، لذا شكلوا لجنة تحت مسمى "لجنة الإعانة" وتم طبع إيصالات خاصة لتحصيل الأموال من الأثرياء ومنحها إلى المجاهدين – بمعدل أربعة قران لكل فرد – كما فتحوا المخابز فى أمير خيز وخيابان حتى يحصل المجاهدون منها على احتياجاتهم من الخبز، ولم يكن بين المجاهدين حتى الآن أى قائد أو رئيس، ولم يكونوا يتعاملون مع بعضهم البعض إلا بشكل أخوى .

نعم، لقد أبدى البعض فى ذلك الشهر حنكة حربية وشجاعة، ونالوا التميز

عن غيرهم، لكن لم يكن هناك اسم متميز بينهم. وفى ذلك الوقت كانت كل طائفة منهم مقسمة إلى مجموعات ويتولى أحد القادة (من أولئك الذين يتميزون عن الآخرين بالشجاعة والحنكة) رئاسة عشر أو عشرين فرداً. وكان يوجد من بين المجاهدين من يمتلك البنادق أو من يشتريها بنفسه – من أنواع الڤيرندل أو ذات الخمس رصاصات وما أشبه – لكن لما انضم إليهم فى ذلك الوقت بعض الأشخاص الآخرين واشتركوا معهم فى المعارك لذا فتحوا لهم باب مخزن ارك وأخذوا منه نوعًا من البنادق تسمى "شاسپو" نسبة إلى مسيو "شاسپو" الذى صنع هذا النوع من البنادق فى فرنسا منذ أربعين عامًا ونيفا وكان لها الرواج لعدة أعوام حتى ذاعت شهرتها، ويقال أن شراءها قد تم آنذاك لإيران وتم تخزينها فى المخزن.

وكانت هذه البنادق محشوة بالورق ولم تثبت جدارة أمام البنادق الألمانية والروسية وقد أدخل صناع البنادق فى تبريز بعض التعديلات فى قالبها حتى يتم حشوها بالذخيرة، لكن لم يثمر ذلك أيضًا عن نتيجة وكانت الأمور تتقدم بفضل حمية المجاهدين فقط .

ولما كان المجاهدون فى حاجة إلى البنادق فقد اختاروا عدة أماكن كى يسلم الأفراد فيها الطلقات الفارغة ويحصلون على أخرى مملوءة وتم منع إطلاق النار فى الهواء، كما منع ستارخان أيضًا إغارة المجاهدين على الأشخاص أو إلحاق الضرر بهم أو الاستيلاء على الأشياء فى أى مكان. كما تم تقسيم المجاهدين إلى مجموعات، بحيث تتواجد واحدة دومًا فى الاستحكامات بينما تأخذ الجماعات الأخرى قسطًا من الراحة، فيما عدا أوقات القتال حيث يلزم الجميع مواقعهم فى كافة الاستحكامات. كما أعدوا البوابات فى كل محلة ووضعوا الاستحكامات فوقها. وكانت تبريز مدينة تجارية ذات أسواق عديدة ومبان فخمة مملوءة بسلع التجار لذا كان الجند والفرسان يتحينون الفرص دومًا للاستيلاء عليها ونهبها، وكانوا يتجهون إلى هناك كلما واتتهم الفرصة، لذا أعد المجاهدون الاستحكامات فى الأسواق كى

يبقى لهم ما وقع تحت أيديهم بشكل آمن. وعهد ستارخان بحماية الأسواق إلى حسين خان الذى ذاع صيته فى تلك الآونة، وعين الأخير بدوره باشا بك مع طائفة على الأسواق، وتدريجيًا ازدادت قوة الطائفة المطالبة بالحرية التى كانت قد بلغت أقصى درجات ضعفها، وتم إنجاز الأعمال بشكل أفضل أفضى إلى عودة الفارين أو اللاجئين إلى القنصليات وأبدوا تعاونًا معهم.

وازدادت خبرة المجاهدين وتضاعفت قوتهم مع مرور الوقت، وكما رأينا، حينما استخدم رجال الدولة المدفع خرجت المدافع أيضًا من ارك وتم إطلاق نيرانها، وظهر من بين المجاهدين مدفعية محنكون كان من بينهم مهدى خان – وكان يدعى بالأرمنى – وهو أحد الأحرار ذوى القدر، والآخر هو محمد خان أحد مدفعية أخير خيز، ومنهم أيضًا شاب قروى نال رضا ستارخان كثيرًا ومنحه لقب ايلدرم – أى المتلألئ – والمجاهدون القوقازيون – ومن الأفضل أن أقول الذين قدموا من القوقاز – بقيادة مشهدى حاجى، وأبلوا بلاءً حسنًا فى هذه المعارك وكانوا يقومون بتصنيع القنابل، ولما لم يكن فرسان الدولة وجندها قد رأوا القنبلة حتى ذلك الحين لذا كانوا يخشونهم بشدة .

احتدام المعارك:

كما رأينا، وكما سنرى من بعد، إن قادة الدولة – الذين كانوا يقاتلون مع تبريز ولم يستطيعوا إنجاز أى أمر – قد اعتراهم الخجل بشدة من ضعفهم هذا. من ناحية أخرى، كان يتم سحق قواتهم كل عدة أيام، فيستعدون ثانية ويسعون لإبداء المزيد من التضحية ويقومون بمعركة شديدة يسعون فيها حتى المساء لكن دون جدوى فيعودون أدراجهم، وقد قضوا عدة أيام فى حروب من الاستحكامات ثم يعودون ثانية للقيام بعراك شديد، لذا فإن معارك تبريز التى استمرت أحد عشر شهرًا كانت بالنسبة لهم أيامًا صعبة، ومنها ما كان أكثر صعوبة، ومن هذه الأيام يوم السبت السابع عشر من مرداد (١٠ رجب) ونورد قصة ذلك اليوم على النحو التالى :

فى هذه الأيام، من ناحية وصلت الأسلحة من مراغة إلى رجال الدولة، ومن ناحية أخرى قدم نصر الله يورتچى مع عدة مئات من الفرسان المحنكين من جند الشاهسون لتقديم العون، لذلك انتفضوا ثانية وعزموا على الإغارة على أمير خيز بغارة أعظم وأشد وبذلوا أكثر مما بذلوه حتى الآن حتى يقضوا على ستارخان، واختاروا يوم السبت السابع عشر من مرداد (١٠ رجب) لتنفيذ هذه المهمة. وعم الهدوء ليلة السبت، ومع بزوغ الفجر جهز القادة من أمثال رحيم خان وشجاع نظام ونصر الله خان يوتچى وغيرهم أتباعهم، وأرسلوا بداية – طبقًا للخطة المتفق عليها – جماعة إلى خيابان للقتال هناك وسد طرق الإمدادات على باقر خان، ووجهوا الآخرين إلى أمير خيز. وقد كتب الحاج وِيجويه اى أحداث هذه المعركة تفصيلياً، وذكر كذلك رسائل الضواحى والأسواق، ولما كانت معظم هذه الأسواق والضواحى لا تزال كائنة فى تبريز، فسوف أورد بعض ماكتبه بشئ من الإيجاز، كما أضيف بعض الجمل على ما ذكره:

توجه ستة أو سبعة آلاف فارس محنك من ذوى البنية القوية إلى أمير خيز من كل ناحية وبلغوا مقر ستارخان، وبدأوا فى إطلاق النار دفعة واحدة. وكما ذكرنا أحدثوا شقوقًا فى الجدران وتنقلوا بين المنازل وتقدموا وقامت حرب عارمة، وكانت كل طائفة تصطحب معها جماعة من المتخصصين فى أعمال الهدم لتنفيذ ذلك، ولما كانت المنازل قد أخليت أثناء اندلاع المعارك، فكان قيامهم بشق الجدران يتم بسهولة، وأحرزوا تقدمًا قدر استطاعتهم، وزمجرت المدافع وطوت أصواتها المدينة بأكملها، وعلم القريب والبعيد أن الحرب قد اشتدت وطأتها، وكان رجال الدولة يرغبون فى محاصرة جمعية "حقيقت" – مقر ستارخان – حيث تأتى جماعة من أمامها وجماعة أخرى من يمينها وثالثة من يسارها ويسدون الطرق ولا يسمحون لشخص بتقديم المساعدة، وبهذا يتحقق لهم التقدم من كل الطرق، ويحاربون فى كافة الاستحكامات. لكن أثناء ذلك توجهت طائفة كبيرة من جند قره داغ وفرسانها بقيادة ضرغام، وطائفة أخرى من بنادقة الدوتشى برفقة كاظم خان

ونايب حسن – أحد رعاع الدوتشى المشهورين – إلى بوابة اسطنبول التى كانت تقع على الجهة اليمنى من استحكامات ستارخان، وتمكنوا فى طريقهم من تدمير استحكامين، وتقدم فرسان القائد يورتچى من طريق آخر وبلغوا سويقة اسطنبول وقاموا بإطلاق النيران فى جميع الاتجاهات، ونصبوا المدفع الذى كان بحوزتهم بالقرب منهم، ولما وجد المجاهدون فى هذه الاستحكامات أنفسهم فجأة أمام الأعداء أبدوا صمودًا وقاوموا رغم أن عددهم لم يزد عن الخمسة وعشرين شخصاً، وأسرعوا إلى البوابة وقاموا بإطلاق الرصاص، ولم يخش ستارخان هذه الجلبة وأبلى بلاءً حسناً وأمر بسحب المدفع من ميدان بيع الجياد إلى البوابة وقاموا بإطلاق النار.

وانتهز الفرسان – الذين كانت لهم خبرة واسعة بالحروب – فرصة الدخان والظلام وتقدموا قدر استطاعتهم وأطلقوا النيران فجأة، وسقطت القذائف على المجاهدين كوابل من الأمطار وفتحوا فجأة فجوات فى المنازل واتخذوا أماكنهم خلف المجاهدين وضيقوا عليهم الميدان من جميع الجهات، ولم يتمكن المجاهدون من الاستمرار فى المقاومة وتركوا المدفع وولوا من الميدان باستثناء شابين من ويجويه، أحدهما يدعى ستار والآخر عباس، حيث نصبا المدفع وقاما بإطلاق النيران، وأصيب ستار بطلقة سقط صريعًا على أثرها، وصمد عباس بمفرده، ولما نفذت ذخيرته أمسك بخنجر وقاتل الفرسان لكنه لم يصمد طويلاً وتم القبض عليه، واستولى الفرسان على المدفع وسحبوه وهم سعداء إلى الدوتشى. وعدوا ذلك نصرًا عظيمًا لهم. ثم أضرموا النيران فى سويقة اسطنبول وأحرقوها، ولما تمت لهم الغلبة على هذا النحو استولوا على جميع القوافل هناك وقاموا بقتال الجمعية دفعة واحدة.

من ناحية أخرى، تقدمت جماعة أخرى من فرسان قره داغ ومرند وغيرهما وتمركزوا أعلى الجمعية وأطلقوا النيران دفعة واحدة على من كان يعترضهم، وجعلوا يقذفون آلاف الطلقات على الجمعية لوقت طويل، واختلطت أصوات

الطلقات على بعضها البعض وبدت وكأنها أصوات جبل يُقتلع من مكانه. فى تلك الأثناء لم تكف المدافع أيضًا عن الإطلاق حيث بثت الرعب فى القلوب من زمجرتها المتتالية وأحيانًا كانت أصوات فرقعة القنابل تهز المنازل وتحدث شقوقًا فى الجدران. لقد كانت معركة حامية الوطيس، ولاشك أن القادة كانوا يظنون أن الأمر سينتهى فأبدوا أقصى جهدهم. فى تلك الأوقات لم يكن بصحبة ستارخان أكثر من اثنى عشر شخصاً، ورغم ذلك لم يخضع، وكان يرد على الطلقات، ولم يمنح الأعداء الفرصة للتقدم، وكان هذا اليوم من الأيام التى أبدى فيها بسالة لا نظير لها.

وظن الأعداء أن الأمر قد انتهى، وترك أهالى أمير خيز منازلهم من الخشية، وأمسكوا بأيدى أطفالهم وأسرعوا بالخروج وسط النيران. من ناحية أخرى كان الأمر يشتد فى الضواحى القريبة على أثر أصوات المدافع والبنادق، واندفع الأهالى خارج دورهم واجتمعوا فى الطرقات يترقبون النتيجة بقلوب مفعمة بالخشية والخوف .

وقد كتب الحاج محمد باقر مؤلف كتاب "بلاء تبريز" – الذى كان قريبًا من ميدان المعركة وكان خارج منزله فى ذاك اليوم – قصة هزيمة المجاهدين وحملهم المدافع، يقول:

"كنت أقف مع بعض الأشخاص فى أحد شوارع ويجويه، وكان الرجال والنساء كبيرهم وصغيرهم يفرون من موقع القتال ويهرولون نائحين تجاه ويجويه ويصلون فى أفواج. أثناء ذلك وصل المجاهدون – الذين نجوا من مخالب الموت – وكانت رؤوسهم ووجوههم غير واضحة بسبب الدخان والغبار، وقمنا بمواساتهم، وكانوا فى أشد الحزن على مقتل ستار واعتقال عباس".

ويقول:

"فى تلك الأثناء احتدمت الحرب بشدة، ورغم بعدنا عن المكان بما يزيد عن آلاف الخطوات إلا أن الطلقات كانت تتوالى فوق رؤوسنا. وسيطر الفرسان أمام

بوابة اسطنبول على ثمان استراحات للقوافل وتحصنوا فيها وأمطروا حصون ستار خان بوابل الطلقات. من ناحية أخرى تقدمت بعض الطوائف من عدة ضواحى أخرى ووصلت إلى محلة أمير خيز – حيث مقر ستارخان – وقاموا بإطلاق النيران من استراحات القوافل ومن المسجد. وعلى هذا النحو حاصروا ستارخان لكنه ظل صامدًا يبدى المقاومة. فى ذلك الوقت العصيب وصل حسين خان باغبان فجأة مع جماعة لتقديم العون، ومن ناحية أخرى جاء مجاهدو ويجويه – الذين فروا من بوابة اسطنبول – ثانية مع طائفة أخرى".

ويقال إن ستارخان قد أطلع حسين خان – الذى كان يتولى حراسة الاستحكامات فى السوق – بالوضع هاتفياً، فجاء فى تلك الأثناء مع مشهدى محمد على خان وآخرين لتقديم العون، وحينما التفوا حول ستارخان تحصنوا فى مكان خلف الفرسان، وأطلقوا الرصاص من هناك، وعلى هذا النحو اتسع ميدان القتال أكثر واحتدمت المعركة بشكل أشد.

يقول مشهدى محمد على خان:

"لم تكن المعركة محتدمة فى السوق، واتصل ستارخان هاتفيًا وأحكم الحصون، وبادرنا بمساعدة أمير خيز، وحينما وصلنا كان فرسان يورتچى مستقرين على بوابة اسطنبول ويحملون مدفعاً، وكان فرسان مرند وقره داغ وغيرهما قد وصلوا من تلك الضواحى وبلغوا المكان المواجه لجدار جمعية " حقيقت "، ولم يكن رجال الدولة قد تقدموا فى ذلك اليوم، وحينما وصلنا من جهة السوق، وكانت جماعة من البنادقة تقف أمام ضاحية قره تشيلر لكنهم خسروا جميعًا، وكان حسين خان يتقدم دون أن يتوقف فى مكان حتى وصل إلى استراحة القوافل، وهناك لم نسمح له بالتقدم وفى الحال قمنا بشق جدار الاستراحة ودخلنا. وتجرأ البنادقة من عملنا هذا وتقدموا وقمنا بقتال شديد. ولم تمض نصف الساعة حتى سيطرنا على بوابة اسطنبول، ووقع فرسان يورتچى – الذين كانوا فى

استراحات الفوافل - فى مأزق، ووصلنا فوق الجسر، وفر الجند الذين كانوا قد استولوا على تلك الضواحى. وبدأ أتباع يورتچى بعد وقوعهم فى المأزق فى التحدث بكلام هراء داخل الاستراحات، وجعلوا يقسمون بأقسام تدعو على الضحك، فلما كانوا يعتقدون أننا من البابية كانوا يقسمون: "نستحلفكم بحياة جنابكم، لقد اضطررنا أن نسلم اسلامنا لهم فى ذلك العراك". كانوا يتحدثون فى ذلك الوقت بمثل هذا الحديث الهراء ويتعهدون بعدم دخول الحرب ثانية. هذا وقد فتحنا الطريق وخرج مائتا شخص. وقد هدأ خاطرنا من تلك الناحية واتجهنا إلى أمير خيز. وقد وصلت الإمدادات من خيابان آنذاك ودام قتالنا حتى الغروب حتى أخرجنا جميع رجال الدولة من أمير خيز، بل دمرنا عدة حصون أخرى لهم".

وكما ذكرنا، لقد هاجمت بعض الطوائف اليوم خيابان ونوبر أيضاً، واندلعت الحرب وخمدت وطأتها مع نهاية اليوم. وطبقًا لما ورد فى كتاب "بلاء تبريز" ظل العراك اليوم قائمًا لمدة عشر ساعات، وقتل ما يقرب من العشرين شخصًا من المجاهدين بينما قُتل سبعون من رجال الدولة، وقد قاموا بفصل رأس عباس - الذى ذكرنا اعتقاله من قبل - فى الدوتشى. وأحرقوا سويقة اسطنبول عن آخرها وتم تدمير ما يقرب من المائة محل، كما أغاروا على منازل أمير خيز، ومن الأشخاص الذين أبدوا شجاعة فى ذلك اليوم ووردت أسماؤهم فى كتاب "بلاء تبريز" نذكر مشهدى سيف الله، وكربلائى عبد العلى، ومشهدى حسين والحاج حمد الله من طائفة كوردرلويان التى كانت تقيم فى ويجويه ويتسم معظم رجالها بالشجاعة وحينما فر المجاهدون بعد هزيمتهم على بوابة اسطنبول كان أتباع كوردرلومى هم الذين أعادوهم وانضموا إليهم وبذلوا التضحيات أخذًا بثأر عباس وستار، واليوم حملت طائفة أخرى منهم البنادق وانضمت إلى المجاهدين.

غداة ذلك اليوم:

قام المجاهدون فى ليلة الأحد بحراسة أنقاض سويقة اسطنبول، وعم الهدوء

منطقة أمير خيز، ولم يُسمع أى صوت من هناك، لكن ارتفعت أصوات البنادق من حصون خيابان ونوبر. وفى صباح يوم الأحد قام القادة ثانية بالقتال واستأنفوا عراك الأمس، وخلال شهر ونصف أو أكثر كان محمد على ميرزا يرسل البرقيات المتتالية لتوبيخ رحيم خان وشجاع نظام وضرغام وغيرهم من القادة المشهورين الذين لم يتقدموا فى حروبهم فى تبريز. ولما كان عين الدولة فى تلك الأثناء قد اقترب من طريق البحر وأردبيل، وكان سپهدار يصل من طهران بجيشه، خشى هؤلاء القادة من أن ينتهى أمر تبريز على يد عين الدولة أو سپهدار وتكون المنزلة لهما والخزى والعار لهم. وقد رأينا أن مشير الدولة قد ذكر هذا فى برقيته إلى رحيم خان، لذا اتفقوا فيما بينهم وحرموا النوم والطعام على أنفسهم، ورغبوا فى السيطرة على المدينة قبل وصول عين الدولة وسپهدار، ولما كانوا يعدون ستارخان سببًا للفتنة أكثر من أى شئ آخر لذا عزموا على القضاء عليه، وقاموا بالحرب اليوم رغم ما ألم بهم من وهن على أثر عراك الأمس .

واليوم قسم الفرسان أنفسهم إلى عدة مجاميع، وتقدموا صوب أمير خيز من طرق عديدة كى يخضعوا جمعية "حقيقت" لسيطرتهم وحملوا معهم مدفعاً، ولم يقوموا فى البداية بإطلاق النيران، لكنهم فعلوا ذلك حينما تقدموا. ونصبوا فى البداية مدفعًا فى مسجد ايريلو – وكان أحد حصون المجاهدين – وفجرت طلقة المدفع باب المسجد، ولم يكن للمجاهدين القدرة على الصمود، وحينما خرجوا من هناك تحصنت فى المكان جماعة من الفرسان الذين كا نوا يروحون ويجيئون على حافة النهر. فى تلك الأوقات اندلعت حرب شديدة وقام الفرسان والجند – الذين قدموا من كل ناحية ووصلوا على مقربة من الجمعية – بإطلاق النار وزمجرت المدافع. وأمر ستارخان بشق جدار المسجد من الخلف بالمدفع، وقام المجاهدون بإطلاق وابل من الرصاص وأسقطوا عددًا من الفرسان. وكانت الحرب تدور اليوم أيضًا من ناحية حوانيت مجيد الملك وعالى قاپو والمناطق المرتفعة فى خيابان، وكانت أصوات البنادق وزمجرة المدافع تعلو من كل اتجاه، لكن الحرب كانت على

أشدها فى أمير خيز، وكان رجال الدولة يأملون فى الاستيلاء على مدفع ستارخان والقبض عليه أو قتله. هذا وقد حاصروا مقر جمعية "حقيقت" من الثلاث جهات وقاتلوا قتالاً شديداً، ولم يبالوا رغم ما كان يسقط صريعًا من بين الجند والفرسان على التوالى. وانفجرت اليوم كذلك عدة قنابل، وفى كل مرة كان يقع البعض من رجال الدولة صريعًا. واليوم بادر حسين خان مع طائفة لمساعدة ستارخان، وعبر الجسر بشجاعة، واتخذ حصنًا له فى أحد منازل ضاحية توتلوخ واتخذ مقرًا له خلف الفرسان وألحق بهم ضررًا جسيماً، وظل العراك حتى الغروب حتى تجرع الفرسان الهزيمة وعادوا أدراجهم .

أما فى خيابان، فقد تقدم رحيم خان مع حشد غفير من الفرسان وبحوزتهم أحد المدافع فى المناطق المرتفعة، واستمر قتال شديد حتى اللحظات الأخيرة إلى أن تمكن اليأس من رحيم خان وعاد أدراجه. كذلك دار عراك شديد فى بوابة باغميشه وعالى قاپو لكن دون نتيجة، حيث عاد رجال الدولة خاليى الوفاض. واليوم أبلى كل من ميرهاشم خان خيابانى ومشهدى محمد صادق چراندابى مع أتباعهما بلاءً حسنًا فى القتال .

وطبقًا لما ورد فى كتاب "بلاء تبريز" قُتل اليوم ما يقرب من المائتين واثنين وأربعين من رجال الدولة بينما قُتل من المجاهدين ستة أشخاص وأصيب خمسة .

وكان لهاتين المعركتين نتيجة ألا وهى أن رجال الدولة قد أدركوا مدى ضعفهم، وعلموا بوجوب ترقب وصول عين الدولة والسپهدار، بينما شعر المجاهدون بقوة بأسهم مما زاد من صمودهم. وأدى صمودهم فى هذين اليومين إلى حث مجاميع غفيرة على حمل البنادق والانضمام إليهم.

وفى ليلة الإثنين، وبعد مضى ساعتين من الليل علا صوت الآذان من جميع الضواحى المطالبة بالحياة النيابية دفعة واحدة، وقلما كان يوجد منزل من بداية خيابان وحتى نهاية لاكه ديزج وهكماوار – والمسافة بينهما فرسخ ونصف – لا

يصيح فيه شخص أو اثنان بصيحة "الله أكبر"، وقلما كان يسمع فى مدينة الآذان بمثل هذه الكثرة. وكان هذا منهم لأن مؤيدى الدولة – الذين كانوا يطلقون على المطالبين بالحياة النيابية اسم " البابية"- كانوا يضغطون فى هذا الطريق، وكانوا يشجعون الفرسان والجند بسوء السمعة تلك على الإغارة على المدينة وإراقة دماء الأهالى. وكان البعض يظن أنهم حثوا الأهالى على ترديد الآذان، وبهذه الطريقة يطهرون ثوب المدينة من دنس سوء السمعة تلك، ولكن من العجيب أنهم اختاروا الآذان فى غير توقيته. وقد ظلوا فى عملهم هذا منذ تلك الليلة وحتى وقت طويل.

مقتل نايب محمد اهرابى :

عم الهدوء منذ يوم الإثنين التاسع عشر من شهر مرداد (١٢ رجب) لمدة أسبوع ثم اندلع عراك طفيف فى ليلة أو ليلتين فقط. ففى هذه الأيام استيأس قادة الدولة من نصرهم وكفوا عن القتال، وجعلوا يترقبون وصول عين الدولة الذى كان قد بلغ أردبيل. من ناحية أخرى، كان النواب الذين وصلوا من قبل عين الدولة فى أردبيل يتباحثون مع ستارخان ورواد الحرية، ومر أسبوع على هذا النحو. ولكن ثمة حادث مخز تم يوم الإثنين السادس والعشرين من مرداد (١٩ رجب) ألا وهو العراك مع نايب محمد اهرابى وقتله هو وأخوه.

وكما ذكرنا فى موضع آخر، كان الرعاع كثرة فى تبريز، وأولئك هم الذين أعلنوا تمردهم على أثر نير الاستبداد وعدوا لأنفسهم حياة حرة، ومال البعض منهم إلى إيذاء الأهالى وطلبوا الأموال من الأثرياء وتسلطوا على الفقراء وقاموا بأفعال نكراء فى الأحياء والضواحى وتطاولوا على النساء بخسة، وكانوا يتسمون بسوء السمعة وعدم القيمة. لكن البعض منهم لم يؤذ الأهالى فقط بل كان يحميهم، ويرفع يد الظلم من قبل خدام الدولة عن النساء ويدافعون عنهن، وقصروا أيدى اللصوص والمحتالين، واشتهروا بحسن السمعة والقيمة، وأحد هؤلاء ممن ظهروا إبان الحكم النيابى أو فى الفترة السابقة عليه يدعى نايب محمد اهرابى، ورغم سيطرة هذا

الرجل على محلات اهراب وليلاوا وچرنداب وما حولها إلا أنه كان يسلك سلوكًا حسنًا مع الأهالى ويدافع عنهم. وكان أخوه نايب على شابًا شجاعًا لكنه كان من الرعاع المسيئين إلا أن الأهالى كانوا يتغاضون عن سيئاته. وحينما بدأت الحياة النيابية وظهر الانقسام من بعد بين الدوتشى وسرخاب وبين غيرهما من المناطق، ومال الرعاع كل منهم إلى ناحية، لم يبد نايب محمد ميله إلى جانب ووقف على الحياد. لكن حينما وقع حادث جمعية "إسلامية" استاء من الأحرار باسم التدين وتأييد المجتهد وغيره ووضع بوابة على منطقة أهراب وأقر حصنًا بها، ولم يسمح لأحد بالمرور من تلك الناحية لينضم إلى المجاهدين، ومن كانوا يخشون كانوا يتجهون إلى دورهم. وبعد ذلك حينما أقيمت لجنة الإعانة، وكانوا يطلبون المال من الأثرياء لجأ العديد منهم إلى أهراب، وامتنعوا عن تقديم الإعانة بتأييد من نايب محمد، وقام أتباعه بالقبض على البنادقة الذين توجهوا إلى أهراب لجمع الإعانة. وتدريجيًا اشتد أمر أهراب وتجمع المسيئون إلى الحياة النيابية هناك. وكان ستارخان على صلة وطيدة بنايب محمد ولم يرغب آنذاك فى أن يدخل إليه من باب آخر، وكثيرًا ما أرسل إليه وطالبه بتغيير مسلكه. يقول مشهدى محمد على خان:

"ذهبت ذات مرة مع الحاج محمد ميراب وأبلغناه رسالة على لسان ستارخان لكن دون جدوى، وزاد نايب محمد وأخوه من عصيانهما يومًا بعد يوم وسلكا سلوكًا سيئاً. كما أن المجاهدين الذين كانوا من أهراب لم يستطيعوا التوجه إلى منازلهم خشية منهما، وقد قبضوا على مشهدى هاشم حراجچى – رئيس المجاهدين هناك – وابنه، وألحقوا بهما الأذى. وقيل آنذاك إن نايب محمد قد مزق فتاوى علماء النجف وألقاها بعيدًا. والخلاصة، لقد صارت أهراب باعثًا على رَعب الأحرار وكانت الخشية آنذاك من أن يجد رجال الدولة خارج المدينة طريقهم إلى هناك ويرسلوا المدافع والبنادق، ويظهرون الدوتشى ثانية من أهراب، من ناحية أخرى، طفح كيل المجاهدين فى ليلاوا وچرنداب وكوچه باغ ومجاهدى أهراب نفسها. والأكثر من ذلك أنهم لم يكفوا أذى نايب محمد وأخيه هذا، ورغم الصداقة التى ربطت بين

ستارخان وبينهما إلا أنه اضطر لعدم الحيلولة دون أذى المجاهدين لهما، فقد خططوا للأمر، وفى ليلة الإثنين توجهت جماعة من المجاهدين إلى أهراب، ومع بزوغ الفجر فتحوا البوابة أمام الآخرين. من ناحية أخرى، قام حسين خان باغبان ومشهدى محمد على خان وأسد آقا فشنگى كل منهم مع بعض البنادقة من ناحية گورستان كجيل وغيرها بمحاصرة منزل نايب محمد الذى كان داخل حمامه، وما أن سمع بالقصة حتى خرج وأخوه نايب على وقاتلا مع البنادقة الذين برفقتهما من منزلهما ومن أعلى البوابة. لكن لم تمض أكثر من ساعتين حتى وجدا نفسيهما فى مأزق واضطرا للفرار، إلا أنهم تمكنوا من قتل نايب محمد فى أهراب بعد إصابته بعدة إصابات، بينما فر نايب على حتى ضاحية باغ حيث كان ينبغى الوصول إلى قراملك، وقد وصل المجاهدون إليه وألقوه صريعًا وأضرموا النيران فى منزل نايب محمد لكن ما أن انتهى الأمر حتى أرسل ستارخان رسولاً يحذر المجاهدين بعدم إلحاق الأذى بأى شخص".

ومع حسن السمعة التى كانت لنايب محمد فقد حزن الأهالى على مقتله، لكن من ناحية أخرى ثمة شئ كان باعثًا على السرور وهو انتهاء الحرب سريعًا دون أن يُقتل سوى هذين الشخصين. وبعد انتهاء الأمر لم يُلحق الأذى بأى شخص، بل انضمت جماعة من شباب تلك المحلة إلى المجاهدين.

«المقال الثالث عشر»

أية معارك دارت مع عين الدولة والسپهسالار؟

يدور الحديث فى هذا المقال حول المباحثات التى دارت مع عين الدولة، والمعارك التى دارت معه ومع السپهدار حتى فسد أمر جمعية "اسلاميه".

قدوم عين الدولة والسپهدار :

فى تلك الأثناء، حيثُ كان القتال يدور فى المدينة مع أهراب وظفر المجاهدون بنصر آخر، ثمة عرض آخر كان يدور خارج المدينة على بعد ثلاثة أو أربعة فراسخ وكان باعثًا على سعادة رجال الدولة ومؤيدى الاستبداد، فقد وصل إلى سعد آباد كل من عين الدولة – أتابك إيران الأسبق وعدو الحياة النيابية اللدود والحاكم العام لآذربايجان – عن طريق أردبيل، والسپهدار (أو نصر السلطنة) – أحد قادة الدولة المشهورين وعدو الحياة النيابية والقائد العام لجيوش آذربايجان – عن طريق طهران. وكما ذكرنا، لما أطاح محمد على ميرزا بالمجلس وكان يخطط لتبريز، اختار عين الدولة – الذى كان يتولى الصدارة العظمى فى عهد مظفر الدين شاه وقام بتلك العداءات تجاه الحركة المطالبة بالحياة النيابية – لحكم آذربايجان واعتبره أفضل من غيره لتولى هذه المهمة. وكان محمد على ميرزا يعتقد أن شجاع نظام ورحيم خان وغيرهما سيجتثون جذور الأحرار فى تبريز، وأن عين الدولة سيدخل المدينة بكل يسر وهينة ويتولى أزمة الأمور بها، ولكنه حينما أدرك من بعد خور عزم رحيم خان والقادة المرافقين له اختار السپهدار هذه المرة ليكون القائد العسكرى لآذربايجان، وأمره بالتوجه إلى هناك مع الجند .

وقد مضى عين الدولة إلى خراسان بعد سقوطه من منصب الصدارة العظمى واستقر فى محلة فريمان – مسقط رأسه – ورغب آنذاك فى التنحى وعدم صد الحياة النيابية، لكن وصلته برقية الشاه التى يأمره فيها بالتوجه إلى أستارا ومنها إلى أردبيل عن طريق البحر. وقبل مجيئه كان صيته قد بلغ كل الأرجاء، واستعد قادة العشائر لاستقباله، والقدوم برفقته إلى تبريز. بل وكما ذكرنا، سار نصر الله خان يورتچى – أحد قادة الشاهسون – قبل وصوله، وانضم إلى رجال الدولة فى الدوتشى. ولم يكن عين الدولة على علم بأحوال المدينة ومدى ضغط المجاهدين فيها، وكان يظن أنه سيتمكن من التأثير على أهالى تبريز بتقديم الوعود إليهم وأنه سيخمد الفتنة، لذا أرسل ثلاثة مندوبين من قبله من أهالى أردبيل وهم وكيل الرعايا وصارم السلطنة طالش ومصباح السلطنة إلى تبريز للتفاوض مع ستارخان وأعوانه، ثم اصطحب برفقته أمير معز حاكم أردبيل وآخرين وتوجه من هناك إلى سعد آباد يوم الإثنين التاسع عشر من رجب، ولما كان السپهدار قد وصل هو كذلك من طهران فقد تقابلا هناك وطالبا بوصول أفواج الجيوش التى تم إرسالها من طهران. وفى غد تقدموا إلى باسمنج – على بعد فرسخين من المدينة – وقدم مقتدر الدولة وآخرون من المدينة لاستقبالهم. ومن هناك توجه السپهدار إلى حديقة صاحب ديوان، وقضى عين الدولة ذلك اليوم فى باسمنج ثم سلك طريقه يوم الأربعاء، وقدم من المدينة جميع قادة الدولة وفرسانهم وجندهم لاستقباله حتى بلغوا به إلى الحديقة بكل إجلال وتعظيم .

وكان الرسل الثلاثة الذين أرسلهم عين الدولة قد وصلوا إلى المدينة قبله وتباحثوا مع ستارخان وباقر خان وأعضاء الجمعية، وعلى ما يبدو أنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة، رغم ذلك لم يقطع عين الدولة رباط التفاوض وظل البعض يروح ويجئ لفترة بغرض استمرار التباحث بين الطرفين. وكان عين الدولة يرغب فى حالة عدم استطاعته أن يهدئ من روع الأحرار بتقديم الوعود وأن ينجز أموره

دون أن يلحق به أى ضرر. ولو استطاع يقوم بشغلهم حتى وصول أفواج الجند والفرسان التى سلكت طريقها من طهران وكذلك جيوش ماكو حتى يتمكن من القيام بمعارك عظيمة، ولم يقطع رباط المرونة مع وجود مثل هذه الأفكار لديه .

من ناحية أخرى، كان الأحرار يعلمون نيته، ولما لم تتحقق أمورهم بسرعة، لم يرغبوا كذلك فى قطع رباط التفاوض، ولما لم تكن تلك المفاوضات سوى أنها من قبيل الخداع ولم تتأت منها أية نتيجة، ومن ناحية أخرى، لما كان معظم من يروحون ويجيئون بين الطرفين للوساطة من المرائين، وكانوا يرغبون فى استرضاء كلا الطرفين، لذا لن أورد ذكرهم فى هذا الموضع. والخلاصة، لقد دخل عين الدولة من باب الخداع، واقترح أن يسلمه أهالى تبريز المعدات الحربية ويستسلمون ويطلبون الصفح من الشاه، ووعدهم إذا ما فعلوا ذلك سيقوم بطلب إعادة الحياة النيابية إلى الأهالى من الشاه، وكان يردد فى حديثه دومًا عبارة "العطف الملكى" ويتحدث عن رحمة محمد على ميرزا ومواساته للشعب. ورد عليه أهالى تبريز قائلين:

"لقد تم الحصول على الحياة النيابية منذ عامين ولم يصدق أحد أن يتم القضاء عليها، ولما تمرد محمد على ميرزا على الدستور وألحق الدمار بالمجلس لذا سنظل نضغط ونقاوم حتى يضطر لافتتاح المجلس ثانية".

وكانوا يقولون:

"لو كان عين الدولة حاكمًا قانونيًا فيجب عليه بداية أن يقبض على كل من شجاع نظام وضرغام ورحيم خان وغيرهم ممن قدموا إلى المدينة وبسطوا أيديهم بأعمال القتل والإغارة وأن يقدمهم إلى المحكمة، ولو لم يكن حاكمًا قانونيًا لن نستطيع أن نتقبله".

وكانت هذه هى خلاصة الأحاديث التى دارت بين الطرفين.

المؤازرات التى أبديت تجاه تبريز:

كانت هذه الأحاديث تدور وفى الوقت نفسه كانت أفواج الفرسان والمشاة المدججين بالأسلحة والمدافع تصل من طهران لتدعيم قوات عين الدولة، كما كان جيش ماكو قد تحرك وسلك طريقه، وعلى هذا النحو أعد رجال الدولة قوة عظيمة وكان واضحًا أن ثمة حربًا عظيمة وشديدة سوف تنشب. وواقع الحال أن المطالبين بالحياة النيابية كانوا هم أيضًا قوة يُعتد بها آنذاك، ففضلاً عن تدريب المجاهدين اليومى وزيادة أعدادهم وفضلاً عن تنظيم صفوفهم، كان ثمة تأييد عظيم لهم من الخارج يجب أن نذكره فى هذا المقام :

لما انتهى أمر المجلس فى طهران بهذا الضعف واقتلع جهاز الحكم النيابى من كل مكان بانتفاضة واحدة أمتهن اسم إيران فى أوربا وغيرها من الأماكن، ولحقت المهانة بشعب إيران من قبل الشعوب الأخرى، لكن لما أعقب ذلك وصول الأنباء عن المقاومة الباسلة لمدينة تبريز، وكانت هذه بشرى للإيرانيين وانتفضوا فى شتى البقاع من الهند ومدن القوقاز وتركيا ودول أوربا وهبوا لتأييد تبريز، خاصة بعد حصولها تدريجيًا على الظفر، ويومًا بعد يوم، كانت تُنشر على صفحات الجرائد الأوربية بطولات ستارخان وغيره مما كان داعيًا لسعادة الإيرانيين الغيورين فى كل مكان، خاصة فى اسطنبول والقوقاز لكثرة عدد الإيرانيين المتواجدين فيهما، حيث ظهرت بينهم انتفاضة كانت لها نتائج واضحة .

كما أسس الإيرانيون فى اسطنبول جمعية باسم "انجمن سعادت ايران" اعتبرت نفسها مندوبة عن جمعية آذربايجان الإقليمية خارج إيران. وكانت تقوم بدور الوساطة بين تبريز والنجف والدول الأوربية وغيرها من البلدان، حيث كانت تبلغ جميع الأرجاء بكل نبأ يصل من جمعية تبريز، كما كانت توصل جميع رغبات جمعية تبريز إلى المجالس النيابية أو أوربا، إلى جانب تحصيل الإعانات من الإيرانيين المقيمين فى الدولة العثمانية وأوربا والهند من أجل تبريز وترسلها إليها برقيًا .

كان كل عمل من هذه الأعمال يعتبر مساندة عظيمة وداعيًا لتهدئة خواطر أهالى تبريز، ويجب أن يظل اسم جمعية السعادة هذه خالدًا فى تاريخ الحياة النيابية فى إيران، وللأسف أننا لا نعرف أسماء مؤسسيها ورؤسائها، ولم نسمع معلومات مؤكدة ممن قمنا بالاستفسار منهم، وبشكل عام كان تجار آذربايجان هم الذين يقومون بمعظم الأعمال فيها، وما كان يدعم جهود جمعية السعادة هو غلبة الأحرار فى الدولة العثمانية وسريان الحياة النيابية هناك، ومن هذا المنطلق لم يعقها هناك أى عائق. وقد بلغت قوة الجمعية أن شخصًا مثل أرفع الدولة – الذى نعرف عداءه للحياة النيابية – قد أبدى رغبته فى الحكم النيابى من الخشية وخضع لمطالب الجمعية، ودفع ثلاثة آلاف من المنات إعانة لمدينة تبريز .

وأحد أعمال الإيرانيين كذلك فى اسطنبول إصدار جريدة باللغة الفارسية تحت عنوان " شمس " التى رغم جدارتها ورغم أن صاحبها ومحررها هو السيد حسن التبريزى – الذى انخدع وكان يمتدح أى شخص للحصول على المنح والعطايا، مثلما امتدح الحاج صمد خان وغسل ذنوبه وطهرها – إلا أن الحاجة كانت ماسة للغاية آنذاك لإصدار صحيفة فارسية فى اسطنبول، وقد لعبت هذه الصحيفة دورًا فعالاً فى تقدم أمر تبريز .

أما فى القوقاز، فكما ذكرنا، فضلاً عن تواجد الإيرانيين بكثرة هناك، فقد فرتَ جماعة من أحرار طهران وجيلان إلى هناك. من ناحية أخرى، وكما ذكرنا، كان للإيرانيين هناك مؤسسة (حزب) بإسم " الاجتماعيون العاميون" كان أحد مؤسسيها هو نريمان نريمانوف، وقد أرسلت هذه المؤسسة مندوبيها إلى طهران وتبريز وغيرهما من المدن لدعم الحركة المطالبة بالحياة النيابية، واشتركت طائفة منها فى القتال الدائر فى تبريز وكانت تسمى " طائفة مجاهدى القوقاز "

من هذا المنطلق كانت هذه المؤسسة تبدى تعاطفًا تجاه حركة إيران المطالبة بالحياة النيابية، وحينما سمعت بصمود تبريز هبت تسعى بالجهود لتقديم المساندة، كذلك قام الأحرار الذين وصلوا من إيران حديثًا وغيرهم من الإيرانيين ببذل

المسعى، حيث كانوا يقومون من جهة بجمع الإعانات، ومن جهة أخرى كانوا يسعون مع المؤسسة لتوصيل البنادق والذخيرة والقنابل إلى تبريز عن طريق البعض، كما سعوا لحث المؤسسات الثائرة الحرة الأخرى فى القوقاز لتأييد أهالى تبريز.

المساعدات التى قدمها الآخرون

أثمرت جهود تلك المؤسسة عن نتائج واضحة ومفيدة حيث بادر بعض أحرار القوقاز لمساعدة تبريز، وقد عرفنا من بينهم آيدين باشا وأخيه إبراهيم آقا اللذين كانا ينتميان إلى أهالى " قارس"، وقدما إلى تبريز فى تلك الآونة وصارا من القادة هناك.

فضلاً عن ذلك فإن المنظمة " الاشتراكية الديمقراطية " – التى تأسست فى تلك الدولة منذ أعوام، وقامت بمساع حثيثة للإطاحة بجهاز الاستبداد التابع لأسرة رومانوف، وقدمت تضحيات جمة، وكانت تعتبر آنذاك من المؤسسات القوية ولها فروع فى مدن القوقاز – قد أبدت تأييدًا لثورة إيران ومدت يدها لمواساة أهالى تبريز، وقبل أن تفكر تلك الجمعية فى إبداء العون قام العديد من العمال التابعين إليها بإبداء التعاون تجاه تبريز هذا وقد تضمنت المنظمة مرسومًا تضمن إرسال العمال وغيرهم ممن خدموا فى العسكرية واكتسبوا خبرة فى القتال، وكذلك ممن لهم دراية بصناعة معدات القتال والقنابل لمساندة تبريز بعد أن مدتهم بأدوات القتال والذخيرة.

ونتيجة لذلك المرسوم أعدت جمعية تفليس ما يقرب من مائة كرجى ووجهت بهم إلى هناك وقد جاءوا حتى حدود إيران عن طريق السكك الحديدية وعبروا خفية من نهر إرس حتى بلغوا الأراضى الإيرانية. ولما كان الطريق من هناك وحتى تبريز – ويبلغ ثمانية عشر فرسخًا – مملوءًا بمؤيدى الدولة، فقد اضطروا إلى الاتجاه سيراً، ومن حسن الطالع أنهم تمكنوا من الوصول إلى تبريز

دون أى عراك .

وكان قدومهم هذا مما أغبط المجاهدين لعدة أسباب: فمن ناحية، أدركوا أن هناك من يقدر مجهوداتهم الشجاعة فى كل مكان، وعلموا أن هناك من يتعاطفون معهم من بين الروس والكرج وغيرهما من الشعوب الأخرى، وأن الصراع بين الحرية والأسر يتقدم فى كثير من الأماكن. ومن ناحية أخرى، كان المائة كرجى هؤلاء من المحاربين البواسل الذين أبدوا حنكة عالية فى ميادين القتال، فضلاً عن ذلك فقد اصطحب الكرجيون صانع قنابل معهم، وكما ذكرنا، كانت القنابل ذات أثر فعال فى هذه الحروب.

وبصفة عامة ظهرت انتفاضة بين المجاهدين على أثر وصول هؤلاء الرجال البواسل إلى تبريز. ومن الأشياء التى راجت بين مجاهدى ذلك العهد هو ظهور القبعات التى كان يطلق عليها " القبعة الفدائية "، وهى تبدو بوضوح فى بعض الصور على رأس ستارخان وغيره من المجاهدين، وما نعرفه أن هذه القبعة كانت تروج بين ثوار بلغاريا الذين ثاروا فى تلك الفترة ضد العثمانيين فى سبيل الحرية، ولا نعلم هل الكرجيون هم الذين أتوا بها إلى تبريز أم غيرهم؟ وتلك المجموعة الكرجية يقال إنها بلغت تبريز فى أوائل شهر مرداد، ويقال كذلك إنهم اشتركوا فى الحروب الأخيرة التى دارت رحاها فى منطقة أمير خيز. (١)

وكانت تبريز فى ذاك الوقت فى أمس الحاجة إلى البنادق والذخيرة فضلاً عن الأموال والمحاربين، لأنه كما يبدو من برقيات رحيم خان وشجاع نظام، كان فرسان الدولة يمتلكون البنادق الروسية ذات الخمس رصاصات أكثر من غيرهم، فى حين كان هذا السلاح فى أيدى المجاهدين بأعداد ضئيلة، وكانت معظم بنادقهم من نوع "شاسبو" الذى ذكرناه من قبل، لذا كان من الضرورى الحصول قدر

---

(١) يقول م. پاولويچ ايراسكى الذى استقينا معظم المعلومات من كتابه: " لقد وجهت جمعية بـاكو أيضـا باثنين وعشرين شخصًا ". ويقال إنهم هم أنفسهم الذين وجه بهم إلى جيلان، ولا توجد معلومات لـدينا عن قدومهم إلى تبريز .

المستطاع على نوعية البنادق ذات الخمس رصاصات، وكانوا يطلبون المساعدة فى هذا الشأن من جمعية "اجتماعيون عاميون"، فأرسل بعض الرؤساء الفدائيين البنادق إلى تبريز وكان من بينهم مشهدى اسماعيل ميابى الذى جاء إلى تبريز برفقة اثنين آخرين ومعهم البنادق والقنابل. وتم أسرهم فى الطريق بيد أتباع شجاع نظام ثم وجه بهم إلى مرند وزج بهم فى السجن، وبعد فترة تم قتله على أثر التعذيب. وعلى هذا النحو فقد أحد البواسل روحه فى سبيل الحرية. من ناحية أخرى توجه بعض تجار قره داغ إلى القوقاز بتأثير من ستارخان وحملوا معهم عددًا كبيرًا من البنادق ووصلوا إلى تبريز رغم الصعوبات التى واجهتهم، وعلى الرغم من أن مسعى هؤلاء كان وراء تجارتهم لكنهم حين تعاونوا مع الأحرار لم يضن ستارخان عن تقديرهم وتأييدهم .

على أية حال، لقد كان أهالى القوقاز يسعون كل مرة، فى حين أن بعض مدن إيران نفسها قلما كانت تبدى أدنى اهتمام مقارنة بما كانت تبديه المدن الأجنبية.

التأييد الذى أبداه علماء النجف:

ثمة تأييد آخر كان فى محله تم تقديمه إلى تبريز آنذاك وقد صدر من قبل علماء النجف، فكما أسلفنا، أبرق محمد على ميرزا إلى علماء النجف قبل تعديه بالقصف على المجلس، ووصل منهم رد شديد اللهجة، ثم ضغط علماء النجف مؤيدين للحياة النيابية، وأرسلوا كى لا يبدى الجند والفرسان والقوزاق الطاعة لمحمد على ميرزا وكتبوا علانية: "إن التحالف مع معارضى الحكم النيابى وإطاعة حكمهم فى التعرض للمجلس هو بمثابة الطاعة ليزيد بن معاوية". وأبرقوا إلى جميع المدن بهذه الفتوى. وبعد قصف المجلس بالمدافع استاء العلماء بشدة وتم تبادل البرقيات بينهم وبين البلاط ثانية، واحتدوا فى رسائلهم هذه المرة وأعلنوا عن سخطهم تجاه محمد على ميرزا بل وعلى الأسرة القاجارية.

فى هذه الأثناء، حينما وصلت الأنباء إلى النجف تفيد بصمود تبريز وإرسال الشاه الجيوش تباعًا إلى تلك المدينة. لم يترك العلماء الفرصة ونهضوا لمساندة تبريز، وأرسلوا الفتاوى ثانية تفيد بأن المضى إلى تبريز للقتال ضدها هو بمثابة القتال ضد إمام الزمان، وأن غلق طريق الطعام على هذه المدينة فى حكم غلق ماء الفرات أمام أصحاب سيد الشهداء.

ولم تؤثر هذه البرقيات فى الجند والفرسان، ولم تمنعهم عن إبداء الولاء للشاه وقادته، ولم يبلغ مسامعهم كثير مما قيل حيث كانوا من الأميين، لذا لم تُر فائدة منهم وكانت فائدتهم عن طريق آخر. ففى تلك الأيام كان حشد كبير من أهالى إيران – خاصة فى المدن – ممن يتبعون الدين، ولما نهض رجال الدين فى تبريز وغيرها من المدن لعداء الحياة النيابية، وكانوا يطلقون على المطالبين بالحكم النيابى خارجين عن الدين أو بابية، لذا قلما كان ينهض شخص لمساندة الحياة النيابية لو لم تكن فتاوى علماء النجف تلك، وكان معظم مجاهدى تبريز أنفسهم من التابعين للدين، وكانت حجتهم فى ذلك المسعى وتلك التضحيات هى فتاوى العلماء فى النجف. وقد تردد هذا على لسان ستارخان نفسه: "إننى أنفذ حكم علماء النجف". كما كان معظم التجار الأثرياء – الذين قدموا الأموال إلى تبريز على سبيل الإعانة – يتبعون فتاوى العلماء، وكانت هذه هى الفائدة الكبرى لبرقيات علماء النجف .

وكما ذكرنا، كانت جمعية "سعادت" هى الواسطة بين تبريز والنجف، وكانت تقوم مرة كل عدة أيام بإطلاع السادة برقيًا على أوضاع هذه المدينة وأحوالها. من ناحية أخرى، أبدى حشد من الطلاب – الذين التفوا حول المجتهدين الثلاثة – فى النجف نفسها تأييدًا كبيرًا للحكم النيابى، وأبدوا تعاطفًا تجاه تبريز وما يحدث فيها. وبعد أن أعلنت الحياة النيابية رسميًا فى الدولة العثمانية تغير الوضع كذلك فى النجف، حيث انعدمت فى ذلك الوقت تلك الغلبة التى كانت للسيد كاظم اليزدى ولأعداء الحياة النيابية. لذا، فضلاً عن برقيات العلماء، كانت النجف نفسها مقرًا محببًا لأهالى تبريز.

وكانت أحوال النجف تلك وسلوك العلماء الثلاثة باعثًا على اضطراب محمد على ميرزا. ولا شك أنه كان يحاول استرضاء العلماء سرًا إلا أنه فشل. يقول الحاج الشيخ فضل الله النورى – الذى عاود نشاطه ثانية بعد إغلاق المجلس، وتمتع فى ذلك الوقت بالعزة والجلال – فى رسالة أرسلها كاتبه إلى ابنه – السيد ضياء الدين – فى النجف :

"إن المدينة فى كامل أمنها، وجميع أرجاء إيران – بحمد الله – فى غاية النظام، وثمة اهتمام بأخبار العتبات العالية. وقد وصلت منذ فترة برقية من قبل حجة الاسلام والمسلمين روحى فداه إلى صاحب الجلالة يستفسر فيها عن الأحوال هناك، ولم يصل الرد حتى الآن. إن من العجب أن تبدوا هذا التساهل رغم كل هذه التأكيدات، ولا ريب أن الردود الصحيحة كافية لبث القوة فى قلب الشاه، فلتخابرنا: إلام لا نمتلك أجرة البرقية "!

وسوف أورد فى هذا الموضع إحدى برقيات العلماء السالفة الذكر لتكون نموذجًا فى أيدينا:

"نعلن على كافة الشعب حكم الله، إن التصدى اليوم لهذا السفاك الجبار من أهم الواجبات، وإن دفع الضرائب لأتباعه من أعظم المحرمات، وإن بذل الجهد لإحكام الحياة النيابية فى منزلة الجهاد فى ركاب إمام الزمان أرواحنا فداه، والتساهل فى ذلك والإعراض عنه ولو بوزن شعرة بمنزلة الخذلان ومحاربة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أعاذ الله المسلمين ذلك إن شاء الله تعالى".

(الأحقر – نجل المرحوم ميرزا خليل، الأحقر محمد كاظم الخراسانى، الأحقر عبد الله المازندرانـــى)

وقد أرسلت هذه البرقية فى شهر آذر وتم طبعها فى الوقت نفسه فى الصحف وفى غيرها من المطبوعات، كما تم تصويرها وتوزيعها فى كل مكان، وكان مثل هذا النوع من البرقيات يوجد بكثرة .

في تلك الأيام، كان عين الدولة قد بلغ باسمنج، وكانت حيوش الدولة تتجه من كل ناحية تجاه تبريز، وكانت الخشية تتملك بعض أعضاء الجمعية ممن لم يكونوا فى قوة المجاهدين، وطالبوا علماء النجف عن طريق جمعية " سعادت " بأن يأتوا إلى إيران بأنفسهم لمساندة الحياة النيابية، وتتبعوا هذه الفكرة الساذجة أيضًا فى اسطنبول. من ناحية أخرى كان الشيخ سليم – الذى فر بعد دخول رحيم خان المدينة ووصل إلى النجف– يبدى صمودًا فى ذلك الشأن، لكن المغفور له آخوند – وكان رجلاً ثاقب الفكر حكيمًا – رفض هذه الفكرة وعدها من السذاجة، ولكى يثنى الشيخ سليم وغيره عنها دفعة واحدة اقترح على الشخصين الآخرين أن يتجه الحاج السيد على التبريزى – أخو الحاج سيف العلماء خيابانى، وكان من تلاميذ الآخوند المشهورين – إلى إيران مع مجموعة من الطلاب وأن يبرقوا إلى تبريز واسطنبول بهذه النية. من ناحية أخرى تقدم الحاج السيد على مع رفاقه حتى خانقين – على الحدود الإيرانية العثمانية – ولم يتمكن من العبور من هناك فعاد .

لقد كان يأمل فى انتفاضة الأهالى حينما يذيع نبأ توجهه إلى إيران ويبادرون لاستقباله ويحضرونه هو ورفاقه إلى إيران، ويقاتلون رجال الدولة تحت قيادته، لكن لم تُشاهد هذه الانتفاضة بين الأهالى لذا لم يعبر من خانقين إلى هناك. وواقع الحال أن عمله هذا كان باعثًا أيضًا لتعاطف أهالى تبريز .

جمعية تبريز أو خليفة المجلس

على هذا النحو وصل التأييد إلى تبريز من عدة جهات، من ناحية أخرى كان أساس الأمر محكمًا فى المدينة من كل جانب، لأنه – كما ذكرنا مرارًا – قام المجاهدون بمسعاهم بعقول ثائرة وقلوب طاهرة، ولم يبغوا سوى تقدم أمرهم ولم يكفوا عن تقديم تضحياتهم، وكان الزعماء جميعهم – الذين كانوا يسعون من خلف الاستحكامات ويهيئون الأموال والمعدات والطعام – شغوفين بالحياة النيابية، ولم يبغ أحدهم مصلحة خاصة. وكان ستارخان وباقرخان يسلكان طريقهما بشكل أخوى دون أى تنافس بينهما، ولو لم تكن هذه المشاعر لما تقدم أى عمل .

ونتيجة لهذا التأييد من الخارج وذلك الاستقرار من الداخل اعتبر المطالبون بالحياة النيابية أنفسهم قوة، ولم يهابوا عين الدولة وجيوشه وتابعوا أعمالهم بقلوب ثابتة. ولما كانت أعداد غفيرة من الإيرانيين فى الخارج، وكذلك علماء النجف الثلاثة وجمعيات القوقاز الحرة يعتبرون تبريز فقط هى المركز الرسمى لإيران وكانت وجهة الجميع إلى هناك، فقد اعتبرت جمعية تبريز الإقليمية نفسها بديلاً عن مجلس الشورى الوطنى أثناء غلقه، وأبرقت بذلك إلى كل الأرجاء ووافق الجميع عليه. ومنذ ذلك الحين اتخذت تبريز صفة أخرى، ولم تكن تسعى للحفاظ على نفسها فقط، بل انصب سعيها على إعادة الحياة النيابية إلى إيران، والحد من تسلط الأجانب، وتولى أزمة الأمور فى الدولة، وتقدمت خلال فترة وجيزة، وبناء على أوامر الجمعية الإقليمية تأسست صحيفة باسم "نالهء ملت"[(١)]– أى أنين الأمة – فمنذ اليوم الذى تمردت فيه جمعية " اسلاميه " وعدمت المدينة الأمن تم مصادرة الصحف وإغلاق المطابع، وكانت توجد فى تبريز مطبعة واحدة كبيرة – يقال إن مؤسسها هو المغفور له سعيد سلماس – وقد أغار عليها فرسان قره داغ ومرند أثناء هجومهم على محال محيد الملك وأفسدوها، ولم تصدر صحيفة أخرى حتى الآن إلى أن صدرت صحيفة "نالهء ملت"، وكان الهدف من وراء نشرها – كما يبدو من عنوانها– نشر مظالم رجال الدولة وبيان الظلم الواقع على الشعب أكثر من أى شئ آخر، لكن تغير الهدف والمجال التى تكتب فيه تدريجيًا وصارت تنشر الأخبار حول خور عزم رجال الدولة وظفر الشعب، ثم بدأت جريدة الجمعية فى الصدور ثانية، وكانت تطبع على الحجر.

ورغم أن نصف المدينة كان يقع فى قبضة الدوتشى ورجال الدولة، وقد أعدت المعسكرات حول المدينة إلا أن المطالبين بالحياة النيابية لم يبالوا، وتابعوا أعمالهم وفى الوقت الذى لم تنشر فيه صحيفة واحدة فى أرجاء إيران – باستثناء

---

(١) صدر العدد الأول منها باسم " نواى ملت " ثم صار اسمها " نالهء ملت " من العدد الثانى.

الصحف الحكومية فى طهران – كانت تصدر جريدتان فى تبريز، كما طبع عدد من الكتيبات فى هذه الفترة كانت توزع بين الأهالى، وكما سنرى، أعدت مطبعة اسكندانى خريطة لتبريز أوضحت عليها الضواحى المؤيدة للحياة النيابية والأخرى الموالية للاستبداد وأماكن المدافع، وتوجد نسخ منها بين أيدينا الآن. وحينما ذكرت اسم الصحيفة رأيت من الأفضل أن أورد فى هذا المقام بعض الأشعار التى تم نظمها فى تلك الآونة وطبعت فى الصحيفة، نظمها ميرزا جعفر آقا خامنه اى فى ذم رجال الدين المقيمين فى جمعية "إسلاميه" وتم طبعها فى هذه الأيام نفسها فى صحيفة "نالهء ملت"، وترددت على الألسنة، ونورد فيما يلى بعض أبيات منها:

- أشكو إليك يا إلهى من الزاهدين المرائين الذين يخادعون العالم بالعباءة والرداء.
- يذكرون حرمانية الخمر للخلق، إلا أنهم ثمالى من دماء الأبرياء كل صباح ومساء.
- لا يحبذون إيذاء نملة وقت الوعظ، ويحكمون المدينة بالقتل والإغارة .
- يقدمون الشعب المسكين إلى قبضةِ الجلاد، دون خجل من الرسول أو خشية من الله .
- لتأت، فقد جرت الدماء فى تبريز بدلاً من الماء بحكم الشاه وفتوى بعض المشايخ .
- أغلق طريق العيش أمام عباد الله، واضطربت الولاية وابتليت بالفقر .
- نعم، لا تبحث عن فضيلة الإنسان عند الشبيه بالبقرة، فالإنسان لا يكون باللحية ولا بالعباءة ولا بالقبعة.

وثمة قطعة شعرية أخرى نظمت باللغة التركية مجهولة المؤلف، وأحيانًا يشيعون أن ناظمها هو مشهدى محمد على المِطبعجى أحد مؤيدى الحياة النيابية،

وكان فى تلك الفترة من مؤسسى لجنة " الإعانة "، وصار من بعد – كما سنرى – أحد أعضاء الجمعية الإقليمية، وقد نظم هذه الأبيات الثائرة وصارت موضع استحسان الأهالى وترددت على الألسنة ثم نشرتها صحيفة "تالهء ملت".

ويقال أيضًا إنهم أنشأوا مستشفى فى نفس هذه الفترة من أجل المجاهدين فى أحد المبانى الفخمة بتبريز، كانوا يرسلون إليها المصابين أو المرضى ويتولى فحصهم نخبة من الأطباء المشهورين .

نتائج الأحداث:

نتتبع الأحداث الآن: كما ذكرنا، دارت الحرب مع أهراب يوم الإثنين ٢٦ مرداد (١٩ رجب) وقُتل نايب محمد وأخوه، وفى غداة يوم الثلاثاء عمت السكينة المدينة وهدأت المعسكرات. وكما ذكرنا أيضاً، حمل اليوم مئتان وخمسون شخصا من أهالى أهراب البنادق أو تم حصولهم عليها من قبل ستارخان وانضموا إلى المجاهدين. كما انضمت ضاحية باغميشه – التى مالت فى البداية إلى رجال الدولة وندمت الآن على هذا الموقف المخزى وهرب البعض منها – إلى المجاهدين، وحضر منهم اليوم ثلاثون شخصًا إلى باقر خان وحصلوا على البنادق وقبلوا الجهاد .

وعم الهدوء ثانية يوم الأربعاء ٢٨ مرداد وأرسل عين الدولة كى يرسلوا إليه أربعة أشخاص ويتم التباحث، ووصلت الأنباء اليوم تفيد بأن جيش ماكو قد تحرك من خوى .

وفى ليلة الخميس، وقبل بزوغ الفجر بساعتين، انطلقت القذائف بشدة بشكل مفاجئ، وظلت تُسمع أصواتها لمدة ساعة ونصف، وحينما حل النهار عُلم أن الفرسان قاموا بغارة ليلية، وكانوا يبغون تقدم أمرهم فى ذلك الظلام الدامس، وقد حال المجاهدون دون ذلك فتراجعوا، وعم الهدوء يوم الخميس .

ومثلما قام عين الدولة فى تلك الأيام بإنشاء المعسكرات فى صحراء شاطرانلو، لم يقف ستارخان وباقرخان مكتوفى الأيدى وكانا يسعيان فى المدينة. واليوم أمر ستارخان أن يقيموا معسكرًا آخر فى أميرخيز لنصب المدافع فيه. وفى يوم الجمعة ٣٠ مرداد قامت حركة لا نظير لها فى المدينة حيث قرروا بالأمس فى مسجد صمصام خان أن يتجه الأهالى من جميع الضواحى لزيارة الجمعية، وهذا العرض الذى كانوا يريدون أداءه أمام عين الدولة أثار الأهالى أيضاً، وأخرجهم من حوفهم، هذا وقد سلكت مجاميع من الأهالى من كافة الضواحى طريقها يتقدمهم السادات والشيوخ ومن خلفهم البنادقة بكامل عدتهم وزينتهم وأخذوا طريقهم إلى الجمعية بصحبة الموسيقى وصيحات الفرحة، وحينما اجتمعت كافة الطوائف خطب فيهم كل من الحاج الشيخ على أصغر والحاج مهدى آقا، وقال الحاج مهدى آقا فى نهاية حديثه:

"أيها الشعب الغيور، لقد أنهيت حياتى، وأترقب الموت، أوصيكم ألا تتخلوا عن حقوقكم، لتتحدوا، ولتحافظوا على الحياة النيابية حتى يعيش أبناؤكم فى راحة، ويذكرون أسماءكم بالحسنى، لا تسيرون تحت راية الاستبداد الذى هو عدو دينكم وحياتكم...".

وانسالت الدموع من العيون على أثر هذا الحديث وانخرط الأهالى فى البكاء، وصاح ذلك الكهل الثائر قائلاً:

"لا، لا تبكون! لتقاوموا من أجل حقوقكم، لا تتراجعوا عن ذلك الطريق الذى تدرج فيه الشباب بدمائهم".

فصاح الأهالى:

"لن نتخلى عن الحياة النيابية طالما حيينا، وطالما أننا لا نصل إلى أولئك الشباب لن نتوقف عن المسعى".

وظل هذا العرض قائمًا حتى العصر ثم عاد الأهالى أدراجهم فى جماعات .

وعم الهدوء يوم السبت ٣١ مرداد، لكن ثمة حادث عجيب وقع في ذلك اليوم حيث تصاعد صوت الصلح، لقد جاءت جماعة من الدوتشى إلى هذه الناحية وانضموا إلى المطالبين بالحياة النيابية واتفقوا معًا واصطحبوهم إلى الجمعية وقاموا باستقبالهم هناك، ولم يعلم شخص ما هو سبب هذا الأمر! وقد ورد فى كتاب "بلاء تبريز":

"قام بهذا العمل بداية نايب على أصغر مع حسين خان على النحو التالى، حيث قاموا بالشكوى من المعسكر، وغادر نايب أصغر معسكره وقدم إلى هنا، وأحضره حسين خان إلى الجمعبة، وذبحوا له كبشاً، وبعد أن تناولوا الشراب والشاى أعاده إلى معسكره ثانية. وبعد مغادرته المكان توجه إليه تقيوف – أحد رؤساء المجاهدين – لزيارته ".

ويقول مشهدى محمد على خان:

" كنا معاً، واستقلينا جوادين حتى جمعية "اسلاميه" .

ويقول:

"لكن حينما وصلنا إلى سويقة سرخاب أطلقوا الرصاص علينا فجأة، وفر تقيوف من جهة وأنا من جهة أخرى وأنقذنا روحينا".

وتوجه أعضاء الجمعية الذين طلبهم عين الدولة إليه من المدينة وكانوا أحد عشر شخصًا، ثم عادوا وكرروا الحديث الذى سمعوه من عين الدولة، وفى ليلة الأحد الأول من شهر يور (٢٥ رجب)، وبعد انقضاء ساعة ونصف من الليل تم إطلاق النار فجأة من المعسكرات وظلت أصوات البنادق تصل إلى المسامع لمدة ساعة، وفى الغد عُلم أن رجال الدولة كانوا يطلقون النيران من معسكراتهم، ورد المجاهدون عليهم، فأمر ستارخان بعدم الرد ثانية كى لا يهدروا ما لديهم من بنادق وذخيرة. واجتمع أعضاء الجمعية وغيرهم اليوم فى الجمعية لإعداد الرد على كلام عين الدولة وكُتبت رسالة باسم الشعب أرسلوها إليه عن طريق اثنين من أعضاء

الجمعية، وفى اليوم نفسه تم قتل الحاج جليل المرندى فى أرمينيا على يد أحد مجاهدى مرند، ولما كان لذلك الحدث قصة لذا نورده فى هذا المقام:

كان يوجد فى تبريز رجل يدعى آقا حسن گنجه اى يمتلك ضياعًا بالقرب من جلفا، ولما كان يُعتبر من الموالين للروس لم يكف يده عن ظلم القرويين وغيرهم، وبعد الحركة المطالبة بالحكم النيابى تمرد من يدعى حقويردى الذى كان قد سلك طريقه إلى جمعية " اجتماعيون عاميون" فى باكو، ولما كان يتسم بالشجاعة والحنكة فقد تمكن من تقصير يد ظلم آقا حسن وأخيه تجاه القرويين، لذا أضمر آقا حسن وأخوه العداء الشديد له. وفى الشهور السابقة كان من يدعى الحاج جليل – أحد أعضاء الجمعية – قد سافر إلى هناك من قبل الجمعية ولما كان على صلة وطيدة بأسرة گنجه اى حثه على خداع حقويردى واستدراجه إلى داره، ولم يدع هؤلاء الفرصة وقتلوا عدوهم بالرصاص فجأة. وكان لحقويردى أتباع استاءوا من مقتله، فقدم أحدهم – ويدعى فيض الله – إلى تبريز، ووجد الفرصة سانحة اليوم وقتل الحاج جليل انتقامًا لحقويردى، ولما كان هذا هو سير القصة لم يقم شخص بالتحقيق .

وفى يوم الإثنين الثانى من شهريور عم الهدوء فى المعسكرات، لكن قامت جلبة وضجة فى الجمعية، فقد عاد المندوبان اللذان توجها إلى عين الدولة لتقديم رسالة الشعب إليه ليلاً وأحضرا الرد على تلك الرسالة، وكما ذكرنا، كان المطالبون بالحياة النيابية يقولون إلى عين الدولة:

"يجب القبض على رحيم خان وشجاع نظام وغيرهما ومعاقبتهم".

وقد طالبوا بذلك أيضًا فى الرسالة التى دونت على لسان الأهالى، وبدا واضحًا أن عين الدولة لم يكن فى مقدوره قبول هذه الرغبة، هذا وحينما وصل الرد على هذه الرسالة، ولما كانت الرغبة هى الاستعراض أمام عين الدولة، لذا قام البعض بأعمال الشغب قائلين إن عين الدولة لا يرغب الآن فى معاقبة القتلة

والمغيرين وأنه يفتح الطرق أمامهم، وسوف نقوم نحن بمعاقبتهم. وأثاروا الأهالى بتلك الحجة، وبعد القيام بسلسلة من الاضطرابات، تقرر أن يحمل كل شخص ما تقع عليه يداه من بنادق ويأتى إلى الجمعية حتى يغير الجميع دفعة واحدة على رحال الدولة ولا تكون لهم عودة ما لم يتم القضاء عليهم. وعلى هذا النحو أعدوا الأهالى للقيام بعرض. وقد نشبت اليوم كذلك نفس هذه الثورة والجلبة فى مسجد صمصام خان.

مقتل شريف زاده

كان يوم الثلاثاء الثالث من شهر يور (٢٧ رحب) يومًا مفعمًا بالجلبة، فاليوم – كما كان مقررًا – توجه الأهالى من كافة الأماكن إلى الجمعية، وحمل كل فرد ما وصل إلى يديه من سلاح، وامتلأ فناء الجمعية وكذلك الضواحى جميعها، وأسرعت جماعات من المجاهدين كذلك بالتوجه إلى هناك، وكانوا يصيحون تباعًا:

"يجب القتال، يجب الهجوم على الأعداء". ولو كانوا فتحوا المجال أمام الأهالى فلا شك أنهم كانوا يتقدمون حتى حديقة صاحب ديوان، وجاء ستارخان كذلك إلى هناك وسعى لتهدئة خواطر الأهالى قائلاً:

"لن أقاتل طالما لم يتقدم العدو، إننى لا أريد إراقة دماء الأهالى".

وضغط الأهالى وظلوا يتابعون صيحاتهم، وقام الخطباء بإلقاء الأحاديث، وخطب كذلك شريف زاده، لكن أى حديث قاله أودى بحياته؟! يقول محمد على خان الذى كان متواجدًا هناك:

"كان فناء الجمعية مفعمًا بالأهالى والمشاهدين، وكان المجاهدون يصلون فى جماعات، وفى الوقت الذى وصلت فيه جماعة محمد صادق چرندابى أمام نافذة القاعة بدأ شريف زاده حديثه، وقال فى ختامه: "لا تقولوا إن الحرب قد انتهت، لقد بدأنا العمل، ولا تزال حروبنا فى البداية..." ولم يدرك المجاهدون نيته فوقعوا فى

الاضطراب، ولم يدع مشهدى محمد صادق الفرصة فأطلق من أسفل كلمات حادة، وداخل الحجرة أبدى كذلك الحاج محمد ميراب والحاج على أكبر دباغ حدة قائلين: " ماذا يقول ذلك الكافر ؟" وكنت أقف بجوار النافذة وقد أجلسوا شريف زاده على الأرض ووقفت مكانه وتحدثت فيهم موضحًا المعنى من وراء حديث شريف زاده وقمت بتوبيخ المجاهدين وقام كربلائى على مسيو كذلك بتوبيخ الحاج محمد والآخرين، وبلغ الأمر أن صعد مشهدى محمد صادق وطلب الجميع من شريف زاده التغاضى عنه، وهدأت الضجة، وتفرق الأهالى، وخرج شريف زاده – الذى لجأ فى أيام الخشية إلى القنصلية الروسية وظل يقيم هناك حتى الآن – من الجمعية برفقة الحاج مهدى آقا وسلك طريقه إلا أنه لم يتجه إلى القنصلية، وفجأة اعترض عباس على الحداد وثلاثة آخرون طريقه وأصابوا قدمه بالرصاص ".

والبعض يرى أن هذه القصة عارية تمامًا من الصحة، ويقولون:

"لقد تم إرسال الأموال من قبل جمعية " اسلاميه "، وحثوا عباس على ورفاقه على القيام بهذا العمل".

ويقول مشهدى محمد على خان:

"فى تلك الأثناء، حيث احتد النقاش بين شريف زاده ومشهدى محمد صادق خان فى الجمعية، خرج أحد المجاهدين مسرعًا، وأطلع عباس على الحداد ورفاقه – الذين كانوا يجلسون ثمالى فى أرمينيا فى أحد المقاهى – ولما كانوا على صلة وطيدة مع محمد صادق خان هبوا لنصرته واتجهوا إلى الجمعية، وبعد عدة خطوات تقابلوا مع شريف زاده والتفوا حوله وهم ثمالى غاضبون، وأحصى الحداد السباب إلى أحد الرفقاء ويدعى هو كذلك عباس على وأمره بإصابة فخذه بالرصاص وأسقطوا المسكين أرضًا وفروا هاربين خارج المدينة ".

وأيًا ما كان الحال، فقد سقط ذلك البرئ وتدحرج فى دمائه، واندفع الأهالى على أثر صوت الرصاص وحملوه إلى القنصلية الفرنسية ولم يبق على قيد الحياة

أكثر من ساعتين ثم وافته المنية. وانتهى عرض ذلك اليوم بتلك النتيجة المحزنة. وكما ذكرنا، قد حظى ذلك الشاب بالمكانة بين الأحرار من خلال أحاديثه الحادة. وفى نهاية ذلك اليوم انطلقت القذائف من جميع المعسكرات، وامتلأت أرجاء المدينة بالنيران فى لحظة واحدة، وهب رجال الدولة للقتال من كل مكان، وقام جبش عين الدولة – للمرة الأولى – بالضغط من ناحية خيابان، فما أن أمر عين الدولة الجبش، أو وفقًا لما ورد فى الصحف " شملهم العطف الملكى " حتى وصلوا إلى الأهالى على هذا النحو، وأطلقوا قذيفتى مدفع من معسكر شاطرانلو وتم الرد عليهم من خيابان. وظلت هذه الجلبة قائمة لمدة ساعة ثم خمدت. ولم يستطع الفرسان – الذين تقدموا للإغارة – القيام بشئ فعادوا أدراجهم، كذلك لم تتأت فائدة من قبل أميرخيز وبوابة اسطنبول وعادوا أدراجهم، ووفقًا لما ورد فى كتاب " بلاء تبريز" قُتل من بينهم خمسة وعشرون فارسًا وجنديان فى خيابان، وسبعة آخرون فى أميرخيز دون أن يُصاب شخص من المجاهدين .

ويجب أن نعلم أن المجاهدين حينما كانوا يحاربون من خلف الاستحكامات وأبدوا جرأة قلما كان يُقتل شخص من بينهم، لكن حدث أنهم كانوا يقللون قدر المستطاع من عدد قتلاهم حتى لا يكون ذلك باعثًا على تطاول المسيئين، وكانت إحصائيات الحاج ويجويه من هذا المنطلق. فقد كتب كل ما سمعه، وكان يقلل من تعداد القتلى بين رجال الدولة الذين كانوا يحملون قتلاهم معهم قدر الإمكان، ولم يحدث أن علم المجاهدون بهم جميعًا .

وعم الهدوء المدينة ليلة الأربعاء، لكن الأحرار جميعهم كانوا مستاءين من حادث مقتل شريف زاده. وعم الهدوء كذلك يوم الأربعاء، وكان قتلة شريف زاده قد أخفوا أنفسهم ثم توجهوا إلى اسطبل ستارخان واستقروا هناك، وقبض ستارخان عليهم وبعث بهم إلى الجمعية، وبعد استجوابهم هناك أودعوا عباس على إلى المجاهدين حيث أصابوه فى قدمه فى أرمينيا ثم علقوه على المشنقة وأطلقوا سراح الإثنين الآخرين.

وفى ليلة الخميس الخامس من شهر يور وبعد انقضاء ثلاث ساعات من الليل تم إطلاق النار بقوة من المعسكرات التابعة للدولة، وظلت تُسمع أصوات القذائف لمدة ثلاث ساعات ثم خمدت. وفى يوم الخميس أعدت الجمعية ثلاثة أعلام – متشحة باللون الأحمر والأبيض والأخضر وهى علامة الحياة النيابية – ودُون فوق كل منها عبارة " تحيا الحياة النيابية "، وأرسلوا واحدًا منها إلى أميرخيز والآخر إلى خيابان وحُملا بكل عظمة وتم رفعهما فى آخر المعسكر، كما رفعوا العلم الثالث فوق باب الجمعية. وانتهوا اليوم كذلك من إنشاء الاستحكامات التى أعدت حديثاً، ونصبوا ثلاثة مدافع فى أميرخيز على باب حمام الحاج كاظم نايب، ومدفعين كبيرين فى خيابان أعلى مسجد كبود، ومدفعًا فى معسكر مارالان، كما نصبوا المدافع كذلك أعلى إرك. ولما كان اليوم هو اليوم الثالث على مقتل شريف زاده فقد توجه أربعة آلاف مجاهد إلى شاهده ودعوا له بالمغفرة .

بداية غلبة المجاهدين:

فى هذه الأيام، ورغم ما كان يقوم عين الدولة به من مباحثات، وما كان من ذهاب الرسل وإيابهم إلا أن الحروب لم تتوقف، وقلما كان يحل الهدوء فى أوقات الليل أو النهار. وسوف نورد فى هذا الكتاب مذكرات الحاج ويجويه اى الذى دون أحداث الأربعة أشهر تلك يومًا بيوم، ولما كانت لدينا كذلك مذكرات أخرى سواها عن رجل يدعى درباري اردبيلي[١]– الذى جاء برفقة عين الدولة إلى باسمنج وعاش هناك قرابة الشهرين، وقد دون أيضًا أحداث هذين الشهرين يومًا بيوم – لذا سنقارن بين هذه وتلك ونوردهما منفصلين فى غير موضع. على سبيل المثال يقول ويجويه اى عن إحدى الليالى "كانت هادئة" بينما يقول درباري ادربيلي عنها "كانت المدينة كقطعة من النار" وعلى هذا النحو لم يتفقا.

---

(١) قدم هذا الرّجل من أردبيل برفقة عين الدولة ودوّن كتابًا بخطه يوجد لدىّ، وسوف نطلق عليه فى كل موضع " درباري اردبيلي" .

وكيفية الحال أن المسافة حتى تبريز كانت أكثر من فرسخ واحد، وفى الجزء الأعظم منها كانت تقام الاستحكامات الخاصة بكلا الفريقين ولم يكن الحال أن أهالى المدينة كانوا على علم بكل معركة تنشب، فكثيرًا ما دارت المعارك ناحية خيابان ولم يُعلم بها فى ويجويه وأميرخيز والعكس صحيح، خاصة فى الليل حينما يحل وقت النوم حيث لم يكن يوقظ الأهالى سوى المعارك الدامية .

لقد كان الحاج ويجويه يقيم فى وبجويه، بينما يقيم الحاج دربارى اردبيلى فى باسمنج وكل منهما يعلم بمعارك جهة واحدة. وبصفة عامة يمكن القول أن القتال لم يتوقف فى تلك الأيام، وإذا ما ساد الهدوء فى جهة ما يدور العراك فى جهة أخرى. وقد ظهرت فى هذه الأيام أفكار متباينة فى رؤوس رجال الدولة والمطالبين بالحياة النيابية حيث تمخضت عن هذه الحروب المتتالية نتيجة وهى أن قواد الدولة الذين كانوا فى الدوتشى من أمثال رحيم خان وشجاع نظام وغيرهما رغم أنهم قبل ذلك قد ألقوا بقوتهم فى المدينة واستيأسوا من النصر، إلا أنهم فى الأثناء التى وصل فيها عين الدولة والسبهدار وتملك الخوف من قلوب العديد منهم من شهرتهم وصيتهم قد أملوا ثانية ورغبوا فى إنهاء الأمر قبل وصول جيوش طهران حتى لا يقع اللوم عليهم .

من ناحية أخرى، فإن رجال الدين فى جمعية " اسلامبه " – الذين كانوا ظمأى لدماء أهالى تبريز – لم يتركوا عين الدولة ينعم بالهدوء منذ يوم وصوله ولما رأوا منه عدم مبادرة لتنفيذ رغباتهم جعلوا يحرضون رحيم خان وغيره.

من ناحية أخرى، كان ستارخان وباقر خان قد شكلا قوة واحدة فى ذاك الوقت، وكانا يسعيان فى الأمور من منطلق الفكر، ولما سمعا بأن جيش ماكو فى الطريق وأن طائفة من الجند والفرسان ستصل من طهران أرادا بفكر ثاقب أن يمنعا تقدم الدوتشى قبل وصول هذه الجيوش. نعم، لقد ساد الأمان المدينة من الداخل، وما حدث أنهما أبديا غلبة فى تلك الفترة، وفى بعض الأحيان كانا هما اللذان يبدآن القتال، ونتيجة ذلك توالت الحروب دون توقف، وفى تلك الآونة كان

رجال الدولة يقومون بالقتال بشكل أكثر فى أوقات الليل. والآن نتتبع أحداث القصة:

منذ يوم الجمعة السادس من شهر يور (٣٠ رجب) ثمة معارك صغيرة كانت تدور لمدة ثلاثة أيام. وفى يوم الإثنين التاسع من شهر يور (٣ شعبان) وبعد مضى ساعتين ونصف من الليل اشتد القصف بالمدافع بشكل أثار المدينة بأكملها، وتدفق المجاهدون من كل صوب وحدب لاتخاذ أماكنهم فى الاستحكامات واستمرت الحرب قرابة الثلاث ساعات حتى عم الهدوء ثانية، وحينما بزغ النهار عُلم بمقتل سبعة عشر من الفرسان والجند. وفى يوم الثلاثاء العاشر من شهر يور نشبت عدة معارك سريعة فى عدة جهات مثل مارالان ومحال مجيد الملك وغيرها من الأماكن وتم قتل خمسة من الفرسان وتم القبض على اثنين. وطبقًا لما ورد فى كتاب " بلاء تبريز " لم يصب أحد من المجاهدين .

وكان يوم الأربعاء الحادى عشر من شهر يور (٦شعبان) من الأيام العصيبة، فمع حلول الفجر أغار فرسان عين الدولة من أعلى خيابان، ومقاتلو الدوتشى من ناحية ششكلان وعدة طرق على خيابان ووقعت حرب حامية الوطيس واحتدم القتال وانهزم رجال الدولة وعادوا أدراجهم، ولم يترك المجاهدون الفرصة فتتبعوهم وتقدموا من عدة نقاط إلى ششكلان وچهار منار، كما تقدموا من ناحية أمير خيز من ضاحية لك لر، وتقدموا من كل الجهات حتى استولوا على استحكامات الأعداء، بيد أن بعض المجاهدين انهمكوا فى نهب منازل إمام الجمعة وأخيه وغيرها من المنازل، وأعطوا الفرصة للفرسان كى يعودوا ويقبضوا عليهم، وعلى هذا ضاع النصر من يد المجاهدين وفُقد عدد منهم. وكما أسلفنا كان ستارخان وباقرخان يبغيان القضاء على الدوتشى قبل وصول جيش ماكو وجيوش طهران ويطهرا المدينة من الأعداء فأصدرا الأوامر لتحقيق هذا الغرض، غير أن سلوك بعض المجاهدين الذين شغلوا بالسلب لم ينه ذلك الأمر. وكما ورد على لسان الحاج ويجويه اى قُتل اليوم أحد عشر من المجاهدين وتم القبض على ثلاثة

منهم، كما تم هلاك ما يقرب من الثمانين شخصًا من الفرسان، كما أشعل المجاهدون خمسمائة محل فى السوق مما كانت فى يد رجال الدولة والفرسان وسلبوا المنازل فى الدوتشى .

وفى ليلة الخميس الثانى عشر من شهر يور (٧ شعبان) سُمعت الأصوات من المخافر ونشبت حرب شديدة، فقد قذفوا من إرك ثلاثة مدافع، وكما قيل، تقدم رجال الدولة سواء من ناحية الدوتشى وسواء من خارج المدينة. وقد ورد فى إحدى المذكرات بشأن هذه الليلة:

"ما حدث إنه بعد مرور ثلاث ساعات من الليل استمر القذف من البنادق بشكل متصل من الجهات الأربع. وفى اعتقادى إنه تم إطلاق خمسمائة ألف قذيفة على الأقل من كلا الطرفين حتى هذه الساعة. إن الليلة كانت جد فظيعة ".

ووصلت الأنباء يوم الخميس أن جيش ماكو – الذى ذاع صيته منذ زمن بعيد قد تقدم من صوفيان وعبر إلى تلك الناحية، وأقام الخيام بالقرب من قرية خواجه ميرجان. من ناحية أخرى فإن مجاهدى ساوالان وخواجه ديزج قد صمدوا أمامهم وظلوا فى قرية ساوالان.

واليوم أصدر ستارخان وباقرخان الأوامر بأنه من الآن فصاعدًا كل من يقوم من المجاهدين بأعمال السلب يقوم رفاقه بضربه. وفى اللحظات الأخيرة هاجمت طائفة من معسكر عين الدولة خيابان وأمر باقرخان باطلاق النيران من أربعة مدافع وتم قتل البعض منهم وعاد الآخرون .

ومضت ساعة من ليلة الجمعة، وبدأ قصف شديد من جهة بوابة اسطنبول وخرج المجاهدون جميعًا من دورهم وسارعوا لمساندة الاستحكامات وفى الوقت نفسه هاجم الفرسان خيابان ومارالان وباغميشه، وحاول المجاهدون منعهم، واختلط صوت البنادق من كل ناحية وطوى المدينة، وحين احتدم العراك فتحوا مدفعًا من مخفر أميرخيز وقذفوا ناحية الدوتشى بقذيفتين، ودامت المعركة قرابة الساعتين

وفى النهار مضى المجاهدون إلى السوق لتناول الغذاء، وتحين الفرسان الفرصة، واستولوا على استحكاماتهم، كما استولوا على استراحة درعباس وأقاموا استحكامًا بها، ولما علم كربلائى حسين خان ومشهدى محمد على خان بالحال تقدموا ودارت معركة بين الطرفين استمرت حتى الغروب، وقتلوا ثلاثة منهم وأعادوا الباقين أدراجهم، كما أغارت طائفة من أمام القبور ودار عراك فى السوق كما دار عراك كذلك فى محال الدباغة. وورد فى كتاب "بلاء تبريز":

"قُتل على وجه الإجمال فى ذلك اليوم وتلك الليلة خمسة وعشرون من رجال الدولة".

ويقول دربارى اردبيلى كذلك:

"قُتل ثمانية من المجاهدين وتم القبض على بعضهم".

وفى ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر يور قام أتباع الدولة بغارة ليلية مرة أخرى وأطلقوا النيران من جميع الاستحكامات وضغطوا واحتدم العراك، وظل صوت المدافع يُسمع حتى الفجر وفى نهار ذلك اليوم وصل الرسل من قبل عين الدولة يحملون الرسائل. وعُلم اليوم أن الفرسان قد شقوا فجوة فى جدران محال آل خراز التى كانت فى يد رجال الدولة، وباستثناء الحجرات الأربعة التى كانت مقرًا لتجار جمعية " اسلاميه "، قاموا بسلب كل ما كان يوجد فى الحجرات الأخرى من أموال وبضائع، تقول صحيفة انجمن:

"لما كان كل ما يوجد فى تلك الجهات يقع فى قبضة رجال الدولة، فقد بسطوا أيديهم اليوم لسلب استراحات القوافل والمحال الصغيرة. وفى عصر نفس اليوم علت أصوات البنادق فجأة من مخافر رجال الدولة وبدأ القتال، كما علت زمجرة المدافع من الدوتشى وأميرخيز من بين وابل الرصاص، وأفعمت المدينة فى لحظة واحدة بالزمجرة والصياح. وكما ورد فى كتاب "بلاء تبريز": "أطلقوا اليوم مائة وست قذيفة مدفع".

قتال ليلى أكثر احتداما .

نشبت الحرب ثانية فى ليلة الأحد الخامس عشر من شهر يور (٩ شعبان) إلا أنها كانت حربًا لا نظير لها حتى ذلك اليوم. فبعد انقضاء ساعة ونصف من الليل انطلقت النيران دفعة واحدة من جميع الحصون بداية من قمة خيابان وحتى نهاية أميرخيز – والمسافة بينهما لا تزيد عن فرسخ واحد – وامتلأت المدينة عن آخرها بالصياح. وفى نفس الوقت قام فرسان رحيم خان وشجاع نظام برفقة حشد من جند عين الدولة – حيث تم إرسال بعضهم من قبل إلى ضاحية الدوتشى والبعض الآخر إلى مارالان والبعض إلى خيابان – بالضغط والإغارة، وعلت زمجرة المدافع من الدوتشى، واندفعت الطلقات النارية فوق المنازل، وكان صوت البنادق متتاليًا وكأنهم قد صبوا البخور على النار، واختلطت أصوات البنادق وزمجرة المدافع وبدا وكأنها تقتلع المدينة، وأحيانًا كان يزداد عليها صوت فرقعة القنابل. مساكين هؤلاء الأهالى، أى حال ألمّ بهم! أى خوف حل فى ذلك الظلام بالنساء والأطفال؟! كانت صيحات "يا الله" تعلو من المنازل، ولم يكن شخص يعلم ما الذى سوف يحدث؟ وكان عين الدولة يرغب فى إنهاء الأمر دفعة واحدة فى تلك الليلة، والأكثر من هذا كله كان يريد الإغارة على خيابان – التى تقع على الطريق الرئيسى – لذا كان يضغط عليها من عدة جهات.

والليلة أبدى أهالى خيابان غيرة وشجاعة لاحد لهما، خاصة ميرهاشم خان الذى أغار دون ورع على الأعداء وأعادهم أدراجهم واسترد منهم الحصن الذى كان فى يد المجاهدين، وعلى هذا النحو لم يحالفهم التوفيق بسبب مسعاه فعادوا أدراجهم. وكما ذكرنا سالفاً، كانت هذه الحرب أكثر احتدامًا وأكثر رعبًا من جميع الحروب الأخرى. ومن الأمور العجيبة التى وردت فى كتاب " بلاء تبريز" أنه تم قتل ما يربو على المائة شخص من رجال الدولة فى تلك الليلة لكنهم لم يقتفوا أثر أحد من المجاهدين كى يُقتل، وفضلاً عما تم قذفه من البنادق والمدافع فى تلك الليلة تم تفجير ثمانى عشرة قنبلة كذلك.

وفى نهار يوم الأحد ساد الهدوء، وكان الأهالى – الذين تجمعوا فى مسجد صمصام خان يتحدثون عن سلب الفرسان والغارات الليلية للقادة وخداع عين الدولة، ولما كان الحديث لا يزال فى اتصال معه حتى الآن، فقد رغبوا فى أن ينهى الحوار ويسلكون معه سلوكًا محددًا، واقترحوا استدعاء رسله إلى المدينة ليرسلوا إليه بآخر رأى لهم، وعزموا على اجتماع الأهالى فى الغد فى مسجد كريم خان بخيابان.

وفى ليلة الإثنين السادس عشر من شهر يور انطلقت النيران من الحصون، والليلية قام الفرسان كذلك بشق جدار منزل الحاج السيد حسين الضخم وكنسوا حجراته عن آخرها. ومن بين ما قاموا به إغارتهم على حجرة معين الرعايا – الذى تم سلب منزله منذ شهرين – وفضلاً عما نهبوه من السلع التجارية سلبوا كذلك الأموال والذهب والآلات والجواهر.

وفى يوم الإثنين دار عراك شديد فى السوق. فمن ناحية – وكما قرروا – ظهرت حركة فى المدينة واجتمع الأهالى من كل ضاحية فى خيابان، واحتشد الأهالى فى مسجد كريم خان. ووقف بعضهم فى الطرقات فى جماعات. كذلك حضر رسل عين الدولة وساقوا أحاديث طويلة وقالوا كل ما يجب أن يقال، فقد ذكروا الإغارة على المحال الصغيرة ونزل القوافل، كما تحدثوا عن غارات القادة الليلية، ولما حل العصر تفرق الحشد وتوجه القادة برفقة رسل عين الدولة إلى منزل ميرهاشم خان وهناك دار حديث طويل، من ذلك ما ذكره الحاج القوقازى:

"سنسعى للحفاظ على الحياة النيابية مادامت فى أجسادنا الروح، لقد أحضروا الأمير عين الدولة – الذى كان حاكمًا على آذربايجان وأجلسوه فى المدينة، وحكموا وفقًا للدستور النيابى، وكل شخص مذنب يأمرون بالقبض عليه واستجوابه وعقابه، لا أن يخرج خارج المدينة ويلتف حول الجند، لقد استدعى عشائر الشاهسون وقره داغ وفرسان مرندى ومشاتها، وقادة شكاك وجلالى، ولم يكتف بذلك كله بل استدعى الجيوش من طهران وقزوين وزنجان وبختيارى وكيكاوند وپشت كوه

وأعد جيشًا ضخمًا فى شاطرانلو ولم يتوان فى قتل الأهالى. أية خشية لنا من هذه الجيوش؟! فلو حل محل الثلاثين ألف جندى هؤلاء مائة ألف لن يتملكنا الخوف ولن نتخلى عن حقوقنا، نحن نريد أن تصير إيران قوية كالدول الأوربية".

كان هذا الحديث يخرج من فم أحد الشباب الغيور الذى صمد أمامهم وسعى لسنوات وكان مصيره الشنق فى النهاية.

وبعد مباحثات طويلة اقترحوا أن يدونوا رسالة على لسان الشعب إلى عين الدولة ويرسلوها مع رسله، وكما أسلفنا، كان عين الدولة يعرب عن حسن نواياه ويبدى عدم رغبة فى القتال وإراقة الدماء منذ اليوم الذى وصل فيه، ونحن نعلم أن هذا كان من قبيل الرياء وليس إلا لكسب الوقت لحين وصول الجيوش التى تم استدعاؤها. وكان ستارخان وباقرخان وغيرهما على ذكر جيد من هذا، وواقع الحال أن عين الدولة لما كان رجلاً ذائع الصيت، وكان يكن العداء فى دخيلته إلى محمد على ميرزا، لذا كان المطالبين بالحياة النيابية يعقدون الأمل فى بعض الأحايين فى اجتذاب جانبه إليهم لذلك لم يقطعوا حبل المباحثات معه لكن أثناء ذلك عُلم أن عين الدولة ليس ذلك الشخص الذى يميل إلى الحياة النيابية، ولم يُر من أحاديثه سوى النفاق، فكان من ناحية يبدى عدم موافقته على أعمال القتل والسلب التى كان يقوم بها رحيم خان وشجاع نظام فى المدينة، ومن ناحية أخرى لم يكفا عن أعمالهما الشائنة فى وجوده. والحقيقة أن الجمعية يئست من اجتذابه إلى الحياة النيابية وأرادت أن تفصل فى الأمر فدونت رسالة على لسان الشعب استمر الإعداد لها حتى يوم الخميس، وفى يوم الجمعة التاسع عشر من شهر يور (١٤ شعبان) – يوم القتال مع جيش ماكو ووقوع المدينة فى محنة شديدة – حملها أربعة من القادة – هم الشيخ محمد خيابانى، وميرزا محمد تقى طباطبائى، والسيد حسين خان عدالت وميرزا حسين الواعظ – وتوجهوا إلى حديقة صاحب ديوان برفقة المندوب السامى الإنجليزى. وفى الوقت الذى كان يدور فيه عراك شديد فى المدينة كان هؤلاء يتباحثون هناك، وكان عين الدولة يتحدث أيضًا بنفس أسلوبه المرائى، لكن

كشف فى النهاية عن نواياه وقال: "لا يمكن قط الاعتراف بجمعية تبريز طالما لم يفتح المجلس فى طهران". وأبرقت الجمعية كذلك إلى جميع قنصليات تبريز ومدن آذربايجان الأخرى بأنه يستلزم دومًا وجود الدستور فى كل أمر فلن يتم الاعتراف بولاية عين الدولة الذى أرسل إلى آذربايجان بشكل يتنافى والدستور، كما أقرت بولاية مخبر السلطنة على آذربايجان الذى أرسل إليها بشكل قانونى، وأقرت بنيابة إجلال الملك فى حال عدم وجوده، وأرسلت بذلك إلى وزارة الداخلية. وعلى هذا النحو انقطع الذهاب والإياب والنقاش مع عين الدولة، وكان متوقعًا حدوث ما هو أخطر ونشوب معارك أشد، خاصة مع وصول الجيوش المستدعاة، حيث تولى انتصار السلطان قيادة كتائب قزوين، بينما تولى سالار جنگ قيادة جند بختيارى وفرسانها، كما وصلت كتائب القوزاق وفرسان سنجابى وچكنى إلى حديقة صاحب ديوان، وتقدمت كذلك جيوش ماكو - التى كان يتردد اسمها منذ فترة - نحو المدينة.

ورغم عدم حصول المطالبين بالحياة النيابية على بغيتهم وعدم قضائهم على الدوتشى إلا أن الخوف لم يجد سبيلاً إليهم، لكن تملكت الخشية حشد من الأهالى، وقام المسيئون إلى الحياة النيابية - الذين كانوا ينتشرون بكثرة فى الضواحى - فى تلك الأيام بحركة ونهضة ثانية كى يتمكنوا من بث الخشية فى قلوب الأهالى خاصة بعد أن عبر جيش ماكو من صوفيان وقام بتلك المظالم - التى سنوردها من بعد - فى ساوالان وقد صار ذلك ذريعة كبرى فى يد المسيئين.

فى هذه الأثناء قامت جمعية آذربايجان الإقليمية بعمل جليل، وكيفية ذلك أنه بعد سماع اضطرار محمد على ميرزا إلى طلب الاقتراض بسبب عدم توفر الأموال وقيامه بالمباحثات فى طهران مع نواب روسيا وانجلترا كى يمنحوه أربعمائة ألف ليرة مقدمًا، ولما كانت جمعية تبريز تعتبر نفسها بديلاً عن دار الشورى، فقد دونت رسالة إلى نواب الدولتين الأجنبيتين وطبعتها وأرسلتها إلى جميع القنصليات، وملخصها:

"طالما لم يتم افتتاح دار الشورى ولم تسمح بذلك، لن يستطيع محمد على ميرزا الحصول على قرض بإسم إيران، وإذا ما قُدمت إليه الأموال بهذا الوضع لن يقبلها الشعب مستقبلاً".

ثم أبرقت بهذا إلى برلمان فرنسا ومجلس الشيوخ فيها، هذا ونورد فيما يلى صورة من هذه الرسالة:

"باريس – مجلس النواب – مجلس الشيوخ، فى الوقت الذى قصف فيه الشاه المحلس بالمدافع ويريد الحصول على قرض من الدول الصديقة ليقوم بإعداد السلاح والجيش، فنحن شعب ايران نعلن على جميع شعوبَ العالم الحرة أن هذا الأمر سيكون باعثًا لاضمحلال الشعب الذى يضحى بروحه فى سبيل الحصول على حقوقه الإنسانية، ولن يعتبر شعب إيران نفسه بأى شكل قط مسئولاً عن هذا القرض".

(جمعية آذربايجان الإقليمية)

جيش ماكو

كان لجيش ماكو مكانة بارزة فى التاريخ القصير لحروب تبريز الحرة واقترن بمؤثرات متنوعة، والأشخاص الذين كانوا فى تبريز يتذكرون روايات عديدة عنه، ويمكنهم أن يتذكروا ذلك التدمير والخراب الذى قام به بداية من خوى حتى تبريز، يمكن أن يتذكروا تلك النيران التى أضرموها فى ساوالان، يمكن أن يتذكروا تلك السرعة والحدة التى أغاروا بها على المدينة، يمكن أن يتذكروا ذلك الخوف وتلك الحركة اللذين ألقوا بهما فى المدينة. وقبل هذا كله يمكن أن يتذكروا ذلك الغضب الجارف الذى أبداه المجاهدون ثم عادوا، وإذا ما نحينا صمد خان وجيشه جانبًا ففى الأحد عشر شهرًا لحروب تبريز لم يبد أى جيش تلك الشجاعة والسرعة فى مواجهة أى جيش بتلك القوة على يد مدينة. هذا الجيش الذى تم

إعداده من قادة الحرب المحنكين فى شكاك وجلالى ومن فرسان ماكو نفسها وضم ثلاثمائة من المحاربين الأقوياء، واصطحب معه خمسة مدافع ونخبة من رجال المدفعية وأعد إقبال السلطنة ذلك العدو القديم للحياة النيابية وأرسله إلى تبريز تحت قيادة ابن أخته عزوخان (ذلك الشاب الذى كان يظهر نفسه لفترة على أنه من المطالبين بالحياة النيابية)، وفى الوقت الذى عجز فيه الشاه كان يطلب عونه وزاد قدره لديه. من جهة أخرى كان يثأر من المطالبين بالحياة النيابية وينعش قلبه بذلك. وعندما سلك ذلك الجيش طريقه من ماكو منذ فترة وفى طريقه من خوى كان يضرم النيران فى كل مكان يصله ويقوم بأعمال السلب والنهب حتى اقترب من تبريز، ولما كان نبأ وصوله قد بلغ المدينة منذ أمد بعيد فقد تملكت الخشية قلوب الأهالى.

وسوف نورد فى هذا المقام قصة وصولهم والحرب التى قاموا بها:

لقد ذكرنا إنه فى يوم الإثنين السادس عشر من شهر يور (١٠شعبان) نشبت حرب شديدة فى السوق، من ناحية أخرى قام الأهالى فى خيابان بالاستعراض أمام رسل عين الدولة، وفى الغد من يوم الثلاثاء عم الهدوء، لكن وصلت الأنباء اليوم تفيد بتقدم جيش ماكو حتى صوفيان – على بعد ستة فراسخ من تبريز من ناحية الشمال الغربى – كما وصلت فرق أخرى من جيش طهران – من البختياريين والقوزاق وغيرهما – إلى باسمنج. وقبل ذلك وصل إلى المدينة من ناحية صوفيان بعض القرويين من القرى الواقعة خارج تبريز – ساوالان وخواجه ديزه والوار – وحصلوا على البنادق والذخيرة من ستارخان وأقاموا الاستحكامات، ولما بلغ جيش ماكو صوفيان حالوا دون تقدمه وأرسلوا نساءهم وأبناءهم إلى المدينة .

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يور (١٢ شعبان) لم تنشب حرب فى المدينة ولكن وقع خارجها حادث جد مؤلم، وكيفية ذلك أن جيش ماكو نهض من صوفيان وداوم تقدمه وتحارب مع المجاهدين فى ساوالان لكن مع تلك الكثرة التى كانت للجيش إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود وتجرعوا الهزيمة وقتل منهم ما

يقرب من الثمانية والعشرين فى فترة وجيزة وتم القبض على خمسة وسبعين، وأصدر عزوخان أوامره بأن يضعوا أربعة من رؤسائهم على حافة المدفع ويطلقوا أشلاءهم فى الهواء، وهزت زمجرة المدافع المدينة من على بعد فرسخين، ولما ذاعت تلك الأنباء دخل الرعب فى نفوس الأهالى. وكان هذا أمر غير مفهوم وهو دفع هؤلاء القرويين الجهال الذين لا يملكون سوى بضعة بنادق لمواجهة ذلك الجيش المحنك، ولا أعلم من أى شخص بدر مثل هذا الأمر .

وعم الهدوء يوم الخميس، واليوم قام سالار أرفع [١] – الذى بعث به عين الدولة إلى سردرود التى تبعد فرسخ واحد عن تبريز من ناحية الغرب، واستقر هناك – بجمع الفرسان والجند، وتوجه مع فرقه إلى قراملك، وكان أهالى قراملك ممن يعادون الحياة النيابية، ولما وصل هؤلاء أقاموا معسكرًا فى تلك الناحية. من ناحية أخرى وصل اليوم شجاع نظام من سهل جبل سرخاب إلى معسكر جيش ماكو وتقابل مع غزوخان، ولأنه كان يرغب فى فتح الطرق أمر بالإغارة فى الغد، ولأن شجاع نظام قد حارب كثيرًا فى هذه الشهور الثلاثة من فوق منارة صاحب الأمر، وكان يرى المدينة دومًا من هذا الارتفاع ويعرف الطرق جيدًا فهو يتذكر أسلوب حرب المجاهدين بشكل أفضل من غيره.

وكان واضحًا من هذه الأمور أن ثمة إغارة ستحدث على المدينة من عدة جهات، ومن الجدير بنا أن نقيم فى هذا الموضع حال المدينة والمعسكرات: إذا ما نظرنا إلى خريطة المدينة نجد أن رجال الدولة كانوا يتمركزون فى ثلاث نقاط فضلاً عن الدوتشى وسرخاب وششكلان وباغميشه التى كانت فى قبضتهم، الأولى هى حديقة صاحب ديوان وصحراء شاطرانلو فى الشرق حيث كان يستقر عين الدولة والسيهدار مع حشد من الجند والفرسان. والثانية هى المنطقة الواقعة بين

(١) هو ميرزا عبد الله خان بن نظام العلماء، ورغم أن الكثيرين من أسرته كانوا يؤيدون الحياة النيابية وكان هو نفسه من بينهم إلا أنه انضم فى هذه الفترة إلى رجال الدولة .

ساوالان وپل آجى فى الشمال الغربى حيث عسكر جيش ماكو. والأخيرة هى منطقة قراملك غرب المدينة حيث يستقر سالار أرفع وجنده. وحينما تقدم جيش ماكو توجه إلى أميرخيز، وكما توجهت جيوش عين الدولة والسپهدار تجاه خيابان، كما توجه الدوتشى كذلك تجاه خيابان وأميرخيز، وكانت فرقة قراملك تتحين الفرصة كى تصل عن طريق گاميشان أو هكماوار إلى أميرخيز. وبشكل عام كانت أميرخيز أكثر شدة وخشية، وكان ينبغى القول إن ثمة يومًا عصيبًا سيحل، ويجب على تبريز أن تشمر عن ساعديها ثانية لتتغلب على تلك المحنة .

فى تلك الأثناء كانوا يقولون إن تعداد رجال الدولة قد بلغ الثلاثين ألف، أما المجاهدون فلا ريب أنهم كانوا يزيدون عن العشرة آلاف أو بلغوا الخمسة عشر ألفا.

أحد الأيام العصيبة لتبريز:

كان يوم الجمعة التاسع عشر من شهر يور يومًا عصيبًا مفعمًا بالجلبة فى تبريز، فقد قام أتباع الدولة اليوم باستخدام القوة فى السيطرة على المدينة بأى ثمن، وكما رأينا، قد أعدوا العدة من الأمس، والآن لم تمض ساعة على شروق الشمس حتى علا فجأة أزيز المدافع، وبدأت الحرب من كل الجهات، واندفع جيش ماكو من گاوميشاوان إلى سرپل آجى واستولوا على الصحارى، ونصبوا المدافع، وأمطرت السماء بوابل من الرصاص المتتالى، وفى الوقت نفسه تقدم الفرسان والمشاة وهم يقصفون، وكانت طلقات المدافع تتوالى فوق ديزج وگاوميشاوان وعموزين الدين واحتوت جميع الضواحى، وقام الفرسان والجند فى مرند وقره داغ والشاهسون وغيرهم ممن كانوا فى الدوتشى بالقتال، وكانت القذائف تنطلق من جميع الحصون وهاجمت جماعات منهم برفقة ضرغام والحاج موسى خان وغيرهما من القادة أمير خيز من عدة طرق، وأحدثوا فجوات فى الجدران الخاصة بالمنازل، واقتربوا من استحكامات ستارخان، وحاصروا جمعية "حقيقت" من كل الجهات، وأخذوا فى

إطلاق الرصاص بشكل مكثف وحاولوا قدر استطاعتهم قتل ستارخان أو إخراجه من مكانه. وكانت أصوات البنادق تصدر متلاحقة وكأن المدينة ستُقتلع، وفى هذا العراك كان أزيز المدافع ينطلق كذلك من سهل جبل سرخاب وتتوالى طلقاتها.

من ناحية أخرى تقدمت جيوش عين الدولة والسپهدار من مالاران وخيابان وقوريچاى واحتدم القتال، وزمجرت المدافع أيضًا من فوق التلال وتوالى إطلاق القذائف، ولم تكن مثل هذه الحرب الشديدة قد نشبت حتى ذلك اليوم، واهتزت المدينة بأسرها، واندفع الأهالى خارج منازلهم لايعلمون ماذا يفعلون وعلم الكثيرون منهم أن المدينة فقدت، وظلوا يبحثون عن حل كى يخلصوا أنفسهم وأسرهم، وتحين المستاءون من الحياة النيابية الفرصة، وجعلوا يذمونها علانية ولم يكفوا عن سب الأحرار، خاصة فى الأجزاء الغربية للمدينة حيث اشتد جيش ماكو مع الأهالى، وكان واضحًا أنه سرعان ما يصل ذلك الجيش إلى المدينة. وأتذكر جيدًا أننى كنت واقفًا فى ميدان هكما وار فى تلك الأثناء أشاهد أحوال الأهالى واضطرابهم ولم تكن الاستحكامات قد أقيمت فى هذه المحلة، ولم تنشب الحرب اليوم، وكانت أصوات مدافع جيش ماكو – التى كانت تنطلق من أعلى گاوميشاوان – تطوى الأرجاء حتى ظن الأهالى أن القادة قد اقتربوا وأنهم على وشك الوصول، لذا رغب حشد منهم فى المبادرة بالخروج من المدينة عن طريق الحدائق وطلب الأمان من قائد الجيش. وفى تلك الأثناء وصل نائب يوسف مع البنادقة من الخلف وقام بتفرقتهم.

واشتد القتال، وانقسم جيش ماكو إلى قسمين، أحدهما تقدم من طريق گاوميشاوان، والآخر سلك طريق پل آجى كى يدخلوا المدينة عبر هذه الطرق، ولما دنت الجماعة الأولى انطلقت المدافع من حصون گاوميشاوان ولم تسمح لهم بالتقدم فسقط البعض صريعًا وعاد البعض الآخر، وانضم إلى الجماعة الثانية واتحدوا معًا وضغطوا على حصون سرپل، ولم يتمكن المجاهدون فى سرپل من الصمود وتركوا حصونهم وعادوا أدراجهم. وعبر القادة پل واتخذوا من نزل

القوافل استحكامات لهم وأحضروا أسلحتهم واستقروا فى النزل.

وكانت هذه الهزيمة جد خطيرة، فلو كان القادة قد قاموا بإغارة جريئة أخرى لوصلوا على مقربة من أميرخيز ولوقع ستارخان عندئذ بين نارين ولم يجد من حيلة سوى الفرار. وما اشتد وقعه فى تلك الأثناء ما بدر من أحد رجال الدين المؤيدين للحياة النيابية – أبو ذر – من عمل شجاع، فقد تراجع المجاهدون الذين غادروا حصونهم إلى الحدائق، فتحصن ذلك الرجل فى أحد الأماكن وأبدى مقاومة بمفرده حتى وصلت فرق العون من المدينة، وكانوا يقولون: "لو لم تكن همة أبى ذر لما تقدم القادة".

فى تلك الأثناء وقع عراك دامى فى أميرخيز نفسها، وألقى ستارخان وأتباعه بأنفسهم فى وسط النيران، وكانوا يتحاربون بشدة مع العدو الذى كان يحرز تقدمًا من كل جانب. وكان الكرجيون فى هذا العراك يلقون بالقنابل، فاصطدمت إحداها بالجدار وسقطت على الأرض، وأدى انفجارها إلى إصابة من يدعى مسيو تشليتو واثنين من الكرجيين. فى تلك الأثناء لم يؤثر أسر ستارخان فى نسيان جيش ماكو، وكان ينتبه إليهم جيداً، وحينما علم بتراجع المجاهدين وعبور القادة من پل إلى تلك الناحية تم إرسال جماعات من المدينة إلى هناك. فى تلك الأثناء التى فقد فيها المجاهدون زمام الأمور وانسحبوا يائسين إلى الحدائق وكان أبو ذر هو الوحيد الذى صمد أمام القادة، فجأة انضم كل من مشهدى محمد على خان وكربلائى حسين خان وغيرهما من الفرسان والمشاة إلى بعضهم البعض وأبدوا مواساتهم تجاه المجاهدين المنهزمين، وأعادوهم إلى ميدان القتال، واتخذوا من الحدائق حصونًا لهم، وأمطروا القادة بوابل من القذائف وتأججت الحرب ثانية.

وكان المجاهدون يرغبون فى صعود القادة من هناك ووصولهم إلى آنورپل وضغط القادة وأبدوا صموداً. أثناء ذلك كان ستارخان قد ألحق الهزيمة بالأعداء فى أميرخيز وعاد وخرج من ذلك الأسر وأمر على الفور بنقل المدفع من أمير خيز إلى پل آجى ومضى هو نفسه مع عدد من الفرسان إلى ميدان القتال، وصوبت

المدفعية على معسكر القادة وأطلقت عليه أربع قذائف.

فى تلك الأثناء كانت الشمس قد دنت من الأفق وبلغت الحرب أوجها، واسترد المجاهدون قوتهم من وصول ستارخان الذى دخل المعركة بنفسه وأبدى شجاعة لانظير لها، ولم يتمكن القادة - الذين قاموا بدفن بعض من معهم وكانوا يرون الآخرين بين النيران من كل جهة - من الصمود، وولوا وجوههم، وبادر المجاهدون فى أعقابهم وأردوا العديد منهم صرعى. يقول مشهدى محمد على خان:

"ألقى خمسة منهم بالبنادق أرضًا وطلبوا الأمان".

ولم يصمد عروخان - الذى كان يعلم بهذه الهزيمة مسبقًا - أمام القادة وفر هارباً، ووقعت الأسلحة التى جلبوها فى يد المجاهدين، وكان رجال المدفعية يطلقون القذائف منها، وأغار حسين خان وغيره على القادة وحينما حل الليل لم يكونوا قد ابتعدوا كثيرًا فعادوا.

كانت هذه هى قصة ماكو. فبتلك السرعة وصلوا إلى المدينة، وبتلك السرعة أخرجوا المجاهدين منها، يقول مشهدى محمد على خان :

"من أبدى شجاعة اليوم هم: أسد آقا، ومشهدى إبراهيم أمير خيزى، ومحمد آقا أمير خيزى فضلاً عن ستارخان وأبى ذر، وقد توفى مشهدى محمد إبراهيم على أثر إصابته برصاصة. وقُتل فى هذه الحرب ما يربو عن الثلاثة من المجاهدين وأصيب أربعة، بينما قُتل من القادة - كما يقول مشهدى محمد على خان - ما يقرب من المائة والعشرين". (١)

وما كان يثير العجب أن مثل هذا الحشد قد لاذ بالفرار بمثل هذه الهيئة وتراجع دفعة واحدة بمسافة تزيد عن العشرة فراسخ، وينبغى القول إن القادة الذين

---

(١) يقول الحاج ويجويه: "وفقًا للروايات الصحيحة تم قتل ثلاثمائة شخص" وواضح إنه سمع روايات عديدة وقبل أكثرها عددًا .

تهاونوا بأهالى تبريز حينما رأوا تلك الحنكة فجأة ووجدوا أنفسهم دفعة واحدة أمام عدة مئات من الفدائيين خشوا على أنفسهم ولم يتمكنوا من الصمود وظلوا يتذكرون هذه الحرب الدامية لسنوات طوال وتحيروا من جرأة المجاهدين.

أما فى خيابان ومارالان فقد ظلت الحرب الدامية قائمة حتى العصر، حتى أخفق رجال الدولة وعادوا من حيث أتوا، بقول الحاج ويجويه:

"رغم مصرع العديد من أبطال طوائف الشاهسون وغيرها إلا أننا لانعلم تعدادهم، وتم قتل وإصابة البعض من المجاهدين".

ويقول بشأن الحرب الدائرة فى أميرخيز :

"ليس معلومًا عدد قتلاهم حين لاذوا بالفرار، لكن ماتبقى منهم هو أربعة وعشرون قتيلاً حملوهم ليلاً وقاموا بدفنهم".

ويقول الحاج بشأن عدم اشتراك سالار أرفع وأتباعه فى قراملك فى الحرب:

"إنهم كانوا مظهرًا لجيش ماكو، ورأوا هزيمتهم فتحيروا ووقعوا فى الدهشة وعاد كل منهم إلى مقره".

إلا أننى لا أتذكر شيئًا فى هذا الشأن.

فى أعقاب ذلك اليوم

فى ليلة السبت الخامس عشر من شعبان، وكانت إحدى ليالى الاحتفالات، أقام المطالبون بالحياة النيابية حفلين، وكتب ستارخان "رسالة الانتصار" إلى الحاج مهدى آقا كوزه كنانى. وفى نفس الليلة، ومع كل هذه المتاعب انطلقت أصوات الرصاص فجأة فى منتصف الليل من ناحية ميدان التدريب وبدا واضحًا نشوب معركة دامية، وظل إطلاق الرصاص هذا مدة ساعتين ثم هدأ مع حلول الفجر.

وفى الغد عُلم أن جماعة من الفرسان والجند قد تقدمت وكانوا يريدون

إخراج ميدان التدريب من تحت سيطرة المجاهدين وشق الجدران للوصول بالقرب من هذه المنطقة. وعلم المجاهدون وهبوا لمنعهم ووقعت تلك الحرب الدامية. وطبقًا لقول ويجويه اى، قُتل ثلاثون أو أربعون من الفرسان وعاد الآخرون دون أن يحرزوا أمراً. ولم يكن نفس هؤلاء القادة على علم بهزيمة جيش ماكو، وكانت بغيتهم إخراج أحد الحصون المحكمة من يد المجاهدين ليلاً. ومن الغد، حيث تقدم جيش ماكو ثانية تم استيلاؤهم على المدينة.

وفى يوم السبت، وقبل شروق الشمس امتطى ستارخان وبعض الفرسان الجياد، وتوجهوا صوب سرپل آجى كى يحصلوا على المدافع التى تخلفت عن جيش ماكو، إلا أنهم كلما بحثوا لم يجدوا شيئاً، حيث قام عزوخان قبل فراره بتهريب المدافع وأسرى ساولان، وحينما رغبوا فى العودة أمروا ستة من الفرسان التابعين لماكو بإخفاء أنفسهم فى زاوية حيث كانوا يريدون إخراجهم. وقد أصاب ستارخان واحدًا منهم وقبض على الخمسة الآخرين وأحضرهم معه إلى المدينة.

من ناحية أخرى توجه رؤساء من الدوتشى مع عدد من الفرسان والجند ثانية إلى أميرخيز وشقوا الجدران خفية حتى اقتربوا من جمعية "حقيقت"، وأطلقوا الرصاص فجأة، ورد المجاهدون ونشبت معركة دامت نصف الساعة حتى عاد الفرسان، وطبقًا لما ورد فى كتاب "بلاء تبريز" قُتل منهم ستة عشر. ويقال إنهم لم يعلموا بهزيمة جيش ماكو، واغتم ستارخان والمجاهدون وظنوا أنهم يستطيعون القيام بعمل ما.

وفى يوم الأحد، عم الهدوء المدينة، لكن أصوات البنادق كانت تُسمع من سرپل آجى، وكانوا يقولون إن شجاع نظام يريد التوجه إلى مرند مع جماعة من كوه سرخاب ليكف المجاهدون عن إطلاق الرصاص.

وعم الهدوء أيضًا فى يوم الإثنين، وكان لغلبة المجاهدين يوم الجمعة ولهزيمة جيش ماكو نتائج عديدة، منها أن رجال الدولة أدركوا مدى قوى المطالبين

بالحياة النيابية، واستاءوا لذلك. وكما سنرى فقد لزموا الهدوء عدة أيام ولم يبدأوا القتال. وفى هذه المرة كانت الخطوة الأولى للمجاهدين حيث أغاروا يوم الثلاثاء على قراملك – التى سيرد ذكرها من بعد – وقد امتدح درباري أردبيلى معسكر عين الدولة بعد هذه الحرب قائلاً :

"لم يُشاهد أمل الظفر والفتح بسبب عمليات الرؤساء والقادة".

ويقول كذلك:

"كان السادة فى جمعية "اسلاميه" يعتقدون بأنه لو حدث هجوم بسيط على أهل المدينة سيقومون بالاستسلام على الفور، وقد ذكروا هذا لعين الدولة فى حين أنه فى نفس اليوم كلما وقع هجوم من أية جهة، بل ومن أى حصن لرجال الدولة لم يسفر عن شئ ويلوذ جميعهم بالفرار على نحو فاضح، وقد ثبت للسادة فى جمعية "اسلاميه" أن الخوف قد تملك منهم".

وفى هذه الأيام (ويقال إنه يوم الأربعاء الخامس والعشرون من شهريور) استدعى مشير السلطنة عين الدولة – رئيس وزراء محمد على ميرزا – والسپهدار إلى مكتب البرق، وتم تبادل البرقيات بينهما وبين مشير السلطنة طوال ذلك اليوم، وكما عُلم من بعد قام مشير السلطنة بتوبيخهما على لسان الشاه متسائلاً عن سبب عدم إنهاء أمر المدينة. وقد تذرعا باحتدام المعارك وعودة جيش ماكو وقلة الأسلحة، كما أضاف السپهدار بأن قنصل انجلترا يقول إن الدولة حينما أغلقت المجلس وعدت بافتتاحه ثانية، واقترح أن يفتتح الشاه المجلس لتهدئة أهالى تبريز، واشتد وقع كلامه هذا عند الشاه فأرسل إليه برقية تأنيب وتوبيخ. وقد أحضر إقبال لشكر نسخة من هذه البرقية من باسمنج إلى المدينة، وهنا قام البعض بطبعها مع الردود الخاصة بها فى دفتر بعنوان "رافت ملوكانه"، ونورد فى هذا المقام برقية الشاه :

"السپهدار الأعظم، لقد تعجبت من برقيتكم الغامضة، فمنذ اليوم الأول للسلطنة كان الأمر الذى أصدرته بشأن المجلس يتضمن لفظى "مشروطه" و

"مشروعه" بما يطابق الشرع المحمدى، ثم وضع من لا دين لهم بناء التمرد، ورغبوا فى العصاء على الدين والدولة، وكلما حاولت اقناعهم بالأدلة والنصح لم يتم ذلك، حتى قمت بفضل من الله وبعون من حضرة الحجة عجل الله فرجه على نحو ما سنلزم بقلع مفسدى الدين والدولة وقمعهم، وتكتب الآن بأن القنصل يقول إن الدولة قد وعدت بأن تمنحهم مجلسًا للشورى وقانونًا ومحكمة، وكل هذا صحيح، وقد صرحت الدولة إلى السفراء كذلك بأنه تم الإعلان اليوم بشكل تحريرى بأن الدولة سوف تقدم المجلس الشرعى الذى يكون مطابقًا لهوى المملكة ومتفقا مع الشريعة النبوية (صلوات الله عليه)، وهى على وعدها، إلا أن هناك أربعة من المفسدين ممن أطلقوا على أنفسهم اسم المطالبين بالحياة النيابية قد رفعوا رايه التمرد فى تبريز، وأنا الآن مضطر لأن أقول لهم لقد منحت الحياة النيابية، وانا أعتبر أن ضياع مذهب المسلمين ودينهم لهو عار على تاريخ حكمى، ولن يحدث ذلك والعياذ بالله، عجبًا لغيرتكم! عجبًا لأنكم ترغبون فى الحكم! وها أنا أكرر عليكم إنه طالما لم يتم عقاب هؤلاء الأشرار لن أكف يدى ولو كلفنى هذا مليون من الطومانات، والفضل من بعد الله يرجع إلى الجيش والخدم والفرسان وغيرهم ممن يستطيعون تأدية هذه الخدمات العظيمة إلى الدين والدولة، خاصة وقد كُتب فى رسائل السفراء أن أولى الأمر فى إيران حينما يستطيعون الإعداد لهذا المجلس وبث النظام فى آذربايجان، والقضاء على الأشرار، سينشغلون من بعد بالمجلس بينما أنت تجلس فى الحجرة واضعًا كفًا على كف وتقول: ما الذى ينبغى عمله؟ لو تعاونتم مع جيش ماكو لما رجعوا قط، وقد تمت الآن بعض الاتصالات معهم قبله عن طريق البرق، لكنك لا تحرك ساكنًا، يجب أن تنهض وأن تعيدهم بأية طريقة، وتم اليوم كذلك إرسال الذخيرة والبنادق وطلقات الرصاص والمدافع مع مائة من الفرسان بنفس الصورة التى تمت بالأمس على يد السپهسالار الأعظم، ولو كنت فى حاجة إلى المدد فاطلعنا، وما كتبته هو المهمة الأخيرة لكم".

قراملك وهكماوار

لقد تم ذكر اسم قراملك مرات عديدة، وتقع هذه البلدة غرب تبريز، وبالرغم

من كونها إحدى ضواحى المدينة إلا أن حدائقها ومساحات شاسعة من أراضيها تفصلها عن المدينة. ويعمل معظم سكانها فى زراعة القمح وتربية الحيوانات، ويشتهرون بكرم الضيافة، ودومًا ما يوجد بينهم شباب كثيرون يتسمون بالجرأة والشجاعة، وهم من مؤيدى الدولة وذلك نظرًا لارتباطهم بالحاج ميرزا حسن المجتهد. وكما ذكرنا، حينما عاد من طهران توجهوا به إلى مدينته، وبعد ذلك حينما تأسست جمعية "اسلاميه" أيده أهالى قراملك وأرسلوا بثمانية ممن اشتهروا بالقوة والشجاعة بالبنادق وآلات القتال إلى الدوتشى برفقة آخوندكوى وظلوا هناك فترة وشاركوا فى المعارك التى دارت رحاها هناك. لكن حينما طالت الحرب، ولم يكن فى استطاعتهم الابتعاد عن حدائقهم ومزارعهم عادوا إلى قراملك، وكانوا يبدون العداء تجاه المطالبين بالحياة النيابية.

فى تلك الأثناء وقعت بعض الأحداث فى هكماوار – وهى تقع غرب تبريز وهى المحلة التى نقطن فيها – يجب أن نوردها فى هذا المقام، ولو تتبعنا جذور القصة يجب أن نرجع إلى الوراء لعدة أعوام. ومدينة هكماوار بها ما يقرب من ألف ومائتين منزل، وكان النزاع ينشب فيها منذ عهد طويل بين الشيخية والمتشرعة وكثيرًا ما أفضى إلى العراك. وقد وقع نزاع منذ عدة أعوام لم تخمد ثورته بعد، وكان له دوره المؤثر على الأحداث فى هذه الأثناء، وكيفية ذلك أن شخصًا يدعى حاجى محمود – من رؤساء الشيخية – كان له أبناء أخت، أحدهم يدعى يوسف وكان شابًا جسورًا أبيض الوجه وقد شرع فى أعمال الشغب، وتطاول ذات يوم وضرب إمرأة من المتشرعة الذين ثاروا بدورهم ونشب العراك بين الجانبين، ولما كانت أسرتنا تقطن بالقرب من هذه المناطق، فقد تدخل أبى وحاجى ميرزا محسن آقا – أحد أقارب أبى– كرهًا أو طوعاً، ولما كان ثقة الإسلام يبدى تأييده لطائفة الشيخية، كان حاجى ميرزا حسن يبدى تأييده كذلك لها، وأبرقوا إلى محمد على ميرزا – وكان قد توجه إلى طهران فى ذلك العام – وبعد فترة كانت النتيجة أنهم أرسلوا يوسف إلى قلعة نارين بأردبيل وظل هناك فترة ثم عاد. فى تلك الأثناء قام من يدعى عباس – أحد المتشرعة وكان كذلك قويًا طويل البنية

إلا أنه أسود الوجه – بأعمال الشغب، ولما تطاول هو الآخر على إمرأة بالضرب بيده، ورغم درجة قرابته منا – كانت أمه ابنة عم أبى– طردوه أيضًا من البلدة.

فى تلك الأثناء كان ستارخان فارًا من المدينة يعيش مختبأً، وتوجه عباس ويوسف إليه وعملا لدبه وقد رافقهما وتوجه معهما إلى مشهد سرًا ثم عادوا بعد فترة. وبعد العودة كف ستارخان عن أعمال الشغب وعمل فى المدينة بتجارة الحياد، كما اتجه كل من يوسف وعباس إلى العمل، فذهب عباس إلى قرية أحد التجار الأثرياء وأعد منزلاً هناك وتحسن سلوكه. وحينما كان يقص علىّ – أنا مؤلف هذا الكتاب – قصة سفره كان ذلك قبل الثورة الدستورية وبعد ذلك، بعد إعلان الحياة النيابية، فى تلك الفترة التى عاد فيها ستارخان من باسمنج وبدأ الحرب مع الدوتشى كان عباس فى تلك القرية، واستدعاه ستارخان، ولما كان يعلم جرأته وشجاعته احتفظ به معه. وكان يوسف يروح ويجئ إليه، لكن بعد شهر أو أكثر قدم عباس إلى هكماوار ولم يعد ثانية إلى ستارخان. وذات يوم جاء إلى حاجى مير محسن آقا – الذى حل محل أبى من بعده – وقال :

"لقد أخذت المدافع والبنادق من ستارخان، فلنقم حصنًا هنا، ونجمع البنادقة، وحينما نحكم الأمر نعيد فوهة المدفع تجاه المدينة."

ومع أن الحاج مير محسن آقا كان من مؤيدى الدولة، لم يرتض هذا الاقتراح، وقال:

"إنهم يطأون الأهالى تحت الأقدام."

ولما يأس عباس توجه إلى قراملك بعد أيام وانضم إلى أعداء الحياة النيابية. كما توجه إلى هناك أيضًا بعض أهالى هكماوار، واعتبر يوسف ذهابهم هذا فى مصلحته وسيطر على أرجاء البلدة، وشكل جماعة البنادقة.

وواقع الحال إن عباسا لم يكن يأبه به، وكان يأتى مرة كل عدة أيام بمفرده أو بصحبة اثنين إلى هكماوار ثم يعود، وهذا ما كان يثير غضب يوسف ويجعل

العداء بين قراملك والمدينة أشد، وذات يوم قدم عباس إلى هكماوار بصحبة أحد فرسان قره داغي، وجعل يتجول فى جرأة حتى تقابل فجأة فى الميدان مع يوسف وجماعته، وعلى الفور تحصنوا فى المسجد، واختبأ عباس وفارسه خلف إحدى أشجار الرمان، وفى طرفة عين أصابا أحد بنادقة يوسف وأحد العطارين الأبرياء. وكنت فى تلك الأثناء أقف فى ركن فى الميدان أراقب هذا العراك ورأيت إنه بمجرد انتهاء إطلاق النار يسلك عباس وفارسه الطريق بهدوء ويعودان ولم يهربا رغم ما ارتكباه، بل توجها إلى منزل عباس وقضيا هناك عدة ساعات، ولما كان يوسف يعلم مدى شجاعته وجرأته لم يرسل إليه أحد بنادقته.

الحرب ضد قراملك :

على هذا النحو صارت قراملك مقرًا لأعداء الحياة النيابية، وكما ذكرنا، تم إرسال جيشٍ فى الأيام الأخيرة إلى هناك من قبل عين الدولة، لأن رجال الدولة قد يأسوا قليلاً من الحرب بعد هزيمة جيش ماكو، وقاموا هذه المرة أكثر من غيرها بإغلاق الطرق والحيلولة دون وصول الطعام إلى المدينة، حيث استولى عين الدولة وجيشه على طريق هشترود وگمرود وسراب، أما سالار أرفع فقد استولى على طريق سرد رود واسكو، واستولى ابن شجاع نظام على طريق مرند وجلفا، ومنعوا تنقل القوافل. فى تلك الأثناء أغلق أهالى قراملك كذلك طريقى انزاب وآرونق وقطعوا الإمدادات عن المدينة، وكانوا يتعرضون للمارة.

وأرسل ستارخان مرات عديدة الرسائل الناصحة، وذات مرة قدم البعض من قراملك إلى المدينة وتم التباحث معهم دون نتيجة، لكن بعدما هُزم جيش ماكو، وازداد بأس أهالى المدينة، ولزم رجال الدولة الهدوء، رأى ستارخان إنه من الأفضل أن يتقدم لقتال قراملك، وكان هذا يوم الثلاثاء ١٨ شعبان (٤ شهريور) حيث توجهت فجأة جماعات من المجاهدين إلى هناك وقاومهم أهالى قراملك بشجاعة، واحتدمت المعركة بينهما، وأُضرمت النيران فى المزارع والحدائق التى

كانت على مسافة مايقرب من نصف فرسخ بين المدينة وتلك المحلة، واستمر إطلاق النيران من كل جهة حتى الغروب. وفى ظهيرة اليوم التالى ١٩ شعبان (٥ شهريور) توجه المجاهدون إلى قراملك بقيادة حسين خان وكان معه مايقرب من أربعمائة فارس ونشبت معركة حامية الوطيس مرة أخرى، ودخل المجاهدون فى جدول الماء – الذى كان يمد أهالى قراملك بالماء إلا أنه كان جافًا آنذاك – وتقدموا، وكان أهالى قراملك يمنعونهم ببسالة.

كانت الطلقات تنهال، وأصوات المدافع تُسمع على التوالى، وبدء واضحًا أنه كان يومًا عصيبًا على النساء والأطفال، وأبدى أهالى قراملك شجاعة تفوق الحد، إلا أن المجاهدين تقدموا ببسالة حتى وصلوا إلى البلدة، ولما انتهى اليوم عهد حسين خان إلى بعض المجاميع بالحراسة وعاد.

واليوم ظهرت بعض الأعمال العجيبة والشجاعة من قبل عباس، وكان أهالى قراملك يروون عنه القصص، لقد امتطى اليوم جوادًا مع حلول الفجر وتوجه إلى باسمنج لبطلب من عين الدولة المدافع والجند، لكنه سمع أصوات المدافع وهو فى منتصف الطريق فعاد، وحينما وصل كان المجاهدون قد وصلوا إلى بيدر قراملك، وعلى الفور تعامل معهم واختبأ خلف أحد الأسوار وقام بإطلاق النيران وتصدى للمجاهدين.

ومن يوم الخميس بادر المجاهدون ثانية لقتال قراملك، ولكن لما قدم بعضهم للتباحث مع ستارخان، ومن ناحية أخرى كان الهجوم والقتال قد بدأ فى المدينة قبل الظهيرة بساعة، لذا عادوا أدراجهم دون أن تُحسم المعركة. ولما كان معظم المجاهدين فى هذه الأيام الثلاثة لقتال قراملك يمرون من هكماوار كنت أقف للمشاهدة فأراهم يمرون زرافات زرافات بقوة وشجاعة وكنت أسعد أحيانًا لخروج مثل هؤلاء الشجعان من بين أهل السوق، وأحيانًا كنت أغتم لأن هؤلاء البواسل كانوا يمضون لقتل إخوتهم.

وأذكر أنه فى اليوم التالى كنت واقفًا فى أول المحلة ووصل حسين خان مع

جماعة من المشاة، وسررت من شجاعة ذلك الشاب وحكمته ورزانته، وللأسف، كانت هذه هى المرة الوحيدة التى شاهدته فيها.

ولم يكن حسين خان يمتلك فى وسطه أكثر من تسع طلقات، وقال له أحد أعوانه: "خان! إنك تتجه إلى الحرب بتسع طلقات؟!"

فرد قائلاً:

"هل سأقتل أكثر من تسعة أشخاص؟!"

وجاء من خلفهما أسد آقا ممتطيًا جوادًا جميلاً أبيض اللون، لقد سمعت اسمه ولم أره، وتملكتنى الحيرة، كيف ذاع اسم ذلك الشاب رغم صغر سنه !! وقد قُتل فى تلك المعارك شاطر محمد حسين أخو مشهدى محمد صادق الذى عُرف بشجاعته وكان من الرؤساء.

نعم، فكما ذكرنا، قام رجال الدولة فى ظهيرة يوم الخميس فجأة بثورة عارمة فى الشوارع والأسواق ومحال مجيد الملك وفى عدة طرق أخرى تؤدى إلى أميرخيز، كما زمجرت المدافع كذلك من كوه سرخاب، وأمطرت المدينة بوابل من الطلقات. لقد كانت غارة مفاجئة جسورة، لعلهم كانوا يظنون أن المجاهدين مشغولون بالقرب من قراملك وما من قوة داخل المدينة، وكانوا يرغبون فى تقدم أمرهم. ومع رغبتهم هذه حثوا المجاهدين على العودة أمام قراملك، وكانوا يسعون بقوة، وصمد ستارخان وباقرخان وتصديا للإغارة، وظل أزيز المدافع، واستمرت المعركة حتى الغروب ثم خمدت. وقتل البعض من المجاهدين وأصيب البعض الآخر، إلا أن عدد القتلى والجرحى من قبل رجال الدولة كان أكبر.

دفن مسيو چليتو:

لم ينشب أى قتال خلال يومى الجمعة والسبت، ومن ليلة الأحد دارت

معارك طاحنة فى خيابان. يقول درباری الأردبيلى :

"لم نتمكن من النوم على أثر أصوات المدافع التى استمرت حتى الصباح، واحتشد الأهالى فى الطريق على نحو غريب، وظلت أصوات المدافع تدوى حتى الشروق".

ويقول:

"سد المجاهدون طريق باغ ميشه، ولم يكن فى الإمكان تردد أحد عليه، وجاءت جماعة من أهالى المدينة إلى الحديقة وأمر شاه زاده جواد خان حاجى خواجه لو بالتوجه إلى باغ ميشه وفتح طريقًا للمشاة وإزالة العوائق بأى نحو يكون".

فى تلك الأحيان كان الحديث يدور عن عودة جيش ماكو، وكان إقبال السلطنة قد دعمه بقوة إضافية بأوامر من محمد على ميرزا وأعاده، وكانوا لايزالون يضرمون النيران فى القرى ويحققون تقدماً، كما نقص الخبز فى تلك الأيام أيضًا ومضت الأوقات عصيبة على جميع الأسر.

ومن يوم الإثنين (٣٠ شهريور – ٢٤ شعبان) كانت ثمة أحداث تتهيأ للوقوع. فمن ناحيةٍ، تقدم الفرسان – ويقال إنهم أنفسهم فرسان حاجى خواجه لو – ناحية پل سنگى، ودارت معركة بينهم وبين أهالى خيابان استمرت قرابة الثلاث ساعات حتى يئس الفرسان وعادوا، وقد قُتلت أعداد غفيرة من كلا الجانبين. ومن ناحية أخرى، أرسل عين الدولة اليوم إنذار الثمانية والأربعين ساعة إلى المدينة واستدعى كذلك بعض الأشخاص إلى الحديقة ليقدم إليهم النصح والإرشاد، وسوف نورد قصته كذلك من بعد.

فى تلك الأثناء كان ثمة عرض عظيم لا نظير له يحدث فى المدينة، حيث حمل المطالبون بالحياة النيابية أحد القتلى من الكرجيين إلى المقبرة باحتفاء لم

يشاهد له مثيل حتى اليوم. وكانت هذه إحدى القصص الجديرة بالاستماع حيث أظهر المطالبون بالحياة النيابية فى تبريز أنفسهم على أنهم يقومون بكل ما ينبغى القيام به وسط هذه الأزمات.

وكما ذكرنا، كان مسيو چليتو أحد القادة الكرجيين ومن رماتهم ،وقد أصيب إصابات بالغة يوم الجمعة (١٩ شهريور) أثناء احتدام المعارك على أثر ارتطام قنبلة بالجدار وانفجارها، وظل فى المستشفى حتى وافاه الأجل أمس الأحد. وقد اغتم الأحرار على وفاة ذلك الضيف المبجل وحزنوا على فقد ذلك الحليف، واليوم حيث كانوا يرغبون فى دفن جثمانه قاموا بعرض عظيم على النحو التالى: فقد اجتمع الأهالى فى أرمنستان وليلاوا – التى كانت على الطريق – على نحو ملأوا به الأحياء، كما احتشد النساء والأطفال فوق الأسطح، واصطفت جماعة من المحاهدين – ممن لم يستطيعون التوجه إلى الحصون – على الطريق. من جهة أخرى، حينما أخرجوا الجثمان من المستشفى قاموا بداية بوضع علم إيران بألوانه الثلاثة فى المقدمة، وفى الخلف سار ألف مجاهد – كل أربعة فى صف – وهم مدججون بالسلاح وبرفقتهم فرقة موسيقية ثم شباب الأرمن يحملون باقات الورود وينشدون ومن خلفهم حشود من المسلمين والمسيحيين، وتُقرأ عبر الطريق اللافتات فى عدة مناطق وقد كتبت بالتركية والأرمينية، وتلتقط الصور ،وعلى هذا النحو من التبجيل والإعزاز أوصلوه إلى المقبرة وواروا جسده التراب.

وقد نشروا فى صحيفة "نالهء ملت": "وللحق والإنصاف فإن آذربايجان بل وإيران لم تودع جثمان أحد العظماء أو الأشراف أو رجال المملكة على هذا الوضع وذلك الإعداد وتلك العزة، ولم يراعوا هذا الاحترام الجم فى حق أى أحد من شهداء الحرية.."..

وبعد مرور ساعتين من ليلة الثلاثاء بدأ إطلاق النار والقتال دفعة واحدة من جميع الحصون التابعة لمؤيدى الدولة بداية من خيابان وحتى أميرخيز، وظلت أرجاء المدينة تعانى من حالة الفوضى والاضطراب حتى الفجر. يقول درباری

الأردبيلى :

"والليلة لم يستطع جواد خان حاجى خواجه لو – الذى أرسل من قبل عين الدولة لفتح طريق باغ ميشه – البقاء فى المدينة من شدة القتال وفر مع فرسانه وقدم إلى المعسكر وصار باعثا لخشية الآخرين وفزعهم".

وبينما لم تشرق شمس يوم الثلاثاء حتى بدأ القتال خارج بل آجى، وخلال تلك الأيام، حيث كانت تصل أنباء عودة جيش ماكو، كانت أنباء جديدة تتوالى كل يوم، وأرسل ستارخان جماعة من الفرسان إلى آناخاتون حتى يخبرونه إذا ما وصل جيش ماكو إلى هناك، وحتى يحولوا دون ذلك. وكان هؤلاء الفرسان يتمركزون فى المناطق المحيطة بآناخاتون بحيث أنهم كانوا يرون توجه ما يقرب من أربعمائة فارس إلى هناك قبل شروق الشمس، وقد هبوا للقتال. من ناحية أخرى كان رحيم خان وشجاع نظام وبرفقتهما فرق من الفرسان قد وصلوا من الدوشى لمساندة فرسان الدولة، لذلك بادر مجاهدو سربل أيضًا لدعم فرسان الحربية، واحتدم القتال حتى بعد الظهيرة وكانت المدافع تطلق من حصن أمير خيز كذلك.

إنذار عين الدولة :

كما أسلفنا، كان محمد على ميرزا يضغط على عين الدولة كى يستولى على المدينة ولامه كثيرًا على ذلك، وكانت البرقيات تصل إليه تباعاً. من ناحية أخرى، فإن رجال الدين المقيمين فى جمعية "اسلاميه" – ممن كانوا ظمأى لدماء أهل المدينة – كانوا يبرقون دومًا إلى عين الدولة ويطلبون الاستيلاء على المدينة. ومنذ اليوم الذى قدم فيه عين الدولة بذل مافى وسعه واستخدم كل طاقته، إلا أن رجال الدين الذين كانوا يجهلون الحرب وكيفيتها، وكذلك محمد على ميرزا الذى كان يراقب الأحداث عن بعد، كانوا يظنون أن عين الدولة لم يستخدم كل قوته وأنه يتعامل باللين مع أهالى تبريز، لذا قاموا بالضغط عليه.

وأيًا ما كان، فإن عين الدولة رأى نفسه مضطرًا لأن يجرب القوة مرة ثانية وأن يتحارب مع المدينة، خاصة بعد عودة جيش ماكو واقترابه من المدينة، لكنه فضل أن يتم ذلك على نحو آخر، وأرسل إلى أهالى المدينة إنذارًا يوضح خلاله إنه لم يستخدم قوته حتى الآن ولو لم يبد أهل المدينة ندمهم، ولو لم يخنعوا له سيستخدم قوته. هذا وكما أسلفنا، أرسل فى يوم الإثنين (٣٠ شهريور – ٢٤ شعبان) نسخًا من هذه الرسالة – بلغت ستًا وثلاثين نسخة – إلى بعض الأشخاص فى المدينة يطلعهم فيها بأن كل مايريده أن تعم الرأفة الملكية على شعب تبريز، وجعل ينصحهم لكن دون جدوى، ولم يكف الأهالى عن تمردهم وحاربوا جيوش الدولة ببسالة، لذا اضطرت الدولة إلى تعريف أهالى تبريز على أنهم من المتمردين، وأنذرتهم، وأرسل (عين الدولة) بيانًا ينص على إنه إذا ما نحى رؤساء الجماعات من الغد (الثلاثاء ٢٥ شعبان) وحتى الثمان والأربعين ساعة التالية أسلحتهم جانبًا وسلموها إلى القصر الملكى فقد أدوا عملاً جيداً، وإلا تدخلت الجيوش الحكومية ودخلت المدينة وتعاملت مع المتمردين كما ينبغى، ومن يلزمون الحياد، ويرفعون الرايات البيضاء فوق منازلهم، أو يجتمعون فى باغ شمال أو فى المساجد ويتعرف عليهم الجند، لن يلحق بهم أى ضرر، وكل من يبدى مقاومة بالبنادق أو بآلات الحرب أمام الجند لن يُغفر له قط وسوف يُقتل.

كما أرسل رسالة استدعى فيها اثنين من كل محلة وكرر عليهم هذا الحديث. ولما ذاع نبأ هذا البيان فى المدينة لم يبال المجاهدون والأحرار، بل بسطوا ألسنتهم بالسخرية، قائلين :

"ما فائدة هذا الإنذار بعد ثلاثة أشهر من القتال؟!"". ما فائدة الثمان والأربعين ساعة المهلة؟!".

ويقال إن ستارخان قال :

"لعلكم كنتم تمزحون حتى اليوم وتريدون أن تحاربوا الآن؟! ..".

غير أن الدبلوماسيين التابعين للدول الأجنبية والأوربيين المقيمين فى تبريز اهتموا بذلك الإنذار، وأبرقوا الى سفاراتهم فى طهران وطالبوا الدولة بتوفير الأمن لهم ولأقاربهم. من ناحبة أخرى، أبرقت الجمعية الإقليمية إلى اسطنبول بالتالى :

"لقد قدمت الحكومة إنذارًا بالقتل العام منذ الخامس والعشرين من الشهر الجارى وحتى الثمان والأربعين ساعة التالية، والشعب مستعد للمواجهة".

(الجمعية الإقليمية)

وقد تملك الرعب من نفوس الإيرانيين المقيمين فى اسطنبول على أثر جملة "القتل العام" وأبرقت جمعية "سعادت" إلى النجف وغيرها، وتملك الخوف من قلوب الإيرانيين فى كل مكان.

من ناحية أخرى انتفض أعداء الحرية فى تبريز – الذين كانوا فى كل مكان – واتخذ بعضهم الإنذار حجة له وأضافوا أشياءً أخرى إليه، وألقوا الرعب فى نفوس الأهالى. والبعض الآخر تملكه الخوف ولم يعلم ماذا يفعل. وفى هكماوار انتفضت أسرتنا – التى كانت تعادى الحياة النيابية – وعزمت على إرسال نسائها وأطفالها إلى قراملك حتى لايكونوا متواجدين فى منازلهم يوم قدوم الفرسان إلى المدينة، ولما لم يستطع شخص من الكبار الخروج من المدينة خوفًا من المجاهدين، ومن ناحية أخرى كانت الخشية من مؤيدى الدولة، لذا أجبرونى – وكنت فى السابعة عشر من عمرى – على توصيل هؤلاء النسوة – وكان عددهن يربو على السبع والستين – مع أطفالهن إلى قراملك، وقمت باصطحابهم عبر الحدائق وتوصيلهم إلى قراملك. وهناك أبدى الرؤساء تعاطفهم ومواساتهم، إلا أن العامة بسطوا ألسنتهم بالذم كثيراً. فقد قالت إحدى النساء فى أحد الأحياء: "لمَ لمْ تقولوا عليًا ولى الله حتى تسلموا من هذه المعاناة؟! " وقالت أخرى: " إنهم جميعًا بابية".

ومكثنا ليلتين هناك فى منازل أقاربهم، وخلال هذين اليومين سمعت بقصة قتال قراملك وأعمال عباس وغيره المثيرة للدهشة، وقد قدم عباس هذا لزيارتى

على أنه أحد الأقارب، وعدنا ثانية بعد يومين حينما لم نُشاهد نتيجة للإنذار.

نعم، لقد كتبوا الرد التالى من المدينة وأرسلوه إلى حديقة صاحب ديوان :

"من عبيد حضرة المستطاب الأشرف صاحب السعادة الأمير عين الدولة دامت شوكته، لقد وصل بيان المستطاب الأشرف الذى ورد فيه بيان القتل العام وفتوى إعدام المسلمين من أهالى دار السلطنة بتبريز، وذكرت فيه إن كل ماتريده هو منعكم عن طريق العصيان بالنصح والإرشاد، ومنحتنا الأمل فى الرأفة الملكية، وقد أجبرت الحكومة بكل قوة على أن تنظر إليكم بنظرة المعارض، واعتبرت أن قلاعكم وقمعكم لازم لسلامتها، والشعب يعرض كذلك بكل تبجيل واحترام بأنه لايمكن تحمل تلك المناظر وذلك السلب والنهب ونواح النساء المسلمات ثانية ونحن نمضى خاضعين لتحمل هذه الرأفة الملكية اللائقة، فنحن كلما أردنا توصيل صياح المظلومين إلى مسامع وجدان حضرة صاحب السعادة لنجعله يحظى بالسعادة الأبدية لاستيفائه حقوق الشعب، لن يتيسر لنا ذلك، وعليه فليس لدينا من رد إزاء تصاريح حضرة صاحب السعادة سوى تكرار قول فخر المجاهدين سيد الشهداء عليه أفضل الثناء :

إذا كانت الأبدان للموت أنشأت   فقتل امرئ لله بالسيف أجمل

لقد امتلأت مسامع الشعب بمثل هذه الإنذارات، وليس لديه الاستعداد لقبول مثل هده التهديدات ثانية، ونحن فى انتظار الإجراءات الفعلية.

من يغرق فى البحر الأحمر   فأى فرق بينه وبين مطره ".

والجدير بالذكر هنا أن تبجيل الأهالى لستارخان وباقرخان قد زاد فى هذه الفترة، وكانت تتردد بين الأهالى حكايات ورؤى عديدة حول ستارخان. وكان يتردد اسم "سردار" و"سردار اعظم" على ستارخان، واسم "سالار" و"سالار اعظم" على باقرخان على ألسنة الأهالى وفى كتاباتهم، خاصة بعد هزيمة جيش ماكو، حيث كان الأهالى ينظرون إلى ستارخان بنظرة جديدة وظن البعض أنه مرسل من

قبل الله، وكانوا يشاهدون الرؤى فى ذلك، ويسوقون اسمه مقرونًا بكثير من التبجيل والثناء. هذا وسوف نقرأ اسميهما من الآن فصاعدًا على النحو التالى: "سردار" و"سالار". وعلى الرغم من أن الجمعية قد منحتهما لقبى "سردار ملى" و "سالار ملى" بعد واقعة الدونتسى منذ شهر، لكن أفضل الألقاب هى التى يمنحها الشعب إلى شخص تعبيرًا عن رضاه وثنائه عليه. ونحن كذلك نرى إن تتبع الشعب يفوق بكثير تتبع الجمعية.

ترقب الإنذار

حينما أرسل المطالبون بالحياة النيابية ذلك الرد، جلسوا يترقبون حركة رجال الدولة. ورغم المهلة التى قدمها عين الدولة إلا أن الحرب نشبت من جميع الاستحكامات ليلة الأربعاء (٢٤ شعبان – الأول من مهر)، وظلت تُسمع أصوات المدافع حتى حلول الفجر، وكان لهذه الغارات الليلية تأثيرها فى الأهالى، وكانت أصوات البنادق تنطلق فى هدوء الليل. وكما ذكرنا، فى تلك الليالى، وبعض مضى ساعتين من الليل كان صوت الآذان يرتفع من معظم المنازل، وكثيرًا ما كان يُسمع مزيج من أصوات الآذان وطلقات البنادق مما يحدث جلبة عجيبة.

وفى يوم الأربعاء قامت ثورة أخرى فى المدينة، وكان الجميع يتحدث عن أن الحرب ستبدأ فى الغد، وكانوا يسعون للاستعداد. من ناحية أخرى كانت جيوش الدولة خارج المدينة فى حالة تنقل، حيث أرسلوا كتائب من القوزاق وفرسان معسكر شاطرانلو إلى الدونتشى، كما أرسل عين الدولة الفرسان من جنوب المدينة إلى سالار أرفع – الذى كان عليه الإغارة على قراملك بفرقه، ولما كان من الممكن مشاهدة أولئك الفرسان من المدينة وجهوا تجاههم مدفعًا من أحد الاستحكامات فى مارالان. كما توجه جيش ماكو اليوم من صوفيان إلى المدينة ونزل فى آناخاتون حيث أُعد مكان له، وأَقام الاستحكامات هناك. ووجه إليهم بمدفعين من أحد الاستحكامات فى أميرخيز. وطبقًا لما ورد فى كتاب "بلواى تبريز"

أرسلوا رسالة ترحيب بالطلقات. ويقول درباري الأردبيلي :

"وفي يوم الخميس حيث انتهت المهلة المحددة لم تحدث انتفاضة من قبل مؤيدي الدولة، وأصدر سردار وسالار أوامرهما بإطلاق المدافع نيرانها من استحكامات المدينة تجاه معسكرات شاطرانلو وآناخاتون والدوتشي للتذكير، ولما لم يصل الرد من الجانب الآخر لزموا الهدوء كذلك".

ويقال إن عين الدولة كان يترقب الجيوش التي وحب وصولها، وقد جاءت اليوم حشود غفيرة من جيش ماكو. من ناحية أخرى، قامت ثورة عارمة في المدينة تفوق نظيرتها التي قامت بالأمس، وتوجه الأهالي من الأحياء في جماعات إلى الجمعبة يعربون عن استعدادهم للتضحية ويلقي بعضهم بالكفن على أعناقه، وقام الوعاظ بإلقاء الخطب ودعوا الناس إلى التحلي بالهدوء.

وفي ليلة الجمعة (٢٧ شعبان – ٣ مهر) سُمع دوي إطلاق الرصاص، وقلما كان المجاهدون يردون، وأحياناً كان يُسمع دوي المدافع أو القنابل. لقد كان يوم الجمعة من الأيام التي عمت فيها الثورة والخشية، وحينما سطعت الشمس وأطلت برأسها من بين الجبال، وبينما كان المستيقظون من البارحة ينتهزون الفرصة للخلود إلى النوم، حتى أفسد فجأة دوي أول طلقة من فوهة مدافع الدوتشي جو الهدوء والراحة، وطوى صوتها أرجاء المدينة، وعلى التوالي وصلت إلى المسامع أصوات المدفع الثاني فالثالث. ولم تمر فترة وجيزة حتى انطلقت مدافع صحراء شاطرانلو وأمطرت خيابان ومالاران بوابل من الرصاص، كما سُمع دوي مدافع جيش ماكو، وعلم كل شخص ماهية القصة: فالقصف الذي كان يجب أن يبدأ بالأمس قد بدأ اليوم، وقذف أربعة عشر مدفعًا بقذائفه من ثلاثة أماكن – صحراء شاطرانلو، كوه سرخاب و پل آجي – من ناحية أخرى، كانت مدافع المدينة تقوم بالرد من عدة أماكن، واتخذت الحرب اليوم صفة رسمية، فهي الحرب التي أعلنت عنها الحكومة مسبقاً، واتخذ الرؤساء – وربما اجتمع منهم ثلاثون حول تبريز –

جانب الدولة اليوم، وما كان يتم فقط خلال أربع ساعات تقريبًا هو إطلاق المدافع، لكن قبل الظهر بساعتين أعلن التقدم من خلال بوق من الدوتشى، وبدأت الحرب فجأة، وتم إطلاق الرصاص من جميع الحصون بداية من خيابان وحتى پل آجى، وقامت معركة لا يمكن لشخص أن يصدقها لو لم يرها.

وأغار شجاع نظام – الذى كان متقدمًا دومًا فى هذه الحروب – مع خمسمائة فارس وجندى من مرند ومن جند الشاهسون بالطبول والأبواق على استحكامات السوق التى لم يكن بها أكثر من أربعين أو خمسين حارساً، وأضرموا النيران فى كل مكان، كما اندفعت كتائب القوزاق من فوق أسطح السوق وهاجمت تلك القوات – من ناحية محال مجيد الملك وعالى قاپو وپل سنگى وعدة طرق أخرى – خيابان ونوبر. وفى الوقت نفسه ضغطت جيوش صحراء شاطرانلو من مارالان وخيابان، من ناحية أخرى، فإن أميرخيز – التى كان عليها التوجه إلى هناك أكثر من غيرها – أغارت بشدة من جهتين: الأولى من ناحية پل آجى حيث كانت تتدفق جيوش ماكو كالسيل وتتقدم تجاه پل آجى. والأخرى من ناحية الدوتشى حيث كان يتم الضغط من عدة طرق أمامًا ويمينًا ويسارًا، وتم تصديع الجدران حتى تقدموا من جمعية "حقيقت"، واستخدموا كل ما لديهم من عنف. وقد ورد فى كتاب "بلواى تبريز": "حمل رحيم خان بنفسه البندقية اليوم، وهب للقتال، وهاجم فرسانه الدوتشى، ونصب مدفعًا فى قبر السيد إبراهيم لحصون المجاهدين، كما نصب سبعة عشر مدفعًا على حصون بوابة اسطنبول، ولم يرحل مجاهدو ويجويه وكوردولو – الذين كانوا فى هذه الحصون – وضحّوا بأنفسهم. وقد ارتطمت إحدى طلقات المدفع بالحصن وحطمته، وأثر هذا الانفجار على حاجى آقا – أحد الشباب الشجاع فى كردرلو – وأرداه قتيلاً، وامتزجت دماء هذا الشاب ببعض الطلقات وأحجار الحصن أمام مشهدى حسين ومشهدى سيف الله، إلا أنهما لم يكترثا ولم يكفا عن عملهما "

ويقول كذلك:

"كان المجاهدون فى ناحية ايرانچى (شمال جمعية حقيقت) منهمكين فى الحصن بإطلاق الرصاص، وكان يوجد أحد الرماة أعلى منزل فحملوه وأخذه محمد جعفر معه، ولم يتمكن المجاهدون الآخرون من الصمود، فقالوا للكرجى – الذى كان يطلق الرصاص – بأن يكف عن الإطلاق إلا أنه لم يفهم حديثهم ولم يدرك رغبتهم، ولم ير المجاهدون فائدة من الوقوف فانسحبوا إلى حصن آخر لكنهم أصابوا الكرجى وحملوا جثمانه إلى جمعية "اسلاميه" وأمر سردار الرماة والبنادقة – الذين دخلوا هذه الحرب الدامية – أن يخرجوا الفرسان من الأحياء والمنازل بأية طريقة ". أثناء ذلك أصابت إحدى الطلقات قدم محمد خان ابن شقيق سردار ومات ذلك الشاب الشجاع وحمله أحمد مجاهد حتى وصل به إلى جمعية حقيقت .

وفى خضم هذا الصراع تقدم سالار أرفع مع فرقة من الفرسان والجند برفقة بنادقة قراملك واسكو من طريق هكماوار وآخنى (اخنخو)، ولما لم يتبق فى هكماوار سوى عدة حصون ولم يكن هناك سوى قلة من المجاهدين لم يعقهم أحد ودخلوا المحلة وتقدموا، وكان القراملكيون وبنادقة هكماوار نفسها – المنتمون إلى رجال الدولة – ومتمردو اسكو يتقدمون ويطلقون النيران، ووصلت فى أعقابهم مجاميع أخرى، وكانوا يغيرون على كل محلة يستولون عليها ويتقدمون دون ورع حيث كانوا يرغبون فى التواصل مع جيش ماكو إذا ما دخل المدينة. ولا نستطيع أن نشرح حال المدينة اليوم، فثلاثون ألف شخص من ناحية، وخمسة عشر ألف من ناحية أخرى يقومون بالقتال وتندفع الطلقات على التوالى على الجانبين، وأحيانًا حينما يحتدم العراك تفرغ – على الأقل – أربعون ألف طلقة فى الدقيقة، وكان أزيز المدافع يمتزج ودوى القنابل، وكان الناس ينتفضون ويثورون، وحينما يصل أى منهما للآخر يستفسر عن أحوال الحرب، وكان المجاهدون يسارعون من هنا إلى هناك فى جماعات، وكثيرًا ما كان يشاهد الجرحى والقتلى، وكثيرًا ما كان تُسمع أصوات الأنين والبكاء، كانت الوجوه مرفوعة والعيون تبحث هنا وهناك، ولا يعلم شخص ماذا ستكون نتيجة هذا الصراع؟ وعلى الرغم من أن الخشية لم تكن على قدر يوم العشرين من شهر يور، إلا أن هذه الحرب كانت أشمل، وكان ضغط رجال الدولة أكثر، وكانت أصوات العويل والغوغاء أعلى.

هزيمة مؤيدى الدولة

على هذا النحو دار القتال وسفك الدماء، وعندما أغار مؤيدو الدولة كان النصر حليفهم فى بداية اليوم، وحققوا تقدمًا فى معظم الأماكن، وكان كل فرد من القادة، يزف بشرى النصر إلى عين الدولة أو السپهدار، لكن المجاهدين تغلبوا تدريجيًا وأجبروهم على التقهقر، وعندما انتصف النهار تحولت بشائر النصر نحو المجاهدين. ووصلت البشرى الأولى من موقع القتال بالسوق بعد العصر بنصف الساعة حيث هزم حسين خان والمجاهدون مؤيدى الدولة وأجبروهم على التراجع. وجعلت الأبواق تعلن النصر على الأعداء، ووصلت بعد ذلك بشرى ظفر أهالى خيابان الذين أجبروا الأعداء على التقهقر من كل جانب .

وتمكن سردار وأتباعه فى أميرخيز – رغم احتشاد الأعداء هناك والضغوط التى كانوا يمارسونها – من النصر بفضل شجاعته وصموده، ولم يستطع جيش ماكو – بتلك البسالة التى كان يحارب بها ورغم القصف الشديد الذى كان يوجهه ومع كل التقدم الذى حققه – أن يصل إلى المدينة. ومن ناحية محال مجيد الملك، حيث أغار فرسان مرند ويورتچى وجند قزوين على حصون نوبر، تم إلقاء القنابل عليهم مع احتدام الحرب، وسقط سبعة أشخاص وعاد الآخرون. وقام الحاج خان بن على مسيو – قائد مجاهدى نوبر – بتغسيل الأربعة الذين تبقوا من قتلاهم وتكفينهم ودفنهم .

أما فى هكماوار حيث تقدم أهالى قراملك وفرق سالار أرفع حتى داخل المحلة، فقد وصلوا إلى عيوض على اسكويى – أحد المتمردين ذوى الشهرة فى آذربايجان وكان من المتقدمين فى هذه الحرب – بالقرب من ميدان كبير وأصابوه بإصابات بالغة وأعادوه كما أعادوا الآخرين. (١)

---

(١) كما ذكرنا، كانوا يغيرون فى هكماوار، ووصل المغيرون حتى مكان قريب من منزلنا وطرقوا الباب وحطموه وحدثت إصابة عيوض على وعاد المغيرون البنادقة وأمن منزلنا من الإغارة .

ولما لم تصل أنباء من المدينة عن تقدم رجال الدولة لم يتمكنوا من الصمود وعادوا إلى قراملك فى النهاية .

وكانت هذه هى حكاية أحد الأيام العصيبة فى تبريز، وكانت نتيجة إنذار عين الدولة طبقًا لما ورد فى كتاب " بلواى تبريز" هى قتل ما يقرب من ثلاثين مجاهدًا وإصابة نفس العدد. لكن قُتل من جانب مؤيدى الدولة ما يقرب من المائة، وتم إطلاق ما يقرب من خمسمائة وأربعين طلقة مدفع. وأبرقت الجمعية الإقليمية بمساعدة جمعية " سعادت " إلى اسطنبول والقوقاز والعتبات وباريس ولندن – حيث تملك القلق من قلوب الإيرانيين ومحبى إيران – تزف بشرى النصر. من ناحية أخرى، ففى طهران، حيث كان الأمل معقودًا على هذه الحرب، وكان محمد على ميرزا يترقب برقيات البشرى، لا أعلم أية أنباء أرسلها عين الدولة؟ وأية معاذير تذرع بها؟ ويتضح من البرقيتين اللتين تم إرسالهما من طهران إلى رحيم خان – وهما تحت أيدينا – أنهم يعقدون الأمل كثيرًا على اليوم فى باغشاه، حيث كانوا يعدونه آخر أيام الصمود لدى الأهالى فى تبريز بعد ذلك أرسل القادة – رغم إخفاقهم والهزائم التى لحقت بهم – إلى طهران يشرحون تضحياتهم ويترقبون المكافأة. ولو أن الآخرين لم يفعلوا ذلك، فإن رحيم خان قد فعله. وسوف نورد هاتين البرقيتين فى هذا المقام، حيث تدور إحداهما حول شراء رحيم خان الذخيرة من ماله الخاص نظرًا لمعاناة أتباع عين الدولة من نقص فى العتاد قبل مجئ عين الدولة إلى تبريز، وأنه قدمها إلى الفرسان وأبرق إلى طهران يطلب تلك الأموال التى أنفقها وكذلك كان له مطالب أخرى. وردًا عليه أرسل حاجب الدولة – الذى كان يعتبر أحد الرجال المؤيدين لرحيم خان – البرقية التالية ليلة السابع والعشرين من شعبان – الليلة السابقة على الحرب – وهكذا يتضح أن ثمة أحاديث برقية كان يتم تبادلها بين باغشاه وبين القادة فى نفس الليلة .

"من باغشاه إلى جناب المفخم سردار نصرت دام إقباله، الآن، حيث مرت ثلاث ساعات من الليل لاحظت برقيتكم أمام جناب المفخم السيد السپهسالار الأعظم

دام إقباله، والعجب من توقيت هذه الشكوى! العجب من المنتظر أثناء الخدمة! لو أن قيمة ذخيرتكم نقصت أو لو لم تصبح موضع رحمة، فإن جميع ممتلكاتى فى تبريز وطهران ملك لك، بالله عليك، ليس هذا التوقيت مناسبًا لمثل هذا النوع من التصريحات، فكل فرسان إيران وجيشها يقفون فى هذا الوقت يضعون أرواحهم فوق أيديهم، والعجب من إرسالكم لهذه البرقية! والآن أكتب إليك صراحة بأن الحكومة لن تقصر فى تقديم الأفواج والفرسان وثمن الذخيرة وغير ذلك لك قط، فلتقدم خدماتك من قبيل الغيرة والحمية، وارفع اسمك بين قادة إيران، ولاتخف على المال، فأنا أضمنه لك، لقد تحملت حتى الآن كل أنواع الخسائر المادية والمعنوية، وأخيرًا فأنا أخشى من حديثكم بأن تقع الحجة ويعتبرونك السبب، فلا يتم التقصير فى الأمور، ولا تضيع مشقتك هباء طوال هذه الفترة، ولا أعتبر إنه من الصالح قط أن يتم التقصير فى إجراءات الغد من قبلكم. حاجب الدولة ".

وبشأن البرقية التالية فى هذا الصدد فيقال إن رحيم خان قد أرسل إلى طهران بعد الحرب كى يشرح تضحياته، وأرسل أمير بهادر الرد التالى ليلة الأول من رمضان:

"جناب المبجل سردار نصرت دام مجده، لقد قرأت برقيتكم، ويعلم الله كم سعدت من حسن خدماتكم وبروز رشدكم وغيرتكم. والحقيقة، إنه يجب على جميع خدام الدولة أن يتعلموا كيفية الإيثار والشهامة منكم، حيث أنك لم تستسلم قط، وسوف تشملكم الرحمة الملكية – أرواحنا فداه – بإذن الله وبشكل لا يمكن تصوره، السپهسالار الأعظم".

تراجع السپهدار عن مؤازرته للحكومة

فتحت الحرب الثالثة لشهر مهر والتى انتهت بهزيمة رجال الدولة مرحلة جديدة فى حروب تبريز: لقد تخلى الأهالى عن خوفهم، وأدركوا أنه إذا ما رفعت

إحدى المدن راية البسالة سيكون من الصعوبة بمكان السيطرة عليها. كما دب اليأس فى قلوب مؤيدى الدولة وامتهن اسم عين الدولة، وصار جيش ماكو مثل غيره من الجيوش، وضاق أهالى الدوتشى ورفعوا عقيرتهم بالشكوى، وترددت على الألسنة الأغانى الساخرة وجعل الأطفال ينشدونها فى الطرقات .

فى نفس هذه الفترة استاء السپهدار من تأييد الحكومة وعاد مع مجموعاته من تبريز، وسوف نرى كذلك أن المجاهدين كانوا يتقدمون أكثر من غيرهم حتى ذلك الحين ويغيرون ويحققون الانتصارات الواحد تلو الآخر.

وفى يوم الجمعة حيث نشبت تلك الحرب الكبرى، سُمعت أصوات البنادق ثانية من الحصون، ومع ظهيرة يوم السبت بدأت الحرب ثانية، وأشعل رجال الدولة سوق القتال من مارلان وسرخيابان حتى طريق پل آجى، وبدا من العجيب أن يقوموا باستخدام القوة ثانية بعد غوغاء الأمس، واستمر العراك حتى الغروب، وظل يُسمع صوت أزيز المدافع والبنادق ثم عم الهدوء .

وفى يوم الأحد الخامس من شهر مهر، وعلى الرغم من أنه كان اليوم الأول من شهر رمضان وكان أهالى المدينة والعديد من مؤيدى الدولة صائمين إلا أنهم قاموا بالعراك والإغارة ثانية منذ الظهيرة .

وجدير بالذكر أنه فى تلك الأثناء التى حل فيها شهر رمضان استفسر رحيم خان من الحاج ميرزا حسن حول إمكانية قيامه بالصيام من عدمه، وكذلك حول تأديته للصلاة كاملة أم أنه يقصر؟ ودون الحاج ميرزا حسن ردًا بخط يده، ولما كان موجودًا بين أيدينا فسوف نورده فى هذا الموضع :

" منذ فترة وجناب سردار نصرت يقيم فى تبريز، وعليه أن يؤدى صلاته كاملة وأن يصوم. ومن ناحية أنه يتجه أحيانًا إلى المعسكر، فلا ضرر من ذلك، وعليه أن يقوم بالصوم ويؤدى صلاته كاملة. والسلام ".

(خاتم الحاج ميرزا حسن)

ويتضح فى هذا المقام أنهم لا يعدون ما يقومون به من أعمال القتل والإغارة ذنباً، وأنهم يريدون إتباع الشرع فى كل عمل .

نعم، لقد أبدى جيش ماكو بسالة فائقة أكثر من غيره فى هذا الصراع، وحينما شيد الروس طريق شوسه – جلفا الذى يمر من سر پل وأقاموا المنازل هنا وهناك، اتخذ الأكراد تلك المنازل ملاجئ لهم وقاتلوا بشجاعة .

من ناحية أخرى كان سردار يتجنب بشدة أن يلحق الأذى بالمبانى الروسية فتقع الحجة فى يد الروس لذا كان يمتنع عن نصب المدافع هناك، وهذا ما كان يزيد من شجاعة الأكراد. وفى هذا اليوم، وأثناء احتدام العراك، هاجم فرسان الدولة وجندها فجأة من قراملك حيث رغبوا فى اقتلاع المدفع من حصن گاميشان، وحال حراس المدفع دون حدوث ذلك ووقع عراك شديد، وفشل مؤيدو الدولة، وأغاروا على لاكه ديزج وعادوا، وعلى هذا النحو ظل أزيز المدافع وأصوات البنادق يُسمعان من عدة جهات بالمدينة حتى وقت الغروب .

وعم الهدوء فى يومى الإثنين والثلاثاء. وخلال هذين اليومين وصل مبعوثون من قبل عين الدولة مرة أخرى وكانوا يتباحثون حول الصلح. وكان الضعف والعجز فى مواجهة صمود الأحرار من ناحية، وأحداث طهران وضغط مبعوثى روسيا وانجلترا السياسيين على الشاه من جهة أخرى (وسنذكر ذلك فى موضعه) مما حث عين الدولة لأن يميل إلى الصلح ثانية، لكن نظرًا لعدم استقامة الأمور وعدم الوصول إلى نتيجة فلن نشير إلى ذلك فى هذا المقام.

وفى ليلة الأربعاء قامت جلبة جد عنيفة، فقد استخدم فرسان الدوتشى وششكلان وباغميشه القوة، وأغاروا من عدة جهات، وقام المجاهدون بمنعهم وأجبروهم على التقهقر واستولوا على أحد حصونهم، إلا أن الفرسان انتهزوا الفرصة آنذاك وأغاروا على السوق الكبير، كما أغاروا من ناحية أميرخيز ثم انسحبوا .

وتذكر صحيفة "انجمن" تقول:

"فى هذه الأيام تم إرسال فرقٍ جديدة من الفرسان إلى الحصون، وكانوا يستخدمون القوة ثم عم الهدوء من يوم الأربعاء".

وفى يوم الخميس التاسع من شهر مهر تمركز فرسان ماكو – الذين بلغوا پل آجى فى حروب الأيام السابقة – فى المنازل الروسية وفى نزل القوافل، وسعى الأحرار لطردهم من هناك وقاموا بالعراك، وأرسل سردار شخصًا ليحثهم على الكف عن القتال. وعم الهدوء يوم الجمعة، وحينما فُتح طريق سرد رود تمكنوا من إدخال القمح والطعام إلى المدينة. واليوم، حملوا جثمان أحد الكرجيين الذين أصيبوا فى الحرب وواروا جسده التراب.

وفى هذه الأيام ابتعد سپهدار عن عين الدولة حيث رغب فى التراجع، وبعد استخدام القوة يوم الثالث من شهر مهر والذى لم يصل خلاله إلى نتيجة، استيأس عين الدولة والسپهدار دفعة واحدة ورغب السپهدار فى العودة وجعل يراسل سردار وسالار ورؤساء الحرية سرًا .

يقول مشهدى محمد على خان:

"أرسل السپهدار بداية رسالة إلى رشيد الملك يقول فيها: أريد القدوم إلى المدينة ومقابلتكم لإنهاء هذه الحرب الأهلية. ونصحه بعدم القدوم بنفسه وأن يقوم بإرسال أحد الأشخاص كى يعلم ماذا يريد".

هذا وقد قدم منتصر الدولة خادمه مع رشيد الملك إلى المدينة وتباحث مع سالار وسردار وبعض أعضاء الجمعية حول قدوم السپهدار إلى المدينة ومساعدته للأحرار وعراكه مع الدولة، وقالوا: لو أن جيوش الدولة التى اجتمعت حول تبريز كانت عدة أضعاف فلن تتمكن من السيطرة على المدينة، وأن المدينة ليست فى حاجة إلى مساندة السپهدار، ولو يريد أن يقوم بعمل فليذهب إلى تنكابن، وليرفع هناك راية الحرية وسيكون ذلك عونًا أفضل .

كان هذا هو الرد الذى رد به سردار وسالار وصدّق عليه أعضاء الجمعية وغيرهم، وبعد عدة أيام عاد سپهدار من تبريز، وسوف نرى أية أعمال قام بها فى تنكابن.

انتصارات متتالية:

عم الهدوء أيام السبت والأحد والإثنين، وقد أوهن أمر الحرب شهر الصيام من جهة ويأس القادة من حهة أخرى، إلا أنهم أغلقوا الطرق ثانية وأوقعوا المدينة فى الضيق. وفى هذه الأيام كان يتم تبادل الزيارات بين أحياء الدوتشى وششكلان وباغميشه والأحياء الأخرى، وكان ذلك طريقًا كى يقوم البَعض بشراء احتياجاتهم التى لا يجدونها فى مناطقهم، لكنهم سرعان ما قطعوا ذلك الطريق بحجج واهية .

وفى يوم الثلاثاء العاشر من رمضان (١٤ مهر) عم الهدوء المدينة، ولكن لما كانت إحدى القوافل الخاصة بأهالى إيروان تقوم بنقل السكر والنفط وبعض الأشياء الأخرى إلى المدن مں جهة پل آجى وقد اعترضتها جيوش ماكو ولم تسمح لها بدخول المدينة، لذا بادرت جماعة من المجاهدين لمساعدة القافلة وتحاربت مع الأكراد، لكنهم لم يحققوا شيئاً.

وعم الهدوء لِيلة الأربعاء، لكن تم إطلاق النار بشكل بسيط مع الفجر ثم عم الهدوء فترة الظهيرة من يوم الأربعاء، غير أن ثمة عراكًا شديدًا نشب فى نواحى خيابان فجأة، وسيطر المجاهدون على سرقله التى كانت فى يد أتباع الدولة. ولو ننظر إلى الخريطة، نجد فى الناحية الشرقية للمدينة بين بيلانكوه وباغميشه جبلاً بإسم "قله" يمر نهر مهران من الجهة الشمالية له، وكان ذلك الجبل أحد الاستحكامات القوية أثناء الحرب. وقد رغب رجال الدولة – الذين كانوا يسيطرون عليه – فى أن يقيموا فيه حصنًا اليوم، وعلم مجاهدو خيابان بذلك فأغارت عليه جماعة منهم عن طريق قوريچاى، وتعاركوا مع الفرسان واستمر العراك بين الفريقين لمدة ثلاث ساعات، وعلى الرغم من أن تعداد الفرسان كان يدنو من المائة

وكانوا أضعاف المجاهدين إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود وتفرقوا ولاذوا بالفرار وتمكن المجاهدون من السيطرة على سرقله، وأقاموا حصنًا لهم وحملوا مدفعًا إلى هناك لاستخدامه .

ويعد هذا النصر نصرًا ثمينًا نظرًا إلى أن المجاهدين قد قاموا بقطع الطريق بين الدوتشى وحديقة صاحبديوان، وهذا ما اشتد وقعه على رجال الدولة، فعزموا على الهجوم ثانية فى نفس الليلة لإخراج ذلك الموقع من سيطرة المجاهدين، وقاموا فجأة بغارة ليلية بعد منتصف الليل بساعتين ونصف بقوة هائلة، ودار عراك شديد استمر عدة ساعات غير أنهم لم يتمكنوا من تحقيق الهدف وعادوا أدراجهم خالى الوفاض وقُتل منهم اثنان.

وعم الهدوء المدينة يوم الخميس وغمرت السعادة المجاهدين، إلا أن رجال الدولة كانوا فى غاية الاستياء بسبب افتقادهم جبل قله. ومع بداية ليلة الجمعة الثالث عشر من رمضان (١٧ مهر) عم الهدوء، لكن مع منتصف الليل، وبينما كان القمر فى أوج السماء وقد أكسب المدينة كلها اللون الفضى بضوئه البديع، وبينما كان الأهالى فى سبات عميق يهنأون فى فراشهم بالهدوء فى قلب ذلك الظلام الدامس، وإذا بأزيز المدافع ودوى القنابل يطويان الفضاء ويوقظان النائمين، وكان العراك على أشده ناحية خيابان، واندفعت أصوات الطلقات من جميع الحصون. وقد شاع أن عين الدولة قد تباحث مع القادة وأصدر أوامره بالهجوم على المدينة من جميع الجهات مع حلول الفجر وذلك انتقامًا لسيطرة المجاهدين على سرقله. ولما بلغ ذلك الحديث – سواء كان صحيحًا أم غير صحيح – إلى سالار أرسل طائفة من المجاهدين إلى معسكر عين الدولة، وحينما اقتربوا من المعسكر ورأوا الخيام وضياء المصابيح قاموا فجأة بإطلاق النيران. من ناحية أخرى بدأ سالار الحرب وإطلاق النار بنفسه مع طائفة من سرقله مما أوقع رجال الدولة – الذين لم يتوقعوا مثل هذه الإغارة – فى الاضطراب غير أنهم صمدوا وأبدوا مقاومة، واستمرت المعركة قرابة الثلاث ساعات اختلطت فيها أصوات البنادق وأزيز

المدافع ودوى القنابل وهزت المدينة وعاد المجاهدون قبل بزوغ الفجر .

وكان هذا نصرًا آخر للمجاهدين لأن هذه الغلبة التى كانت لهم، وهجومهم على معسكر عين الدولة مما كان له تأثيره العميق فى رجال الدولة حيث تملكهم اليأس والخوف دفعة واحدة. وبعد الحرب، وفى الثالث من شهر مهر عم الاستياء فى معسكر عين الدولة وقد تضاعف هذا الاستياء بعد إغارة المجاهدين الليلية تلك، لذا لاذ العديد من الجند والرؤساء بالفرار، وكما يقول درباري أردبيلى: كانت تفر منهم جماعة كل ليلة، بينما ظل عين الدولة يائسًا عاجزًا .

الهزيمة الأخيرة لجيش ماكو.

كانت ليلة الجمعة على هذا النحو من الحماسة والظفر بينما كان نهاره أكثر حماسة وظفرًا حيث كان ذلك اليوم نصرًا عظيمًا لمؤيدى الحياة النيابية. هذا وقد ذكرنا أن جيوش ماكو بلغت پل آجى وتمركزت هناك، وكانت تبدأ بشن الحرب فى كل آن بقوة وبسالة، وكانت تلك الجيوش تثير الذعر والخوف. وحينما سيطرت على طريق جلفا لم تأذن للقوافل بالمرور فى المدينة لنقل السكر والنفط وغيرها من السلع الروسية. وعندئذ قام أحرار القوقاز وگرجستان – الذين قدموا لمساندة تبريز وقاموا بإحضار البنادق والذخيرة – بمنعهم، بعد ذلك اتخذ الروس إغلاق طريق جلفا ذريعة لهم وجعلوا فى نقدهم على الدوام، وكان ينبغى إيجاد الحل، ولما كانت طائفة منهم تستقر فى المنازل الروسية، فكان ينبغى القيام بشئ حتى لا يلحق الأذى بهذه المنازل، وقد أدى المجاهدون هذه المهمة الصعبة فى يسر وسهولة، ففى ليلة الجمعة مضى أربعون منهم طبقًا لأوامر سردار عن طريق گاوميشوان ووضعوا جيادهم فى تلك المنطقة، وعبروا نهر آجى وتحصنوا فوق التلال هناك، ومن ناحية أخرى، وعندما بزغ الصباح توجه مائتان من محاربى قره آقاج وچرنداب وليلاوا برفقة رؤسائهم من أمثال: مشهدى محمد صادق خان، وحسن آقا القوقازى، والحاج بن على مسيو ومدد خان وغيرهم تحت قيادة حسين خان باغبان

وأغاروا على پل آجى، وكان معسكر جيش ماكو وحصنه فى آناخاتون، لكن تقدمت جماعة منهم وتحصنت فى ناحية من النهر، كما عبرت جماعة نهر پل من يكه تازان وهناك جعلوا من نزل القوافل والمنازل الروسية حصونًا لهم .

ومضت ساعتان من النهار ثم بدأت الحرب فجأة، واتخذ المجاهدون من الرياض حصونًا لهم، وتقدم المتحاربون، ورد الأكراد، وقاموا بمنعهم، وتم تبادل إطلاق النار، وكانت تلك الطائفة المتمركزة فى المنازل الروسية تقاتل ببسالة، ولما كان المجاهدون يتجنبون إطلاق المدافع على تلك المنازل فقد زاد هذا من بسالتهم، وكانت هذه الحرب من أكثر الحروب الدامية فى ذلك العهد، ورغم أن المجاهدين كانوا أكثر من مائتين أو ثلاثمائة أمام ألف، إلا أنهم أبدوا حنكة وتضحية حيث كانت قوة الفرد منهم توازى قوة عدة أفراد. واستمر العراك سبع ساعات، عراك لاينساه كل من شاهده، فقد أبدى الأكراد شجاعة وصمودًا لا حد لهما، إلا أن المجاهدين اقتلعوا شأفتهم. فقد سقط من تلك المجموعة التى استقرت فى المنازل الروسية سبعة وثلاثون رغم قوة تحصنهم وعدم تعرض المدافع لهم، وتمكن أربعة فقط من الفرار، ووصلوا منهكى القوى، ولم يتمكن شخص من الصمود وكل من تمكن من امتطاء جواد ولى هارباً.

أثناء ذلك كانت المدافع تنطلق من معسكر آناخاتون، لكن لم يمض طويل زمان حتى وصل الفارون إلى هناك، وبثوا الفزع فى المعسكر نظرًا لما حل بهم من الخشية والهلع، ولم تمض ساعة حتى فروا أيضًا من هناك.

وفى ذلك العراك وصل سردار إلى ميدان القتال، وسُر من بشرى النصر وراعى جانب المجاهدين، كما بالغ فى مراعاة جانب حسين خان الذي ينسب فضل هذا النصر إلى شجاعته وبسالته، وحينما رغبوا فى تتبع الأكراد حال دون ذلك .

واليوم أبدى حسين خان تضحية لا حدود لها، وكأنه كان يعلم أن هذه هى حربه الأخيرة الظافرة لذا لم يضن فيها عن بذل البسالة والشجاعة. هذا وكان الجميع يحبونه وظل اسمه يتردد كثيرًا على الألسنة .

وفى هذه الحرب، رغم أن الإغارة بدأت من المجاهدين، وسعى الأكراد فيها للحيلولة دون تقدمهم من خلف الحصون، لكن لم يُقتل منهم أكثر من خمسة ولم يصب سوى أربعة. بينما قُتل من الأكراد ثمانون وأصيب العدد نفسه. وكما ذكرنا من قبل فقد قُتل سبعة وثلاثون من شجعان يكه تاز فى المنازل الروسية وكان هؤلاء نائمين أمام المنازل. وبوجه عام فقد سقط ما يربو عن الخمسين فردًا صريعًا فى پل، بالإضافة إلى ما سقطوا من دم پل حتى آناخاتون وقد بلغ تعدادهم حوالى ثلاثين فرداً، كما تم القبض على أربعة عشر فردًا تم إحضارهم إلى سردار الذى تعامل معهم بالحسنى.

فى تلك الأثناء توجهت أفواج الأهالى إلى هناك وتجمع منهم حوالى أربعة أو خمسة آلاف شخص وأعربوا عن سعادتهم. وكان من أكثر أيام تبريز حماسة، وما تبقى عن الفارين من جياد وبنادق وخيام صار من نصيب المجاهدين، وكان البعض يخلع أردية القتلى. ولما أغلق الأكراد طريق القوافل، وكانوا يحتفظون فى النزل بكل ما يأتى من السكر والنفط، فقد أغار البعض عليهم، وصاح سردار:

"هؤلاء من التجار، أيغير شخص لاقدر الله!".

قال هذا ثم عين حارسًا عليها.

وعلى هذا النحو نهض جيش ماكو ثانية من تبريز، وعاد عزوخان– الذى أغار بذلك الغرور على المدينة – أدراجه بتلك المذلة. ومن العجيب أنه لم تُشاهد أية حركة فى تلك الحرب وفى ذلك الصراع من قبل جيش عين الدولة ورؤساء الدوتشى. كما أن إغارة الأمس قد أطاحت بجيش عين الدولة، وتخاذل قادة الدوتشى وفكروا فى أنفسهم.

وعم الهدوء فى ليلة السبت الرابع عشر من رمضان (١٨ مهر)، وأعرب الأهالى عن سعادتهم فى نهار السبت. واليوم يتم طرح السكر والنفط والكبريت – وكانت من السلع الشحيحة الغالية الثمن منذ فترة – بوفرة وبأسعار زهيدة. واليوم

يتنقل الأهالى فى جماعات فوق پل آجى، وأرسل سردار أحد رجال الدين ومعه مغسل وحانوتى وأشخاصًا إلى هناك لتغسيل القتلى وتكفينهم والصلاة عليهم ودفنهم، ثم توجه برفقة سالار – الذى قدم من خيابان – إلى هناك ممتطيًا جواده وتفقد مكان الحرب والقتلى.

وقد ذهبت إلى قبر القتلى هذا – الذى ظل مفتوحًا لأعوام فى پل آجى – بعد أسبوع وشاهدته، ولا تزال توجد عليه آثار الدماء والطلقات، وقد حضر اليوم السيد ميرزا على أكبر مجاهد وآخرون من جمعية " اسلاميه " للتباحث حول الصلح، وكان واضحًا ضعف رجال الدولة وعجزهم .

يوم مقتل حسين خان:

مرت ساعة ونصف من ليلة الأحد الخامس عشر من رمضان (١٩مهر)، وبعدها بدأ إطلاق النيران فجأة بشكل مكثف من جميع الاستحكامات، ثم انطلق أزيز المدافع وانتشرت النيران بداية من خيابان حتى نهاية أميرخيز من جميع الجهات .

لقد كان أتباع الدولة يستخدمون أقصى قوتهم، وهرول المجاهدون – ممن كانوا فى ديارهم – وبادروا بالتوجه نحو الحصون، وظل العراك قرابة الساعتين ثم خمد من بعد. وكان نهار يوم الأحد جد عجيب، حيث امتزجت فيه مشاعر الأسى والسعادة، فرغم الظفر الذى تم فى ذلك اليوم إلا أن نصف الأهالى فى المدينة كانوا فى حال من البكاء. نعم، فقد توفى فى ذلك اليوم ذلك الشاب الشجاع الذى يدعى حسين خان.

فبعد الاستيلاء على سرقله وطرد جيوش ماكو عزم سردار وسالار على إخراج أتباع الدولة من الدوتشى لينشرا الأمن داخل المدينة، وأمر جيوشهم بالإغارة من خيابان ونوبر على ششكلان وسرخاب للاستيلاء على تلك المنطقتين

الواقعتين بين الدوتشى وخيابان واللتان شيد فيهما فرسان شجاع نظام ورحيم خان حصونًا قوية. ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد حتى بادر سالار بالتوجه بنفسه إلى سرقله برفقة ثلاثمائة من المجاهدين حتى لا يسمحوا بقدوم جند عين الدولة لمساندة ششكلان والدوتشى. من ناحية أخرى هاجمت ششكلان آنذاك ثلاث قوات، الأولى بقيادة اليوزباشى تقى – أحد رؤساء المجاهدين – وذلك من ناحية پل سنگى، وكان برفقته مائتان وخمسون جندياً. والثانية بقيادة الحاج خان القوقازى ومشهدى حسن القوقازى – وكلاهما من البواسل – من ناحية باغميشه، وبرفقتيهما مائتان وخمسون جنديًا. أما الأخيرة فقد هاجمت من جهة ناموران وكانت بقيادة الحاج خان بن على مسيو وأسد الله – وهما كذلك من البواسل – برفقة مجموعاتهما فى دربند تلگرافخانه، وقد أبلى اليوزباشى تقى وفرسانه – الذين تحصنوا فى منزل مقتدر الدولة – بلاء حسنًا فى المعركة، وتمكن من الاستيلاء على ذلك الحصن القوى خلال خمس وأربعين دقيقة وطرد الفرسان منه .

فى نفس هذه الأوقات هاجم ميرهاشم خان ومعه أحد البنادقة حصنًا مقره أعلى پل قارى وتمكن من الوصول إلى هناك، ومن خلفه أغار الحاج خان القوقازى، وأردى أربعة من بنادقة ذلك الحصن قتلى بطلقاته. ورأى الفرسان تلك الجرأة فعجزوا عن المقاومة وغادروا الحصون ولاذوا بالفرار. كما تقدم ابن على مسيو من ناحية دربند تلگرافخانه – وكان يطلق عليها داش سنگر – واشتد الأمر على فرسان محال مجيد الملك، واستمرت إراقة الدماء بشكل شديد لمدة ساعتين بعد الظهيرة حتى خارت قوى الفرسان وعجزوا عن المقاومة، وغادروا المحال – التى كانت من الحصون القوية – وفروا إلى الدوتشى. وفتح هذا النصر طريق ششكلان أمام المجاهدين، وكان اليوزباشى تقى يتقدم من أعلى، بينما يتقدمون هم من أسفل، ويستولون على الحصون التى يقابلونها بقليل من العراك، حتى تمكنوا من إخراج جميع تلك النواحى من قبضة أتباع الدولة، ورفعوا راية الحرية الحمراء هناك. وانتهى العراك بعد ساعتين من الغروب .

وقد قُتل فى هذه الحروب من جانب فرسان الدولة ما يقرب من الأربعين، بينما قُتل من جانب المجاهدين أربعة فقط وجُرح عدد قليل. وعلى هذا النحو تم الظفر بيسر وسهولة، لكن من المؤسف أن ثمة عراكًا آخر كان يدور فى ذلك اليوم من جهة السوق، وهب كل من كربلائى حسين خان ومشهدى محمد على خان وأسد آقا خان من حصونهما للقتال، وسعوا للتقدم حتى بلغوا سرخاب. وهناك كانت الحصون محكمة للغاية والحرب على أشدها .

كان المجاهدون يسعون للتقدم من عدة طرق عبر طرق الأسواق ونزل القوافل، وظلت إراقة الدماء على أشدها لعدة ساعات، ووصل حسين خان مع مجموعته إلى پل نظام العلماء، ودخل إحدى النزل كى يشق جدارًا فيه ويشارك فى الحرب. وأثناء ذلك كان يدور عراك شديد أصيب فيه أحد المجاهدين البواسل – ويدعى يعقوب – بطلق نارى، وقد سقط صريعاً، وحمل المجاهدون جثمانه الدامى وعادوا أدراجهم، ومن شدة الاضطراب لم يبحثوا عن حسين خان ولم يعلموا كذلك مكانه، فى تلك الأثناء بقى ذلك الشاب – أى حسين خان – وحيدًا يحارب فى جرأة جماعة من فرسان مرندى ممن التفوا حوله، لكن بعد فترة قصيرة أصيب بطلق نارى فى رأسه وسقط صريعًا فى التو، وقد وقع هذا الحادث قبل الغروب بحوالى ساعتين .

من ناحية أخرى، تذكره أتباعه بعد عودتهم وفشلوا فى بحثهم عنه، فظنوا أنه تم القبض عليه، وجعلوا يهرولون من هذه الجهة إلى تلك لإيجاد الحل، وذاع النبأ خلال فترة قليلة واستاء له كل من سمعه، وأسرع المجاهدون من الحصون وقاموا بأعمال الشغب فى أرجاء المدينة .

وفى المساء عمت جلبة أخرى فى مقر الجمعية: فقد اجتمع آلاف من المجاهدين ودار الحديث بينهم حول حسين خان، ولما كانوا يظنونه حياً، فقد أبدت جماعة منهم رغبتها فى الإغارة على الدوتشى دفعة واحدة للحصول على فقيدهم. بينما رأت جماعة أخرى أن هذا العمل من قبيل السذاجة، وعلت الأصوات من كل

ناحية، وفى النهاية عزموا على تدوين رسالة إلى نائب أصغر – أحد رؤساء الدوتشى – يطالبونه بحسين خان. لقد استمال ذلك الشاب – أى حسين خان – القلوب منذ عدة أشهر، وكان أعداؤه يبدون احترامهم إليه ومن بينهم نائب أصغر الذى كان يداوم على مراسلته. هذا وقد كتب تقى يوف ومشهدى صادق خان – وكلاهما صديق لنائب أصغر – الرسالة وبعثا بها إليه، وسرعان ما وصل الرد كالتالى :

"أنا فداء لتقى يوف ومشهدى صادق، لقد وصلت رسالتيكما، وقد حزنت كثيرًا، والله شاهد بأننى جئت ورأيت كربلائى حسين خان يتعارك مع أتباع شجاع نظام وقد أصيب فى رأسه، وحزنت كثيراً، وأمرت بأن يغسل ويُدفن على الفور، فلتطمئنوا، فإن كربلائى حسين خان قد مات فى سبيل الله، فليرحمه البارى، ولتشملكم الصحة والعافية".

وخمدت الجلبة بسبب ذلك الرد، وعلا النواح، وأذرفت العيون الدمع وعم الحداد تبريز. لقد كان هذا الشاب مغوارًا فى ميدان القتال، وتمكن ببسالته من فتح ما كان يستعصى على الآخرين. كانت الصحف تعتبره نموذجًا لحمية آذربايجان، وقد ذكرنا تضحياته وفدائيته فى معارك السابع عشر والثامن عشر من شهر مرداد، وكذلك فى حروب جيش ماكو، وفى صراع قراملك وغيرها من المعارك. وقد ذكرناه أخيرًا فى حرب يوم الجمعة وإفناء جيش ماكو. إن شابًا بمثل هذه الشجاعة والحنكة، كان فى حلمه وهدوئه كطفل برئ، بينما نجده فى الحروب ينهض للظفر ويهب المال إلى المجاهدين. يقولون إنه فى اليوم الذى قُتل فيه لم يكن قد زار بيته منذ أربعين يوماً، ولم ينم ليلة خلال تلك الفترة على فراشه، وأنه قد أنجب طفلاً فى تلك الأيام إلا أنه قُتل دون أن يراه، لذا لم يكن بعيدًا أن يحبه الأهالى بهذا القدر وأن يستاءوا كل هذا الاستياء بسبب موته .

ومن الأحداث التى وقعت الليلة أيضًا أزمة أعضاء الجمعية الإسلامية. فكما أسلفنا، لقد قدم ميرزا على أكبر مع ثلاثة آخرين من الأئمة إلى أعضاء الجمعية

للتباحث حول الصلح. وفى تلك الليلة، حينما ذاع نبأ القبض على حسين خان، توجه بعض المجاهدين إلى هؤلاء الأربعة، وتحفظوا عليهم فى الجمعية حتى يتم إطلاق سراح حسين خان. وبعد ذلك، حينما وصل نبأ مقتل حسين خان رغبوا من حرقة قلوبهم فى قتل هؤلاء المساكين، وكان آيدين باشا – الذى تهيأ لمثل هذه الأعمال – متعطشاً لدمائهم، وقد حالت جماعة دون حدوث ذلك. واتصل الحاج حسن آقا (ابن الحاج مهدى آقا) هاتفيًا بسردار، وأتى بهؤلاء الأربعة إلى داره وأنقذهم بذلك من الموت .

فساد أمر الجمعية الإسلامية وإخلاء الدوتشى:

فى يوم الإثنين السادس عشر من رمضان (٢٠مهر)، ورغم الإرهاق الذى ألم بالمجاهدين نتيجة لحروب الأمس، ورغم حزنهم على مقتل حسين خان، إلا أنهم استأنفوا القتال ثانية، وتقدموا من ششكلان وأميرخيز والسوق، ودام العراك حتى الغروب، واستولى المجاهدون على استحكامات رجال الدولة واحتلوا بعض مناطق الدوتشى، ولا علم لنا عن قتلى اليوم، لكننا نعرف فقط أسد آقا الذى أصيب بطلق نارى فى عينه. وقد ذكرنا ذلك الشاب من قبل غير مرة، حيث كان من أعوان حسين خان ومشهدى محمد على خان، وقد تردد اسمه على الألسنة نتيجة لما أبداه من شجاعة، وكان فى ذلك الوقت من الرؤساء. وبعد إصابته، ظل فترة طريح الفراش ثم تعافى وحمل بندقيته ثانية، ورغم فقدانه لإحدى عينيه إلا أنه كان يبلى بلاء حسنًا فى المعارك وكان يعتبر من أفضل القادة.

وفى ليلة الثلاثاء السابع عشر من رمضان (٢١ مهر) نشبت الحرب من ناحية خيابان، وسُمع أزيز المدافع بشكل متتالٍ، وأغار أهالى خيابان ثانية على المعسكر، وقاتلوا، غير أن الهدوء كان يعم أميرخيز. ومضى بعض الليل على هذا النحو، ثم سُمع هدير المدافع هناك ولم يفهم الأهالى سبب ذلك. وفى الغد، عُلم أن الدوتشى قد أخليت فى نفس الليلة، وأن المقمين فى الجمعية الإسلامية وقادة الدولة

وغيرهم قد فروا من هناك وكيفية ذلك أن المجتهد وإمام الجمعة وغيرهما قد استاءوا منذ أيام بسبب عدم قتال رجال الدولة واشتكوا عين الدولة إلى الشاه، فاستدعاهم محمد على ميرزا إلى مكتب البرق فى باسمنج، ولم يُعلم فحوى البرقيات المتبادلة بينهم. فكان الملالى يرون بأم أعينهم أن طاقة القادة قد أُضنيت، وأنهم فقدوا الأمل، وأن الجند يفرون ليلاً ويتفرقون، وكانوا يعلمون بعجز رجال الدولة عن قتال المدينة، لذا لم يغادروا الجمعية الإسلامية، وظلوا هناك، وأطلعوا غيرهم من الملالى واستدعوهم إلى هناك .

من ناحية أخرى، لما أبدى المجاهدون تلك الغلبة فى نهار يوم الإثنين، وحققوا تقدمًا ملحوظاً، خشى رحيم خان وشجاع نظام وأوباش الدوتشى من المكوث فى المدينة، وفروا هم كذلك فى تلك الليلة إلى باسمنج، ولما علم أهالى الدوتشى وسرخاب بحقيقة ما حدث فى منتصف الليل، لجأ أهالى الدوتشى إلى ستارخان، بينما لجأ أهالى سرخاب إلى باقرخان. وكان ذلك المدفع لإطلاعهم على ذلك الحدث. وفى نفس الليلة، علمت طائفة من المجاهدين بحقيقة الأمر فمضوا إلى الدوتشى قبل الشروق، وأضرموا النيران فى مقر الجمعية الإسلامية. وكما عُلم من بعد، قامت جماعة من المشهورين بعدائهم للحياة النيابية – ممن لم يفروا من الدوتشى أو سرخاب – بالقبض على البرئ والمذنب، وأمر آيدين باشا بقتلهم، وما نعلم اسمه من بين هؤلاء القتلى هو الحاج السيد حسن سرخابى .

وكان يوم الثلاثاء من أيام تبريز الهنيئة، فمع حلول الفجر علم الأهالى بهروب رجال الدولة وإخلاء الدوتشى وسرخاب، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد حتى اندفعوا من ديارهم وعمت السعادة والبهجة أرجاء المدينة. وفضلاً عن تقدم أمر الحياة النيابية، وغلبة الأحرار، تخلصت المدينة من القتال وإقامة الاستحكامات، وتم فتح الطرق التى أغلقت منذ أربعة أشهر، وخرج الأهالى من أزمتهم، وأمل كل شخص فى فتح الأسواق ثانية، واستئناف أمر التجارة والعمل، وأعربوا عن فرط سعادتهم، وتوجه الأهالى فى جماعات إلى الدوتشى وسرخاب للمشاهدة، وحينما مروا على الحصون ورأوا ثقوب الجدران والمنازل المنهارة عن كثب، أدركوا أن الحرب كانت جد شديدة .

من ناحية أخرى، ارتفعت الرايات الحمراء أعلى المنازل فى الدوتشى وسرخاب بأوامر من سردار، وكان الأهالى يخرجون بحرية فى ظل الأمان الذى حصلوا عليه من سردار وسالار واختلطوا بالمشاهدين، وتقابلوا مع أقاربهم ومعارفهم وأعربوا عن سعادتهم. ومع ذلك الاحتشاد لم يكن ليسلم أحد من الأذى، فقد أغار البعض على ديار الحاج ميرهاشم والحاج ميرمناف والحاج محمد تقى صراف وغيرهم من أعضاء الجمعية الإسلامية، وكان لأهالى الدوتشى أنفسهم ضلع فى ذلك، وامتطى اجلال الملك جواده، وبادر بالتوجه إلى هناك لمنع ذلك، لكن الأمر قد نفذ، وحدث ما لم يكن يجب حدوثه، وانتزعوا اللوحة الخاصة بالجمعية من مكانها وأحضروها إلى مقر الجمعية الإقليمية وعلقوها هناك بشكل معكوس. كما حملوا معهم أربعة مدافع ودانة – مما تبقى عن رجال الدولة – إلى أميرخيز وخيابان .

وفى ذلك اليوم أقاموا مراسم ختم القرآن على حسن خان فى ناحية ليلاوا، وتوجه سردار إلى هناك وقت الغروب لحضور مراسم الختم. وفى يوم الأربعاء، أرسل سردار وسالار البعض إلى الدوتشى وسرخاب لمنع القيام بأعمال التطاول والسلب والنهب مثلما حدث بالأمس، كما توجه المنادون من الجمعية إلى هناك ونادوا فى الأهالى بأن من يمد يده بالتطاول أو إيذاء أحد أهالى الدوتشى وسرخاب سوف يلحق به عقاب شديد. كما أمروا اللجنة العسكرية بجمع كل ما تم سلبه من بضائع وإعادتها إلى مالكيها.

نهضة الجيش على حدود المدينة:

عُلم اليوم أن عين الدولة وقادته خرجوا من حديقة صاحب ديوان واجتمعوا فى باسمنج. وكان هذا دليلاً آخر على خور الدولة ويأس رجالها. وكيفية ذلك: لما هرب المجتهد وغيره من الملالى من المدينة، فقد اجتمعوا فى باسمنج، وأطلعوا محمد على ميرزا على جلية الأمر، فغضب محمد على ميرزا من عين الدولة وأبرق إليه فى يوم الثلاثاء يخبره بإعادة الملالى إلى المدينة واستقرارهم فى

الجمعية الإسلامية أو التنحى عن ولاية آذربايجان. وما أن وصلت هذه البرقية حتى أعلن عين الدولة استقالته، وعلى هذا النحو أصبح الجيش بلا قائد وهذا ما زاد من حالة الفوضى.

ومن نفس اليوم استدعى المجتهد رحيم خان وغيره من القادة إلى مكتب البرق فى باسمنج وعقدوا جلسة، وعندما بدأ الحديث، تحدث كل منهم بحديث مختلف، فقال أحدهم من قبيل الجرأة: غدًا نحضر السادة ونُجلسهم فى الجمعية الإسلامية، وتغنى آخر بفدائيات آبائه. وتحدث ثالث عن عدم وجود الذخيرة.

وأمر محمد على ميرزا ثانية: "نظرًا لتقديم عين الدولة استقالته، فلو أمكن يقوم القادة بإحضار الملالى ويجلسونهم فى الجمعية الإسلامية، ولو لم يستطيعوا فيسحبون الجيش من المدينة ويجعلون له مقرًا فى أحد الأماكن حتى يتم إرسال والٍ من طهران". وبعد التباحث اختار القادة الاقتراح الثانى، لكن واجهتهم مشكلة أخرى، وهى أن المعسكر إذا ما عدم شخصًا فى مكانة عين الدولة، لن يتفق القادة مع بعضهم البعض وستفسد الأمور. لذا اقترحوا أن يمضوا إلى عين الدولة ويطالبونه بقبول القيادة ثانية، وأرسلوا إليه البعض لتحقيق هذا الغرض، إلا أنه رفض، وعلى هذا النحو انتهى يوم الثلاثاء .

وفى ليلة الأربعاء، هاجم أهالى خيابان ثانية وتعاركوا معهم وانتصروا. ومن الغد، ومع حلول الفجر، لم ير القادة مبررًا للبقاء فى الحديقة فتوجهوا إلى باسمنج مع مجموعاتهم. وهناك استأذن كل من رحيم خان وشجاع نظام وغيرهما من قادة آذربايجان الشاه برقيًا للمضى إلى ديارهم والعودة ثانية إذا ما مست الحاجة. وحملوا معهم كل ما تم نهبه من بضائع، ولما كانت البرقية التى وصلت بهذا الشأن من طهران إلى رحيم خان بين أيدينا، لذا نوردها فى هذا المقام:

"من باغ إلى باسمنج: جناب أمير الأمراء رحيم خان سردار نصرت، لقد وصلت الرسالة التى أرسلتها إلى موطئ جلالة الملك ناثر الجوهر قبلة العالم

روحنا فداه، وقد أثنى على ولائكم للدولة، والواقع أن فرسانكم قد وهنوا، وقد طلبت بأن يسمح لكم بالتحرك إلى قراجه داغ كى تنظموا الأمور هناك وتحافظوا على طريقها لحمل الطعام إلى المدينة وألا تسمحوا بالسرقة وأن تزيلوا ما يفسد أمركم أنتم وفرسانكم حتى يصل حاكم آذربايجان، فلتتحركوا خلال هذين اليومين بجيش مهيأ بإذن الله، ولتعدوا أنفسكم للتحرك مع فرسانكم الذين استدعيتموهم، وأن تتصرفوا وفقًا للوائح الولاية، الصدر الأعظم. ليلة ٢٠ رمضان ١٣٢٦هـ".

لكن كان عدد كبير من القادة والجند الذين جاءوا من طهران قد تفرقوا، وأخذ سالار جنگى بختيارى من تبقى معه إلى جانقور – على بعد عدة فراسخ من المدينة – وظل عين الدولة عدة أيام فى باسمنج، ثم اتجه من بعد إلى قزلجه ميدان. وجاءت الأنباء من طهران تفيد باختيار عبد الحسن ميرزا فرمان فرما على ولاية آذربايجان وأنه سيصل برفقة جيوشه. لكن لما رأى القادة تأخيرًا فى قدوم فرمان فرما، وكانوا من جهة أخرى يخشون جانب المجاهدين بشدة، لذا طالبوا الشاه فى برقيات متتالية بإعادة عين الدولة للولاية. كما أرسلوا إلى عين الدولة يطالبونه بقبول الولاية، والنتيجة أن عين الدولة لم يمض من قزلجه ميدان وتولى القيادة والولاية ثانية، لكن لما كان يائسًا من وصول القوات والمعدات من طهران، فقد استقر فى نفس المكان الذى كان فيه.

كانت هذه هى قصة نهضة عين الدولة وجنده على حدود المدينة، وعلى هذا النحو انتهى العهد الأول لسحب الدولة جيوشها إلى تبريز، وقد اشتد أمر عين الدولة وجنده أكثر مع الحاج ميرزا حسن وإمام الجمعة والملالى الآخرين ومير هاشم والمؤسسين للجمعية الإسلامية. فمع ذلك الحقد الذى كان فى قلوبهم للأحرار، ومع ما كانوا يبدونه من تعطش لإراقة دماء الأهالى، ومع تلك المساعى التى كانت لهم خلال الشهور الماضية على أمل الاستيلاء على المدينة، فقد خرجوا الآن من المدينة على هذا النحو دون أن يعلموا ماذا يفعلون. والأسوأ من ذلك أنهم لم يأمنوا على أرواحهم، وكانوا دومًا فى خشية، لذا لم يتمكنوا من البقاء فى باسمنج ورحل

كل منهم إلى ناحية ما، حيث اتجه الحاج ميرزا حسن إلى كند ومضى إمام الجمعة إلى قزلجه ميدان، بينما توجه مير هاشم وبعض رؤساء الدوتشى إلى طهران.

من ناحية أخرى، حينما وصلتِ الأنباء إلى المدينة يوم الأربعاء تفيد بخروج الجيوش من حديقة صاحب ديوان، توجهت جماعة من المجاهدين وغيرهم إلى تلك الحديقة وقاموا باقتلاع الأبنية والجدران هناك حتى لا تتمكن الجيوش من الاستقرار فيها إذا ما عادت ثانية إلى المدينة. ومنذ ذلك العهد تم تدمير الحديقة وفناؤها.

«المقال الرابع عشر»

كيف هب المطالبون بالحكم النيابى لفتح المدينة ؟

يدور الحديث فى هذا المقال حول فتح المطالبين بالحياة النيابية لمدن آذربايجان، وكذلك حول بعض الأحداث الأخرى الخاصة بذلك العهد حتى حصار الجند للمدينة مرة أخرى.

إن إخلاء الدوتشى وسرخاب من الملالى وأتباع الدولة، ونهضة عين الدولة على حدود المدينة مما فتح عهدًا جديدًا فى تاريخ كفاح تبريز، بل وفى تاريخ الحكم النيابى. فعلى هذا النحو ظفر المجاهدون بهذا النصر بعد مساعٍ دامت أربعة أشهر، وهكذا اشتد أمر الحكم النيابى بعد أن بلغ آخر خطوة له وكانت الخشية من سقوطه، وكان لهذا الحادث نتائج عدة، منها:

أولاً: وجد المطالبون بالحكم النيابى الميدان فى تبريز للإدارة والقيام بأعمال جسام.

ثانياً: سُر الأحرار فى كل مكان، وانعدمت الخشية لديهم من سقوط الحياة النيابية، وأقيمت الاحتفالات فى طهران وغيرها من المدن.

ثالثاً: اضطر الأجانب – الذين لم يقدروا مساعى أهالى تبريز، ولم يأملوا فى تقدمهم – بعد ذلك النصر من تغيير فكرهم وحديثهم.

وفيما يتعلق بأمر المدينة، فقد سعى ستارخان وباقرخان وكذلك الجمعية الإقليمية لعودة الأمن إلى المدينة وفتح الأسواق منذ اليوم الذى تم فيه الجلاء عن الدوتشى وسرخاب من قبل رجال الدولة. والآن تبدل العداء الذى كان للبعض تجاه

الأحرار، وتم التعامل بالحسنى مع أهالى الدوتشى وسرخاب وششكلان. وكان أهالى قراملك يطلبون الأمان، فمنحهم إياه سردار، وتغاضى عما بدر منهم فى السابق. وفضلاً عن ذلك، فقد نادوا فى المدينة فى يوم الأحد الثانى والعشرين من رمضان (٢٦ مهر) أن كل من يقوم من الأحرار بإيذاء أى شخص سيلحق به أشد العقاب. كما تم تعيين البعض من قبل سردار وسالار على الدوتشى وششكلان حتى لا يقوم أحد الأحرار والرؤساء – لا قدر الله – بإيذاء الأهالى هناك.

وفى نفس هذه الأيام تم السعى لفتح إدارات الشرطة والعدل والبلدية والمعارف، وعينوا على كل إدارة منها رئيسًا من الأحرار، وعملت مكاتب البرق بعد أن تعطلت. وفى الأربعة أشهر تلك حدث دمار فى المدينة، حيث انهارت المنازل والأحياء القريبة من ميادين القتال وتلوثت الأبنية بالدماء وكُسرت أبواب الأسواق ونزل القوافل ونوافذها وتم اضرام النيران فى محال مجيد الملك. وبوجه عام، عم الدمار جميع الأرجاء بداية من خيابان حتى الأماكن القريبة من أميرخيز. وقد أبلى قاسم خان والى – رئيس البلدية – بلاءً حسنًا فى تعمير تلك المناطق ورفع الأحجار التى كانت فى المدينة، وخلال فترة وجيزة تمكنت الأسواق من أن تُفتح ثانية قبل انتهاء شهر رمضان. ولم يعكر صفو الأهالى وسط هذه السعادة البالغة سوى عدم وجود حسين خان ومقتل ذلك الشاب، وكانت مراسم ختم القرآن تقام عليه بشكل متتالٍ من قبل سردار وسالار.

ومن نفس اليوم الذى تم فيه إخلاء الدوتشى، أنبأت الجمعية الإقليمية جمعية "سعادت" برقيًا بكيفية الأحوال، وأرسلت الأخيرة تطلع النجف وغيرها من المدن. هذا وتوالت برقيات التهنئة من القوقاز واسطنبول والنجف وباريس. وفى طهران وغيرها من المدن، لم يسمح ضغط الاستبداد بأن يعرب الأهالى من سعادتهم. وكما سنرى، ازداد بأس الأحرار منذ ذلك الحين فى جميع هذه المدن، وقامت الحركات فى معظم الأماكن.

وتابعت جمعية "سعادت" جهودها، واستأنفت إرسال الإعانة، وكان الشيخ خزعل – حاكم خوزستان – من مقدمى هذه الإعانة وكان الشخص الوحيد الذى يرسلها إلى تبريز من داخل إيران.

ومن الأعمال العجيبة لأهالى تبريز، هذه الأيام إرسالهم إلى الشاه برسالة مطولة يطالبون فيها بافتتاح المجلس. وكما أسلفنا، فقد قدم محمد على ميرزا وعوده بعد قصف المجلس بافتتاحه ثانية بعد ثلاثة أشهر، لكن لما انتهت المهلة المحددة، صدر أمر آخر باسم الصدر الأعظم فى السابع والعشرين من شعبان (٢ مهر) يعد فيه بافتتاح المجلس مرة أخرى فى التاسع عشر من شوال (٢٣ أبان)، ويقول:

"ولكن، لما قام أشرار تبريز بقدر من الفوضى والفساد وإراقة الدماء ونشروا الفتن فى المدينة، فإن الدولة لا يمكنها أن تغض الطرف عن مجازاة الأشرار المفسدين، هذا وطالما أن مدينة تبريز تعمها الفوضى، وأن الأشرار لا يتورعون فيها عن قلع الأهالى المظلومين وقمعهم، وطالما أنهم لم يعيدوا الأمن، فسوف يتم استثناء مدينة تبريز من الأمر الذى سيصدر"

فى تلك الأثناء تم الظفر لتبريز، وكان واضحًا مدى الغضب الذى تملك الشاه من جراء ذلك، وأبرق أهالى تبريز يفيدون بأنه طالما تنعم المدينة بالهدوء، فعليكم بافتتاح المجلس كما وعدتم. وكان هذا لومًا فى محله، لذا نورد برقيتهم تلك فى هذا المقام:

"إن طهران تنعم بعدل الملك خلد الله ملكه، والآن وقد مرت أربعة أشهر تم فيها شرح تقارير منطقة آذربايجان، ففضلاً عن أنها كانت باعثًا لخراب الملك والشعب، وانهدام أساس عمران المملكة وتعطيل التجارة، فقد عرضت الخاطر الملكى لأنواع الملل والتشويش، ومن المؤكد أن قدم الأشرار والمفسدين قد خطت لمجرد تحقيق أغراض خاصة، وقد قدموا الموضوع بتأويلات عدة تتنافى تمامًا

والواقع، وأخفوا حقيقة الموضوع عن الحضرة المقدسة لذلك الأب العطوف... هذا وقد اتضح فى النهاية وبحمد الله أمام الضمير المنير لصاحب الجلالة الملك المقدس أن الهدف من كل هذه العروض ليس سوى التضليل وما من شئ آخر، فكل منهم اختار فريسته وسلك الطريق لهضمها.. وأهم حجة لأبناء صاحب الجلالة المظلومين هؤلاء، إنه بمجرد أن يخرج هؤلاء المفسدون أعداء الدولة والشعب بفضل إمام الزمان عليه السلام ستدق طبول الاتحاد الحقيقى بين الأهالى، كما يتم فتح باب الطاعة بين الرعية والملك العطوف، ومنذ ذلك الحين قد أمر صاحب الجلالة بأن تنفيذ قانون انتخاب النواب أمر يتعلق بأمر آذربايجان. والآن وقد تبدل الحال لأن أهالى تبريز متحدون بالفعل، وليس فى قلوبهم سوى محبة الملك، وانتظار افتتاح مجلس الشورى وتطبيق الدستور، وبناءً عليه، وفى عالم عبادة الملك والولاء للدولة، فإن شعب آذربايجان الذين هم فى الحقيقة بمثابة قنديل الممالك المحروسة، يطلبون أن يصدر صاحب الجلالة الملك أوامره بانعقاد مجلس الشورى الوطنى وانتخاب النواب، وأن يجعل هذه فرصة طيبة للاتحاد بين الدولة والشعب، وهو بذلك الأمر يسد طريق انتشار هذا البلاء العام فى سائر الولايات".

الاهتمام الذى أبدوه للأجانب:

قلما تحدثنا فى هذا الكتاب عن الوجه السياسى للأحداث، لكن يجب أن نعلم أن الإنجليز والروس كانوا على وفاق فيما بينهم، حيث تحالفوا معًا منذ عام، وكفوا عن المنافسة. ولما كان الروس يبدون تأييدهم إلى محمد على ميرزا، ففى المقابل كان الإنجليز يؤيدون المطالبين بالحياة النيابية. حقيقة إن أية حركة عميقة فى إيران لم تكن فى صالح الجيران، ولم يكن الإنجليز يرتضون مثل هذه الحركة، لهذا ففى ذلك الصراع الذى دار بإسم المطالبة بالحياة النيابية ضد الاستبداد، عد الإنجليز مصلحتهم فى تأييد الأحرار ومساندتهم فى مواجهة محمد على ميرزا. ومن هذا المنطلق، عندما أبدى مجلس الشورى عدم جدارة، وسقط بمثل هذه الهينة على يد

لياخوف، يئس الإنجليز من الأحرار، واتخذت سياستهم طابعًا غامضًا لأن محمد على ميرزا كان يملك مفاتيح إيران فى يديه وقد ألقى بنفسه فى أذيال الروس، وكانت هذه إحدى هزائم الإنجليز السياسية، لذا بسطت صحفهم ألسنتها فى مذمة الإيرانيين والسخرية منهم، وبذريعة عدم جدارة الإيرانيين تلك، ادعوا عدم جدارة جميع الآسيويين للحرية.

والأسوأ من هذا أن بعض نواب مجلس الشورى – من أمثال تقى زاده وغيره ممن سافروا إلى أوربا – قد طلبوا من انجلترا بعد هذا الحادث مد يد العون إلى الحياة النيابية فى إيران. وهنا ردت عليهم صحيفة "التايمز" بأنه رغم وجود الصراع والمنافسة بين الإنجليز والروس فى آسيا، إلا أنهم متضامنين معًا فى السياسة الأوربية، وأنهم أبرموا الاتفاقيات فيما بينهم، ولن يحدث على الإطلاق أن يغضب الإنجليز حكومة روسيا إرضاءً للأحرار فى إيران.

فى ظل هذا الغموض قامت تبريز ضد محمد على ميرزا، وأبدى ستارخان والمجاهدون تلك البسالة، ولم يهتم الإنجليز بسوء ظنهم بالإيرانيين، وكان أحد مراسلى جريدة "التايمز" ينشر ما كان يراه فى تبريز من أحداث بأسلوب تهكمى ساخر ويعطى كل حدث لونًا آخر ويرسله إلى صحيفته، لكن لما ازداد ضغط أهالى تبريز يومًا بعد يوم، اهتم الإنجليز بذلك كرهًا أو طوعاً، وزاد ذلك الاهتمام بعد ذلك النصر الأخير وإخلاء الدوتشى وتنحى عين الدولة، وشكلت جماعة منهم جمعية بإسم "إيران" برئاسة مستر لنج نائب البرلمان. ومن ناحية أخرى غيرت صحيفة "التايمز" من لهجتها، وصارت تمتدح ثورة تبريز وتقدرها بدلاً من ذمها والسخرية منها، وقد أورد البروفسور براون فى كتابه نماذج من هذه المقالات. وكان ذلك نتيجة أخرى لانتصار أهالى تبريز.

وثمة عمل آخر جيد بدر فى هذه الفترة من المطالبين بالحياة النيابية له علاقة بالسياسة، فلما تذرع الروس منذ فترة بثورة آذربايجان، وكانوا يبغون عبور جيوشهم الحدود، وتم التباحث فى هذا الشأن بينهم وبين الإنجليز، فقد وعى الأحرار

وسعوا لعدم إتاحة الفرصة إلى هذه الدولة، وأبدى ستارخان – أكثر من غيره – من الذكاء والحنكة فى هذا الشأن. وكما أسلفنا، أنه فى أثناء القتال مع جيش ماكو فى السابع عشر من مهر لم يسمح بوضع مدفعٍ فى مواجهة المنازل الروسية، ومع هذا لم تهدأ الصحف الروسية، وسعت لاختلاق الذرائع، فكانت تنشر أحيانًا المقالات حول إغلاق طريق جلفا، ومدى الضرر الذى يلحق بالتجارة الروسية. وتشكو فى أحيان أخرى من اشتداد الحال على الرعايا الروس فى تبريز وتسوق الأكاذيب. وحينًا آخر تقوم بذم الأحرار وتقول إنهم يرغبون فى الاندفاع نحو القنصليات، أو إنهم يريدون قتل المسيحيين، وكان ذلك فى بداية الثورة. بعد ذلك، عندما علم الأوربيون حسن مسلك الأحرار، وذاعت أنباؤهم فى صحف أوربا، تحجج الروس فى هذه الفترة بسلوك الفرسان، واشتكوا من تعديهم على القوافل ونهب ممتلكات الرعايا الروس وإفساد طريق شوسه.

وكان الأحرار فى هذه الأثناء قد ارتاحوا قليلاً من مسعاهم، فعزموا على التصدى لهذه الحجج، وشكلت الجمعية لجنة للتحقيق فى الضرر الذى لحق بأى من الرعايا الروس أو الإنجليز من قبل فرسان الدولة أو من قبل أى شخص آخر وتحديد مقداره لتعويضه، وأبرقت الجمعية إلى لندن وبطرسبرج واسطنبول وباريس بشأن هذه اللجنة، كما أرسلت كذلك إلى قنصلية روسيا فى تبريز تطلب إيفادها بمدى الخسائر التى لحقت بالمنازل الروسية أثناء الحرب مع فرسان ماكو لتعويضها. وفضلاً عن عمل اللجنة هذا، فقد قامت بجمع البضائع المنهوبة التى لم يتمكن الفرسان من حملها خارج المدينة وإعادتها إلى أصحابها. كما أرسلت الجمعية فى نفس هذه الأيام برقية إلى جميع السفراء والمبعوثين السياسيين الأجانب فى طهران لمواساة التجار الأجانب وفتح باب العلاقات معهم، وسوف نورد فى هذا الموضع نسخة من هذه البرقية:

"من طهران إلى جناب المستطاب الأجل الأرفع كبير سفراء الحكومة العثمانية العلية دام إقباله العالى: فى الأربعة أشهر الماضية لثورات تبريز حيث

كان الشعب منهمكاً فى سبيل الحصول على حقوقه، تم الحفاظ - بقدر الإمكان - على حقوق الرعايا الأجانب، وبشهادة عامة نواب الدول العظمى إذا ما تم التعدى على حقوق الأجانب فإن ذلك من جانب الأشرار وأولئك الذين يعرقلون أمور التجارة فى العالم. فقد تم الآن كشف أفكارهم أمام صاحب الجلالة الملك، وتم بحمد الله القضاء على الأشرار وفرسان قره داغى وسائر المفسدين، وسوف تراعى العلاقات الطيبة التى كانت موجودة من قبل بين إيران وبين الدول الصديقة من قبل الشعب وآمل أن تهيئ الأسباب للحفاظ على حقوق الرعايا والتجار الأجانب فى كل مقام تكون القوة الوطنية فيه، وبإذن الله، لن نقصر نحن خدام الشعب فى تأييد المصالح التجارية لكافة الدول العظمى والترويج لها".

(الجمعية الإقليمية بآذربايجان)

إرسال الجعبة إلى شجاع نظام :

كان أهالى تبريز يعلمون أن محمد على ميرزا لن يتخلى عن أحقاده، وأنه سيجمع الجند مرة أخرى لإرسالهم إلى المدينة، وكانوا يعلمون أنه سيحاصر المدينة ثانية إن آجلاً أم عاجلاً، لذا كانوا يسعون لجمع الطعام حتى لا يشتد عليهم ضيق ذلك اليوم. من ناحية أخرى، انتفضت فى تلك الفترة بعض مناطق آذربايجان، وكانت على استعداد للقيام بثورة، ورغب أهالى تبريز فى مساعدتها وإيصال الثورة حتى تلك المناطق، وعليه اقترحوا أن يرسلوا بعض الجماعات خارج المدينة.

فى تلك الأثناء، قام كل من رحيم خان وشجاع نظام وغيرهما - ممن انتفضوا على حدود المدينة - بإشعال فتيل الظلم والإغارة فى جميع النواحى، حيث قطع أتباع رحيم خان الطرق فى اهرنشسته، وأغاروا على القرى، بينما أقام شجاع نظام معسكرًا فى مرند وأغلق طريق جلفا. وعاد عين الدولة - وقد ذكرنا إنه

توجه إلى قَزلجة ميدان – ثانية حينما وصلت فرقة من القوزاق من طهران، واستقر فى باسمنج ليسلك طريق طهران وقام جنده بتدمير القرى. وبذلك صار كل منهم سببًا فى الأزمات والاضطرابات، لكن ما اشتد وقعه أكثر من غيره هو ما قام به شجاع نظام.

فنظرًا لأن طريق جلفا كان أقرب طرق التجارة بين أوربا وآذربايجان لذا فإن إغلاقه أدى إلى نقص السكر والنفط والكبريت وغير ذلك من مستلزمات الحياة فى المدينة. كما تم منع مقاتلى گرجستان والقوقاز الذين بادروا بالقدوم من هذا الطريق للمساعدة، وكانوا يجلبون معهم البنادق والمهمات الحربية. وبعد ذلك كله، وكما ذكرنا، تذرع الروس بإغلاق ذلك الطريق، وجعلوا يتغنون كل يوم بنغمة حديدة.

أقام شجاع نظام معسكرًا خارج مرند، وجمع الفرسان من النواحى المحيطة، وأعلن أنه سيغير على دار كل من يرفض الانضمام إليه. من ناحية أخرى، كان يصادر كل قافلة كانت تصل من تبريز أو جلفا، والأسوأ من ذلك كله أنه لم يكن يراعى القريب ولا الغريب، فقد حدث وتوجه إليه بعض التجار الإنجليز والنمساويين للاستفسار عن بضائعهم، وكان يرد بأنه قام بما قام به وفقًا لأوامر من طهران، وأنه لن يتنازل عنها على الإطلاق. ويتضح هنا أى تفكير شؤم كان لدى البلاط القاجارى، وإلى أى مدى كان يخضع لتلك الرذائل فى عجز ويأس !

وقد ورد كثيرًا فى كتاب "آبى" وفى صحف ذلك العهد أن محمد على ميرزا وأعوانه الشؤم كانوا يعتبرون أن تطاول الأجانب على إيران هو الحيلة الأخيرة لهم وهيأوا المجال بأنفسهم لذلك. ولما كان أهالى تبريز يعلمون ذلك، فقد قلقوا كثيرًا على ممر طريق جلفا، لذا فكروا قبل الجميع فى شجاع نظام وخططوا للإطاحة به.

وكان هذا العمل من جانبهم هو أحد الأعمال العظيمة فى تاريخ الحياة النيابية، كما كان هذا الحدث من الأحداث الطريفة العجيبة، حيث ترددت أقاويل

عدة بشأنه على الألسنة، لكننا استفسرنا عنه لدى من شاهدوه عن كثب ويعلمونه جيداً، وهذا الحدث مفداه: أن خاتم أحد سادة الدوتشى الأثرياء ذائعى الصيت – ويدعى سيف السادات وكان من أصدقاء شجاع نظام – قد وقع فى يد أحد المجاهدين – ويدعى حسن – وقد أحضره إلى حيدر عمو أوغلى – الذى فر إلى القوقاز بعد قصف المجلس ثم جاء إلى تبريز – وكان عمو أوغلى قد أعد خطة يقوم بتنفيذها بعض رؤساء الحرية على النحو التالى : يقوم – بمعاونة الكرجيين – بإعداد قنبلة داخل إحدى الجعاب، ثم يدون رسالة موقع عليها بخاتم سيف السادات، ثم يرسلونهما – أى القنبلة والرسالة – عن طريق البريد إلى شجاع نظام. وتولى ميرزا اسماعيل النوبرى مهمة إرسال الجعبة إلى مكتب البريد، واستلمها ميرزا على خان وأرسلها عن طريق أحد الرسل، ووصلت هذه الجعبة وتلك الرسالة فى يوم الثلاثاء الأول من شوال (٥ آبان) إلى مرند. وفى ذلك اليوم كان شجاع نظام فى المعسكر، وعاد ليلاً إلى داره برفقة بعض قادته والمقربين منه. من ناحية أخرى، وفى نفس الليلة، حمل الحاج ميرزا محمود خان رئيس البريد – وكان على علاقة طيبة بشجاع نظام – الجعبة والرسالة، وأخذ ابنه معه وتوجها إلى شجاع نظام. ويقول السيد صابر – الذى كان يعيش فى تبريز وكتب ذلك الحدث وأرسله لى – : "كان وزن الجعبة وما بداخلها ٦٧٠ مثقال، وحينما دخلنا منزل شجاع نظام كان كل من شجاع لشكر – الابن الأكبر لشجاع نظام – وعلى خان هوچقانى – أحد قادة مرند – وجبريل بوداغيان – أحد تجار تبريز وكان ضيفاً بالدار – وآقوب الأرمنى – من أتباع جبريل – وعدد آخر متواجدين فى الحجرة، لكن شجاع نظام كان يصلى فى الإيوان، وبعد ما انتهى من صلاته قدم إلى الحجرة، وقدم إليه والدى الرسالة والجعبة، فأخذهما وقال: إنها أمانات قد عهدت بها إلى سيف السادات. وقبل أن يقرأ الرسالة رغب فى فتح الجعبة، فقال والدى بفطنة: من الأفضل أن يحملوها ويفتحوها خارجاً، وأيد بوداغيان حديث والدى، لكن شجاع نظام لم يهتم ورد رداً ساخراً ثم أمر ابنه شجاع لشكر بفتحها.

مقتل شجاع نظام وآخرين:

كان شجاع لشكر شابًا ذكيًا يميل إلى الحياة النيابية، وكان فى بعض الأحايين يخلص الأحرار من مظالم أبيه، ولما كان صائب الفكرِ، فقد تردد فى فتح الجعبة التى وضعت أمامه، فمد شجاع نظام يده إليه يلومه ويسخر منه، فاضطر شجاع لشكر إلى فتح الجعبة، وما أن وضع السكين على حبل الجعبة وقطعه حتى انفجرت القنبلة دفعة واحدة، ودوى صوتها، وبلغ عدة فراسخ، واهتزت المدينة بأسرها، وفُزع الأهالى، وتمزقت بطن شجاع نظام، وخُلع فخذه، وحينما وصل أتباعه إليه كان لا يزال على قيد الحياة وطلب ماءً ولكن ما أن أحضروه إليه حتى توفى.

أما شجاع لشكر فقد أُصيب بما يقرب من أربعين إصابة من رأسه حتى ركبتيه، ورغم ذلك، فقد كان حاله أفضل من حال أبيه، وقد ظل على قيد الحياة لمدة ست ساعات، جعل يتحدث فيها ويلوم والده.

كما أصيب على خان، وحملوه إلى داره فى هوچقان إلا أنه توفى فى اليوم التالى. كما عالجوا إصابات ميرزا أحمد خان، وتحسنت صحته. وأصيب جبريل فى عدة مواضع، وفى اليوم التالى أحضروه إلى تبريز وقاموا بعلاجه وهو الآن فى طهران. وأصيب آقوب كذلك بشظى فى عينه، وظل يتألم لعدة أيام حتى أنه كان يدق برأسه على الحائط من فرط الألم، وقاموا بنزع عينه من مكانها ويعيش المسكين الآن بعين واحدة. وكان هناك خادمان قد ابتعدا من الخوف ووقفا بالقرب من النافذة، وحينما انفجرت القنبلة طار كلاهما نحو الحديقة، لكن لم يصب أى منهما بأذى. وتمزق الفرش فى المكان الذى وضعوا فيه الجعبة، وظهرت فجوة فى أرض الحجرة، وقد اهتزت أسقف الحجرات وانهارت. أما عن رئيس مكتب البريد وابنه، فيقول السيد صابر بشأنهما:

"حينما انفجرت القنبلة رأيت الحجرة بأكملها تنهار فوق رؤوسنا، وجميع الأبواب والنوافذ تصطدم مع بعضها البعض وكنا فى عالم آخر. وحينما تحسست

جسدى بيدى وجدت أننى مصاب وملطخ بالدماء من رأسى حتى إخمص القدم. وكان الدخان الذى يتصاعد من القنبلة ويصل إلى حلوقنا أسوأ من تلك الإصابات. فى الوقت نفسه رأيت عبد الله خان – كبير خدم شجاع نظام – يدخل الحجرة وفى يده مصباح، وحينما رأى حالة الجميع، قال: اللهم اخرب بيت الحاج محمود خان، لقد خرب دارنا. وخشيت من حديثه هذا، وأردت أن أُخرج أبى من أى طريق يكون، وحينما سألت عن حاله ومصيره، رأيت أنه طار خمسة أذرع عن المكان الذى كان فيه، وكان مُلقى هو كذلك بين إصاباته ودمائه. وفى تلك الأثناء كانت جميع النسوة وكذلك الأطفال فى دار شجاع نظام يصيحون ويبكون. هذا وقد أصيب شجاع لشكر بإصابات بالغة، ففضلاً عن شظايا القنبلة التى انتشرت حول وسطه، فقد استقر بعضها على جسده، وكان يتحدث وهو على هذه الحال، ويقول : لا تؤذوا الحاج خان، إن إبى هو السبب فى ذلك، لقد نال جزاء ما اقترفه من مظالم. وكان حديثه هذا باعثًا على نجاتنا، ووصلت منزلى بكل ما بى من آلام، وأرسلنا أربعة كى يضعوا أبى داخل بساط ويحضروه إلى المنزل، وعلى أية حال، فقد توفى الحاج ميرزا محمود خان هذا أيضًا بعد ستة أشهر متأثرًا بجراحه".

وعلى هذا النحو انتقم راغبو الحياة النيابية من شجاع نظام، واحترق بناره أيضًا بعض الأبرياء. وكما رأينا، قد جاء هذا الرجل إلى تبريز قبل غيره من القادة، وأبدى العداء تجاه راغبى الحياة النيابية أكثر من غيره، وبالغ كثيرًا فى أعمال القتل والإغارة، لذا كان أهالى تبريز فى شدة الاستياء منه، وحينما علموا بموته هاتفيًا فى الثانى من شوال (٦ آبان) عمت السعادة أرجاء المدينة، وامتطى ميرتقى قلج مع جماعة من المجاهدين الجياد، وتجولوا فى الأسواق تصحبهم الموسيقى لإطلاع الأهالى على هذا النبأ. أثناء ذلك، وبعد يومين أو ثلاثة، تم فتح الطرق، ووصل السكر والنفط وغيرهما من السلع إلى تبريز، وخرج الأهالى من ضيقهم. لكن بعد يومين آخرين، تم اغلاق الطريق ثانية، فعندما علم محمد على ميرزا بمقتل شجاع نظام منح مقامه ولقبه إلى ابنه موسى الرضا خان وأرسل أمرًا

بأن يتم إغلاق الطرق كما كانت، وأن يتولى هذا الشاب – الذى لم يبلغ العشرين من عمره – زمام الأمور برفقة أعوانه. وظل الحال هكذا حتى فتح المجاهدون مرند كما سنورد فى موضعه.

فتح سلماس ومرند

فى شهر آبان وقعت أحداث أخرى تتنوع بين الجيد والسئ فى كل ناحية من نواحى آذربايجان. ففى ذلك الشهر أرسلت تبريز عدة جماعات كان لكل منها قصة مختلفة. وقد توجهت الجماعة الأولى إلى سلماس وفتحتها مظفرة، ولما كان نعمت الله خان يعادى الحياة النيابية فى آرونق وانزاب – تقعان بالقرب من تبريز وقد انضم بعض الأهالى فيهما إلى المجاهدين – فقد أرسل سردار إليه بفرقة من المجاهدين، وتوجه أفراد هذه الفرقة إلى هناك وقضوا على نعمت الله وإخوته، ورفعوا راية الحرية هناك، ولما اجتمع حولهم عدد غفير توجهوا لفتح سلماس. من ناحية أخرى، فإن الحاج بيشنماز – وكان من الملالى المؤيدين للحياة النيابية هناك وقد توجه منذ فترة إلى قراباغ أرومى – كان يعيش هناك، واجتمع حوله آنذاك عدد من الأهالى، لذا فقد توجه هو كذلك إلى سلماس. وكانت سلماس فى تلك الفترة تقع فى قبضة إقبال السلطنة الذى عين الأمير أمجد حاكمًا عليها، وكان الأمير أمجد يقيم فى خوى بينما يقيم نائبه فى سلماس، لكن حينما علم بقدوم الأحرار أرسل جيشًا إلى هناك بقيادة الحاج حيدرخان أمير طومان الذى اصطحب ابنه معه، لكن المجاهدين لم يكترثوا، وأغاروا على سلماس قبل حلول الفجر من ليلة السبت التاسع عشر من شوال (٢٣ آبان) ودخلوا المدينة يقاتلون، وتمكنوا من هزيمة أميرطومان وجيشه ثم عادوا. وهكذا فُتحت سلماس وأقيمت هناك جمعية.

أما المجموعة الثانية، فقد اتجهت إلى مراغه بقيادة وان باشى ورفع أفرادها هناك راية الحرية، وقاموا بنقل الغلال من هناك إلى تبريز، ورغم كل هذه

الانتصارات، فقد أبدى أفراد تلك المجموعة بعض الحماقة وتعرضوا للأذى، لذا فسوف نورد سيرتهم فى موضع منفصل.

أما المجموعة الثالثة فقد توجهت إلى مرند، ولما كان ابن شجاع نظام يسلك نفس طريق والده، فقد أغلق الطريق كما كان، وكان يبدى عداءً وحقدًا لا حد لهما تجاه المطالبين بالحياة النيابية، وقد وجه بالقائد فرج آقاى زنورى – الذى قدم من القوقاز وكان ذائع الصيت بين المجاهدين – مع جماعة من المجاهدين لفتح مرند، ولما كانت زنور وجلفا آنذاك فى يد الأحرار، فقد توجهوا إلى زنور، وأخذوا جماعة معهم من هناك ثم اتجهوا إلى مرند. هذا وقد أبدى ابن شجاع نظام شجاعة فائقة، وتوجه إليهم وتقدم منهم حتى فرسخ واحد وتقاتل هناك مع المجاهدين، ونشبت معركة شديدة لكن أهالى مرند كفوا عن المقاومة وعادوا، وخرج ابن شجاع نظام عن مرند، وفى الغد أخذ أتباعه معه وفر إلى خوى.

من ناحية أخرى، فإن المجاهدين – الذين كانوا قد بلغوا أردكلو التى تبعد ميلاً عن مرند – قادوا الأهالى وأحضروهم إلى المدينة. وعلى هذا النحو سقطت مرند، وفُتحت الطرق المؤدية إلى جلفا. وكانت هذه المعركة فى يوم الأحد السابع والعشرين من شوال (الأول من آذر). وعلى هذا النحو تحققت الانتصارات المتتالية. لكن فى نفس هذه الأوقات وقعت بعض الأحداث الأخرى المحزنة لأن أعداء الحياة النيابية لم يقفوا مكتوفى الأيدى، ولم يتخلوا عن فكرة الانتقام، من بين هؤلاء ضرغام وأخوه سام اللذان توجها من تبريز إلى قره داغ برفقة رحيم خان، وأغارا فى تلك الفترة ومعهما بضع مئات من الفرسان على القرى التى تبعد عن المدينة بعدة فراسخ، وأعملوا القتل العام فى كل قرية أبدت مقاومة، من هذه القرى قرية مجونبار – مقر الأرمن – وكانت تضم كنيسة كبيرة محكمة، وقد حاصروها فجأة فى يوم الأربعاء السادس عشر من شوال (٢٠ آبان) وقاتل الأرمن وأبدوا مقاومة لمدة ثمانى ساعات، لكن لما كان عدد الفرسان يفوق عددهم، فقد لحقت بهم الهزيمة، وجمعوا نساءهم وأبناءهم داخل الكنيسة، وتركوا القرية للفرسان ينهبونها،

وأغار الفرسان على القرية، وأطلقوا المدافع صوب الكنيسة. وقد أسفر هذا الحادث عن مقتل ثمانية عشر أرمينيًا (ثلاث نساء وخمسة عشر رجلاً) بينما أصيب عشرة أفراد، كما سقط كذلك البعض من الفرسان.

استتباب الأمن والهدوء فى مدينة " تبريز" :

فى الوقت الذى كانت تقع فيه مثل هذه الانتصارات وتلك الأحداث غير اللائقة خارج المدينة كان الهدوء والاستقرار يعمان فى الداخل بشكل لم يسبق له نظير، وكان الأهالى راضين من كل الوجوه، كما توفر الخبز والطعام، وصارت تلك المدينة – التى كانت من أكثر المدن الإيرانية اضطرابًا – أكثر المدن استقراراً. وأفضل شاهد على ذلك ما ورد فى متن كتاب "آبى" حيث يقول مستر راتسلاو – الملحق العسكرى فى القنصلية الإنجليزية – فى رسالته إلى السفير الإنجليزى فى الثالث والعشرين من شوال (٢٧ آبان):

"لقد عم الأمن فى المدينة على نحو جيد، والحقيقة أن ضاحية المسيحيين والأجانب قد نعمت بالهدوء والاستقرار بشكل لم يحدث من قبل وحتى الآن ... وقد أعرب الأجانب عن رضاهم من سلوك الأحرار خلال تلك الثورات، ولم يتحدث شخص عن خشيته سوى الروس".

والشئ الوحيد الذى اتخذه المندوب البريطانى على الأحرار فى تبريز هو موضوع الإعانة التى كانت تُحصل من الأثرياء عنوة. وقد دار حديث أيضًا فى هذا الشأن فى صحيفة "تالهء ملت"، ولم ينكر المطالبون بالحياة النيابية أنفسهم أنهم تشددوا فى هذا الشأن، وبرروا ذلك بأنهم كانوا مضطرين إلى هذا، وتساءلوا: من الذى ينبغى عليه دفع كل نفقات الحرب تلك؟!... وعليه بدرت الشكوى من بعض الأثرياء المعادين للحياة النيابية، أما البعض الآخر فكانوا من مؤيدى الحياة النيابية ودفعوا تلك الأموال عن طيب خاطر، والسبب فى ذلك، فضلاً عن تأييدهم للحياة النيابية، أنهم كانوا يدركون أن فرسان قره داغ ومرند وأردبيل سيستولون على

المدينة ويضرمون النيران على حياتهم ويلحقون بهم الأذى. وقد كتب مستر راتسلاو شكوى إجلال الملك (من أفعال باقرخان الحمقاء) فى رسالته، كما نُشر حديث أيضًا فى هذا الشأن فى صحيفة "شمس" الصادرة فى اسطنبول، وكان إجلال الملك – الذى كان يخشى على نفسه فى بداية الحرب ولجأ إلى القنصلية الروسية ثم استظل من بعد بحماية فدائيى ستارخان وباقرخان بل ونال كذلك منصب الحاكم – يطمع فى أن يجعل ستارخان وباقرخان تحت يديه يأتمران بأمره.

ومن الأحداث الغريبة فى تاريخ الحياة النيابية فى إيران أن الكثيرين من رجال البلاط وغيرهم – ممن انضموا إلى المطالبين بالحياة النيابية – كانوا يعدون أنفسهم من السادة وأن أعمالهم فى مقام الحكم، لذا لم يقوموا بأى مسعى يحثون به الآخرين، وكلما ظهر الخطر من شئ ما نحوا أنفسهم جانبًا وتركوا الميدان للمجاهدين، وبمجرد زوال الخطر وتهيئة المجال للسيادة يندفعون على الفور إلى الميدان، وينحون المجاهدين جانبًا ويستولون على أزمة الأمور، بل ويبسطون ألسنتهم بنقد هؤلاء المجاهدين. والآن ما أن أعلن ميرزا اسماعيل خان يكانى – أحد الأحرار البارزين – الحرب فى تبريز وأريقت الدماء، حتى قامت طائفة من طهران من أمثال الحاج سيد نصر الله التقوى وحسين قلى نواب ومشير الدولة ومؤتمن الملك وتقى زاده وميرزا على أكبر خان ودهخدا وغيرهم تترقب دون صبر تهيئة المجال لتثبيت أقدامها ثانية وتولى أزمة الأمور وسحق الحياة النيابية، وكان هناك المئات من أمثال هؤلاء، ونحن نطلق عليهم فى كتابنا: "ميوه چين" – أى قاطفو الثمار – لأن قصتهم تشبه قصة ذلك الشخص الذى يجاوره بستانى يتحمل الأذى ويرعى الشجرة، وما أن يحل موعد قطف الثمار، يتقدم ذلك الشخص، وينحى البستانى جانبًا ليقطف هو الثمرة. وكان تقى زاده أحد هؤلاء الذين ذكرناهم باسم قاطفى الثمار، فقد شاهدناه وقد أبدى هذا السلوك غير اللائق فى يوم قصف المجلس، ثم لجأ إلى السفارة الإنجليزية، وخرج من إيران ذليلاً، وتوجه مباشرة إلى لندن. وفى تلك الشهور التى بذلت فيها المساعى فى تبريز

وأريقت الدماء كان يمكث فى لندن، وما أن خلت تبريز من رجال الدولة وحل الأمن بها حتى غادر لندن وتوجه إليها ويقال إنه دخلها فى شهر آذر. والأعجب من ذلك، إنه بدلاً من أن يعرب عن رضاه تجاه مساعى المجاهدين ورؤسائهم وينضم إليهم نجده منذ الوهلة الأولى لوصوله يبدى جفاءً تجاههم وينتقد ستارخان والمجاهدين ويقول: "لقد قيل لستارخان إن فرج آقا يحتسى الخمر فى مرند. فرد ستارخان: إننى لم أرسل فرج آقا للإمامة فى الصلاة".

ولم تكن هناك معلومات فى تبريز عن سلوكه غير اللائق فى حادث القصف، وكانوا يعدونه واحدًا من الرؤساء الجسورين فى تاريخ الحياة النيابية، وكانوا يبجلونه كثيرًا ويأملون منه الكثير، غير أنه نحى نفسه من منطلق الأنانية ومكث فى داره يسعى فى الخفاء لإفساد الأمور، وكانت إحدى ذرائعه أن المجاهدين يغيرون على الديار. وكما أسلفنا كان معظم المجاهدين ممن يتمتعون بالنزاهة ومن الميسورين، ولم يتطاولوا قط على ممتلكات أى شخص، وكانوا يقومون بمنع الآخرين عن القيام بذلك، وقد ظل جزء كبير من السوق تحت قبضتهم لمدة تزيد عن الأربعة أشهر، ولو رغبوا لفتحوا الحوانيت وحملوا الكثير من السلع – كما كان يفعل رجال الدولة – ولكن لم يسمع أحد أنهم سطوا على محل واحد. إلا أن الحاج ميرزا حسن وإمام الجمعة وميرهاشم وغيرهم ممن كانوا فى الجمعية الإسلامية وكانوا يرسلون الفرسان لنهب المدينة لم يرد شئ فى شأنهم ولم يقوموا بنقدهم. فأثناء الحرب بعد غلبتهم على العدو يقومون بالإغارة على ممتلكاته، وكانت هذه الإغارة من جهة تقتلع أجنحة العدو، ومن جهة أخرى كانت سببًا فى غبطة المحاربين. إلا أن تقى زاده اتخذ هذا حجة وساء إلى ستارخان وباقرخان، وتسبب ذلك فى انفصال جماعة عنهما والتفافهم حوله. وانضم حيدر عمو اوغلى – الذى تعاون معه فى طهران – إليه هنا أيضاً، وأبدى عداءه فى الخفاء تجاه ستارخان.

والأسوأ من ذلك أن ميرزا محمد على خان تربيت – أحد أقارب تقى زاده ومن أدواته – قد توجه بصحبته أيضًا إلى لندن، وتعاون هناك مع المحافل

السياسية، وقد عاش فى تبريز وقام هو أيضًا بمعاداة ستارخان ونرى فى رسالة له إلى البروفسور براون يوبخ ستارخان بشدة ويذم أعماله، ويطلق عليه : "لوتى، تاراجگر، قره داغى" – أى إنه من الأوباش اللصوص القره داغيين – ويطالب براون بعدم مدحه، ويوضح فى نهاية رسالته أن تقى زاده شاهد على صدق حديثه، وهذا ما يوضح أنه كتب تلك الرسالة بأمر منه. هذا وقد أورد براون ترجمة لهذه الرسالة فى نهاية كتابه.(١)

يجب أن نعلم أن ثمة باعث آخر كان لدى تقى زاده وتربيت وغيرهما سوى أنانيتهما وحثهما على مثل هذه المفاسد، ففى ذهابهما وإيابهما إلى لندن وإقامتهما هناك، وقعا تحت تأثير الساسة الإنجليز، ولم يضنا فى ذمهما للمجاهدين الفدائيين. وعلى أية حال، فقد أبدى ستارخان حنكة إزاء جهله هذا، وسلك سلوكًا جيدًا للغاية، ولم يتأثر بتلك المهاترات. وكذلك كان باقر خان، فعلى الرغم من أنه أبدى بعض الاستياء والغضب، إلا أنه بوجه عام أبدى سلوكًا متعقلاً يستحق الثناء.

وإذا أردنا أن نذكر مدى حسن سلوك الأحرار يجب الإشارة إلى أن عددهم فى آذربايجان فى تلك الفترة بلغ حوالى أربعين ألفاً، وتعدى عددهم فى تبريز العشرين ألفاً، وكان من الطبيعى وجود بعض المسيئين بينهم، واستلزم ذلك أن تبدر بعض الأعمال السيئة عنهم. وواقع الحال أن ستارخان وباقرخان وغيرهما من الرؤساء حاولوا قدر استطاعتهم منع ذلك، وقصة "وان باشى" نموذج جلى لسلوك ستارخان وغيره من الرؤساء تجاه المسيئين. فحينما استولى سالاربك – أحد البنادقة – على أربعة وثلاثين قرانًا من أحد الأشخاص، تم معاقبته وطرده وإرسال النقود إلى صاحبها. ومجاهدو القوقاز كذلك، فمع ما لديهم من مكانة، قام أحدهم بالتغرير بفتاة وأخذها وتحفظ عليها، وحينما ذاع الخبر، هاجمه المجاهدون، وألقوا القبض عليه بأوامر من ستارخان وأخذوه إلى الجمعية وأطلقوا عليه الرصاص بعد

---

(١) تم طبعها دون اسم إلا أننا ندرك أن كاتبها هو تربيت.

التحقيق معه، وهناك العديد من هذه الحكايات. وفى ظل هذه السلوكيات الحميدة نجد الأهالى يصطفون لمشاهدة ستارخان إذا ما خرج فى وقت ما تغمرهم السعادة ويذبحون الخراف تحت قدميه.

لن نستطرد فى الحديث، لقد كان من أحداث شهر آبان إرسال ميدالية إلى ستارخان من قبل الإيرانيين فى اسطنبول، وقد حملها ميرتقى قلج إلى أميرخيز تصحبه الموسيقى ومظاهر الفرح وعلقها على صدره.

وفى أواخر ذلك الشهر تصادف ذكرى الأربعين لحسين خان، وقد أقاموا مراسم العزاء بإسمه، وكذلك بإسم اما مويردى وشريف زاده ومشهدى اسماعيل ميابى وغيرهم من شهداء الحرية. وفى أواخر نفس الشهر وصل ميرزا أحمد عمارلو إلى تبريز وبرفقته اثنين من طلاب النجف كنائبين عن الحاج سيد على الذى كان يقيم فى خانقين.

فتح خوى:

على هذا النحو انتهى شهر آبان، وفى شهر آذر – حيث تبدأ البرودة ويهطل المطر فى بعض الأحايين – اقترنت الانتصارات بالهزائم، وكان فتح مدينة خوى أحد الانتصارات التى تمت بسهولة. وكما ذكرنا، ينعدم وجود معلومات دقيقة لدينا عن سيرة المجاهدين والأحرار هناك وكذلك عن سلوك الأكراد المشين معهم، ولم يُعرف سوى ميرزا حسين طبيب، وهو أحد الأحرار الذين تم القبض عليهم، وبعد حبسه، أخذوه ووضعوه من الغد على فوهة أحد المدافع وأطلقوا جسده فى الهواء، وتوفى ذلك الرجل الغيور ليلاً فى حبسه وارتاح بمثل هذه الميتة الشنعاء ليكون أحد* شهداء طريق الحرية.

وعلى أية حال، فقد سقطت خوى وسلماس وتلك النواحى فى يد رجال الدولة، وحكم الأمير أمجد هناك بإسم إقبال السلطنة وظل فى منصبه حتى – كما

ذكرنا – استولى المجاهدون على سلماس فى شهر آبان، ولما كان إقبال السلطنة على علم بالأحداث فقد أولاها اهتماماً، وأرسل جيشًا إلى المجاهدين من ماكو بقيادة عزوخان واسماعيل آقا (سيمكو) ونعمت الله خان ايلخانى، وتوجه هذا الجيش الذى كان يضم ثلاثة آلاف من الفرسان والمشاة – إلى سلماس وألحقوا الهزيمة بالمجاهدين فى الحرب التى دارت رحاها بين تلك المنطقة وخوى، ثم عادوا ولجأوا إلى قلعة ديلمقان للاحتماء فيها، وقد أقام عزوخان معسكرًا فى المدينة فى مواجهتهم، وقام أتباعه بأعمال السلب والنهب فى تلك النواحى. وعلى هذا النحو اشتد الحال على المجاهدين. لكن فى هذه الأثناء ذاع من مرند نبأ قدوم ميرزا نور الله خان وقوچ على خان، فتباحث عزوخان مع المجاهدين بشأن الصلح وأثناء ذلك قام بترحيل جيشه، غير أن جيش مرند هاجم خوى وفتحها ببسالة. ولما كان ميرزا نور الله خان قد أرسل إلينا برسالة فى هذا الشأن، لذا نورد ملخصًا لها فى هذا الموضع:

يقول: عزمت جمعيتا "اجتماعيون عاميون" و "انجمن ايرانيان" فى باكو على فتح خوى، وتم اختيارى أنا وإبراهيم آقا لإنجاز هذه المهمة، وقد سلكت الطريق من باكو وفقًا لأوامر الجمعية وبلغت جلفا، بينما استقر إبراهيم آقا مع جماعة من أتباعه فى علمدار – بالقرب من جلفا – ولم يتمكنوا من التقدم خشية أهالى يكان الذين كانوا على الطريق. وكان قوچ على خان وشقيقاه بخش على خان وشير على خان – يبلغ الأول العشرين من عمره والآخر السابعة عشرة – قد تولوا حراسة طريق جلفا وخوى من قبل الأمير أمجد واستقروا فى جلفا، وقد تباحثت معهم، وجعلت ثلاثتهم من مؤيدى الحرية، وعقدوا معى تحالفًا وصاروا مستعدين للأمر. وبعد تلك الاستعدادات جلسنا نتباحث واقترحنا فتح "ايواغلى" – وهى مدينة صغيرة على مسافة أربعة فراسخ من خوى – ومن هناك يتم التخطيط لفتح خوى، وبناءً على هذا الاقتراح تركنا إبراهيم آقا مع أتباعه فى علمدار، وسلكنا الطريق أنا وقوچ على خان وخليل خان هرزندى ومشهدى اسماعيل گرگرى وعباس خان

علمدارى – وقد التف حول كل منهم ثلاثون شخصًا – ونمنا ليلاً فى قره بولاغ – على بعد ثلاثة فراسخ من ايواغلى – ثم سلكنا الطريق مع حلول الفجر، وهاجمنا ابواغلى دفعة واحدة واستولينا عليها بعد معركة قصيرة واستقرينا فيها، وتركنا بخش على خان مع مائتين من أتباعه على طريق خوى – على بعد فرسخ واحد من پاسبانى – والتفت حوله جماعة من خوى بلغت حوالى ألف شخص، ودارت حرب حامية الوطيس هناك. وقد أبدى بخش على مقاومة شديدة وأرسلنا إليه آرابنسو لمعاونته، وانتهت النتيجة بهزيمة العدو والاستقرار هناك، لكنهم كانوا قد استولوا على جميع القرى المحيطة بإيواغلى. وبعد المباحثات انتخبنا مائتين وخمسين من بواسل المجاهدين وبلغنا بهم ديزجدز – بين سلماس وخوى – ومن هناك توجهنا ليلاً إلى خوى بعد استراحة قليلة ولما كنا نعلم أن الأمير أمجد وغيره كانوا يجهلون ما حدث، وأن جميعهم مستغرقين فى النوم ليلاً، دخلنا المدينة وصعدنا الأبواب والجدران وأحدثنا جلبة. وعلى هذا النحو أغرنا على المدينة واستولينا عليها، وخرج الأمير أمجد بملابسه الداخلية من أحد الثقوب الموجودة فى الجدار ولاذ بالفرار.

نعم، بمثل هذه الهيئة استولى المجاهدون على خوى فى ليلة الثالث عشر من ذى القعدة (١٧ آذر). وكما أسلفنا، تولى ميرزا نور الله خان وقوچ على خان قيادة هذا الجيش، وقاموا بهذا العمل مع أهالى يكان، وقد أبدى المغفور له بخش على خان – رغم صغر سنه – بسالة فائقة فى هذه الحروب وذاع صيته، ومنذ ذلك الحين، ومن غد ذلك اليوم، قتلوا بعض المسيئين وأغاروا على المنازل.

وفى نفس اليوم تصادم عزوخان وغيره – ممن عادوا من سلماس – مع المجاهدين خارج خوى، ودارت معركة بين الجانبين أسفرت عن مقتل بعض أهالى ماكو وتجرع عزوخان الهزيمة وترك المدفع والذخيرة وخرج متخاذلاً مع أتباعه.

وكان هذا نصرًا آخر للمطالبين بالحياة النيابية، وكما سنرى من بعد، صارت خوى مرة أخرى مقرًا للحرية، وظلت المعارك تدور هناك مع أهالى ماكو

حتى انتهاء حروب تبريز. فى نفس هذه الأيام، وفى ظل انتصارات الأحرار تلك، ظهرت انتفاضة أخرى فى أرومية، وافتتح الحاج محتشم السلطنة – ذلك الرجل المنافق سئ الطوية – جمعية هناك حتى تمكن أهالى تبريز من المدينة فأغلقها.

ليلة حسن دلى :

كما ذكرنا، بعد تنحى عين الدولة وذهابه إلى ميدان قزلجه، تولى العمل ثانية، واتجه مرة أخرى إلى باسمنج مع الجيش الذى كان قد وصل توًا من طهران واستقر هناك حتى وصول الجيوش الأخرى. وفى الوقت الذى كان يقوم فيه أهالى تبريز بإرسال جماعات المجاهدين إلى الجهات المختلفة وتم لهم فتح مرند وسلماس وخوى ومراغه وتمكنوا من إحضار الغلال من المدن المحيطة بهم، كان عين الدولة لا يزال مستقرًا فى باسمنج يراقب الأحداث. وكما اعتدنا منه التباحث حول الصلح فى أوقات الضعف، نجده الآن يرسل المكاتبات الدالة على حسن نواياه والتى يعرب فيها أحيانًا عن عدم رضاه عن العراك وإراقة الدماء. فى تلك الأثناء كان ضمن جيوشه – فضلاً عما سبق ذكره – مجموعة من القوزاق المزودة بالمدافع والاستعدادات الأخرى. وقصة هؤلاء إنه وقتما أنذر عين الدولة تبريز تحت ضغط محمد على ميرزا ثم قام فى الثالث من شهر مهر بتلك المعركة لم يسفر عمله هذا عن شئ، واستاء محمد على ميرزا منه، ونظرًا لثقته فى لواء القوزاق واعتقاده بأنهم الحل لأية مشكلة، لذا وجه بأربعمائة منهم مزودين بأربعة مدافع تحت قيادة ميربنجه كاظم آقا – أخى قاسم آقا وعلى آقا – إلى آذربايجان، وسلكوا طريقهم من طهران فى العشرين من شهر مهر – وهو نفس اليوم الذى كانت تدور فيه حرب تبريز الأخيرة مع الدوتشى – وأثناء خروجهم تحدث لياخوف إليهم فيما يتعلق برؤيته لاستياء الشاه الشديد من أحداث تبريز وأن مهمة حل تلك الأزمة تقع على كاهلهم، وأن الشاه قد أرسلهم إلى هناك نظرًا لما يتسمون به من شجاعة فائقة. وقد نشرت الصحف الإنجليزية هذا من حديثه، وصار هذا الحديث موضع اهتمام لفترة من الوقت.

وعلى أية حال، وصلت هذه المجموعة إلى باسمنج وانضمت إلى جيوش عين الدولة. وكما ذكرنا، لم يقم عين الدولة بأى عمل، وكان يقضى أوقاته فى أحاديث الرياء بينما قام أهالى تبريز بأعمال أخرى غير مبالين به. ولم يُستثنَ منهم سوى الحاج المغفور له حسين خان مارالانى، فحينما كان قريبًا من باسمنج، أغار ليلا على معسكر عين الدولة، وألقى الذعر بين رجال الدولة بما أحدثه من إطلاق النار، وقيل إنه قتل البعض منهم وألقى القبض على عدد آخر وأحضرهم إلى المدينة. وأدى عمله هذا إلى ازدياد خشية عين الدولة، فتباحث بشأن الصلح بشكل أشد، وحث البعض على القيام بالوساطة، غير أن حديثه هذا لم يلق اهتمامًا وكان الأحرار يدركون أن حل الأمر ليس بيده وأن محمد على ميرزا لن يكف عن العراك قدر إمكانه وأنه لن يخضع للحياة النيابية وما كان يؤكد ذلك الوصول المتتالى لكتائب القوزاق والجند والمدافع والذخيرة من طهران، لذا تباحث ميرهاشم خان مع سالار كى لا ينخدع بعين الدولة وأن يغيروا عليه قبل وصول جند بروجرد ويخرجوه من باسمنج. ووافق سردار على هذا، وتم الإعداد للأمر، وفى ليلة الثانى عشر من ذى القعدة (١٦ آذر) ورغم البرودة الشديدة وهطول الثلج، اختار عدة مجموعات ووجه بها إلى هناك، من بين هؤلاء إرساله لآيدين باشا مع جماعة من قاذفى القنابل من أميرخيز، وأمرهم بطى الطريق فى حذر والوصول إلى باسمنج ثم القيام بحرب مباغتة هناك. والمسافة من تبريز حتى باسمنج لا تزيد عن الفرسخين، طواها المجاهدون فى هدوء وحذر وتقدموا حتى مقابر باسمنج – وهى بداية المعسكر وقد نصبوا مدفعًا فيها – لكن الجماعة المتقدمة كانت تحت قيادة حسن دلى – الذى يتمتع بالجرأة الشديدة – وكان ثملاً فى ذلك الوقت، لذا لمّا أن اقترب من المدفع حتى بدت عليه مظاهر السكر، وامتطى المدفع وأمر المجاهدين بصياح وجلبة قائلاً: "أطلقوا المدفع"، ويقال إنه أصاب المدفعجى برصاصة فى قدمه. واستيقظ رجال الدولة على أثر تلك الجلبة وقاموا ببعض

المساعى ونفخوا فى الأبواق استعدادًا للقتال، وأسقطوا عددًا من المجاهدين أرضًا على أثر إطلاق النيران عليهم، وأصيب حسن دلى نفسه وهو فوق المدفع ومات. وردِ المجاهدون على إطلاق النيران إلا أنهم لم يصمدوا طويلاً وتراجعوا. فى ذلك الوقت وصل المدفعجى إلِى المدفع وتمكن من إطلاقه، فسقط عدد من المجاهدين صرعى، بينما أصيب عدد آخر، وجعلوا يطوون الطريق وهم ملطخون بالدماء، وأسرع البعض منهم إلى نعمت آباد وقضوا الليل هناك، وبلغ آخرون المدينة. وعلمت الجماعات التى كانت تأتى من الخلف بالحال فعادوا أدراجهم.

وعلى هدا النحو باءت المساعى بالفشل، وتم إرهاق كل هذه الأرواح. من ناحية أخرى، أصيب من جيوش عين الدولة ميربنجه كاظم آقا فى رأسه وأفضت روحه فى الحال وأعادوا جثمانه إلى طهران. وكما كتبوا، قتل وأصيب ما يقرب من الأربعين شخصًا فى هذه المعركة، ورغم عدم تمكن المجاهدين من التقدم إلا أنهم أربكوا جيوش عين الدولة، ولولا وجود كتائب القوزاق لتفرق أفراد جيشه وفر كل منهم إلى جهة ما.

منذ ذلك الحين أفاق رجال الدولة وسعوا للحفاظ على أنفسهم، ولما كانت أفواج الجيش تصل فى تتابع من طهران، لذا قاموا بإقامة الاستحكامات فى مواجهة استحكامات حيابان وماralان فى سارى داغ وتلك النواحى. كما ظهرت فى تلك الأثناء الانتفاضات فى العديد من المدن وصارت الخشية من وقوع الاضطرابات. من ذلك ما حدث من تكتلات فى طهران حيث استعد الأهالى للثورة. وفى الرشت استقرت طائفة من الأحرار فى القنصلية العثمانية. وفى طالش كانت رحى الحرب وإراقة الدماء تدوران منذ فترة. وفى خراسان بدأت مظاهر الثورة، وبدأ العداء للملك القاجارى من كل النواحى، لكن محمد على ميرزا لم يبال، واهتم فقط بأمر تبريز، وجعل يرسل الجيوش والمعدات الحربية إلى آذربايجان. وقد نشرت صحيفة "آقيانوس" فى تلك الفترة قائمة بالجيوش التى تم إرسالها إلِى آذربايجان، وسوف نوردها فى هذا المقام:

"قائمة بعدد الجيوش المرسلة إلى آذربايجان"

(١) مائتان وخمسون فردا من فرسان بختيارى لإعداد الطعام. (٢) كتيبة دماوند تحت قيادة جناب السيد انتخاب الدولة. (٣) كتيبة فدوى وكتيبة مخبران وهمدان بقيادة السيدين سردار أكرم ومنصور الدولة. (٤) مدفعية بقيادة جناب السيد ناصر الممالك. (٥) كتيبة فراهان بقيادة جناب السيد ناصر الدولة. (٦) كتيبة أخرى من فرسان بختيارى مكونة من ثلاثمائة وخمسين فردا. (٧) فرسان قزوين بقيادة السيد غياث نظام. (٨) جيش مراغه بقيادة جناب السيد شجاع الدولة سردار مقتدر. (٩) جيش قراجه داغ بقيادة السيد سردارنصرت. (١٠) كتيبة من القوزاق بقيادة جناب السيد كاظم آقا.

وتؤول الرئاسة العامة للفرسان إلى جناب السيد سردار ظفر، وللمشاة إلى السيد سردار أرشد. ويتولى القيادة العامة للجيوش فى تبريز – التى هى تحت رئاسة جناب السيدين أمير معزز وسالار جنگ – إلى السيد الأجل أمير أفخم، وأن تكون إمرة جميع الرؤساء والقادة فى يد جناب السيد الأشرف الأمجد الأمير عين الدولة القائد العام لآذربايجان دامت شوكته. وبموجب الخبر البرقى لجناب السيد إقبال السلطنة ماكويى تحركت ثلاث كتائب، وصلت أولاها إلى خوى، والثانية إلى مرند والأخيرة إلى صوفيان. وتولى قيادتها جميعًا جناب السيدين سالار مكرم وايلخانى".

وقد دخل هؤلاء القادة كل بجيوشه إلى باسمنج، وكان من بينهم شجاع الدولة (الحاج محمد خان) الذى دخلها فى العاشر من ذى القعدة – ١٤ آذر – وبعد لقائه بعين الدولة، اتجه إلى مراغه، وجمع الفرسان والجند هناك، وسوف نرى بعد ذلك أية أعمال قام بها.

وثمة أمر آخر وقع فى تبريز آنذاك وحرى بنا أن نذكره فى هذا المقام، وهو أن بعض أعضاء الجمعية قد تنحوا، وتم إعادة انتخاب اثنى عشر شخصًا من قبل لجنة الإعانة ورؤساء الحرية – سوف نذكر أسماءهم لاحقًا – وأعلن ستارخان وباقرخان موافقتيهما عليهم، والإثنا عشر هؤلاء هم :

ميرزا محمد تقى طباطبايى، الشيخ محمد خيابانى، مشير السادات، الشيخ اسماعيل الهشترودى، الحاج الشيخ على أصغر، ميرزا اسماعيل النوبرى، ميرزا حسين الواعظ، الحاج مهدى آقا، الحاج ميرزا على تقى گنجه اى، الحاج ميرزا إبراهيم تاهباز، مشهدى محمد على مطبعه، الحاج مير محمد على الأصفهانى وميرزا محمد تقى رئيسًا لهم.

قصة مراغه.

كما ذكرنا سالفًا، توجه قلعه وان باشى وآقا كريم برفقة جماعة من البنادقة إلى مراغه كى يجلبوا غلال تلك المنطقة إلى المدينة ويدعون الأهالى إلى الحياة النيابية، وقد بلغوا فى البداية منطقة بناب واستقبلهم الأهالى هناك بحفاوة بالغة، وبعد بقائهم هناك لمدة يومين سلكوا طريقهم ووصلوا إلى مراغه فى الحادى والعشرين من شوال (٢٥ آبان)، واستقبلهم أهالى مراغه كذلك باحتفاء جم واستسلموا للحياة النيابية كرهًا أو طوعًا وانتخب حسام نظام حاكمًا وأسس جمعية هناك أحضروا إليها الحاج ميرزا محمد مقدس وهو من رجال الدين المعتكفين، واجتمع الأهالى كل يوم فى مسجد حجة الإسلام وأثنوا على الحياة النيابية من فوق المنبر.

فى تلك الأثناء قام قلعه وان باشى وبعض أتباعه ببعض الأعمال غير اللائقة وبالغوا فى إيذاء الأهالى والحصول على الأموال من الأثرياء بشتى الحيل، ورغم حديثهم عن الحرية إلا أنهم لم يكفوا عن التطاول على الأهالى وبدا الأمر وكأنهم فتحوا المدينة بقوة السيف ولم يتورعوا عن القيام بأعمال السلب وأذى الأهالى، وقام هؤلاء بإعطاء صورة مناقضة تمامًا لما سمعه أهالى مراغه حول الحياة النيابية، وعليه بسط الأهالى ألسنتهم بالشكوى والمذمة.

وفى مراغه نجد أسرة الحاج كبير آقا من مناهضى الحياة النيابية، ولما كان العداء قائمًا بين تلك الأسرة ومؤيديها وبين مقدس وأعوانه، أعرب المجاهدون

آنذاك عن عدائهم لتلك الأسرة تحت أسباب متعددة، وأصابوا الحاج ميرزا أبا الفضل وميرزا محمد – ابنى الحاج كبير آقا – وأفضى سوء مسلكهم هذا إلى ازدياد العداء من قبل أهالى مراغه.

فى تلك الأثناء وصلت الأنباء تفيد بخشية سيف العلماء بنابى – وهو من ألد أعداء الحياة النيابية وكانت له المكانة فى تلك النواحى – من قدوم المجاهدين إلى مراغه وكذلك من سلوكهم السيء، وأنه حث أبا طالب خان چاردولى لإعادة المجاهدين إلى تبريز، وأنه جاء ومعه فرقة من فرسانه بالقرب من بناب، وأن ثمه مجموعات أخرى انضمت هناك إليه، وأن عددًا كبيرًا منهم احتشد للتوجه نحو مراغه. ودبت الخشية فى قلوب مؤيدى الحياة النيابية فى مراغه بسبب هذه الأنباء، وتوجه المجاهدون – للاقتراب من تبريز أو لأى سبب آخر – إلى بناب، وخرجوا من مراغه وتوجه معهم مير آقا صدر السادات – وهو من مؤيدى الحياة النيابية – ومعه جماعة من البنادقة، وحينما بلغوا بناب استقبل مؤيدو الحياة النيابية هناك أحد خان والحاج سيف الله وغيرهما. ولما كان تعداد المجاهدين من تبريز ومراغه لا يتعدى المائتى شخص بينما بلغ تعداد رجال الدولة الذين التفوا حول أبى طالب خان چاردولى عشرة آلاف شخص، لذا رأى البعض إنهاء الأمر عن طريق المباحثات، لكنها باءت بالفشل. ولما كان رجال الدولة يحيطون ببناب، لذا بدأ العراك، وقاوم المجاهدون لمدة ثلاثة أيام، لكن نظرًا لقلة عددهم ومساندة أعوان سيف العلماء من داخل المدينة لرجال الدولة، لم يتمكن المجاهدون من الصمود أكثر، وسلكوا طريق تبريز ليلاً وغادروا المكان. وفى الغد، اندفع رجال الدولة إلى بناب وأغاروا على منازل أحد خان والحاج سيف الله وغيرهما. وقد وقع هذا الحدث فى بدايات شهر آذر، وكان أول حدث مخزى يقع فى ذلك الشهر.

وقبل أن تصل هذه الأنباء حول مساوئ قلعه وان باشى وأعوانه إلى تبريز، تم استدعاء الجمعية لهم برقياً، وحينما وصلت الأنباء حول حروبهم من بناب، تم إرسال سردار مشهدى محمد على خان إليهم، وأخذا أسد آقاخان، وتقدما حتى

گوكان وألقيا القبض على قلعه وان باشى وعدد من أعوانه ووجها بهم إلى تبريز وهم مقيدون بالسلاسل. وأمر سردار بضرب قلعه وان باشى بالعصا وإيداع أتباعه فى السجن حتى يتم التحقيق معهم فى المحكمة، واستردوا البضائع المسلوبة وجمعوها.

بعد ذلك، تم انتخاب الحاج حسين أرومچى – أحد التجار المؤيدين للحياة النيابية – من قبل الجمعية الإقليمية، وتوجه مع بعض الأحرار لتوصيل البضائع المسلوبة واسترضاء الأهالى. وسلك الحاج حسين طريقه، وحينما وصل على مسافة فرسخين من مراغه، تمركز هناك، وأرسل أتباعه إلى المدينة وقاموا باسترضاء أهالى مراغه وطلبوا العفو عما سلف وأسفرت مهمتهم عن نتائج طيبة.

وصول الحاج صمدخان إلى مراغه

لكن أثناء ذلك وصلت رسالة من صمدخان إلى حسام نظام تفيد بأنه خرج من طهران متجهًا إلى مراغه وأنه فى الطريق، كما أصدر أوامره فى تلك الرسالة بخروج الأحرار من مراغه قدر استطاعتهم. ولما كان صمد خان وأسرته يحكمون فى مراغه منذ أعوام طوال، كان فرسان تلك النواحى وجندها فى قبضتهم. وهنا نتضح أية نتيجة أفضت إليها تلك الرسالة، وكيف أثارت المسيئين وشددت الأمر على المطالبين بالحياة النيابية. وفى أعقاب تلك الرسالة، وفى فجر أحد الأيام انتفض محب على خان – قائد فرسان ركاب – وفرسانه ووقفوا فى ميدان خان حمامى مستعدين للقتال، وأرسلوا إلى أحرار تبريز بوساطة حسام نظام يطلبون منهم وجوب الخروج من المدينة، لذا لم يروا مجالاً للصمود، وخرجوا من المدينة كرهًا أو طوعاً.

من ناحية أخرى، لم يمض يومان أو ثلاثة حتى وصل الحاج صمد خان إلى مراغه، ومنحه محمد على ميرزا لقب شجاع الدولة، وكان قد أرسله من طهران حتى يأتى لجمع الفرسان والجند من مراغه ونواحيها، ويتجه بهم إلى تبريز

لاجتثاث جذور الحياة النيابية. هذا وما أن وصل حتى بسط يديه بأعمال الظلم، خاصة وأن المطالبين بالحياة النيابية كانوا قد أساءوا إلى أسرته، وأصابوا أبناء خاله – أبناء الحاج كبير آقا – وكان أول من تجرع سم غضبه وحقده هو المغفور له ميرزا محمد حسن مقدس، حيث أخذوه وأحضروه إلى صمد خان، فوبخه كثيراً، ثم أمر بخلع العمامة من رأسه وحلق لحيته وشاربه وألقوه فى الحوض فى تلك البرودة القارصة لذلك الشتاء، وجعل الخدم يضربونه بالعصا حتى سقط ذلك الشيخ الكهل بعد أن خارت قواه وفاضت روحه فى الحال، وعقدوا قدميه بحبل وسحبوه حتى ميدان ملارستم وعلقوه فوق إحدى الأشجار. وعلى هذا النحو من التعذيب أزهقوا روح ذلك الرجل العابد.

كان هذا نموذج ينم عن سوء طوية صمد خان، وخشى مؤيدو الحياة النيابية فى مراغه – ومعظمهم من أهالى تبريز – على أرواحهم من هذه المظالم، وتوارى العديد منهم، إلا أن خدم صمدخان قاموا بملاحقتهم حتى عثروا عليهم وسحبوهم ورجوا بهم فى السجون وهم مكبلون بالسلاسل. ومن أشهر هؤلاء ميرزا عبد الحسين خان الأنصارى، وملا عبد الأحد خان معلم، والحاج على چاپچى، والحاج ميرزا حسن شكوهى، ومشهدى على التبريزى، ومشهدى صادق التبريزى والحاج محمد التبريزى. وقصة القبض عليهم والسلوك الذى تم التعامل به معهم شئ محزن بحق[1]. لقد اتسم صمد خان بسوء الطوية وحبه لسفك الدماء وطمعه ورغبته فى المال، وكان يريد الثأر من هؤلاء الذين تم القبض عليهم من مؤيدى الحياة النيابية من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يسعى للحصول على المال من أثريائهم، لذا فبعد عدة أيام من الحبس دفع كل من الحاج حميد والحاج على – وكلاهما من التجار الأثرياء – ألفا وسبعمائة طومان – وكان هذا المبلغ آنذاك مبلغًا باهظًا – كى يحررا نفسيهما، كما نال الآخرون حريتهم كذلك بعد دفع مبلغٍ من المال أو بعد التدخل والوساطة وخرجوا من السجن، واشتد الأمر فقط على الحاج ميرزا حسين شكوهى وميرزا عبد الحسين خان الأنصارى حيث كان صمد خان

(١) دون المغفور له الحاج ميرزا صمد كتيبًا فى هذا الشأن.

يكن لكليهما حقدًا دفيناً. والذنب الذى اقترفه الحاج ميرزا حسن هو ترويج كتب إبراهيم بيك وطالبوف وتدوين المقالات فى صحيفة "الحبل المتين"، لذا طالبوه بدفع مبلغٍ كبيرٍ – عشرة آلاف طومان – ولما عجز عن دفعه أخذوه إلى حسام نظام، وحلقوا لحيته وشاربه بأمر منه، ثم عقدوا قدميه بالعصا، وضربوه، وتقررت هذه الواقعة عدة مرات، وفى النهاية، وبعد التدخل والوساطة، ارتضى صمد خان الحصول على ستة آلاف طومان، ولما كان قد زج باثنين من أشقائه وابنه فى السجن، فقد تم إطلاق سراحهم كذلك وعملوا فى التجارة واقترضوا من هذا وذاك. أما ميرزا عبد الحسين فقد قُتل على أثر التعذيب، يقول شكوهى:

"لقد كان رجلاً متعلمًا مثقفًا شغوفًا بالحياة النيابية، بذل الكثير من الجهد فى هذا السبيل". ويقول:

"لقد أخذوا المسكين هذا من بين أهله وأسرته، كان له ثلاثة أو أربعة أطفال خشوا من المجئ إلى السجن، وبعد كثير من الإلحاح، وذات يوم أحضروا ابنه جلال ذا العشرة أعوام إلى السجن، وكان خائفاً، فقربه منه ولاطفه وضحك فى وجهه بينما قلبه يدمى، وداعب ذلك الطفل ثم مضى، وتأثر جميعنا من مشاهدة ذلك وانفجرنا فى البكاء. كان ذلك الرجل الغيور يعلم ما الذى سيؤول إليه مصيره. ففى غد ذلك اليوم أخرجوه من السجن بأمر صمد خان وجردوه من ملابسه وألقوه فى حوض من الثلج ومسك الخدم بالعصى وجعلوا يضربونه ضربًا مبرحًا حتى فقد وعيه وفاضت روحه، وعندئذ عقدوا قدميه فى الحبل، وسحبوه، وعلقوه على إحدى الأشجار فى ميدان ملا رستم. والحاج ميرزا حسن وغيره ممن دفعوا المال كان عليهم ألا يبقوا فى مراغه. وخرج جميعهم، وكان صمد خان قد أمر بعدم السماح لأهالى تبريز فى مراغه بالخروج.

حروب شيرمين وسرد رود

سعى صمد خان فى تلك الأثناء فى جمع الفرسان والجند كى يتجه بهم إلى تبريز، وذلك الرجل الذى أبدى عدم جدارة فى ساوجبلاغ أمام جيوش الأجانب

وأودع المدينة إلى العثمانيين دون قتال، نجده الآن يستخدم كل ما لديه من حنكة وذكاء كي يبادر بكل تلك الاستعدادات لاقتلاع شأفة الحياة النيابية، وحينما جهز جيشًا من فرسان الأكراد وجهاردولو وگورانلو، ومن فرسان مراغه نفسها – وقد تعدى عددهم بوجه عام الأربعة آلاف – حمل مدفعين معه وخرج من مراغه وبلغ خانيان.

من ناحية أخرى، حينما سمعوا فى تبريز قصة قدومه إلى مراغه وما لديه من قوة، قاموا بتجهيز جيشًا من المجاهدين تحت قيادة محمد قلى خان آغ بلاغى والحاج خان القوقازى، وتم إرساله إلى مراغه فى الثانى عشر من ذى القعدة (١٦ آذر)، ووصل إلى خانقاه، واستقر هناك ومعهم الحاج حسين أرومچى. وحينما التقى الجيشان ولم تزد المسافة بينهما عن فرسخ ونصف كان ذلك اليوم هو السابع والعشرين من ذى القعدة (الأول من شهر دى) حيث احتدمت المعركة.

ورغم أن تعداد المجاهدين كان حوالى ألف شخص وكانوا عديمى الخبرة بقتال الصحارى والجبال، إلا أنهم لم يبالوا وتقدموا للحرب قبل شروق الشمس، وأغاروا على الفرسان ونشب عراك شديد فى الجبال المحيطة بخانيان استمر لمدة ساعتين انهزم خلالها المجاهدون، وفرت جماعة منهم تجاه البحر وألقت بأنفسها فى المياه وهلكت، كما سقطت جماعة أخرى على أثر طلقات الرصاص من قبل الفرسان، وتم اعتقال عددٍ آخر، وتمكن عدد قليل منهم من الخروج والوصول إلى تبريز.

وقد مثلوا بجثث القتلى – كما كان يحدث فى الحروب قديمًا – حيث تم فصل رؤوسهم ووضعوها فى جعاب، وأرسلوها إلى صمد خان. أما من تم القبض عليهم فقد تعامل معهم الفرسان بقسوة حيث جردوهم من البنادق والذخيرة والملابس، وتركوهم عرايا فى برد الشتاء القارص هذا، ومات العديد منهم فى الصحارى بسبب الجوع أو شدة البرودة، وتمكن بعضهم من الوصول إلى تبريز وهم فى هذه الحال. كما تم القبض على ما يقرب من أربعة من الكرجيين من رماة

القنابل، ولما كانوا يجهلون التحدث باللغة وعجزوا عن تبرئة ساحتهم، قتلهم الفرسان بإطلاق السهام عليهم الواحد تلو الآخر.

كانت هذه هى أول هزيمة يتجرعها المجاهدون من قبل صمد خان، وحينما بلغت تلك الأنباء تبريز اشتد وقعها على الأحرار. من ناحية أخرى تحين المسيئون للحياة النيابية – وكانوا كثرة فى المدينة – الفرصة، وقاموا بجلبة، وجعلوا يمتدحون صمد خان وأعماله وعقدوا الآمال عليه، ودب فيهم دبيب الأمل مرة أخرى خاصة بعد عودة رحيم خان مع فرسان قره داغ وجندها وانضمامه إلى معسكر عين الدولة، وكذلك بعد وصول الإمدادات من طهران بشكل متتالٍ إلى باسمنج.

وبعد الهزيمة التى ألحقها صمد خان بالمجاهدين ظل لمدة يومين فى خانقاه ثم قدم إلى دهخوارقان، ومن هناك وصل إلى خسروشاه بعد أيام، وانضم إليه الحاج احتشام ليقوانى مع جماعة من الفرسان والجند أرسلت من باسمنج من قبل عين الدولة. وصمد المجاهدون أمامهم فى سردرود – على مسافة فرسخين من تبريز – لكنهم عدموا الحصون المحكمة، فاكتفوا بثقب جدران الحدائق والوقوف خلفها.

وفى الرابع عشر من ذى الحجة (١٧ دى) أغار صمد خان والحاج احتشام بغتة واحتدم العراك، وأبدى المجاهدون مقاومة، لكن نظرًا لتفوق رجال الدولة فى العدد، وكذلك لمعرفة جند اسكوكوچه بحدائق سرد رود وبتلك النواحى معرفة جيدة، فقد جاء البعض منهم آنذاك إلى سرد رود بهدف التجارة وتذكروا حصون المجاهدين، لذا حينما بدأت الحرب تقدموا وصاروا خلف المجاهدين وأحاطوا بسرد رود. هذا ولم يتمكن المجاهدون من الصمود أكثر من سبع أو ثمان ساعات وانهزموا وقُتل البعض منهم، وفر البعض، وتم القبض على من تبقى منهم، قتل الفرسان عددًا منهم وتركوا الآخرين عراة. ومن بين الذين تم القبض عليهم الحاج حسين أرومچى، وأصغر خان (المسكين) ونائب حسين ياپو شقانچى، وقد تم قتل

الأول، أما الإثنان الآخران فقد وجهوا بهما إلى مراغه وهما فى حالة يرثى لها وزج بهما فى السجن. كما تم القبض على اثنين من نواب علماء النجف – وهما الشيخ جلال النهاوندى والسيد معين – وتم ارسالهما إلى مراغه، يقول مشهدى محمد على حان:

"كنت أتحدث على الهاتف مع الحاج حسين وأصغر المسكين، وكانا يطلعانى على تأزم الوضع، وفجأة قال الحاج حسين: لقد فات الأوان، ولا جدوى من العون. قال هذا وترك الهاتف. وأطلعت ستارخان بالواقعة، وأرسل شخصًا إلى باقر، وحينما جاء، امنطى ثلاثتنا الجياد وتقدمنا حتى خطيب. وهناك وصل الفارون، ووبخ ستارخان القادة لكن دون حدوى ووقفنا حتى الغروب، فقال ستارخان: لنتجه إلى سرد رود. ولم أرتض أنا وباقر خان هذا وأخذناه وعدنا إلى المدينة".

استعدادات كلا الجانبين

على هذا النحو وصل صمد خان حول المدينة، وأقام معسكرًا فى سرد رود، وسعى للحيلولة دون دخول الطعام إلى المدينة، وكلف الأحرار كلاً من مشهدى هاشم حراجچى، ومشهدى شفيع قناد مع فرقهما بحراسة المنطقة المواجهة لصمد خان – أى منطقة خطيب وهى إحدى المناطق القريبة من المدينة – وكانوا قد أقاموا حصنًا فى المنطقة الغربية لها على طريق سرد رود. وكان أهالى خطيب قد غادروا منازلهم فى ذلك الشتاء وقدموا إلى المدينة، وتبقى منهم فقط نائب أكبر – وكان بطلاً مغوارًا – ومعه فرقة من البنادقة لدعم المجاهدين.

أما أهالى قراملك الذين ذكرنا من قبل انضمامهم إلى ستارخان بعد إخلاء منطقة الدوتشى فقد طالبوه بالعفو والأمان ومنحه لهم. إلا أنهم استأنفوا العداء ثانية فى ذلك الحين، وتضامنوا مع صمد خان، وكان عباس هكماوارى وغيره ممن لاذوا بالفرار قد وصلوا هناك فأرسل صمد خان القادة مع فرسانهم وأمر بإغلاق طريقى آرونق وانزاب والقتال من تلك الناحية. وقام الأحرار بدورهم ببناء الاستحكامات أمامهم فى هكماوار، ونصبوا مدفعًا فوق مكان عال يسمى "دشگير

داغی ، وبسبب الانتصارات المتتالية ذاع صيت صمد خان، وكان مؤيدو الدولة يعقدون عليه الآمال، بينما اعتبره الأحرار ألد الأعداء وكانوا يخشونه أكثر من غيره.

ومنذ اليوم الذى بلغ فيه سرد رود بدأ عين الدولة فى مباحثات الصلح وإبداء النوايا الحسنة، وكما ذكرنا، كان قد جمع حوله جيشًا غفيرًا فى ذلك العهد، كما كانت الذخيرة والمعدات تصل من طهران بوفرة. وفى تلك الأثناء انضم رحيم خان إليه مرة أخرى ومعه فرسان قره داغ وجندها.

وعلى هذا النحو تم حصار المدينة ثانية، وفى تلك الأثناء كانت جميع الطرق مغلقة أمام المدينة باستثناء طريق جلفا الذى كانت تصل عن طريقه بعض السلع كالسكر والنفط وأحيانا البنادق والذخيرة. وقد توفر الطعام فى المدينة خلال الثلاثة شهور تلك، لكن حينما تم إغلاق طريق سردرود وقرا ملك ارتفع سعر القمح وشح وجوده وخلت المخابز من الخبز كما ارتفعت أسعار السلع الأخرى وشحت من الأسواق، وبوجه عام عادت الأزمة ثانية.

ويجب أن نعلم أن محمد على ميرزا حينما أطاح بالمجلس كان يستهين بأمر تبرير، لذا طلب الحل من كل من شجاع نظام ورحيم خان ورجال الدين فى الجمعية الإسلامية. لكن فيما بعد، حينما علم أن الأمر يفوق ما توقع، أرسل السپهدار وضغط على عين الدولة. إلا أن الأمور لم تتحسن. لذا تغاضى عن هذه الاستعدادات وقام هذه المرة بعمل أكبر. فكما رأينا، أرسل فى البداية كتيبة من القوزاق ثم تبعها بجماعات الجند والفرسان تحت قيادة على خان أرشد الدولة ليكون بديلاً عن السپهدار. من ناحية أخرى، قام بإرسال صمد خان كى يجمع الجند من مراغه وچار دولى وكردستان وغيرها للضغط على المدينة من ناحية أخرى، وعليه صارت قوة الدولة أكثر من ذى قبل، وقيل إن تعداد جند الدولة فى تبريز آنذاك كان يتراوح بين الخمس والثلاثين والأربعين ألفاً.

وبينما كان شجاع نظام ورحيم خان يعانيان من نقص فى الأموال والمعدات، لم تعان هذه الجماعات من تلك المشاكل والسبب فى ذلك هو وصول البنادق والمعدات الحربية – التى أوصى بها مظفر الدين شاه مصانع فرنسا منذ أربعة أعوام فى سفره الأخير إلى أوربا – إلى طهران، فقد وزعها محمد على ميرزا على جنده وأرسلها إلى تبريز. وكانت تلك البنادق – لو بل التى عرفت فى تبريز باسم "سه تير" أى ذات الثلاث طلقات – هى آخر ما تم تصنيعه فى مصانع فرنسا ويعد من أفضل البنادق، وكان معظم رجال الدولة يحملون تلك البنادق أو نظيرتها ذات الخمس طلقات – پنج تير – واختفت نظيرتها القديمة من ماركة رندل. كما امتلكت كتائب القوزاق عددًا من الأسلحة المتطورة – شصت تير، أى ذات الستين طلقة – وقد تم شراؤها كذلك من المصانع الفرنسية. ويقال إن هذه هى المرة الأولى التى استخدمت فى إيران.

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن قائد تلك القوات كان رضاخان سواد كوهى الذى بلغ سدة الحكم فى إيران من بعد وأسس الأسرة البهلوية وحكم ما يقرب من العشرين عامًا بقوة وحنكة بالغة.

كانت هذه هى استعدادات رجال الدولة. من ناحية أخرى، كان الأحرار منذ بداية الحرب قوة لا يستهان بها، وقد زادت قوتهم الآن أيضاً، خاصة بعد إغلاق الجمعية الإسلامية وإخلاء الدوتشى، وحينما أرسلوا البعض خارجًا وفتحوا سلماس وخوى ومرند ازداد عددهم ثانية بسبب انضمام القرويين الذين قدموا إلى المدينة وانضموا إلى المجاهدين. من ناحية أخرى، وصلت فى تلك الفترة موضع حديثنا إلى تبريز جماعة من الأرمن أرسلتها جمعية "داشنا كسيون" – التابعة لجمعية الشيوعيين الديمقراطية الروسية – من القوقاز بقيادة كرى خان.

فى تلك الأثناء احتدمت الثورات، فبالإضافة إلى الثورات التى ظهرت فى تبريز وغيرها من مدن آذربايجان الأخرى، ظهرت انتفاضة أخرى فى القوقاز بين الإيرانيين ورفقائهم من الكرجيين والروس، وفى نفس الفترة تم التباحث مع معز

السلطان وغيره وتم وضع الأساس لثورة جيلان. كما ظهرت ثورة أخرى في اصفهان واستولى صمصام السلطنة والبختياريون على المدينة، وبدا واضحًا أن تلك الأحداث مما يدعم قلوب أهالى تبريز.

وفيما يتعلق بالبنادق والمعدات الحربية فقد توفرت بنادق "پنج تير" وكانوا يجلبونها من القوقاز سواء عن طريق الأحرار أو عن طريق التجار. وقد تعاون ستارخان كثيرًا مع هؤلاء التجار وتودد إليهم، وانتخب المغفور له ميرهاشم خان وأرسله لإحضار السلاح. وفى تبريز كانوا يرسلون إليها كذلك البنادق – پنج تير – وتدريجيًا اختفت البنادق القديمة – شاسپو – وشحت ماركات رندل وما أشبه.

وبوجه عام استعد الأحرار بشكل أفضل من ذى قبل، وقل الفارق بينهم وبين رجال الدولة، فبينما استخدم رجال الدولة بنادق – شصت تير – والمدافع الحديثة، استخدم الأحرار فى المقابل القنابل والقاذفات، وبصفة عامة زادت استعدادات كلا الجانبين، ومنذ ذلك الحين بدأت سلسلة أخرى من الحروب سوف نوردها فى موضعها. وحرى بنا فى هذا المقام أن نتناول طهران بالحديث ونلخص بعض الأحداث التى وقعت هناك.

دار الشورى الحكومية الكبرى :

كما أسلفنا، عندما أغلق محمد على ميرزا المجلس عنوة حرص على عقد ألسنة الدول الأوربية، وصرح بأنه لم يطح بالحياة النيابية بل أنه قضى على المجلس فقط، وسوف يقوم بافتتاحه ثانية بعد ثلاثة شهور، لكن بعد انتهاء الفترة المحددة منح مهلة أخرى لمدة شهرين، ثم صدر فرمان فى الثامن والعشرين من شعبان (الثانى من مهر) باسم الصدر الأعظم يفيد بأنه طالما سيتم افتتاح المجلس فى التاسع عشر من شوال فمن الضرورى تهيئة المجال لذلك، وبدا من نفس الفرمان بأن القوانين لن تبقى كما كانت وأن الحياة النيابية سيتم طرحها وفقًا للشرع المبين، وقد تم تنحية تبريز جانبًا فى الفرمان المذكور وتم إعلان حرمانها من الانتخابات ما لم يستتب الأمن بها وتتوقف أعمال القلع والقمع فيها.

بعد ذلك، وحينما انتهى الشهران الآخران، اقترب حلول يوم التاسع عشر من شوال، وانعقدت جلسة فى الثانى عشر من شوال (١٦ آبان) فى باغشاه وتم استدعاء بعض المنتفضين فى طهران لحضورها، ودار حديث حول اقتراب حلول يوم التاسع عشر من شوال وضرورة انتخاب نواب المجلس، وكما هو مخطط له من قبل، علت أصوات الحاج الشيخ فضل الله وغيره يرددون عدم اتفاق الحياة النيابية والشريعة، وتوالت البرقيات - بأمر من الحاج الشيخ فضل الله ووساطته - من الملالى فى كرمان وهمدان وشيراز وغيرها من المدن، والعجيب هنا ما تم ذكره بشأن تلاوتهم لإحدى البرقيات بإسم أهالى تبريز.

وأسفرت هذه الجلسة عن أنهم كتبوا عريضة إلى الشاه فوق سروال كبير يطالبونه بالتغاضى عن الحياة النيابية وعدم إعادتها إلى إيران، ووقع عليها جميع الحضور كرهًا أو طوعًا وانتهت الجلسة على هذا النحو.

وفى الرابع والعشرين من شوال (٢٨ آبان) استدعوا الأهالى ثانية لحضور إحدى الجلسات، وحضر محمد على ميرزا بنفسه فى هذه المرة، ودار الحديث هنا أيضًا حول رفض الحياة النيابية، وذيلوا عريضة أخرى أو مطالب أخرى بتوقيع الأهالى واقترحوا أن يرد الشاه فى الجزء الأعلى منها ثم يتم طبعها وتوزيعها فى المدينة، وأتموا ذلك، وحرى بنا أن نورد ما دونه الشاه فى هذا الموضع:

بسم الله تبارك وتعالى

"جناب المستطابين حجج الإسلام سلمهم الله تعالى، كانت همتنا دومًا تهدف إلى تدعيم الإسلام وحماية الشريعة النبوية، وواقع الحال إنكم اكتشفتم تنافى إنشاء المجلس مع الشريعة الإسلامية وأصدرتم حكمًا بتحريمه وهذا ما أكد عليه أيضًا علماء المملكة كتابيًا وبرقياً، وعليه فقد صرفت النظر عن هذا الأمر، ولن يكون للمجلس أية صفة مرة أخرى. غير أنه من الضرورى إصدار قانونٍ للعمل وفقًا لتوجيهات حضرة إمام الزمان عجل الله فرجه لنشر العدل وبسط العدالة، فلتطلعوا جميع الطبقات على هذه النية الملكية لنشر العدالة ورعاية حقوق الرعية وإصلاح

المفاسد وفقًا لأصول الدين الإسلامى المبين لحضرة خاتم النبيين (صلى). محمد على شاه القاجارى".

وبهذه الأعمال المرائية التى أوردناها فى اقتضاب أراح محمد على ميرزا نفسه، وعثر على الحجة التى يتذرع بها للتنصل من الوعد الذى منحه من قبل بشأن إعادة افتتاح المجلس، لكنه عزم بفهمه الفاصر على تشكيل مجلسٍ باسم "دار الشورى الحكومية الكبرى" يتألف من رجال البلاط والأعيان والتجار على أن يكون البلاط مقرًا لهم للتباحث حول أمور الدولة ويحل محل دار الشورى، وعليه أعدوا قائمة تضم ما يقرب من خمسين شخصاً، وأرسلوا إلى كل منهم يدعونهم للحضور فى ذلك المجلس على أن يتوجهوا إلى البلاط فى الرابع من ذى القعدة (الأحد ٨ آذر) ليكون ذلك اليوم هو يوم افتتاح المجلس ثم يكون الحضور بعد ذلك بمعدل مرتين كل أسبوع للتباحث فيما بينهم.

وتم نشر أسماء هؤلاء الأشخاص فى الصحف غير أننا لا نجد ضرورة فى ذكرهم هنا. وكما علمنا، استمر هذا المجلس فى الانعقاد لفترة، وبدا واضحًا أنه لم يهتم سوى بالمهاترات، وحرص الحضور فيه على إظهار فضل كل منهم على الآخر، هذا وسوف نورد نموذجًا من تلك الأحاديث فى هذا الموضع طالما كانت بين أيدينا :

كان أحد الحضور يدعى صدر السلطنة، وكان يعيش منذ فترة فى طهران وهو يعد من مشاهير رجال البلاط، وقد تولى العمل فى السفارة الأمريكية فترة من الزمن، وبين أيدينا مكتوب عن هذا الرجل ملخصه كالتالى: "إنه غزل يجب أن يتلوه صدر السلطنة حفظًا لأمين البلاط على الملأ بصوت جهورى وبكامل الرشد وبدون تفكير:

إن اقتراف الذنب سرًا أفضل من العبادة علانية

لو كنت تعبد الله فلا تعبد الأهواء ...

وأورد الغزلية حتى آخرها ثم كتب :

"١٧ بيتًا" الثالث من ذى الحجة عام ١٣٢٦هـ ".

وكان الحاج أمين البلاط مستاء من الجلسة السابقة بسبب حديث الحاج صدر السلطنة، وحينما عاد إلى منزله حفظ غزلية سعدى هذه التى تبلغ سبعة عشر بيتًا حتى يتلوها فى الحلسة القادمة على الملأ بصوت عالٍ وبكامل الرشد كى يثأر منه.

ومن هذا الحديث يمكن أن ندرك أن كل ما كان يدور من أحاديث فى مجلس الشورى ذلك كان كالذى يدور فى محافل رجال البلاط والأعيان، ولم يزد عن كونه قراءة للشعر ومذمة كل منهم للآخر وإظهار الفضل.

إصابة الحاج الشيخ فضل الله بالرصاص

كما أسلفنا، أدى صمود أهالى تبريز فى مواجهة محمد على ميرزا وانتفاضاتهم إلى إثارة الأهالى فى كل مكان. ففى طهران، ورغم كل الأزمات التى كانت تحدث، بسط البعض ألسنتهم فى مدح أهالى تبريز وأعربوا عن رغبتهم فى الحياة النيابية خاصة بعد القضاء على الجمعية الإسلامية وفرار أعضائها من الدوشى إلى طهران وكان ضعفهم هذا باعثًا على شجاعة الأحرار.

وفى شهر آبان، حينما وصلت برقية من النجف تمت الإفادة بوفاة المغفور له الحاج ميرزا حسين الطهرانى وإقامة مراسم ختم القرآن فى تبريز وكافة المدن الأخرى عليه. وفى طهران تحين الأحرار الفرصة وأغلقوا الأسواق وأقاموا سرادقات ختم القرآن فى عدة أماكن، وخلال ذلك كانوا يرسلون أعوانهم إلى الخارج ليتحدثوا حول الحياة النيابية.

وفى الأيام التى كان محمد على ميرزا يقوم فيها بتلك الأعمال التى ذكرناها سالفًا بمعاونة الحاج الشيخ فضل الله وغيره لم ينخدع الأهالى بهذه العروض وجعلوا يذمون محمد على ميرزا والحاج الشيخ فضل الله قدر استطاعتهم. أثناء

دلك وقع حادث أليم، وكيفية ذلك أن السيد على آقا اليزدى - الذى ذكرنا أنه كان من الملالى المسيئين للحياة النيابية ومن الذين خططوا لفتنة ميدان المدفعية - قد نصب خيمة فى منزله لإقامة مراسم ختم القرآن على الحاج الطهرانى، وفتح باب داره لدخول الأهالى وخرجوهم، وأعلن تأييده العلنى للحياة النيابية، وامتدح السيدين وغيرهما، وذم محمد على ميرزا بشكل مستتر، وكان هذا من عمله باعثًا لدهشة الجميع. وحينما سمع محمد على ميرزا بذلك أرسل الخدم لاقتلاع خيمته ووضع منزله تحت الحراسة، وهذا ما بين بجلاء سقوط محمد على ميرزا من أعين الكثيرين وأن مؤيديه قد أدركوا مدى ضعفه.

ومر الحال على هذا النحو حتى توجه السيد على آقا هذا إلى حضرة الشاه عبد العظيم فى شهر آذر واعتصم هناك ورفع راية الحياة النيابية وجمع الأهالى حوله، كما لجأ صدر العلماء ومجموعات أخرى - كعادتهم السابقة - إلى السفارة العثمانية، واحتشدوا هناك وسعوا لإعادة الحياة النيابية. ونتيجة لهذه الأحداث تأزمت الأمور كذلك فى طهران، وقام عدد من الأحرار ببعض الجهود حيث توجه البعض منهم لقتل الحاج الشيخ فضل الله. فكما نعلم كان الحاج الشيخ فضل الله من ألد أعداء الحياة النيابية، وفضلاً عما قام به من أعمال فى السابق وتنحيه مضطرًا، فقد عاود الاشتراك فى الأحداث بشكل مستبد وسعى لاقتلاع شأفة الحياة النيابية بشتى الطرق، كما حث محمد على ميرزا فى هذا الحادث الأخير على عدم فتح المجلس وأثار مدن إيران وحرض الملالى على إلحاق الأذى بالحياة النيابية وإرسال البرقيات إلى البلاط. ويمكن القول إن زمام أمور محمد على ميرزا فى ذاك الوقت كان فى قبضة ذلك الرجل. فكل هذه المقاومة التى أبداها محمد على ميرزا تجاه الأحرار وعلماء النجف والمبعوثين السياسيين للدول الأوروبية كانت تتم بدعم من هذا الرجل، وعليه كان محمد على ميرزا يعتمد عليه تمامًا ويصغى إلى كل ما يقول ويطلب مشورته فى كل أمر يقوم به. وكان الأهالى يروحون ويجيئون إلى داره فى حشود وحظى بمكانة كبيرة فى ظل هذه الأحداث الجسام وكان يستغل إحدى العربات فى تنقلاته ويلتف حوله العديد من الأعوان. وخلاصة القول: إن هذا

المجتهد الشيعى قد بلغ أمله القديم الذى كان يبغيه منذ أعوام طوال. وعلى ذلك قام بعض الأحرار - لا نعلم من هم على وجه الدقة - بالتخطيط لقتله، وحثوا أحد الشباب الجسورين - ويدعى كريم دواتكر - وأشخاصًا آخرين للقيام بهذه المهمة، وتحين هؤلاء الفرصة ليلة السبت السادس عشر من ذى الحجة (١٩ دى) لأداء هذه المهمة، غير أنهم فشلوا فيما يبغون. وقد دون كاتب الحاج الشيخ فضل الله تلك القصة فى رسالته إلى ابنه فى النجف، ولما كانت بين أيدينا فسوف نورد مقتطفات منها فى هذا الموضع، يقول :

"توجه الحاج الشيخ فضل الله فى يوم الجمعة لرؤية بعض الأشخاص، ومرت ساعتان من الليل حينما كان يترجل مع عضد الملك وابنه الحاج ميرزا هادى وثلاثة آخرين من رجال الدين وكذلك بعض الخدم وكانوا يحملون المصابيح. وتقدم شخص وحينما وصل إلى الحاج الشيخ فضل الله أطلق ست رصاصات، أصابته واحدة منها بحيث لم يتمكن من الوقوف وسقط أرضًا وقام ميرزا هادى بالاعتناء به، وحينما تم إطلاق عدة رصاصات أخرى بلغت إحداها ميرزا حاجى آقا دماوندى - أحد الملالى المحيطين به وهو الآن يعيش فى طهران ويُعرف باسم خطيبى - وأصابته، وحينما اندفع رفقاء الحاج الشيخ فضل الله إليه ورغبوا فى القبض عليه تم إطلاق عدة رصاصات نفذت إحداها إلى رقبته وخرجت من عظام وجنته، وحينما رأى رفقاؤه القريبون منه هذا لاذوا بالفرار. أثناء ذلك، اندفع الأهالى المجاورون على أثر صوت الطلقات وعلموا بما حدث وحملوا الجرحى ثلاثة ثلاثة إلى منزل الحاج الشيخ فضل الله وأخرجوا الطلقة التى أصابته فى فخذه وكان جرحه بسيطاً. كما أصيب ميرزا حاجى آقا فى قدمه وكتفه إلا أن حالته لم تكن سيئة، لكن حالة من أطلق الرصاص كانت سيئة للغاية لدرجة لم يتمكن فيها من الحديث حول إصابته، وكلما سألوه لم يجدوا رداً، وعلموا من خاتمه فقط أن اسمه "كريم"، وفى الغد، وبعد التحريات علموا أنه يعمل فى مجال الأدوية. وعلى أية حال، فقد تحفظوا عليه، وحينما تحسنت صحته، عقدوا السلاسل حول رقبته وزجوا به فى السجن. ولم يرتض الحاج الشيخ فضل الله قتله، ويقال إنه ظل فى

الحبس حتى سقوط طهران فى قبضة الأحرار. وقد تحسنت صحة الحاج الشيخ فضل الله وميرزا حاجى آقا بعد فترة.

أحد الأعمال العجيبة لأحرار القوقاز:

كان هذا جزءًا من أحداث طهران، ولما بدر فى تلك الآونة عمل عجيب من قبل أحرار القوقاز فسوف نورده فى نهاية هذا المقال:

كما ذكرنا من قبل كان محمد على ميرزا يرغب فى الاستدانة من دولتى روسيا وانجلترا، وكان الروس والإنجليز منذ فترة طويلة يتخذون من إقراضهم لإيران أداة لتحقيق مآربهم السياسية، وكانوا يسعون منذ فترة لإقراض إيران ثانية للحصول على المزيد من التسلط لهما. وكما نعلم، قد دار الحديث مرارًا حول هذا الأمر منذ بداية افتتاح المجلس. وفى كل مرة كان المجلس يسعى للحيلولة دون ذلك، لكن دار هذا الحديث ثانية بعد غلق المجلس، وكان الشاه يرغب فى ذلك بسبب الأزمة المالية وانعدام وجود المال، ودار الحديث حول تقديم جزء من هذه الأموال كقسط لهذا القرض إلى محمد على ميرزا حتى يتم الإعداد له ثم يدفع الجزء المتبقى بعد افتتاح المجلس واستتباب الأمور فيه، وذكروا أن المجوهرات الملكية ستكون رهنًا لذلك القرض. وكما ذكرنا، قامت جمعية تبريز بمنع هذا الأمر وأبرقت إلى مجالس أوربا حول هذا الشأن، كما أرسل علماء النجف الفتاوى إلى المدن، كذلك قام الأحرار فى كل من روسيا وانجلترا بنقد هذا العمل، ونتيجة لذلك تراجعت كلتا الدولتين وكفتا عن تقديم المال.

من ناحية أخرى، بعد وقوع حادث قصف المجلس بيد لياخوف وقيام الصحف الإنجليزية بنشر النقد اللاذع لمسلكه هذا، نجد بعض الصحف الروسية كذلك تنضم إليها وتطالب الحكومة باستدعاء لياخوف. وأوقعت تلك الأصوات العالية فى الأراضى الروسية الخشية فى قلب محمد على ميرزا لأنه كان يرى الحاجة ماسة إلى لياخوف وقواته، لذا اختار علاء الملك وأرسله إلى بطرسبرج

سفيرًا فوق العادة ليتباحث هناك حول استدعاء لياخوف وتقديم القرض، وقام علاء الملك بالمهمة، ونشرت الصحف الروسية ما قام به من أعمال، ولما كان الأحرار يدركون أن الأموال ستمنح القوة لمحمد على ميرزا لذا طالبت لجنة الإيرانيين فى باكو بإرسال أحد رجال الدين الأحرار من الإيرانيين كمندوب من قبل علماء النجف إلى بطرسبرج لمقابلة المسئولين الروس والتباحث معهم وتبليغهم بعدم رضا علماء النجف عن القرض. وقد منع المسئولون الروس هذا المندوب من تنفيذ خطته لأنهم كانوا يدركون أنه فى حالة امتناع الحكومة عن تقديم القرض سيقوم أثرياء أوربا بذلك ويظفرون بالجواهر الملكية.

وبينما كانت لديهم هذه الفكرة فإذا بميرزا على أكبر أرداقى وميرزا عبد العلى مؤيد بيدگلى يصلان من جيلان إلى باكو. ونحن على معرفة بميرزا على أكبر حيث كان من المعتقلين فى باغشاه. وحينما تم إطلاق سراحه لم يمكث فى طهران طبقًا لأوامر محمد على ميرزا وتوجه إلى مدينة الرشت، لكن سردار أفخم (آقا بالاخان) – من ألد أعداء الحياة النيابية وأشهرهم – لم يتركه ينعم بالراحة وأرسله إلى القوقاز. أما مؤيد فقد أقام فترة فى النجف للدراسة إلا أنه عاد إلى إيران دون داعٍ، وعمل بالتدريس فى المدارس الإبتدائية حينًا، وأحيانًا أخرى كان يعمل لدى الأمير بهادر ليصحح له الشاهنامة[١].

بعد ذلك انضم إلى الأحرار فى الحركة المطالبة بالحياة النيابية، وجعل يتنقل ثم عاش متخفيًا بعد القصف حتى توجه إلى جيلان بصحبة ميرزا على أكبر، ومن هناك توجه إلى القوقاز. وبشكل عام، كان هذا الرجل مضطربًا لا يصلح للقيام بالمهام الكبرى، لكن الأحرار كانوا يقدرون لحيته العريضة وعمامته الكبيرة

---

(١) لدينا نسخة من الشاهنامة – أى كتاب الملوك – التى طبعها الأمير بهادر، وقد دون مؤيد هذا كتابًا فى تاريخ حياته بخط يده لكنه مفعم بالأكاذيب وامتداح الذات وقد دون فيه قصة سفره إلى بطرسبرج لكنه كان يُظهر أن علماء النجف كانوا يعرفونه وأنهم هم الذين انتخبوه، ويوجد المزيد من المهارات الأخرى التى دونها.

وانتخبوه واشتروا له ملابس ثمينة نظيفة وصبوا المال فى جعبته وأرسلوا معه پانوف – الذى تم طرده من إيران وكان متضامناً آنذاك مع أحرار إيران فى القوقاز ويبدى كثيرًا من الشغف تجاههم – ليكون مترجمًا له .

وعلى هذا النحو توجه مؤبد إلى بطرسبرج وقدم نفسه هناك باسم الشيخ ميرزا على المبعوث الخاص لعلماء النجف، وتمت استضافته برفقة پانوف وتباحث مع الساسة الروس، وخاصة الأحرار منهم، ونُشرت المقالات فى الصحف حول ما قام به پانوف من أعمال باعتباره المترجم الخاص له، وذاع اسمه تدريجيًا فى الصحف، وقام الروس بالبحث والتقصى عنه عند أرفع الدولة، ورد أرفع الدولة بعدم وجود شخصية فى النجف بهذا الإسم.

من ناحية أخرى، تناولت الصحف الإنجليزية الحدبث بشأنه، واستمر هذا الوضع لعدة أسابيع حتى أدرك الروس أن بعثته نائبًا عن النجف هى محض افتراء، وطالبوا باعتقاله فقام پانوف بتعريفه وتم طرده من البلاد. وعلى هذا النحو عاد كلاهما إلى باكو غير أنهما لم يتمكنا من البقاء فيها، وأرسلت الجمعية مؤبد إلى اسطنبول، وقدم پانوف إلى جيلان وكان له ضلع فى الثورة هناك.

هذه هى حكاية الشيخ ميرزا على، وعلى الرغم مما أحدثته من ضجة إلا أنها لم نسفر عن نتيجة، وقد دونها براون وغيره تفصيليًا إلا أنهم لم يتتبعوا جذورها، وظلوا جاهلين بأن الشيخ ميرزا على هو مؤبد بيدگلى.

«المقال الخامس عشر»

كيف وقعت تبريز فى الأزمة مرة أخرى؟!

يدور الحديث فى هذا المقال حول الحروب التى دارت رحاها ثانية حول المدينة مع رجال الدولة، وكذلك حول بعض الأحداث الأخرى حتى انتهاء تلك الحروب.

تبريز وخوى وسلماس

كما أسلفنا، حينما بلغ صمد خان منطقة سرد رود أقام هناك معسكراً، وأقام آخر كذلك فى قراملك وتم حصار المدينة للمرة الثانية. وجدير بالذكر إن ثمة عهدًا جديدًا قد بدأ فى تاريخ المعارك فى تبريز، فمنذ ذلك الحين دارت سلسلة من الحروب سيرد ذكرها فى هذا المقال.

وكما أسلفنا، ازدادت استعدادات كلا الجانبين، وترتب على ذلك ازدياد المعارك، إلا أن المعارك السابقة كانت أشد وطأة، فضلاً عن ذلك، كانت المدينة فى تلك الآونة تنعم بالهدوء والاستقرار، ولم تنشب الحروب سوى فى المناطق النائية، وكانت الأمور تسير بشكل طبيعى فى كافة الإدارات، واستقرت المدن بشكل لم يسبق له نظير وأبدى الأحرار الكثير من اللياقة والجدارة.

فى تلك الأيام، وصل السيد محمد رضا الشيرازى - الذى فر من طهران متجهًا إلى القوقاز - إلى تبريز ونشر صحيفته فيها، وقد صدر العدد الأول منها

فى الأول من محرم عام ١٣٢٧ هـ (٤ بهمن) نشر فيه مقالاً تفصيليًا حول أمن المدينة وامتدح ما قام به الأحرار من أعمال يقول :

"من حسن الطالع أن كافة مسئولى الجمعية المقدسة وجناب سردار وسالار والمجاهدين وغيرهم قد أدركوا أن إدارة المملكة لا يمكن أن تتم إلا عن طريق تفكيك القوى التشريعية والقضائية والتنفيذية بعضها عن بعض... ". ثم يتطرق بالحديث عن الإدارات الواحدة تلو الأخرى، فيتحدث عن الجمعية الإقليمية ويذكر انعقادها أسبوعيًا على مدار ستة أيام بعد مضى ساعتين من النهار وحتى الساعة الرابعة مساءً لتتدبر أعمالها.

ويتحدث عن إحلال الملك مشيرًا إلى أن سردار وسالار يرسلان إليه جميع أمور المدينة بالتعاون مع الجمعية.

ويتحدث عن إدارة الشرطة قائلاً :

"لقد أعدت الآن ما يقرب من أربعمائة شاب من الفتيان الأقوياء وهم يبذلون قصارى جهدهم بزيهم الخاص لتحقيق الأمن فى المدينة".

ويتحدث عن أمن المدينة قائلاً :

"يقوم التجار وأهل السوق وعيرهم بأعمالهم على خير وجه وبكامل الأمن، ولم ير القرويون – ممن أتوا إلى المدينة لإمدادها بإنتاجهم الزراعى والحيوانى – مثل هذا الأمن فى أى وقت قط حتى الآن".

ويتحدث عن البلدية فى قوله :

"رغم كل الأزمات التى وقعت فى المدينة إلا أنها تصر بشكل لا نظير له على عمران المدينة وتعبيد الطرق ورص الأحجار فى الضواحى".

ويتحدث عن المصحة التى تم تأسيسها فى ضاحية أرمينيا:

"إنها تتألف من سبع حجرات ما بين سفلية وعلوية، وتحتوى على خمسة وعشرين مضجعًا بمستلزماتها".

ويقول عن اللجنة العسكرية:

"إنها تنعقد بالتعاون مع الجمعية الإقليمية وتقوم بأعمالها تحت إشراف كل من سردار وسالار".

وذكر انعقاد المحكمة برئاسة ضياء العلماء، كما ذكر لجان الضرائب والإعانة وامتدح كلاً منها.

والشئ الذى نساه "مساوات" ولم يذكره هو الهدوء والنظام لدى كتائب المجاهدين. فرغم اختلاط الإيرانيين بالقوقازيين والكرجيين والأرمن وأهل المدينة وأهل القرى، إلا أنهم كانوا يعملون معًا بشكل أخوى، ورغم ما كان يبذره قاطفو الثمار إلا أن عقد تعاونهم لم ينفرط.

ومن النماذج الجيدة التى يبدو فيها هدوء تبريز ونظامها أثناء تلك الحروب وفى خضم هذه الأحداث، إصدار بعض الصحف، مثل: "ناله ٔ ملت"، و"انجمن" و "مساوات". كما صدرت بعض النشريات الأخرى، وتم إعادة افتتاح المدارس وهو الشئ الذى تغاضى "مساوات" عن ذكره.

والخلاصة، كانت المدينة آنذاك تنعم بقدر كبير من الأمن والهدوء، ولم يكن هذا من نصيب تبريز فقط، بل شاركتها كذلك كل من خوى وسلماس. وكما أسلفنا، كان طريق شوسه – مرند، الممتد من تبريز حتى جلفا، يقع فى تلك الآونة فى قبضة الأحرار، وكانوا شغوفين به، لذا كان رجال الدولة يسعون للاستيلاء عليه أو العمل على تدميره، وكان العمال الروس فى شوسه متضامنين معهم.

هذا وقد اجتمع فى أواخر شهر دى عدد من أهالى ماكو فى منطقة كلفرج – إحدى القرى الواقعة على الحدود – وقاموا بأعمال الشغب وأغلقوا الطريق،

واعتصموا بالقرب من جلفا. وكان جميعهم يعلم أن مثل هذه الأعمال سوف تمنح الدريعة إلى الروس لتمرير جيوشهم عبر جلفا، لذا توجه كل من الحاج ميرزا آقا بلورى – أحد التجار ومن الرؤساء المطالبين بالحياة النيابية – ورضا قلى خان سرتيپ يكانى وأخيه محسن خان گوژ پشت – اللذين لجآ آنذاك إلى سردار وكانا فى تبريز – إلى جلفا وقاموا ببعض الأعمال هناك، وتمكنوا من هزيمة أهالى ماكو فى كلفرج وأخرجوهم من تلك المنطقة.

وعلى هذا النحو استتبت الأمور على أيديهم، فتوجهوا إلى مرند ومكثوا هناك فى منزل فرج آقا. لكننا سنرى من بعد كيف فُقدت مرند وجلفا سريعاً، ولم يتبق سوى خوى وسلماس اللتين أبدتا تضامناً مع تبريز.

وكما أسلفنا، كان حاجى پيشمناز وغيره يتولون مهمة الدفاع عن سلماس، وما أن تم فتح خوى حتى وصل إليها حيدر عمو أوغلى – الذى توجه من تبريز إلى مرند – وتولى أزمة الأمور فيها – يقال إن ذلك كان بأمر من لجنة باكو – وظلت المحكمة والشرطة والمالية وغيرها من الإدارات تمارس أعمالها بشكل طبيعى، وبحنكة بالغة قام عمو أوغلى بإعداد القوات لحماية المدينة فى مواجهة الأكراد وأهالى ماكو الذين استولوا على المناطق المجاورة، وبدأت الحروب منذ ذلك العهد وسوف نذكرها فى موضعها.

وانتخبت الجمعية الإقليمية الأمير حشمت – هو سعيد الملك الذى توجه من طهران إلى القوقاز ومنها إلى تبريز – ليتولى الحكم فى خوى وقد توجه إلى هناك وأعلن تضامنه مع عمو أوغلى.

بداية العراك ضد صمد خان

وصل صمد خان إلى منطقة سرد رود يوم الخميس الرابع عشر من ذى الحجة (١٧ من دى) واستقر هناكَ، ورغم برودة الطقس الشديدة إلا أنه لم يظل

ساكنًا أكثر من أسبوع واحد حيث بدأ القتال فى يوم الخميس التالى مباشرة وظل يناضل ويحارب لمدة ثلاثة أيام. ونظرًا لنشر قصة هذه المعركة فى صحيفة "انجمن"، ونظرًا لنقص المعلومات لدينا حول أحداثها، لذا نورد ملخصًا لها وفقًا لما تم نشره فى الصحيفة المذكورة:-

"فى يوم الخميس الرابع عشر من ذى الحجة، أغار أربعمائة فارس فى حملة مفاجئة على منطقة لاله - تبعد نصف فرسخ عن الجهة الغربية للمدينة - وبعد تجرعهم الهزيمة النكراء على يد المجاهدين، لاذوا بالفرار، وعادوا إلى منطقة سرد رود.

وفى يوم الجمعة توجه إلى هناك ستة من كتائب "الداشناقساقان" الأرمن بقيادة أحد الفدائيين، وكانوا قد وصلوا توًا من القوقاز لزيارة منطقة خطيب. ولما كانت الخشية من الجهة الخلفية لمنطقة اخمه قيه - إحدى القرى الواقعة غرب تبريز فى اتجاه خطيب - فقد تقدموا إلى الأمام ودافعوا عن تلك المنطقة أمام فرسان رجال الدولة الذين احتشدوا فى تلك القرية.

من ناحية أخرى، عندما شاهد الفرسان ذلك، احتشد منهم قرابة الخمسمائة فارس واندفعوا إليهم، وترجل الفدائيون عن جيادهم وتصدوا لقتالهم على الرغم من قلتهم، وأغاروا على الأعداء بغتة حتى فقد الفرسان القدرة على المقاومة. أثناء ذلك، علم المجاهدون بالخبر، فقاموا بإطلاق النيران من عدة جهات، واتجه بعضهم إلى منطقة سرد رود، وليست لدينا معلومات كافية عن عدد القتلى لكن تمت إصابة أحد الفدائيين الأرمن.

وما أن علم صمد خان بهاتين الهزيمتين حتى استخدم كل ما لديه من قوة، وأغار يوم السبت عصرًا على منطقة اخمه قيه، ولما علم المجاهدون بذلك هبوا لمنعه، ودارت معركة حامية الوطيس استمرت قرابة الساعة. وامتطى سردار

جواده وتوجه مسرعًا نحو ميدان القتال ومعه بعض الفدائيين من الداشناقساقان وأتباع الحزب الشيوعى الديمقراطى من الأرمن والكرجيين، كما توجه معه كذلك حاجى بيشنماز سلماس وبلال آقا كهنه شهرى – اللذان قدما إلى تبريز عهدئذ – وكانت هذه هى المرة الأولى التى تدار فيها الحرب بمثل هذا النظام، حيث كانت جميع الكتائب تقع تحت إمرة سردار، وكان كل قائد – صغيرهم وكبيرهم – يقوم بمهامه فى موقعه، واشترك المجاهدون كذلك فى المعركة التى دارت رحاها لمدة ثلاث ساعات وأبدى كلا الجانبين صمودًا ملموسًا. لكن رجال الدولة أبدوا خور عزم بعد الغروب بساعة وبدا واضحًا أن الضعف قد نال منهم، وأغار المجاهدون دفعة واحدة واستولوا على أحد عشر حصنًا وقتلوا عددًا من الفرسان، وأصابوا عددًا آخر، ولاذ الباقون بالفرار، ولا علم لنا بعدد القتلى، لكن تم إصابة تسعة عشر جوادًا وسقطوا فى الصحراء".

هذا ما نشرته صحيفة "انجمن"، وما نشرته صحيفة "مساوات" حول أحداث يوم السبت هذا يتلخص فيما يلى :

"هب رجال الدولة للقتال بكل ما لديهم من قوة قبل شروق الشمس".

وفيما يتعلق بعدد القتلى فى هذه المعركة، أوردت صحيفة "مساوات" تقرير الشرطة فى هذا الصدد على النحو التالى :

"حملوا أحد عشر شخصًا إلى قرية اخمه قيه ودفنوهم هناك، كما دفنوا كذلك تسعة عشر شخصًا فى منطقة خليجان – إحدى القرى القريبة من سرد رود – وثلاثة عشر آخرين فى سرد رود، وعلى وجه الإجمال، بلغ تعداد القتلى ثلاثة وأربعين قتيلاً باستثناء الجرحى".

غير أن الصحيفتين لم تذكرا شيئًا حول سقوط القتلى من جانب المجاهدين، تقول صحيفة "مساوات":

"لقد حملوا ثلاثة من المصابين بإصابات طفيفة".

هذا وقد عم الهدوء فى السابع والعشرين من شهر دى، وبعد أسبوع حل شهر المحرم، وقام كلا الجانبين بالأعمال الخاصة بذلك الشهر، حيث أقيمت مراسم الحداد لمدة اثنى عشر يوماً، وهذا ما قاموا به أيضًا فى كل من باسمنج وسرد رود. واستمرت حالة الهدوء والاستقرار تلك حتى الخامس عشر من شهر بهمن، وفى بداية شهر المحرم طبع الحاج صمدخان بيانًا وقام بتوزيعه، ويعد هذا البيان أفضل شاهد على سلوك رجال الدولة تجاه المطالبين بالحياة النيابية، ويوضح جليًا كيف كان صمد خان آملاً فى قوته متخيلاً أن المدينة تقع تحت قبضته. هذا ونورد فى هذا الموضع نص البيان المذكور:

بسم الله الرحمن الرحيم

عظم الله أجورنا وأجوركم بمصابنا فى الحسين (عليه السلام)

"أنا العبد لله الحاج صمد خان المراغى، وقد جئت إلى سرد رود بالاستعدادات اللازمة لمعاقبة الأشرار من قبل سنى الجوانب صاحب الجلالة عظيم القدرة قوى الشوكة أرواح العالمين فداه. وأنا أكتب مكنون ضميرى لمجرد إعلان السادة والأهالى فى تبريز وإطلاعهم على:

إن عامة الأهالى فى تبريز هم رعايا الملك صاحب مكانة جمشيد ملاذ الإسلام، وأن ضمير ملك الإسلام يهدف إلى راحة كافة الأهالى ورفاهيتهم كى ينشغلوا بالدعاء للذات الملكية المقدسة، وإن هدف أمثالى ممن عُهد إليهم بهذه المهمة هو معاقبة الأشرار كى ينعم الفقراء والضعفاء بالأمن والأمان. وعليه يجب أن يكون هذا البيان لكافة الأهالى والأصدقاء وغيرهم من المواطنين ممن يشتركون معنا فى الدين والقومية متوافقًا مع الشريعة النبوية والإثنى عشرية، وأن يتم اقتلاع شأفة المتمردين والخائنين الذين تطاولوا على الأهل وعلى أموال الرعية وأرواحهم وأعراضهم ونواميسهم، وذلك بعون الله تبارك وتعالى. هذا وإنى أطمئن الفقراء

والضعفاء من جانبي ومن جانب الدولة أن كل من يستطيع فليحمل أهله وعياله وداره ومتاعه وليخرج من المدينة وهو آمن على روحه وماله من سرد رود وحتى هشترود، ومن لم يستطع الخروج من المدينة وحل وقت معاقبة الأشرار، فليتجه وأسرته إلى إحدى الجهات، وليعلنوا ولاءهم، أو يرفعوا راية فوق دورهم حتى يعلم من في المعسكر أنهم ليسوا ضمن المتمردين على الدولة والشعب والشريعة، وسوف يتمتعون بالأمن والأمان. ولو أبدوا غير ذلك فقد ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة، والله ورسوله شاهدان بيني وبينهم، وعندئذ يصبح كل شخص مسئولاً عن اختياره. ويجب أن تعلموا هذه المسألة جيدا وهي إنني أؤمن بتلك العقيدة، وهي أن مهمة كافة المسئولين في الدولة هي تحقيق الأمن لجميع العلماء والأعيان والفقراء المتمسكين بالدين المحمدي، ولم يغيروا عقيدتهم، ولم ينخدعوا بالمذهب الجديد. هذا وقد وصلت هذه التعليمات من قبل صاحب السموعين الدولة دامت شوكته، وقد أعلنت ذلك كي يطمئن كل من يعرفني ويطمئنون غيرهم".

(محرم ١٣٢٧ هـ. خاتم شجاع الدولة)

معركة السادس عشر من شهر بهمن

بعدما انتهى يوم الثاني عشر من محرم قام رجال الدولة على الفور بأعمالهم. وكان عين الدولة يزهو بانتصارات صمدخان، وجعل يراسل طهران، ويكتب إلى شجاع الدولة معربًا عن سعادته، وواصل تقديم العون والقوات إليه وأمده بأحد المدافع الكبيرة من باسمنج وذلك بعد وصوله إلى سردرود (فضلاً عن أربعة مدافع صغيرة أخرى كان شجاع الدولة قد أحضرها بنفسه من مراغه)، وكانت الرسل في ذهاب وإياب على الدوام بين سردرود وباسمنج.

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من محرم ١٣٢٧ هـ (١٦ بهمن) قامت* جيوش صمدخان بغتة بإطلاق النيران - وربما كان ذلك بأوامر من عين الدولة - وأحدثوا جلبة كبيرة حيث استدعوا جندًا من باسمنج، وأغلب الظن أن جند رحيم خان كانوا متضامنين معهم كذلك.

والجدير بالذكر أنه منذ بداية هذه الحروب كانت معظم أيام الجمع هى الأيام التى وقعت فيها هذه المعارك الكبرى[1]. وكانت هذه الجمعة أيضًا أحد أيام تبريز الصاخبة. وقد كتبت صحيفة "تالهء ملت" أحداث تلك المعركة فى مقال مفصل تحت عنوان "الثالث عشر من محرم"، ولما كنا نفتقد أثرًا آخر ولا نعلم مصدرًا سواه حول هذه المعركة، لذا سنورد فى هذا المقال ما ذكرته صحيفة "تالهء ملت" بشكل موجز ومختصر، تقول الصحيفة :

"ما أن انتهى يوم عاشوراء حتى قام صمدخان ببعض الأعمال على سبيل الاستعراض أو بغرض اختيار قوة الأحرار، وأصدر أوامره بأن يتصدر بعض الجند أعلى القمم الموجودة فوق استحكامات خطيب نكران، لأنها لم تكن فى متناول القصف، وألا يتورعوا قدر الإمكان عن الهجوم على المدينة، وكان واضحًا أن هذه الخطة هى المتفق عليها بينهم، وما أن رأى المدافعون عن استحكامات خطيب الأعداء حتى قاموا بإطلاق النيران وانضمت إليهم كذلك كتائب من المجاهدين داخل المدينة، واتجه القاذفون نحو التلال، وأجبروا الأعداء على التراجع لعدة استحكامات. وحينما تحقق لهم هذا النصر قويت شكوتهم على أمل السيطرة على سرد رود، لذا لم يتوقفوا عن التقدم وهم يجهلون أن جميع جيوش سرد رود ومعظم جند باسمنج قد أتوا إلى الصحراء، وأنهم اختاروا فيما بينهم اليوم لاختبار قوة الأحرار.

ورأى المجاهدون عدم الابتعاد، وعادوا إلى حدود خطيب للدفاع عن الاستحكامات، وظلت كتيبة واحدة فقط من المشاة كانت قد أتت مع الجيش وهى على أهبة الاستعداد، واحتدم القتال بينها وبين كتائب أخرى تضاعفها فى العدد وبعد قليل ابتعدوا عن مقرهم.

---

(١) الجمعة ٢٠ شهريور، الجمعة ٣ مهر، الجمعة ١٧ مهر، وجمع أخرى عديدة.

فى تلك الأثناء ملأ فرسان العدو التلال والوديان فجأة وبدوا وكأنهم السيل، وانضموا إلى بعضهم البعض فيما يشبه الدائرة، والتفوا حول المجاهدين، ولقنوا أهالى تبريز درسًا فى الشجاعة والفداء، ولم يسع أحد من أفراد المشاة – ممن كانوا يتعاركون بين مئات الأفراد من العدو – لإنقاذ نفسه من ذلك العراك، بل سعوا قدر الإمكان للإطاحة بالأعداء. هذا وقد قتل فى هذه المعركة خمسة من المجاهدين، وتم القبض على أربعة عشر آخرين. لكن فى تلك الأثناء وصل اثنان من القادة – سردار وسالار – فجأة مع كتيبة من الجند الكرجيين والأرمن، وتمكنوا من إطلاق النيران على جند الأعداء وعملوا على تقهقرهم من لاله وخطيب حتى اخمه قيه – والمسافة بينهما أكثر من فرسخ – وعلى هذا النحو دب الضعف فى الجيش الذى ظهر من قبل، ودنت منه قبضة الموت المفاجئ.

ومع كل هذه الشجاعة والحنكة التى أبداها الفرسان فى هذه المعركة، كان الخلاص من هذا القتال من الصعوبة بمكان لأنهم كانوا قد ابتعدوا حوالى نصف فرسخ عن مقرهم، وواجهوا عدوًا بمثل هذه القوة، وعليه لم يجدوا مفرًا سوى الهروب، فهرولت كل جماعة إلى ناحية ما. فى الوقت نفسه كان المجاهدون يتتبعونهم، ولم يكفوا عن إطلاق النيران عليهم".

هذا ما نشرته صحيفة "نالهء ملت"، وكتبت صحيفة "مساوات" أيضًا عدة سطور حول هذا الحادث. إلا أن هذه المعركة كانت أشد وطأة مما ذكرته هاتان الصحيفتان، حيث كانت – على حد قول صحيفة "نالهء ملت" – أحد الأحداث الجسام فى ذلك العهد. ففى تلك الأيام كان أهالى تبريز قد اعتادوا على الحرب، ولم يكترثوا بما حدث. من ناحية أخرى، ذكرت الصحف عدد القتلى على نحو أقل، وكما ورد فى كتاب "آبى"، بلغ عدد القتلى والجرحى والمعتقلين فى هذه الحرب قرابة الخمسين شخصاً، وينبغى أن نعتبر الجرحى والمعتقلين فى عداد القتلى لأن صمدخان لم يكن يبقى على أرواح من تم القبض عليهم.

أما عن تعداد القتلى من جانب رجال الدولة، فقد ذكرت صحيفة "ناله ملت" بأنه كان يربو عن المائة والثلاثين شخص، وقد زفت الجمعية الإقليمية – التى كانت تهتم بأمر هذه المعركة – بشرى النصر إلى اسطنبول، وذكرت أن عدد القتلى من قبل رجال الدولة بلغ مائة وأربعين قتيلا، وهذا ما ورد كذلك فى برقية الجمعية.

ولم تقع حرب أخرى بعد هذه المعركة وحتى أواخر شهر بهمن، لكن قلما كان يمر يوم دون أن يقوم جند صمدخان – الذين تحصنوا خلف التلال من الشمال حتى الجنوب وكانوا يدافعون عنها فى مواجهة استحكامات المجاهدين فى خطيب – بإطلاق النيران من حصونهم، وكان الحال نفسه فى قراملك أمام هكماوار، فقد اعتاد كل من المجاهدين والفرسان على القتال، وكان من السهولة بمكان البدء به أو الكف عنه فى فترة وجيزة.

فى تلك الأيام وجه عين الدولة برحيم خان من باسمنج إلى الوار ليسلك طريق جلفا، وقدم أولاً إلى سرد رود، ومكث مع جنده هناك قرابة اليومين. وكما أسلفنا، كان هؤلاء الجند متضامنين فى حرب السادس عشر من شهر بهمن، هذا وقد نحرك رحيم خان من هناك عن طريق قراملك ومايان إلى الوار، واستقر فى تلك القرية – التى تقع على طريق شوسه على مسافة ثلاثة فراسخ من المدينة – وأغلق طريق جلفا، وهو الطريق الوحيد المفتوح أمام المدينة، وأقام المجاهدون استحكاماتهم أمام اوپل آجى.

إلقاء القنابل لإرعاب صمد خان

فى هذه الأيام رغب المجاهدون فى إلقاء قنبلة لإرعاب صمدخان أو الفتك به كى يعيدوه عن الطريق الذى سلكه شجاع نظام، إلا أنهم لم يتمكنوا من القيام بهذا العمل.

لقد اختار الحاج صمدخان أحد الاستحكامات، وكان يستقر فيه أيام القتال ومعه بعض القادة ويصدر أوامره من هناك، واطلع المجاهدون على مكانه،

فوضعوا قنبلة تحت الأرض حتى تنفجر عندما يأتى شجاع الدولة وأتباعه وتقضى عليه. ويتدخل القدر، ويمر أحد الثعالب من هناك فى منتصف الليل، وما أن اصطدمت قدماه بفتيل القنبلة حتى انفجرت وتمزق جسد ذلك الحيوان المسكين. وبذلك اصطدم سهم الأحرار بالحجر وأحبط مسعاهم.

ويروى من كانوا بالقرب من شجاع الدولة هذا الحدث على النحو التالى:

"سُمع صوت قوى عند منتصف الليل، وارتعدت الأرض بشدة، واستيقظ صمدخان من نومه، لكنه لم يعلم بحقيقة ما حدث. وفى الغد وصلت الأنباء من الاستحكامات تفيد بالواقعة، فسر شجاع الدولة كثيرًا، وأرسل إلى عين الدولة يبشره بنجاته، ورد عين الدولة عُليه أيضًا".

لكن الأحرار لم ييأسوا، وقاموا بالتجربة مرة أخرى، فقد أقام فرسان صمدحان استحكاماتهم على مسافة قريبة كى يتحصنوا بداخلها أثناء الحرب ويقوموا بإطلاق النيران منها، وقام المجاهدون بإخفاء إحدى القنابل فى أحد هذه الاستحكامات، ولكى يسحبوا الفرسان إلى هذا الاستحكام، خرج يارمحمد خان كرما نشاهى من حصونه فى يوم السبت الحادى والعشرين من محرم (٢٤ بهمن) عند سطوع الشمس مع كتائب من الفرسان والمشاة، وقاموا ببعض الاستعراضات أمام حصون رجال الدولة. ورويدًا رويدا تقدموا واقتربوا ورأى الفرسان استعدادهم، فاستعدوا هم كذلك ودقوا طبول الحرب واستدعوا الفرسان من سرد رود، وعندما زاد عددهم تقدموا للقتال وما أن وصل بعضهم إلى ذلك الاستحكام حتى انفجرت القنبلة فجأة وتناثرت أشلاء الحصن فى الهواء، وجُرح الحاج يحيى خان سرهنگ دهخوارقان – أحد قادة جيش صمدخان – فى عينيه وأصيب بالعمى، كما قُتل ثلاثة من الفرسان، وكف الآخرون عن المقاومة بعدما ألم بهم الاضطراب وعادوا أدراجهم.

ونشرت صحيفة "تالهء ملت" هذا الحدث بشكل مفصل تحت عنوان "خرق الأرض"، كما نشرته كذلك صحيفة "مساوات". إلا أن حديثهما مفعم بالمبالغة.

أما عن سردار، فكان يتابع تلك المعارك التى وقعت فى خطيب بالمنظار من فوق سطح منزله. وقد اطلع على أحداث اليوم وهو يحدوه الأمل فى إلحاق الأذى برجال الدولة على أثر إلقاء القنبلة، لكن ما من شئ حدث وفق ما تمناه.

وعلى هذا النحو انتهى شهر بهمن. وفى تلك الأيام كانت جيوش باسمنج تقوم بالاستعدادات وتنهض للعراك بسبب أو بدون سبب. ولو أردنا التقييم بشكل صحيح فعلينا العودة إلى حال الأزمة التى عانت منها تبريز فى هذا الصيف. فقد استقر رجال الدولة فى الدوتشى شمالاً، ونشبت معظم المعارك من هناك. والآن كانت حصون لاله واخمه قيه من الغرب، وفى كل يوم يحدث فيه عراك كانت القذائف تنطلق من جميع الحصون، مثلما حدث فى السابع والعشرين من محرم (٣٠ بهمن) حيث احتدم القتال فى جميع الحصون فى كل من خيابان ومارلان وخطيب وهكماوار وپل آجى.

فى تلك الآونة، ونظرًا لغلق الطريق، انعدم دخول الطعام إلى المدينة، وشح الخبز، وارتفعت أسعار القمح والشعير وغيرها من السلع الغذائية بشكل ملحوظ، كما شح الفحم فى شتاء نفس العام، واضطر الأهالى إلى قطع الأشجار المثمرة واستخدام فروعها بديلاً عن الفحم. كما اجتث المجاهدون الأشجار كذلك فى كل مكان حلوا به وكانوا يشعلون فروعها داخل حصونهم. وعلى هذا النحو اشتد الحال على الأهالى، وعانوا ضغوطًا من كل جهة. ورغم ذلك أبدوا جلدًا دون أن يعربوا عن استيائهم. وسعت الجمعية للحيلولة دون الاحتكار، وأبدى الأهالى تعاونهم وحسن نواياهم، يقول براون :

"لقد أطلقوا النار – بأوامر من ستارخان – على أحد الخبازين ممن كانوا يبيعون الخبز بسعر باهظ".

وجدير بالذكر أن هؤلاء الخبازين كانوا يحصلون على القمح من المخازن الحكومية وكان عليهم بيع الخبز بالتسعيرة الجبرية لكنه كان يباع بالتسعيرة الحرة

فى مارالان وغيرها من المدن، حيث كانوا يبيعون الخبز الذى يزن مناً[١] بثمانية عباسى[٢]، وكان الأهالى من النساء والرجال يتزاحمون أمام المحال لعدة ساعات دون أن يتمكن أى منهم من الحصول على قطعة خبز تزن نصف المن.

على أية حال، كان هؤلاء – ممن يبيعون الخبز بسعر باهظ – قلة، ويتذكر كل من كان يعيش فى تبريز فى ذلك اليوم أن الأهالى كانوا يحصلون على الخبز من الخبازين الذين قلما كانوا يفكرون فى اكتناز المال.

حرب الوار

حينما استقر رحيم خان فى الوار، أغلق طريق جلفا، وكانت الرسائل التى تصل من أوربا تتوقف فى مرند على أمل فتح الطريق الذى شغف الأحرار بشدة لفتحه، وبذلوا كل هذه المساعى من أجله، إلا أن استقرار رحيم خان فى الوار أضاع جهودهم تلك. من ناحية أخرى، ألحق فرسان رحيم خان الأذى بالأهالى فى كل من الوار وساوالان ومايان وفى جميع القرى القريبة، ورفع القرويون عقيرتهم بالشكوى بسبب ما ألم بهم على أيديهم.

هذا وقد عزم سردار على إيجاد الحل المناسب، ولما كان كل من بلورى وفرج آقا فى مرند مع كتائبهم، أرسل سردار إليهما كى يقتربا أكثر ويغيرا من خلف الوار إذا ما بدأ القتال فى المدينة، ويخططا للقضاء على رحيم خان. ورغم أن هذه المعركة كانت إحدى المعارك الكبرى آنذاك، لكن لم ترد إشارة عنها على صفحات الجرائد، ولا علم لنا باليوم الذى وقعت فيه.

وقد ورد فى كتاب "آبى" أنها وقعت يوم الإثنين الثانى والعشرين من فبراير (٣ اسفند). وفى ذلك اليوم، وقبل سطوع الشمس، توجه سردار وبعض القادة

---

(١) وحدة وزن فارسية.

(٢) عملة منسوبة إلى الشاه عباس الأول الصفوى.

البواسل من الكرجيين والأرمن وكتائب المجاهدين من المدينة، وحينما اقتربوا من الوار أقاموا الاستحكامات هنا وهناك وبدأوا العراك. ولا توجد لدينا أية معلومات حول هذه المعركة، لكننا نعلم أنها كانت حربًا دامية، وأن الجانبين قد بذلا قصارى جهدهما حتى المساء. وعندما علت أصوات الطلقات، اندفع الأهالى خارج المدينة واحتشدوا فى پل آجى يترقبون الأوضاع فى قلق. وقد تردد اليوم اسم ستارخان على الألسنة مرة أخرى، وشهد له القنصل الإنجليزى، فقد ورد فى كتاب "آبى" ثناء القنصل الإنجليزى عليه لما أبداه من بسالة فى ذلك اليوم، يقول :

"ابتعد سردار مع عدد قليل من بواسل الأرمن والكرجيين عن الآخرين، ومكث فى تنگنا، وعلم الفرسان بمكانه، فرغبوا فى الوصول إليه وإغلاق طريق العودة أمامه، والقبض عليه حيًا قدر الإمكان. وقد سعوا كثيرًا لتحقيق هذا الهدف ودخلوا فى حرب وحاصروه. وقام سردار ورفقاؤه بطرح بعض بواسل الكرج والأرمن أرضاً، فزادت الغلبة للفرسان ومارسوا ضغوطًا شديدة، وتماسك سردار وشجع رفقاءه ولم يتركهم يستسلمون للاضطراب. فى تلك الأثناء علمت بعض كتائب المجاهدين بما حدث، فسعوا للقضاء على الفرسان وطردهم من تنگنا، واحتدمت الحرب بين الجانبين، ويقال إن رحيم خان كان يقاتل بنفسه، وأنه كان يأمل فى إغلاق طريق العودة على المجاهدين. إلا أن شجاعة سردار وتماسكه قد تضافرا مع تضحيات المجاهدين فيئس رحيم خان من تحقيق بغيته".

وكما أسلفنا، توجه ستار خان والمجاهدون لإخراج رحيم خان من الوار، وفى أثناء العراك. كانوا يترقبون قدوم بلورى وفرج آقا من مرند لكن لم يتحقق لهم هذا، وما تمكنوا منه فقط هو خروجهم من تنگنا. وقد سعى ستارخان كى لا يترك جثث الأرامنة والكرجيين هناك وتم نقلها إلى المدينة.

هذا وقد استمر العراك لمدة ساعتين بعد منتصف الليل، ثم انفصل الجانبان، وبينما كان الأهالى يترقبون الأوضاع فى قلق، عاد سردار إلى المدينة.

لقد بلغت تضحياته فى هذا اليوم أوجها، لدرجة جعلت ميرزا محمد على خان تربيت يثنى عليه فى رسالته إلى براون.

أما فيما يتعلق بقصة كتائب مرند وعدم قدرتهم على مساعدة سردار والمجاهدين فكانت كالتالى: لقد اجتمعت تلك الكتائب فى مرند مع خمسمائة أو ستمائة شخص، ثم اتجهوا إلى ياورى لكنهم اصطدموا بالقرب من الوار بضرغام وأخيه سام خان ومعهما سبعمائة فارس كانوا متجهين لمساعدة رحيم خان، فتعاركوا معهم وأبدوا الكثير من البسالة والصمود. بعد ذلك أطلعوا تبريز بالخبر ثم عادوا إلى صوفيان ومنها اتجهوا إلى مرند.

والخلاصة، لقد ضاعت كل تلك الجهود هباء، وبقى رحيم خان فى الوار، بل وصار بعد هذا الحادث أكثر قوة من ذى قبل، وبعد يومين تمكن من هزيمة المجاهدين واستولى كذلك على صوفيان.

معارك السادس من شهر اسفند

لم يمر يومان على معركة الوار حتى بدأت سلسلة أخرى من المعارك القوية وذلك فى الرابع من شهر صفر (٦ اسفند)، ويمكننا القول إن عهدًا جديدًا قد بدأ منذ ذلك التاريخ فى ناريخ الحروب فى تبريز.

وكما أسلفنا، انتخب محمد على ميرزا أرشد الدولة لقيادة الجيوش المحاصرة لمدينة تبريز، وكان هذا الرجل متزوجًا من عمة محمد على ميرزا – ابنة ناصر الدين شاه – لذا كان مقربًا من البلاط وكان دائم التودد إلى محمد على ميرزا وتعهد أمامه بالتوجه نحو آذربايجان لإخماد نيران الفتنة فى تبريز. هذا وقد توجه إليها بعد حصوله على لقبه الجديد "سردار أرشد" ووصل آنذاك إلى باسمنج، وكما أسلفنا، أبدى هذا الرجل الكثير من التمرد، وكان يلوم عين الدولة وأعوانه بسبب عدم قيامهم بأى إجراء خلال سبعة أشهر، وكان يأمل فى الاستيلاء على المدينة

بحرب واحدة، لذا نراه منذ اليوم الذى وصل فيه يشمر عن ساعديه ويعد عدته. ولما كانت باسمنج على مسافة بعيدة عن المدينة، وتعذر تشغيل المدافع من هناك، لذا كان يرى بارنج الأنسب لإقامة الحصون والاستحكامات، وذلك بسبب قربها من المدينة. وفى تلك الأيام كانت الأوامر تصل من طهران بشكل متتال تفيد برغبة محمد على ميرزا فى الانتهاء من أمر هذه المدينة على وجه السرعة. لذا ترك أرشد الدولة عين الدولة فى باسمنج مع نفر قليل، واتجه هو مع بعض الفرسان والمشاة والمدفعية إلى بارنج وأقام حصنًا هناك. وبعد قيامه بهذه الاستعدادات أقدم شجاع الدولة على القتال وإطلاق النيران فى يوم الخميس السادس من اسفند، وكان أهالى المدينة على علم بوصول أرشد الدولة، وكانوا على علم كذلك بالوعود التى كان يقدمها إلى محمد على ميرزا فى طهران، وكانوا على علم بمساعيه، وذكروا اسمه على صفحات الجرائد، لكنهم كانوا يجهلون نشوب الحرب فى يوم الخميس.

وسرعان ما انتهى شتاء هذا العام القارص، وفى تلك الأثناء، حيث لم يتبق سوى شهر واحد على الربيع، توقف نزول المطر وهطول الثلج واتسم الطقس بالصفاء وأذابت الشمس الجليد، وفى يوم الخميس المذكور كان الطقس صافيًا والشمس مشرقة، وعم الهدوء الثلاث ساعات الأولى من النهار، لكن فجأة بدأ إطلاق النار من بارنج وأخذت المدافع تزمجر دون انقطاع كما حدث هجوم شديد من ناحية سرد رود، وأغلق أرشد الدولة المدينة بالمدافع وجعل يطلق القذائف على التوالى معتقدًا أن الأهالى سيطلبون الأمان، لكن صمد خان قام بالإغارة على أمل دخول المدينة.

وكان هذا اليوم من الأيام العصيبة، فقد اندفع آلاف الفرسان والجند نحو الصحراء وتقدموا ومعهم الطبول والأبواق، وكان القادة يقفون فى الخلف ممسكين بالسيوف فى أيديهم. وتقدم الحاج صمدخان حتى حديقة حسين خان ووقف يتفقد ساحة القتال، وأطلق الفرسان والجند وابلاً من الرصاص على حصون خطيب، ورد المجاهدون من كافة الحصون وحاولوا منعهم، إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود

أمام هذه النيران فاضطروا إلى مغادرة حصونهم وتراجعوا نحو المدينة وتعرض العديد منهم للإصابة وسقطوا أرصاً، وتشتت المجاهدون وتقهقروا حتى ناحية چهر بخش – أحد أحياء تبريز – وذاع الخبر تدريجيًا فى المدينة، وتملك الاضطراب من المجاهدين بحيث لم يعلموا ما الذى ينبغى عمله؟ ولما كانت القذائف تنطلق على التوالى، كان الفرسان يتقدمون، وافتقد بعضهم القدرة على الصمود.

وفى خضم هذا العراك وصل سردار مع أحد أتباعه فجأة، ودون أن يلتفت إلى الفارين ظل فى تقدمه، ولم يكترث بالطلقات المتتالية، وتقدم بجواده وحينما وصل إلى مكان يبدو منه رجال الدولة، ترجل عن جواده واتجه نحو إحدى الحدائق، واتخذ من أحد الجدران حصناً له وقام بالعراك وبدا كجيش كامل، وتمكن فى فترة وجيزة من التصدى للهجوم. وتقدم فريق من رجال الدولة – ممن تفقدوا طريق المدينة – وهم يطلقون النيران، وتمكن سردار من قتل أحدهم وطرح آخر بجواره دون أن يمهلهم الفرصة، كما أطاح ببعضهم من الخلف وأسقطهم أرضا. ولما شعر الفرسان أن الأمر يشتد عليهم، توقفوا، وتوارت مجموعة منهم خلف أحد الجدران وتعاركوا.

أثناء ذلك شاهد بعض البواسل من المجاهدين سردار وهو فى الطريق، فعادوا إلى ساحة القتال، وكان من بينهم يار محمد خان كرما نشاهى وحسن الكردى حيث اتخذ كل منهما حصناً وتعاركا بفدائية وقاما بإطلاق النيران هنا وهناك. كذلك وصل الكرجيون وقاموا بإطلاق النيران، كما بادرت جماعة من خيابان بالمساعدة، واستمرت المعركة لوقت طويل دون أن يتراجع رجال الدولة – الذين تقدموا ظافرين ووصلوا حتى حدود المدينة – وهذا ما فعله سردار كذلك*، فاضطر الفرسان إلى التقهقر وبلغ المجاهدون الحصون.

أثناء ذلك، بدأت المدفعية فى القصف، ولا علم لدينا كم من الزمن استغرق سفك الدماء هذا، وما نعلمه هو أن رجال الدولة قد تجرعوا تلك الهزيمة بعد

انتصار، ولم يتمكنوا من الفرار منها رغم ما أبدوه من جرأة وشجاعة، وبعد مقتل حشد كبير منهم، لجأ الآخرون إلى الفرار، وعلى حد قول صحيفة "انجمن"، ضاق الحال بهم لدرجة أن معظمهم ألقوا بالبنادق والذخيرة ونجوا بأنفسهم.

والعجيب هنا هو وصول ستارخان إلى ساحة القتال فى مثل هذه الأوقات، وفى ذلك يحدثنا الحاج محمد على بادامچى قائلاً :

"لقد كنت مع ستارخان فى ذلك اليوم وحينما نشب القتال كان يقوم بمراقبة خطيب عبر المنظار ورأيته يصيح فجأة:– "لقد قتلوا أولادنا، أسرع يا رشيد وأحضر الجواد". فاستفسرت منه: "ماذا حدث؟" فأجاب: "لقد انهزم المجاهدون ولاذوا بالفرار، ويقوم رجال الدولة بإطلاق النيران خلفهم". قال هذا واستعد للرحيل. أثناء ذلك أحضر رشيد أفضل الجياد، فامتطاه ستارخان، ولحق رشيد به وهو على ظهر جواد آخر واتجها إلى ساحة المعركة."

وكما رأينا، توجه ستارخان إلى ساحة القتال والحرب على أشدها، وقام بالهجوم، وشتت رجال الدولة وأعادهم أدراجهم. وقد دار حديث طويل بشأن هذه الحرب، واليوم ظهر فضل آخر من قبل ستارخان، فيقال إنه حينما وصل إلى ساحة الوغى لم يحتم فى مكان خاص رغم إطلاق النيران المتتالى، وكان رشيد يصيح من قلقه بشكل دائم: "سردار، الطلقات تتوالى، هيا نمضى". إلا أنه لم يصغ وظل فى مسيرته. وحينما اتخذ حصناً له بدأ القتال، وكان يصيب مع كل طلقة له أحد رجال الدولة ويلقيه أرضا. لقد أصاب بالطلقة الأولى حمزة خان – أحد البواسل المشاهير وكان من طلائع المشاركين فى الحرب – كما أردى آخرين صرعى بجواره. وحاول أتباع حمزة خان حمل جثمانه لكن ستارخان لم يسمح لهم، وكان يطلق الرصاص على كل من يقترب منه.

ومن جانب المجاهدين، تم قتل الحاج شفيع قناد، ويقول البعض: "لما كان الحاج شفيع قد أصدر أوامره إلى المجاهدين بإبداء المقاومة حينما اقترب الفرسان من الحصون، كان يشارك هو نفسه فى ذلك وظل ينتقل من هذه الناحية إلى تلك حتى أصيب برصاصة."

ويقول آخرون :

"إنه قُتل بعد وصول سردار إلى ساحة الوغى".

وكما أسلفنا، بدأت الحرب بعد مضى ثلاث ساعات من النهار، ولم يتمكن المجاهدون من الصمود أكثر من ساعة، وتراجعوا بعدها، لكن ستارخان وصل إلى ساحة القتال عصرًا، وظلت الحرب قائمة حتى اللحظات الأخيرة من النهار إلى أن تفرق الفرسان. فى ذلك الوقت، تبقى فى ميدان الحرب أربعة عشر قتيلاً من جانب رجال الدولة، وبدا واضحًا من آثار الدماء التى كانت فوق الجليد أنهم حملوا العديد منهم خارجًا. كما ظهر بعد ذلك عدد آخر من القتلى فى الحدائق. هذا وقد ذكرت صحيفة "مساوات" إن عدد القتلى من جانب رجال الدولة بلغ مائة وخمسة عشر قتيلا، ويقول سردار فى برقيته إلى اسطنبول :

"لقد هاجم رجال الدولة خطيب وباسمنج بالأمس الخميس الرابع من شهر صفر وتجرعوا هزيمة نكراء خاصة فى خطيب حيث قُتل من بينهم أكثر من خمسمائة شخص، وانتهى العراك بالفتح العظيم". (ستارخان).

لم ير رجال الدولة مثل هذه المذبحة، وقد أحضروا إلى المدينة حوالى أربع عربات مملوءة بجثث القتلى، وتم دفنهم فى مقبرة "كجيل"، ويقال إن جثمان حمزة كان من بينها.

فى هذه الأيام تم القبض على أحد الجنود وأرسلوه إلى المصحة نظرًا لإصابته، وبعد التحقيق معه اعترف قائلاً :

"لقد أوهمونا بأنكم كفار، واستدعونا للحرب ضدكم بهذه الذريعة."

هذا وقد أثرت أعمال سردار فى هذا اليوم على الأهالى مرة أخرى، وبُسطت الألسنة فى مدحه والثناء عليه، يقول مشهدى محمد على خان:

"لم أكن متواجدًا فى هذا اليوم فى خطيب، لكننى لو كنت موجودًا لعزمت على الفرار. هذا ودومًا ما يراودنى هذا الاستفسار: هل التمثل بما يقوم به ستارخان من الصعوبة؟"

وكانت هذه شهادة حق من قبل أحد الأشخاص المشاركين فى تلك المعركة ممن يُشهد لهم بالشجاعة والإقدام.

والجدير بالذكر أن ستارخان لم يصب سوى مرة واحدة خلال أحد عشر شهرًا من الحروب التى اشترك فيها، وكما ذكرنا، أخفى هذا الأمر، ولم يعلم شخص به، لذا توهم البعض أنه يحظى بحماية الله، وكان هذا فضلاً آخر يضاف إلى سائر أعماله.

وكما أسلفنا، بدأ القصف فى هذه المعركة من بارنج، وسعى أرشد الدولة إلى تدمير المدينة، وسحب عدة مدافع على حافة الجبل وظل يتابع القصف. كذلك كان البنادقة يقاتلون من خلف الحصون، إلا أنهم لم يتمكنوا من الهجوم نظرًا لإحكام الحصون فى كل من خيابان وماراالان.

غداة ذلك اليوم

فى غد ذلك اليوم، أى فى يوم الجمعة الخامس من شهر صفر (٧ اسفند) عم الهدوء ناحية خطيب، ولم يستطع صمد خان الاستمرار فى القتال نظرًا لما حل به من أذى، لكن القصف استمر فى نواحى خطيب وخيابان، وكان أرشد الدولة يأمل فى الاستيلاء على المدينة، لذا كان يرسل الأسلحة والذخيرة على التوالى. ويقال إن ما تم قصف المدينة به خلال هذين اليومين بلغ خمسمائة طلقة. إلا أن أهالى المدينة لم يبالوا واستمروا فى أعمالهم، وكانوا يردون على المدافع من حصون خيابان، ومن كثرة الطلقات الملقاة فى الشوارع كان الأطفال يلهون بها ويجمعونها ويحملونها إلى دورهم، ولا يزال البعض يحتفظ بعدد منها. ولم تكف الصحف – التى كانت تعلم بطموحات أرشد الدولة وأحلامه ومساعيه – عن ذمه والسخرية منه، وكانت تُنشر فى ذلك الوقت صحيفة باسم "محك غيرت" فى مدينة تبريز وقد ضمت مقالات عديدة فى ذم أرشد الدولة لكن لم يصدر منها سوى عدد واحد فقط، ونشير هنا إلى بعض ما ورد فيه:

"كان أرشد الدولة يقف بجوار المدفع، وحينما يتوالى القصف على المدينة، يسأل المدفعجى: ألم يطلبوا الأمان؟ أثناء ذلك ارتطمت إحدى الطلقات بحجر فأصابت المدفع والمدفعجى، فابتعد أرشد الدولة مضطربًا " .

وعلى حد قول صحيفة "مساوات": "قتل فى هذا اليوم اثنا عشر شخصًا من جانب رجال الدولة بينما قُتل اثنان فقط من أهالى المدينة.

وفى اليوم الثامن وقع حادث آخر، فقد خمد قصف المدافع من الناحية الشرقية إلا أن استخدام البنادق كان على أشده، ورغب رجال الدولة فى إقامة الاستحكامات فى سارى داغ – خارج بارنج على مسافة صغيرة من سركوب – وتقدم المجاهدون، وأغاروا عليها من ناحية سرقله، واستولوا على الجبل، فتوجه رجال الدولة إلى جبل آخر بالقرب من تلك المنطقة ليتحصنوا فيه. لكن المجاهدين سعوا للحيلولة دون تحقيق ذلك."

هذا ما ذكرته صحيفة مساوات. لكن من الناحية الغربية، نجد الحاج صمد خان يرسل كتيبة من الجند يترأسهم أحد القادة، واستقروا فى منطقة سرد رود واتجه هو مع عدد من الجند والمدفعية إلى قراملك واستقر هناك، كما أرسل محب على خان مع عدد من الجند إلى شام غازان – الواقعة فى الشمال الغربى القريبة من المدينة وكانت خالية حتى ذلك الحين – كى يدخلوها ليلاً ويستقروا هناك وينصبوا فيها مدفعًا. وكان واضحًا أن رجال الدولة يخططون لأمر جديد، وأن صمد خان يريد الإغارة على المدينة من تلك النواحى. وكما عُلم من بعد، لما أطاح السلطان عبد الحميد بالحكم النيابى فى اسطنبول، اتخذ محمد على ميرزا ذلك ذريعة له، وكتب إلى عين الدولة يقول :

"لقد أطاح العثمانيون بالحكم النيابى، لكنك لم تسع كما ينبغى للإطاحة بفتنة تبريز رغم أنك من الأسرة الملكية."

وانتفض عين الدولة متأثرًا بتلك الرسالة، وأرسل إلى صمدخان يخبره بقدومه إلى سرد رود بهدف التباحث، وقد توجه إلى هناك برفقة سالارجنگ بختيارى ومكث لمدة يومين تباحث خلالهما مع صمدخان ورسما خطة مفداها:

أن يتجه هو إلى قراملك ويستولى على شام غازان ثم تبدأ غارة جماعية فى الثانى عشر من صفر (١٤ اسفند) حيث يغير صمدخان وجنده من قراملك وشام غازان وسرد رود، بينما يغير عين الدولة وأرشد الدولة من باسمنج وبارنج، ورحيم خان من پل آجى بيك.

وعلى هذا النحو يقومون بخطة هجومية متكاملة (مثلما حدث فى الثالث من شهر مهر) ولما كان أوباش قراملك يؤيدون الدولة منذ بداية الحرب، فقد تحملوا ضررًا كبيرا فى هذا السبيل، وكانت الحاجة ماسة للغاية فى تلك الخطة التى تم رسمها إلى تضحيات تلك الفئة واسترضائها، لذا تم منح لقب "رشيد الإيالة" إلى صمد خان، ولقب "منصور الديوان" إلى عين الدولة. هذا وقد ظل عين الدولة فى سرد رود لمدة يومين ثم عاد أدراجه، كما لجأ صمد خان إلى قراملك، وأرسل جيشا إلى شام غازان. وكانت هذه هى قصة تلك الحادث.

ويقال إن عين الدولة قد أرسل فى نفس هذه الفترة كتيبة من أفراد القوزاق بقيادة رضا خان سواد كوهى (رضا شاه پهلوى) إلى قراملك ومعهم أحد الأطباء. كما أرسل إلى نفس المنطقة فرسان سراب بقيادة الحاج اسماعيل خان سرابى.

من ناحية أخرى، رغم عدم معرفة المطالبين بالحياة النيابية بتفكير رجال الدولة، إلا أنهم علموا بأن لجوء صمدخان هذا كان يوضح أن ثمة فكرة جديدة فى رأسه، وأن الهجوم سيبدأ هذه المرة من هكماوار وآخنى، لذا زادوا من استحكاماتهم فى هكماوار، وأقاموا استحكامات أخرى فى آخنى، كما عهدوا بمنطقة أهراب إلى مشهدى هاشم حراجچى، وبمنطقة ليلاوا إلى مشهدى صادق خان لإقامة الاستحكامات فى هاتين المنطقتين.

يوم الرابع عشر من اسفند :

يعد هذا اليوم من الأيام التى لا نظير لها فى حروب تبريز. فاليوم قام رجال الدولة بنفس الأمر الذى قاموا به فى الثالث من شهر مهر، وسعوا قدر استطاعتهم للاستيلاء على المدينة، لكن هذا اليوم كان أشد وطأة وأكثر جلبة من يوم الثالث من مهر. فقد تقدم صمد خان عبر ثلاثة طرق ودخل المدينة، ولو كان قد تمكن من الصمود لشدد الأمر على الأحرار. وفى هذا اليوم أيضًا وصلت برقية من قبل عين الدولة تزف بشرى الاستيلاء على المدينة. وكما أسلفنا، انتخب رجال الدولة هذا اليوم للإغارة على المدينة، لكن من العجيب أن المجاهدين نجحوا فى التقدم حتى حداول قراملك وبدأوا القتال، ولا نعلم على وجه الدقة هل كانوا يجهلون اتجاه رجال الدولة أم أنهم تقدموا إلى هناك لعرقلة جيوش صمد خان ؟

وأيًا ما كان الحال، كانت هذه الحرب من أشد الحروب، ولما كنت قد رأيتها بأم عينى لذا سأفصل الحديث عنها فى هذا الموضع:

لقد اتسم الطقس فى ليلة الرابع عشر من اسفند بالصفاء، وعم الهدوء كافة الحصون، وعندما كنت نائمًا كنت أفكر بينى وبين نفسى: غدًا يوم الجمعة، ومن المحتمل نشوب الحرب، وقد عمت الخشية منذ أسبوع – بعد ما دخل صمد خان قراملك – من إغارته من تلك الجهة، وربما حدثت فتنة، لذا عاش الأهالى فى فزع، وتملك هذا الشعور منى اليوم أكثر من أى يوم آخر، واستغرقت فى نومى ثم استيقظت قبل بزوغ الفجر بساعة على صوت جلبة فى الحى، وحينما أصغيت سمعت المجاهدين يعبرون الطريق بخطوات ثقيلة فى جماعات ويتحدثون إلى بعضهم البعض، وعلمت أن ثمة هجومًا سيحدث على المدينة، واستيقظ الجميع، وجلسنا، وأضأنا المصابيح. وما أن بزغ نور الصباح حتى بدأ أزيز المدافع من حصن هكماوار، ثم بدأ اطلاق البنادق. كانت المسافة بين هكماوار وقراملك تبلغ حوالى نصف فرسخ أو أقل، كان نصف هذه المسافة من ناحية هكماوار تملؤه الحدائق والأشجار، أما النصف الآخر الذى كان فى اتجاه قراملك فكان عبارة عن أراض مفتوحة ومراع، وفى النصف الأخير هذا كانت توجد جداول عديدة وعميقة

تحمل المياه من نهر آجى لتغذية أراضى قراملك وهكماوار. وقد اقترب المجاهدون من هذه الجداول وقاموا بالعراك. وفى الاتجاه المقابل، كان رجال الدولة يردون من حصونهم بجوار قراملك. وحينما أصغينا وجدنا الطلقات تنطلق وكأنها قطرات المطر، وكانت المدافع تزمجر على التوالى. وسطع ضوء النهار إلا أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد، وعندئذ خرجت من منزلى والعراك على أشده، كانت أصوات القذائف تُسمع بقوة، وأحيانًا كانت الطلقات ذات الصفير تمر من فوقنا، وبدا واضحًا أنها كانت تأتى من مكان بعيد. وأشرقت الشمس، ومضت ساعة، وخرجت ثانية، واندهشت من اقتراب صوت البنادق ومرور الطلقات ذات الصفير بشكل مكثف. أثناء ذلك، انقطع صوت أزيز المدافع وضعف دوى البنادق. وا أسفاه، ماذا حدث؟ وقفت طويلاً ولم أعلم شيئاً، لقد عم الهدوء أرجاء المكان فزادت دهشتى، ولم أعلم ماذا حدث؟ أثناء ذلك علا صوت جلبة من الحى فتوجهت إليها مسرعاً، فرأيت المجاهدين يعودون زرافات زرافات فأدركت أنهم انهزموا. كان بعضهم يسير مسرعاً، والبعض الآخر يسير لعدة خطوات ثم يقف ويستفسر بعضهم من بعض: إلى أين نمضى؟ إلى من نترك نساءنا وأطفالنا؟ وكانوا يذمون قادتهم، ومنهم آيدين باشا الذى كان يتقدم الجميع فى ذلك الوقت، وكان أهالى هكماوار واقفين يتملكهم الاضطراب ولا يعلمون ماذا يفعلون وماذا يقولون!

ظللت واقفًا حتى مضى الجميع، واتجه الأهالى كذلك إلى دورهم، وأغلقوا الأبواب بإحكام ولم يبق شخص فى الحى. ومرت عشر دقائق ثم ظهر قائد رجال الدولة من بعيد، وكان المغيرون يأتون الواحد تلو الآخر ويقتربون. خطوا عدة خطوات ثم بدأوا فى إطلاق النيران، وقطعت سيرى ودخلت إلى منزلى، وأغلقت الباب، ووقفت أشاهد ما يقع وأنا خلفه. كان الشباب والرجال يمرون الواحد تلو الآخر وهم عالى الهمة أقوياء القامة، لقد كانوا من فرسان سراب وهشترود وبنادقة قراملك. وغادر المجاهدون تلك المناطق ولم يمكثوا فيها، وتقدم الأكراد والفرسان وجند مراغه والعاطلون فى قراملك دون أن يقوموا بالقتال، بل قاموا بأعمال السلب

والنهب، وتقدموا من بداية الحى حتى وصلوا إلى هنا، كانوا يطرقون كل باب يصلون إليه، ولو لم ينفتح يكسرونه ويندفعون إلى الداخل ويسلبون كل ما يقع تحت أيديهم. ولما كان معظم الأهالى فى هكماوار من المزارعين، لذا توفرت لديهم الأبقار والأغنام والجياد، وكلما دخل هؤلاء المغيرون أى دار، توجهوا أولاً إلى الإسطبلات للاستيلاء على ما بها من حيوانات، ثم يتجهون من بعد إلى الحجرات والمخازن، ويحملون كل ما يجدونه فوق هذه الحيوانات ثم يسلكون طريقهم، وكثيرا ما كانوا يقومون بالقبض على أصحاب هذه الديار ويأخذونهم معهم لحمل هذه الأحمال. ولما كان أهالى هكماوار قد مروا بهذه التجربة من قبل وتعرضوا لأعمال السلب والنهب، لذا فقد أبدوا جلدًا هذه المرة، ولم تصدر عنهم أصوات الشكوى أو العويل، وغادرت العديد من الأسر دورها وتوجهوا إلى منازل أقاربهم فى أماكن أخرى، لذا كان من السهولة تدمير هذه المنازل وتحطيم ما لم يتمكنوا من حمله أو تمزيقه.

كنت أسمع صوت جلبة اللصوص من خلف الباب، ولما كان الأهل والجيران قد اجتمعوا فى منزلنا، وكان الأطفال والنساء كثيرين، كنت أقوم بمواساتهم وأحاول مساعدتهم ولم أترك أحدًا بالخارج. وبينما كنت واقفًا خلف الباب فإذا بهم يطرقونه بقوة ففتحت، وخرجت، فوجدت أمامى كرديًا بوجه نحيل وقامة طويلة وملابس نظيفة ويقف خلفه بعض الأكراد من ذوى الوجوه الغليظة والأردية الحمراء وقد شمروا عن سواعدهم وفى يد كل منهم بندقية ومعهم مرشد من بنادقة قراملك يقف أمام الباب. لم يكونوا من اللصوص، لقد كانوا عبارة عن أحد القادة الأكراد ومعه بعض الخدم يريدون المكوث لدينا، ولما انفتح الباب، تقدموا، ورغبوا فى الدخول، فقطعت الطريق عليهم وتحدثت إليهم قائلاً:

"لا يوجد مكان لكم لدينا، فهذا المنزل ينعدم فيه مكان للحيوانات. والحجرات جميعها مملوءة بالنساء والأطفال، والرجل الوحيد هنا هو أنا."

ولم يكترث الكردى بحديثى هذا، وتقدم، لكن القائد القراملكى نظر إلىّ وأظهر معرفته بى وذكر اسم والدى قائلاً: "ليغفر الله له لقد كان أبًا لنا". قال هذا وأبعد الأكراد ثم تراجع وقال لى: "لا توصد الباب، لو ظل مفتوحًا لن يتعرض لك شخص بأذى، ولا تقف فى الحى فالطلقات لا تزال تنهال بقوة ... قف خلف الباب واحم نفسك ودارك". قال هذا ومضى[1].

وقد نفذت وصيته، ولم ابتعد عن الباب لفترة طويلة حفاظًا على المنزل وكنت أشاهد الجرحى والقتلى هنا وهناك، ووصلت الأنباء من بعد تفيد بأنهم أغاروا على منزل أختى وأنهم ألقوا القبض على زوجها الذى كان بمفرده آنذاك فى المنزل وأخذوه إلى قراملك، وذهبت لتفقد هذا المنزل، وما أكثر ما شاهدته من مآسى ارتكبها الأكراد وغيرهم داخل هذا المنزل وخارجه.

دخول صمدخان إلى هكماوار

بدأت الحرب اليوم من جميع الجهات وفقًا لرغبة صمدخان وعين الدولة، وتقدمت جيوش الأول من شام غازان وسرد رود وقامت بالعراك، من ناحية أخرى، قام أرشد الدولة وعين الدولة بنشاطهما من منطقتى بارنج وباسمنج، كما قام رحيم خان بالقتال من ناحية پل آجى، وكانت مدافع الدولة تطلق قذائفها من ست جهات وترد مدافع المدينة من الجهة المقابلة.

وبشكل عام، دارت رحى الحرب من جهات المدينة الأربع إلا أنها اشتدت من ناحية هكماوار، وهنا – كما أسلفنا – انهزم المجاهدون – الذين ظفروا من قبل – وعادوا إلى هكماوار، ولم يتوقف آيدين باشا – قائدهم – وظل فى سيره، ولم يتمكن المجاهدون هنا من منع رجال الدولة فدخل الفرسان بسهولة وحققوا تقدمًا.

---

(١) هذا الشخص يدعى صادق، وقد بحثت عنه مؤخرًا حينما كنت فى تبريز وعرفت أنه فى السجن فذهبت لزيارته. لكننى لا أعلم الآن. إن كان على قيد الحياة أم لا؟

فى ذلك الوقت لم يتبق مكان من ناحية ديزج وآنور سوى مقبرة قد أعدها المجاهدون، لقد كنت أقف بين مصراعى الباب أشاهدهم وهم يلقون بالمصابين فيها، وذات مرة شاهدتهم يحملون جثمان كربلائى آقا على – قائد كتيبة قراملك – ويضعونه هناك. وكان آقا على هذا بشوش الوجه طويل القامة ومغواراً، وفى الآونة الأخيرة منحه عين الدولة لقب "رشيد الإيالة".

فى تلك الأثناء عاد عباس الهكماوارى – بعد إصابته برصاصة فى وجهه – وكان رجال الدولة قد أغاروا على منزله ولجأت أمه وأخواته إلى دارنا، وحينما وصل إلى منزله أمسك بلجام جواده وجعل يبحث عن أمه وعيناه تدمى ويقول: " لقد جئن هنا ولم يتمكن من المكوث، لتخبر أمى بالمجئ إلى قراملك". قال هذا ومضى. ومن العجيب أن يتنبأ ذلك الرجل بهزيمة رجال الدولة رغم تمكنهم فى ذلك الوقت من دخول المدينة وتوهمهم بتحقيق النصر وأملهم فى الاستيلاء على أرجاء المدينة فى اليوم التالى.

هذا وكانت الحشود تتجه من قراملك إلى هكماوار وتبحث لها عن مقر. كما قام المتحاربون كذلك ببناء الاستحكامات هنا وهناك، وفى ذلك الوقت أحضروا مدفعًا ووضعوه فى هكماوار، ولم يمض طويل زمان حتى وصلت الأنباء تفيد بقدوم الحاج شجاع الدولة وقادته. واضطر أهالى هكماوار – الذين تعرضوا لأعمال السلب والنهب ونالهم جميعًا الأذى – إلى التوجه سريعًا لاستقباله ونحروا الأغنام تحت قدميه، وكان الحاج مير محسن آقا رائدهم فى ذلك المسلك. ودخل شجاع الدولة هكماوار بكامل التجليل والتعظيم تتقدمه الفرق الموسيقية، وتوجه من ناحية اره گر ونزل فى ميدان الحاج حيدر – بالقرب من حصون التلال فى ديزج – واستقر هناك وتجمع القادة حوله وعزفت الموسيقى وعمت السعادة الجميع.

كانت هذه هى حكاية هكماوار، لكن الحرب اشتدت أكثر فى منطقتى خطيبّ وآخونى، وكانت مقاومة المجاهدين هناك أقوى، غير أننا نفتقد المعلومات الدقيقة حولها، وما لدينا فقط هو حديث مشهدى محمد على خان الذى اشترك فى الحرب آنذاك، لذا سنورده فى هذا الموضع:

يقال إن العراك قد بدأ مع آذان الفجر وإن رجال الدولة كانوا يغيرون وتمت مشاركة الحاج محمد ميراب ومشهدى هاشم حراجچى – اللذين كانا فى خطيب مع قواتهما – فى العراك حتى وقت طويل لكنهما عجزا عن الصمود وعادا أدراجهما، واستولى رجال الدولة على معداتهما. هذا وقد أمرنى ستارخان بالتوجه نحو شام غازان مع قواتى، وحينما وصلنا كان المجاهدون قد تلقوا الهزيمة وتبقى منهم فقط يار محمد خان كرما نشاهى وأربعة من البنادقة. فى تلك اللحظة رفع رجال الدولة راية خطيب فوق الجدران كى يخبرونا بهزيمة المجاهدين وأطلقوا عدة عبارات فى ذمهم. واستمرت حرب شديدة كان رجال الدولة يضغطون فيها من كل جانب ويلقون بالقنابل من جميع الجهات ثم تحقق الهدوء النسبى. أثناء ذلك أصيب قاذف القنابل وسقط أرضًا واحتدم القتال ثانية، ولما كان رجال الدولة قد استولوا على خطيب لذا حققوا تقدمًا عن طريق الحدائق، وأصيب بعضنا وسقط أرضًا وتم حملهم وتراجعنا ومعنا يار محمد خان. ودق رجال الدولة طبول الحرب وحققوا تقدماً، وقد توقفنا قليلاً فى حديقة "سازنده" ثم تراجعنا ثانية ووصلنا إلى آخونى وتوقفنا هناك واتخذت كل مجموعة منا حصنًا لها وجعلنا نقاتل. كان عباس قلى خان قراجه داغى مع ستة فى أحد المحال، وكنت أنا وميرزا على خان ياوراف مع سبعة آخرين نقف خلف سطح الحمام، وضاق الحال بنا وحاصرونا من كل ناحية وكانوا يصيحون على التوالى: " سلموا أنفسكم". وفى تلك الأثناء وصل كل من مبرهاشم خان خيابانى والحاج خان بن على مسيو كل منهما مع مجموعته واشتركوا فى القتال وسحقوا العدو مما زاد من قوتنا فأغرنا فجأة وأنقذنا أنفسنا من تلك الأزمة.

والخلاصة، وقعت كل من هكماوار وآخونى وخطيب فى يد أتباع صمدخان مع حلول العصر. وإذا ما نظرنا إلى الخريطة وجدنا أن صمدخان كان يتقدم آنذاك فى دائرة بطول فرسخ واحد وعرض نصف فرسخ وتمكن من دخول المدينة، أما المدن التى سقطت – أى هكماوار وآخونى وخطيب – فيمكن أن نصل بينها بخط واحد. وكما أسلفنا، لو أحكم صمد خان تلك المناطق جيدًا لاشتد الأمر على أهل المدينة.

أية فتن نشبت فى المدينة؟

ذكرنا سالفًا أن أهالى تبريز قد اعتادوا على القتال، وكانت الأسواق تُفتح فى الأيام العصيبة، وكان الأهالى يمارسون أعمالهم بشكل طبيعى. واليوم، رغم أن القتال قد بدأ قبل شروق الشمس، ورغم سماع أزيز المدافع ودوى البنادق من عدة جهات إلا أن الأهالى استمروا فى مزاولة أعمالهم. ولم يُشاهد شخص فى الأسواق نظرًا لإغلاقها بسبب عطلة يوم الحمعة، لكن الأهالى كانوا يتجولون فى الأحياء يمارسون نشاطهم بشكل طبيعى، وكان المحاهدون يتنقلون من هذه الناحية إلى تلك فى جماعات، ويسارعون الخطى نحو ساحة القتال. وظل الحال على هذا النحو فى الثلاث ساعات الأولى من النهار، لكن ما أن ذاع نبأ هريمة المجاهدين ودخول صمدخان إلى هكماوار حتى انتفضت المدينة تدريجيًا وعلا الصياح والعويل فجأة، فكلما تقابل عدد من الأشخاص دار هذا الحديث بينهم فيندفعون إلى الطرقات ويهرولون هنا وهناك. كما احتشد الأهالى فى مقر الجمعية وأحدثوا جلبة، ولو تمكنوا من امتلاك البنادق والذخيرة لانضم الآلاف منهم على الفور إلى المجاهدين. وحتى رجال الدين - الذين قلما دخلوا فى عراك - أمسك البعض منهم اليوم البنادق ودخل أحدهم إلى الحى وجعل يصيح ويحث الأهالى على القتال. وكان رواد الحرية يهرولون من كل ناحية سعيًا وراء إيجاد الحل وحث الأهالى وإثارتهم. وتدريجيًا انتفض الأهالى فى.أرجاء المدينة واتجهوا نحو هكماوار فى جماعات. لكن ما الذى يمكن أن يبدر عن مثل هذه الجماعات؟! فليس لهذه العقدة من حل سوى وجود قائد حر يتمكن من حلها! ولنرى ما الذى كان يفعله آنذاك!

يجب أن نعلم أن سلوك كل من سردار وسالار فى ذلك الوقت كان يتسم بالحنكة واللياقة، لقد أقام سالار استحكامات ملتوية الطرق قوية فى مواجهة رجال الدولة، وكان يقاوم من ورائها ونمكن من صد غاراتهم بكل يسر، لذا قلما تمّت أعمال السلب والنهب فى منطقة خيابان والمناطق المجاورة لها، ولم يحدث فيها سوى الغارات الصيفية التى وقعت فى بداية الحرب، ولم يتمكن رجال الدولة من التوجه إلى تلك المنطقة ثانية.

لكن سردار كان له أسلوب آخر، فلم يهتم بإحكام الحصون، وكان يحبذ أثناء الحرب اجتذاب رجال الدولة داخل المدينة كي يدفع بهم فى الطرق الوعرة الواقعة بين الضواحى والحدائق ومن ثم يسهل عليه النيل منهم. وكما شاهدنا من قبل قام بهذا الأمر عدة مرات، ويجب أن نقر بأن ذلك الأسلوب قد أثمر عن نتائج طيبة فى مرات عديدة. واليوم لم يتسبب قدوم صمدخان فى أية خشية لديه، وربما كان ذلك من دواعى سروره، وما حدث هو إغارة صمدخان من عدة طرق وتقدمه بشكل ملحوظ حتى صار موضع خشية. من ناحية أخرى خشى بعض الأهالى من أن يفلت زمام الأمور من أيديهم، وعم الاضطراب الأهالى فى منطقة ويجويه – بالقرب من هكماوار – وفكرت بعض الأسر فى الفرار. لقد كان صمدخان قريبًا لدرجة أن طلقاته كانت تمر من فوق منزل ستارخان، ولم يعد هناك مجال للمقاومة، فخرج ومعه عدد من الأتباع واتجهوا إلى طريق پل منجم وچوست دوزان وتقابل فى منتصف الطريق مع آيدين باشا ولامه كثيراً، ثم تقدم وبلغ منطقة ديزج عن طريق أميرزين الدين. وكما أسلفنا، قاومت جماعة من المجاهدين هناك، وعصرًا صعد ستارخان سطح أحد المنازل وأطلق قذائفه من هذا المكان، لكنه لم يحقق شيئًا نظرًا لبعد المسافة، فهبط، وتقدم فى جرأة ثم صعد سطح المنزل ثانية. فى تلك الأثناء انتفض المجاهدون الذين كانوا يأتون فى زرافات من كل صوب وحدب، وقام كل منهم بمسعاه، ففى هذه الأوقات العصيبة وجدنا الحاج على عمو – ذلك الكهل الغيور – يقوم بعمل عجيب، لقد كان هذا الرجل – وهو من التجار الأثرياء فى هكماوار – من مؤيدى الحياة النيابية، وكان يتسم بالغيرة والحمية، وقد أمسك ببندقيته واشترك فى القتال. واليوم، بعدما انهزم المجاهدون وخرجوا من هكماوار سعى قدر الإمكان لحمايتهم واتجه نحو ديزج واشترك فى المقاومة حتى قدم سردار وسعى على نحو ما شاهدناه، وبذل المجاهدون كذلك تضحيات جمة كل بطريقته، ولم يقف الحاج على عمو مكتوف الأيدين، فجعل ينقض على الشباب فى سرعة وحمية رغم كبر سنه، وتمكن – رغم الطلقات المتتالية – من سحب المدفع الذى تركه المجاهدون فى حصن هكماوار، وساعده المجاهدون وسحبوه معه إلى

أحد الحصون، ووقف المدفعجي خلفه وجعل يطلق القذائف، وبينما كان سردار والمجاهدون يتعاركون مع الأكراد والقذائف تنهال بقوة، فإذا بالمدفع يزمجر، والعجيب أن أول طلقة منه أصابت رجال الدولة بإصابات بالغة.

لقد تحصن عدد من جنود رجال الدولة بالقرب من بوابة هكماوار فوق أحد المنازل الشاهقة، ولم يمهلوا أحدًا الفرصة وهم فوق هذا الارتفاع، وقام المدفعجي بإطلاق أولى طلقاته مصوبًا تجاه ذلك الارتفاع، كما صوب قذائفه تجاه أعلى بوابة الحصن مما أسفر عن مقتل عددٍ من طلائع جيش صمدخان. أما الطلقة الثانية فقد أحدثت فجوة في جدار البوابة وتسببت في مقتل بعض الأكراد ممن كانوا على مقربة من المكان.

في تلك الأثناء كانت قذائف سردار تنطلق على التوالي، وتعرضت حصون رجال الدولة لوابل من النيران من عدة جهات. من ناحية أخرى، توجه كل من مشهدي محمد على خان وأسد آقا والحاج حسن آقا كوزه كناني وغيرهم من آخوني إلى هكماوار واشتركوا في القتال. وكما أسلفنا، عمت المدينة فتنة شديدة، وانتفض الأحرار ثريهم وفقيرهم، المتدين منهم والمتفرنج، واتجهت حشود غفيرة منهم من المسلحين والمجردين من السلاح نحو تلك الناحية وكانوا على مقربة منها. وكانت قوة المجاهدين تزداد لحظة بعد أخرى. وأحدث بعضهم فجوات في جدران المنازل في ديزج وجعلوا يمرون من منزل إلى آخر حتى تقدموا ووصلوا إلى مقر صمدخان، وقاوم رجال الدولة واستخدموا المدافع، لكن كان واضحًا عدم قدرتهم على الصمود وأنهم سيضطرون إلى العودة.

فرار صمدخان

كما أسلفنا، حينما دخل شجاع الدولة هكماوار عصرًا وعم الهدوء لأكثر من ساعة، وتوقف القتال، عزم رجال الدولة على البحث عن مقر لهم أثناء الليل. من ناحية أخرى، كان أهالي هكماوار يرون أنهم لو مكثوا حتى الليل سيلحق بهم الأذى

والضرر، لذا اضطروا فى ذلك البرد القارص إلى ترك الحجرات الدافئة للأكراد وتفرقوا، وكان ذلك باعثًا لاستيائهم ولم يعلموا ماذا يفعلون؟

فى هذا الوقت اشتد دوى البنادق وعلا أزيز المدافع وانفتحت أمامهم طاقة الأمل وسعدوا لذلك. كنت أراهم وهم يتعاركون مع بعضهم البعض، وقد ذكر بعضهم أن تلك الأصوات تنطلق من بنادق سردار، وأنه قد حضر بنفسه إلى ساحة القتال، وعلى هذا النحو كانوا يواسون بعضهم البعض. وأثناء ذلك اشتدت وطأة الحرب، وكما أسلفنا، كان المجاهدون يقتربون من طريق ديزج. من ناحية أخرى، سلك بعض رجال الدولة طريق قراملك وانزلوا المدفع ثم عادوا أدراجهم. ولم يمض طويل زمان حتى تحرك شجاع الدولة مسرعًا ومعه بعض القادة والفرسان ممن التفوا حوله، أو على الأحرى نقول إنهم سلكوا طريق الفرار. وعندئذ اقترب المجاهدون بشكل أكثر لدرجة كانت ستمكنهم من القبض على صمدخان لو كان قد توقف لعشر دقائق أخرى. وعندئذ وجدت الفرصة سانحة للمراقبة، فتوجهت من منزل الحاج مير محسن آقا حتى هناك. وحينما عدت رأيت صمدخان وهو فى طريق الهروب حيث كان يمضى فى المقدمة والقادة والفرسان من خلفه.

وبعد فترة وجيزة ظهر المجاهدون وكانوا يتوافدون فى جماعات وخلفهم حشود غفيرة من الأهالى يتقدمونهم مهللين سعداء، وسرعان ما امتلأت جميع الضواحى وكانت جلبة لا نظير لها حيث لزم بعض الأكراد والجند منازلهم ولم يتمكنوا من الفرار، ودخل المجاهدون المنازل الواحد تلو الآخر بحثًا عنهم، كانت جميع الأبواب مفتوحة، والأهالى يتنقلون من هذا الباب إلى ذلك، وأحيانًا كان يتم اعتقال أحد الأكراد أو أحد الجنود ويسحبونه ويقتلونه أو يعتقلونه. ومع كل ما لحق بأهالى هكماوار من ضرر على يد رجال الدولة، إلا أنهم سعوا قدر استطاعتهم آنذاك لإخفاء الأكراد والجنود ولم يسلموهم، وكان بعض المجاهدين يحولون دون ذلك، وأنقذ سردار نفسه البعض من الموت، بل وورد فى كتاب "آبى" أنه ألقى بنفسه ذات مرة أمام أحد المعتقلين المحكوم عليهم بالقتل وكاد أن يصاب بإحدى الطلقات.

والخلاصة: لقد تحقق هذا النصر العظيم بعد تلك الهزيمة وذلك الضرر، واجتمع عشرات الآلاف فى هكماوار وأعربوا عن سعادتهم، ونسى الأهالى ما فعله رجال الدولة من أعمال النهب والسلب وعمت السعادة جميع الأرجاء. وظللت أراقب هذا الظفر للحياة النيابية وغمرتنى السعادة والفرحة لكن ثمة حادثًا وقع أمام عينى حثنى على البكاء، مفاده أن الحاج مير محسن آقا قد توجه لاستقبال صمدخان ونحر كبشًا تحت قدميه وهذا منه كان ذنبًا كبيراً. أما عن نائب يوسف، ففضلاً عن عدائه القديم للشيخية والمتشرعة، كان هو وأخوه من ألد أعداء أسرتنا، واليوم لم يترك هذه الفرصة وقام هو وأخوه لينتقما خاصة بعد مقتل مشهدى عباس – شقيقهما الأكبر – فى معارك اليوم. وفى تلك الأثناء، حيث اندفعت حشود الأحرار إلى هكماوار كانت تدور تلك الجلبة والضجة، واندفع نائب يوسف – من تلقاء نفسه أو بعد سماح سردار له – مع عدد من البنادقة إلى منزل الحاج مير حسن آقا، وكنت واقفًا فى فناء منزلنا، وكان المجاهدون والأهالى يخرجون فى جماعات ويندهشون من عدم التعدى على منزلنا ويستفسرون عن ذلك. وفجأة علت أصوات القذائف وتوالت الطلقات على المنزل وبعدما علمت بما حدث فقدت تماسكى وانهمر الدمع من عينى، وكانت هذه هى المرة الثانية – بعد وفاة والدى – التى فقدت فيها زمام نفسى وبكيت بمثل هذه الحرقة. وبعد فترة، وصلت الأنباء تفيد بعدم وقوع قتلى والقبض على الحاج مير محسن آقا وأخذوه، وبينما اتجهت كى أنال قسطًا من الراحة حتى وصل خبر آخر محزن، لقد تم القبض على والدة عباس بأوامر من نائب يوسف وأخذوها معهم. مسكينة تلك العجوز، فقد عثروا على جثتها بعد عدة شهور ممزقة فى قاع أحد الآبار، كما أضرموا النيران فى منزل عباس وغيره ممن انضموا إلى رجال الدولة ودمروها عن آخرها.

نعم، لقد دخل المجاهدون هكماوار بهذا النصر، وكانوا يتفقدون المنازل حتى الغروب. من ناحية أخرى فقد تعقبوا جماعات الهاربين، وتقدموا حتى المناطق القريبة من قراملك ولم يتركوا المعركة على أمل الاستيلاء على قراملك لكنهم

أضرموا النيران فى حصونها، وكانوا يردون بالمدافع والبنادق. من ناحية أخرى لقد قاموا بتوصيل مدفع هكماوار إلى الحصن واستخدموه. لكن مع انتهاء النهار لم يبق مجالٌ للحرب وعاد المُجاهدون. كما توجه سردار إلى نهاية الحدائق فى هكماوار ثم عاد. وقد أسفر هذا العراك عن إصابة ثلاثة تم القبض عليهم والزج بهم فى سجن البلدية. أما القتلى فقد بلغ عددهم وقت وصول المجاهدين اثنى عشر قتيلاً كانوا يُشاهدون فى الطرقات، لكن كما قلنا، نقلوا العديد منهم إلى قراملك وكان من بينهم كربلائى آقا على (رشيد الإيالة).

وطبقًا لما تم نشره فى الصحف آنذاك، بلغ العدد الإجمالى للقتلى من جانب صمدخان مائة وثلاثين قتيلا، وكان صمدخان مسرعًا فى هروبه لدرجة أن الثياب والأطعمة التى كانت معه سقطت فى أيدى المجاهدين وأحضروها إلى المدينة.

كانت هذه حكاية هكماوار. أما عن خطيب وآخونى، فكما أسلفنا، كانت الحرب فيهما على أشدها. وفى ذلك اليوم أبدى يار محمد خان – رغم إصابته فى حرب الوار – من الشجاعة الكثير حيث دافع عن قره آغاج وضواحيها من أعمال التعدى. وبعد الهزيمة فى هكماوار لم يتمكن رجال الدولة من الصمود وعادوا أدراجهم، وتعقبهم المجاهدون حتى المناطق القريبة من شام غازان ثم عادوا. ووفقًا لما ذكرته صحيفة "نالهء ملت" تم قتل واعتقال بعض الاشخاص هناك.

الأعمال الفدائية التى تمت اليوم

كما أسلفنا، قام المطالبون بالحياة النيابية بجهود مضنية فى هذا اليوم، لكن البعض منهم قام بأعمال فدائية يجب علينا أن نوردها فى هذا الموضع. لقد أشرنا سالفًا إلى اشتراك عدد من رجال الدين فى القتال، وقد وردت أسماؤهم فى صحيفة "نالهء ملت"، وكان من بينهم:– الحاج الشيخ على أصغر ليلاوايى، والشيخ محمد خيابانى، وميرزا اسماعيل النوبرى، وميرزا محمد تقى طباطبائى وميرزا أحمد القزوينى (مبعوث علماء النجف).

كما نشرت تلك الصحيفة أسماء بعض البواسل من أمثال:- الحاج خان بن على مسيو، ونائب محمد خيابانى ابن الحاج حسين الحلاج، ومشهدى مير كريم مجاهد، وحسين (أحد بنادقة ارك)، والسيد أبى السادات، ومشهدى محمد على ناطق، ويار محمد خان الكرمانشاهى، وحسين خان الكرمانشاهى، والسيد ميرهاشم الخيابانى، وعباس قلى سرتيپ، وعلى أكبر خان مينالو، وميرزا على خان ياوراف، والنائب حسن مبعوث حجة الإسلام, وأسد آقا فشنگى، ومشهدى حسن القوقازى، ويوسف چرندابى، وشهباز مبعوث سردار، وتقى اوف، ومحمد خان سرتيپ مدفعجى أمير خيز، وآيدين باشا القوقازى، وميرزا حسين بن الحاج على آقا قناد، ومحمد قلى خان قره داغى، والحاج على عمو، وحسن آقا بن الحاج مهدى آقا، والسيد عمو أوغلى حارس الجمعية.

هذا وقد أثنى ستارخان على الحاج خان بن على مسيو، وقد أشرنا سالفًا إلى الحاج على عمو وكيفية نقله للمدفع إلى الحديقة. لكن ثمة إناسًا تغاضت صحيفة "ناله‌ء ملت" عن ذكرهم، منهم: كربلائى على الهكماوارى، وهو أحد البنادقة الذين اتسموا بالقوة والشجاعة، وقد أبلى بلاءً حسنًا فى ذلك اليوم وأثنى ستارخان كثيرًا عليه. كما اشترك المغفور له الحاج على دوافروش فى القتال وأصيب فى ساعده. لقد قام كل واحد منهم بأعمال بطولية لكن أعظمها ما قام به سردار، فلو لم يأت لما بدر أى عمل من هؤلاء. يقول يكانى – سكرتير سردار وكان متواجدًا معه فى هذا اليوم – بشأن فدائية سردار:

"كان واقفًا فوق سطح المنزل وأبدى من الشجاعة ما لم يبدها أى شخص من قبل".

كما امتدح مستر راتسلاو – القنصل الإنجليزى – هذه الحرب قائلاً:

"لقد وضحت فيها – كغيرها من الحروب – بسالة ستارخان، وواقع الحال إنه قاد شعبًا، وأن آمال هذا الشعب كانت معقودة به".

هذا وقد نقلوا ما تم سلبه على يد رجال الدولة فى هكماوار إلى قراملك، لكن البعض لم يجد الفرصة لذلك، وظلت تلك الأشياء فى حوزته، وحينما لاذوا بالفرار عجزوا عن حملها، فأمر سردار بجمعها فى المسجد وردها إلى أصحابها فى حالة ظهورهم. وقد نشروا فى صحيفة "مساوات" أن الفرسان كانوا يخلعون الأقراط من أذان النساء. لكننى كنت فى هكماوار وأشهد شهادة حق بأن ما من أحد من الأكراد أو الجند أو الفرسان قد قام بمثل هذه الأعمال قط. حقًا إنهم أغاروا على المنازل وألقوا القبض على بعض الأهالى، لكن لم يبدر منهم أى سلوك آخر سئ. من ناحية أخرى، لم ينفذ صبر أهالى هكماوار وأقام أصحاب المنازل المنهوبة الولائم وقدموا الأطعمة والمشروبات الساخنة. وقد قرأت مثل هذا الموقف فى تاريخ خيوه، فحينما احتلها الروس وأغاروا على منازل الخان، أحضر الأهالى الشراب والفاكهة لهم. وهذا ما حدث فى هكماوار، ففى كل منزل نزل فيه الفرسان والقادة قدم صاحب المنزل الطعام والشراب إليهم عن طيب خاطر. هذا هو كرم الضيافة الذى يتسم به الشرقيون فى كل مكان.

وفى الأوقات الأخيرة فر صمدخان، وسعى أصحاب المنازل قدر الإمكان لحماية أتباعه. وقد سمعت هذا بعد انتهاء الحرب فى قراملك، فقد أخفت امرأة ثمانية من الجند فى التنور، واتجهوا ليلاً برفقة أحد أقاربها عبر الحدائق إلى قراملك.

كانت الحرب تتقدم من ناحية خيابان، ولنشاهد الآن ماذا حدث فى تلك المنطقة: لقد ذكرت سالفًا أن معلوماتنا عن خيابان فى كافة الحروب كانت ضئيلة، لأننى كنت على مسافة بعيدة منها، ولم يقم شخص بتدوين تلك الأحداث. ومعلوماتنا ضئيلة كذلك فيما يتعلق بأحداث اليوم، فعلى الرغم من احتدام القتال إلا أن رجال الدولة أغاروا من هناك لكنهم عجزوا عن العثور على طريق، وقد ورد فى صحيفة "تالهء ملت":

"فى البداية، جاءت جماعة من جند الدولة أعلى سارى داغ وبدأ أفرادها فى القصف بشكل عنيف، وأطلقوا قذائف المدفع المواجه لحصون الأحرار، وورد

الأحرار عليهم بالمدافع. وجاء سالار إلى ساحة القتال مما شدد من أزر المجاهدين ووجهوا قذائفهم نحو العدو ثلاث مرات تقريبًا وطرحوا تسعة منهم أرضاً، واستمروا فى الإغارة حتى تقدموا نحو فرازكوه – حيث كان يوجد أحد الاستحكامات المزودة بالمدافع – وبعد فترة وجيزة وصلوا إلى هناك، وإذا برجال الدولة يطلقون قذائفهم فجأة، وأصيب أحد طلائع الحرية ويدعى جعفر خان وسقط أرضاً. ولما رأى المجاهدون أنفسهم فى الخارج والأعداء يحتمون فى حصون محكمة اضطروا إلى العودة. وأقاموا حصنًا قويًا أسفل جبل سارى داغ وكفوا يد رجال الدولة عن تلك المنطقة. ومن العجيب هنا أن يفقد سالار اثنين فقط من رجاله، ويستولى على أحد الجبال المهمة ويجبر الأعداء على التقهقر".

وقد ورد فى كتاب "آبى":

"لقد قصفوا خيابان ثانية فى الخامس من مارس حيث تم الهجوم على هكماوار، لكن الأحرار أغاروا هذه المرة على دار المدفعية، فاضطر رجال الدولة إلى إعادة المدافع."

وبوجه عام، يتضح أن ثمة حربًا شديدة تقع، ومع أن الهجوم بدأ من جانب رجال الدولة إلا أن الأحرار أبدوا حنكة وشجاعة فائقة، وأغاروا عليهم وأجبروهم على التقهقر. هذا وقد ذكرنا سالفًا أنه رغم تلك الأزمات التى وقعت فى خيابان إلا أن ميرهاشم قد سارع بمساعدة آخونى ومعه جماعة من البواسل، وظل يحارب هناك بكل قوته حتى انتهى اليوم.

وقوع أزمة كبرى

بعدما انتهت الحرب فى هكماوار على نحو ما شاهدناه، تلقن كل فريق من فريقى الصراع درساً. فمن ناحية، اختبر رجال الدولة قوتهم، وعلموا أنهم عاجزون عن الإغارة على المدينة، وخمدت نار صمدخان – الذى كان يبدى

الشجاعة أكثر من غيره – ولم يفكر ثانية فى الإغارة. وما فعلوه فقط هو السعى لتضييق الخناق على المدينة عن طريق إحداث مجاعة تحث الأهالى على طلب الأمان.

من ناحية أخرى، اتعظ أهالى تبريز مما حدث فى هكماوار واعتقدوا أنه فى حالة دخول الجند والفرسان المدينة سوف يقومون بالإغارة على جميع المنازل ولن يكفوا عن إلحاق الأذى بهم، لذا هبوا للثورة، وتبدل حال تبريز منذ ذلك اليوم. وطالب أهل السوق وغيرهم بالمشاركة فى الجهاد. ولما كانت الجمعية ترغب منذ فترة فى تعليم المجاهدين أسلوب القتال والتدريب العسكرى وحالت الحروب المتتالية دون ذلك، لذا انتهزت هذه الفرصة فى وجود تلك المجموعات الجديدة ونشرت إعلانًا يفيد بوجوب التجمع يوم السادس عشر من شهر صفر (١٨ اسفند) فى ثكنات الجند للقيام بالتدريبات العسكرية. ومنذ ذلك اليوم أغلق الأهالى الأسواق وتجمعوا فى ثكنات الجند للتدريب على يد القادة، وصارت تلك التكنات مقرًا للتجمعات مرة أخرى. أثناء ذلك قدم مستر باسكرويل وتلميذه وقدما العون فى هذه التدريبات كما سيرد ذكره من بعد.

كان هؤلاء منهمكين فى عملهم، بينما يسعى سردار وسالار والمجاهدون دون كلل. كانت رحى الحرب تدور من ناحية خيابان، وقلما مر يوم لم يُسمع فيه دوى المدافع والبنادق. لكن لم تنشب معركة أخرى منذ الرابع عشر من اسفند فى نواحى هكماوار وآخونى وخطيب. كان صمدخان لا يزال فى حالة التشتت والاضطراب ولم يتقدم خطوة. ولم يلتفت المجاهدون كذلك لإشعال فتنة الحرب. ومن غد ذلك اليوم عاودوا ثانية بناء الاستحكامات وضاعفوا من عدد البنادقة فى هكماوار. كما أقاموا الاستحكامات كذلك فى آخونى، وعهدوا بخطيب إلى مشهدى محمد على خان وأسد آقا.

وقد ذكر مشهدى محمد على خان حكاية جديرة بالذكر، ففى الرابع عشر من شهر اسفند كانت تلك المعارك تدور، وكان رجال الدولة والمجاهدون يقومون

بمساعٍ مضنية كل فى منطقته، ثم عادوا وقت الغروب إلى مقارهم منهكين وقد خارت قواهم، ولم يهتم شخص وهو فى هذه الحال بالحصون، واتجه كل منهم إلى داره بذريعة شدة التعب لينال قسطًا من الراحة. وما أكثر الحكايات غير اللائقة التى حدثت فى ظل عدم الاكتراث هذا. أما سردار، فلم يمنح لنفسه الفرصة كى يسكن للراحة من هذا العناء الشديد، وخرج ليلاً ليتفقد الحصون، واتصل هاتفيًا من مقر الجمعية بجميع الجهات وأرسل رسله إلى شتى الأرجاء ليجمع المعلومات. ونظرًا لسرقة هاتفه فى خطيب لم يتلق ردًا من تلك الجهة، وأفاده الرسول بعدم وجود أى شخص فى المنزل، ويقول مشهدى محمد على خان :

"لقد كنت وأسد آقا ضيفين على الحاج ستارخامنه اى، فحينما عدنا من هكماوار، توجهنا إلى داره، وقبل تناول العشاء، ذكروا لنا أن سردار جاء ويريدنا. فتملكنا القلق دون أن ندرى ماذا حدث، فطلبنا منه الدخول ليخبرنا بحقيقة الحال، فطلب منا التوجه ليلاً إلى خطيب، فتناولنا العشاء معًا، ثم امتطيت جواد سردار، واستقل أسد آقا عربة المضيف، وأرسلنا إلى المجاهدين كى يأتوا إلى هناك مع الفجر، وقضينا الليل فى حديقة سردابلو. وفى الغد، حينما وصل المجاهدون أقمنا حصنًا قويًا".

وهذا مثال يوضح أية يقظة كانت لدى ستارخان فى عمله، وأية جدارة كان يبديها. وفى تلك الآونة كانت أزمة الخبز والطعام تشتد فى المدينة يومًا بعد يوم. وكان الأهالى فى الأعوام السابقة يعدون أنفسهم فى مثل هذه الأيام لاحتفالات عيد النيروز، وكان أصحاب المحال يجهزون لاحتفال الأربعاء الأخير من العام – وكان من أكبر الاحتفالات فى تبريز – حيث تُملأ المحال بأنواع الأطعمة المختلفة. لكن المحال خلت هذا العام تمامًا، ولم تكن الأزمة فى الخبز والقمح والأرز فقط بل شملت كذلك بعض الأطعمة الأخرى كالمشمش والبلح وغيرهما من السلع الأخرى، وارتفعت الأسعار بشكل كبير، وعلى الرغم من ذلك لم يتذمر الأهالى وصبروا على تلك الحال.

كانت هذه هى الحال فى المدينة بعد حرب هكماوار. هذا وقد وقع حادث محزن فى تلك الأيام ألا وهو سقوط مرند وجلفا والقبض على بلورى وفرج آقا. فكما أسلفنا، بعد حرب الوار، حينما عجز المطالبون بالحياة النيابية عن منع رحيم خان، زادت قوته وسيطر على صوفيان. فى نفس هذه الأيام، حينما علم ابن شجاع نظام – الذى كان يعيش فى ماكو بعد هروبه من مرند – بضعف المجاهدين فى مرند ونواحيها، قام بانتفاضة وجمع فرسان تلك المنطقة حوله.

وعلى هذا النحو أصبح فرج آقا وأتباعه بين عدوين، ورغم أن محمد قلى خان قذ انضم إليهم ومعه مائة فارس من فرسان تبريز، إلا أنهم عجزوا عن المقاومة فى مرند وتوجهوا إلى زنوز. وجاء ابن شجاع نظام إلى مرند فى السادس عشر من اسفند، وقام من غد ذلك اليوم بالعراك وأغار على المنازل. من ناحية أخرى، تقدم فرسان رحيم خان حتى مرند وانضم الفريقان معاً، ووقع فرج آقا وأتباعه فى أزمة، ولم يتمكنوا من الصمود وتم القبض على فرج آقا وبعض القادة. أما بلورى فقد تمكن البعض من خداعه ولم يتركوه يخرج من مرند، وتم القبض عليه كذلك ورأى من المسيئين ما لا يمكن أن يُرى، ثم سقط فى يد رحيم خان فتعرض للتعذيب. ونظرًا لعدم وجود معلومات صحيحة حول هذه الحكايات لذا مررنا عليها فى عجالة. لكن الفدائيين من الأرامنة والكرجيين وبعض المجاهدين قاموا بكثير من التضحيات فى تلك السلسلة من الحروب، وفى الثالث والعشرين من شهر صفر (٢٥ اسفند) وقعت جلفا كذلك فى يد رجال الدولة. وفى نفس هذه الأيام قطعوا خطوط البرق التى تربط بين الهند وأوربا لعدة أيام ولم يجرؤ شخص على إصلاحها.

من ناحية أخرى، لم يتورع أهالى ماكو وقره داغ من إلحاق الأذى بالأهالى فى القرى، خاصة تلك القرى التى أبدت ميلاً إلى الحياة النيابية حيث أطاحوا بالعديد من الأسر بهذه الذريعة.

وفى الأيام التى وصل فيها رحيم خان إلى الوار واستولى عليها، قام باعتقال درمايان حاجى كريم بجريرة ميله إلى الحياة النيابية ووضعه فوق فوهة

المدفع وأغار على منزله. وحينما كانت هذه الأنباء تصل إلى المدينة فقد أدت إلى استياء المطالبين بالحياة النيابية. وفى تلك الأثناء وقعت مشكلة أخرى كبرى تتلخص فى أن الروس قد تذرعوا بإغلاق طريق جلفا ونقص الطعام فى المدينة وجعلوا يشتكون ويحتجون. وكان الأحرار يعلمون هدفهم من وراء هذه الشكوى. كانت الصحف الروسية تتحدث أحيانا بإسم التجار الروس، وأحياناً تعبر عن الخشية من إمكانية توجه الجوعى إلى منازل الأوربيين والرعايا الروس ونهبها، وهذا ما رددوه كثيرًا.

لقد كانت محنة كبرى حثت الجميع على التفكير فيها، ولم يستطع المغفور له ثقة الإسلام – الذى أبدى عدم انحيازه إلى جهة ما منذ بداية الحرب ونحى نفسه بعيدًا – أن يلزم الصمت، وجعل يفكر فى الحل، وأبرق إلى محمد على ميرزا فى السادس والعشرين من شهر صفر (٢٨ اسفند) وتحدث عن المشكلة التى تعانى المدينة منها وأفصح عن خشيته من الأجانب، وطالبه بالخنوع للحياة النيابية وإنهاء حالة الصراع.

من ناحية أخرى، تطاول علماء النجف، الذين كانوا على علم بمحنة تبريز، على سپهدار وصمصام السلطنة، وأرسلوا إليهما البرقية التالية فى الثانى والعشرين من صفر (٢٤ اسفند) :

"من النجف فى الثانى والعشرين من صفر بوساطة جمعية "سعادت" إلى جناب الأشرف سپهدار بأصفهان وجناب صمصام السلطنة بتبريز، إن الحماية الفورية والدفاع العاجل أمر واجب على كل مسلم."

لكن سپهدار وصمصام لم يكونا فى حال يمكنهما من مد يد العون إلى تبريز. فقد استقر صمصام السلطنة فى أصفهان على أمل وصول سردار أسعد – مؤسس تلك الحركة وكان قد وصل توًا من أوربا – وكان سپهدار يعيش فى الرشت وقد عزم على عدم الثورة ما لم يرسلوا إليه جيشاً من البلاط. ولم تفلح محاولات كل من معز السلطان ويفرمخان وغيرهما معه.

وبهذه المحنة انتهى عام ١٢٨٧ هـ، هذا وسوف نورد أحداث العام الجديد بشكل منفصل، ونحن مضطرون فى هذا الموضع إلى قطع الحديث لنتناول ما وقع من أحداث فى كل من خوى وسلماس وطهران حيث ظهرت آنذاك بعض الأحداث الجسام فى تلك المناطق.

معارك خوى

كما أسلفنا، بعد ما فتح المجاهدون خوى توجه إليها عمو أوغلى من تبريز، كما وجهت الجمعية بالأمير حشمت إلى هناك. من ناحية أخرى، أرسل إقبال السلطنة بكتائب الأكراد إلى القرى المحيطة بخوى للسيطرة على تلك المناطق، كما تقدم – طبقًا لأوامره – اسماعيل آقا شكاك – سيمكو – مع الأكراد الموالين له إلى المناطق المحيطة بخوى.

وعلى هذا النحو، كان عمو أوغلى يعد القوات من ناحية، وكانت أفواج الأهالى من يكان وما حولها يتدفقون لينضموا إلى المجاهدين من ناحية أخرى. كما انضم إليهم كذلك فوج من الأرامنة بقيادة سامسون – أحد قادة الداشناكسيون – واتجه إلى هناك أيضًا بعض الكرجيين من صانعى القنابل. وفى تلك الأثناء ظهرت حركة بين مجاهدى أرومى وبادرت كتيبة منهم تحت قيادة ميرزا محمود سلماس ومشهدى اسماعيل لمعاضدة مجاهدى خوى.

من ناحية أخرى سعى عمو أوغلى لإقرار الأمن فى المدينة، وتحارب مع أعداء الحياة النيابية الذين كانوا وفرة فى مدينة خوى ولم يكفوا عن عدائهم ومساعيهم الخفية.

وكما أسلفنا، فُتحت هنا الإدارات الحكومية الخاصة بشئون القضاء كالمحكمة والبلدية والشرطة، كما أُسست جمعية بإسم "جمعية خوى" برئاسة الحاج على أصغر آقا – أحد كبار التجار – وأنشئت مدرسة بفضل ميرزا حسن رشديه خاصة بتعليم الأطفال، كما قام ميرزا آقاخان مرندى بإصدار صحيفة "مكافآت" وقام بتوزيعها هناك.

هذا وقد بدأت المعارك من تلك المنطقة حينما كتب عمو أوغلى عددًا من الرسائل إلى إقبال السلطنة والقادة الأكراد ودعاهم إلى التضامن مع مؤيدى الحياة النيابية، وبدا واضحًا أن محاولاته تلك باءت بالفشل، واضطر إلى إنهاء الأمر بالعراك. وقد نشبت بعض المعارك الحامية الوطيس هناك لكننا نفتقد المعلومات الدقيقة حولها، وما لدينا عبارة عن معلومات متفرقة تنحصر فيما يلى:

أغار الأكراد ذات يوم على منطقة پيركندى، واستنجد أهالى القرية بالمجاهدين الذين بادروا إليهم بأفراد الفرسان والمشاة ونشبت حرب دامية. ولما كان الجليد يغطى الأرض ظهرت وكأنها ترتدى غطاءً باللون الأبيض، لكن الدماء أريقت بغزارة وانهمرت على الأرض فبدت وكأنها ترتدى ثوبًا أحمر اللون. ويقال إن عدد القتلى من الجانبين بلغ ما يقرب من ستمائة قتيل. ولا شك أن هذا العدد مبالغ فيه.

وقد أبرق عمو أوغلى والأمير حشمت إلى تبريز يطلعاها بأمر هذه المعركة ويقولان: "اندفع حشد من الأكراد وأهالي ماكو مع بعض القادة إلى قريتى پارچنى وحاشرود – على مسافة فرسخ واحد من خوى – وقطعوا خطوط البرق. وقد بعثنا بمائتى وخمسين شابًا من الفدائيين لاقتلاع شأفتهم ليلة الحادى والعشرين من ذى الحجة (٢٤ دى) وقد باغتوهم وانقضوا عليهم وقتلوا منهم ما يقرب من المائة، واستولوا على خمسين جوادًا وعددًا من البنادق وغيرها من الأشياء الأخرى، وأجبروهم على التقهقر لمسافة ثلاثة فراسخ ثم عادوا."

ويقول ميرزا آقا كرمانى فى خواطره :

"تضامن المسيئون للحياة النيابية فى خوى مع الأكراد واتفقوا على الإغارة ليلاً من خارج المدينة ومحاصرة القلعة على أن يهبّ من فى الداخل لمساعدتهم ويقتلوا الأحرار ويجتثوا شأفتهم، إلا أنهم لم يتمكنوا من القيام بشئ أمام ضغوط عمو أوغلى وبسالة المجاهدين، واضطروا إلى الفرار".

ويقول كذلك:

"فى فجر أحد الأيام، هاجم الأكراد من قرية اگرى بوجاق إلى مركز القرية القريبة من المدينة وتصدى لهم الأحرار من المسلمين والأرمن وألحقوا بهم الهزيمة وأجبروهم على الفرار. لكن حينما قاموا بتعقبهم جاءت خلفهم أفواج أخرى من الأكراد من ناحية سكمن آباد وعادت تلك المجموعة الفارة، وجعلوا المجاهدين هدفاً لطلقاتهم من الناحيتين، ودارت بين الجانبين معركة حامية، وقُتل عدد من البواسل الأرمن وجماعة من المجاهدين المسلمين، وتمكن الآخرون من إنقاذ أنفسهم بصعوبة بالغة، ولو لم تكن ضغوط عمو أوغلى لسقطت القلعة فى يد أهالى ماكو."

وقد وردت قصة أخرى عجيبة فى إحدى البرقيات المرسلة إلى تبريز وتم نشرها فى صحيفة "انجمن"، مفادها:-

جفل أحد الجياد منذ أيام من يد مؤيدى الحياة النيابية واتجه ناحية الأعداء وما أن رآه الأكراد حتى أسرع إليه ما يقرب من الأربعين شخصًا والتفوا حوله ورغب كل منهم أن يتقدم ويمسك بلجامه وتجرأ أحدهم ورغب فى أن يمتطيه، لكن ما أن وضع قدمه على الركاب كى يجلس فوق السرج حتى انفجرت عبوة ناسفة قُتل على أثرها خمسة من الأكراد وأصيب عدد آخر.

مقتل سعيد سلماس

كانت هذه الجهود تبذل فى خوى، واشتدت وطأة المعارك مع الأكراد تدريجياً، أثناء ذلك وصل شاب غيور يدعى سعيد سلماس مع فرقة من الأحرار العثمانيين بقيادة خليل بك[1] لمساعدة الأحرار. أثناء ذلك تم منح الحكم النيابى فى الدولة العثمانية إلا أن السلطان عبد الحميد كان لا يزال يرتقى سدة الحكم هناك وقد تشكلت جمعية ضده بإسم "اتحاد وترقى" تعمل سراً، ولما كانت القوات العثمانية تستقر آنذاك بالقرب من قطور نتيجة للصراع الدائر على الحدود بين إيران والدولة

(١) هو عم أنور باشا وقد قدم مع الجيوش العثمانية إلى العراق وآذربايجان إبان الحرب العالمية.

العثمانية، فقد شاهدت عن كثب فدائيات أحرار إيران لذا بادر بعضهم بالتوجه إلى ميرزا سعيد.

وقد ذكرنا ذلك الشخص سالفًا بأنه كان من الشباب الغيور المؤيد للحياة النيابية، ولما كان يمارس النشاط التجارى فى اسطنبول وسافر مرات عديدة إلى الدولة العثمانية لذا كان العثمانيون يعرفونه جيداً.

وقد أسرع عمو أوغلى والمجاهدون إلى بيشواز، واتحدت الثلاث مجموعات الإيرانية والتركية والأرمينية وبذلوا جهودهم معاً، واجتمعت الجيوش فى منطقة سعد آباد أمام أهالى ماكو ونشبت الحرب، وانضم خليل بك بجيوشه إلى هناك. وفى يوم الأربعاء السادس عشر من صفر (١٨ اسفند) نشبت حرب حامية الوطيس، وقد نشرت صحيفة "مكافات" أحداثها، لذا نورد ملخصًا لها فى هذا الموضع :

فى ليلة الأربعاء، وقبل الفجر بثلاث ساعات، انقسم المجاهدون من الإيرانيين والأتراك إلى عدة فرق بقيادة خليل بك وبرفقة إبراهيم آقا وميرزا سعيد، وتحركوا من سعد آباد وعبروا نهر قطور وبلغوا حدود قرية حاشرود وقاموا بالعراك ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد. وقد أبلى المجاهدون بلاءً حسنًا حيث كانوا يشاركون فى القتال ويهتفون بحياة ستارخان القائد الوطنى، ولم تفتر حماسة المغفور له سعيد قط وجعل يهتف بحياة الحرية، وأحيانًا كان يوجه خطابه إلى المجاهدين قائلاً :

"أيها الإخوة، اضربوا، لا تخافوا، نحن فداء الحياة النيابية، سيذكروننا بالخير فى التاريخ".

وأحيانًا كان يوجه حديث إلى الأعداء قائلاً :

"إلامَ تفرون يا عديمو الحمية، أتظنون أننا نكف أيدينا عنكم بعد هروبكم؟!"

واليوم تم قتل أحد القادة الأكراد وتم القبض على أربعة آخرين، وأبدى المجاهدون بسالة فائقة، تقول صحيفة "مكافات":-

"لقد سقط على ساحل نهر قطور من جانب العدو ما بين صرعى ومصابين بالقدر الذى تخضب معه لون الماء على أثر سريان دمائهم".

حقًا، لقد قتل منهم حوالى مائة شخص، وفى الجانب الآخر قُتل المغفور له ميرزا سعيد وستة آخرون من المجاهدين، وبلغ ميرزا سعيد بغيته وأريقت دماؤه فى سبيل الحرية.

كانت هذه هى أحداث خوى. وقد وقعت بعض الأحداث الأخرى أيضًا فى سلماس. فكما أسلفنا، كانت سلماس تقع تحت قبضة المطالبين بالحياة النيابية وكان الحاج پيشنماز يتولى مهمة الدفاع عنها مع إحدى الكتائب. وفى الوقت الذى استولى فيه رحيم خان على صوفيان وما حولها كان فرسانه يتفرقون فى آرونق وانزاب وغيرها، وقد ثار بعض الأهالى فى آرونق وانزاب بسبب سوء مسلك الفرسان معهم وطلبوا العون من الحاج پيشنماز، فقبل الأخير وبادر لمساعدتهم وألحق الهزيمة بالفرسان، واستولى على تسوج – وهى مقر رجال الدولة – وتم هذا الظفر فى الثالث والعشرين من شهر صفر (٢٥ اسفند) ومنذ ذلك الحين صارت تسوج أحد مراكز الحرية.

ورغب الحاج پيشنماز فى التوجه من هناك إلى صوفيان لفتح طريقٍ إلى تبريز ودارت المعارك بشكل دائم بينه وبين فرسان رحيم خان. من ناحية أخرى، كانوا فى تبريز يعقدون الأمل عليه فى فتح طريق آرونق وانزاب لكنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة.

وواقع الحال إن رجال الدولة كانوا يخشون جانب سلماس وتسوج كثيرًا، وتوجد رسائل من قبل عين الدولة بين أيدينا الآن كان قد أرسلها إلى رحيم خان، ويذكر فيها الحاج پيشنماز وأعماله فى أكثر من موضع. ويأمر رحيم خان بإرسال قوة مجهزة بالمدافع إلى تسوج.

مقتل اسماعيل خان

وفى طهران – كما ذكرنا – قامت جماعة من الأحرار هناك بانتفاضة، واحتشد بعضهم فى السفارة العثمانية، بينما اعتصم البعض الآخر فى عبد العظيم، وجعلوا يطالبون بالحياة النيابية.

فى ذلك الوقت وقع حادث عجيب فى طهران وهو فى حد ذاته لا يعنى شيئاً، لكن الأهالى فسروه بما يحلولهم نتيجة لعدائهم للبلاط. وكيفية ذلك أن حشدًا من الغربان اندفع ذات يوم على الرايات الحكومية الحمراء المرفوعة فوق سطح مبنى شمس العمارة وجعلوا يمزقونها. واحتشد الأهالى على صوت الغربان وجعلوا يشاهدونها، وقد أطلقوا من إرك ثلاث رصاصات على الغربان دون فائدة، بل وتسببت تلك الرصاصات فى تمزيق رايتين. واستمرت هذه الحال لمدة أسبوع حيث كانت الغربان تجتمع فى سماء طهران وكلما رأت راية اندفعت نحوها ومزقتها، واعتبر الأهالى ذلك علامة على أفول نحم الأسرة القاجارية، وأبرقوا بالحادث إلى المدن الأخرى، ونشروا أشعارًا هزلية فى هذا الشأن فى صحيفتى "نالهء ملت" و "انجمن"، كان مطلعها :

ألم تر كيف فعل ربك ببيدق القاجار القاجار   فمزقته الغربان مزقًا بالمنقار

وأكلوه أكلة الجيفة والمردار   إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار الأبصار

ولا نحتاج لأن نقول إن الغربانِ لا علم لها بالحياة النيابية، ولم تكن تعادى محمد على ميرزا، ولا نعلم لمَ قامت بهذا العمل! لكن الحقيقة تقول إن نجم محمد على ميرزا أخذ فى الأفول واشتد الحال عليه يومًا بعد يوم. وفى تلك الآونة ظهرت الانتفاضات فى كل من مشهد واستر آباد، كما ظهر السيد عبد الحسين اللارى فى شيراز.

على هذا النحو كان محمد على ميرزا يقضى أيامه دون أن يكف عن العراك، وفى طهران أغلقت جميع المحال وفى يوم الأحد التاسع والعشرين من محرم (الثانى من اسفند) أُضرمت النيران فى أحد محال الذخيرة، وفر الأهالى معتقدين أن قنبلة قد انفجرت، ومن تبقى منهم أغلق محاله. ومن غد ذلك اليوم، الإثنين الأول من صفر (٣ اسفند)، وقع حادث آخر، فقد تم القبض على ثلاثة فى السوق وفى حوزتهم الأسلحة والقنابل وأخذوهم إلى باغ شاه وأخذوا رئيسهم – اسماعيل خان سرابى – دون تحقيق أو محاكمة وعلقوه فى بوابة الحديقة حتى هلك، وكان اسماعيل خان هذا من بنادقة مظفر الدين شاه وضمن الذين تحصنوا فى جمعية مظفرى يوم قصف المجلس. وليس معلومًا كيفية خروجه من هناك، وأين كان يعيش؟ وكيف لم يتم التوصل إليه؟ فيقول حمد الله خان شقاقى – أحد رفقائه وأعوانه وكان يعيش فى طهران حتى عامين – بشأن حادث القنبلة هذا :

"أخذنى اسماعيل خان إلى السيد ضياء الدين بن السيد على آقا اليزدى – الذى ذكرنا من قبل أن أباه كان معتصمًا فى عبد العظيم – فأحضر السيد ضياء قنبلة وأعطانا إياها حتى نحملها ونضعها فى محل الحاج محمد اسماعيل – من نواب المجلس الأول وكان آنذاك من مؤيدى محمد على ميرزا– وكانت نيته أنه حينما تنفجر القنبلة تشتعل النيران فى المحل ويضطرب الأهالى عند سماعها فيمتنعون عن فتح الأسواق ثانية. وكنت أنا وأربعة آخرون ممن اختارهم اسماعيل خان ليكونوا معه فى إنجاز هذه المهمة. وتوجهنا فى الليلة الأولى كى نضع القنبلة لكننا لم نتمكن من ذلك واضطررنا إلى العودة. ومع بزوغ الفجر، حاولنا إنجاز مهمتنا مرة أخرى واخترنا مكانًا لنضع فيه القنبلة، واستيقظت فجرًا ورغبت فى الخروج من المنزل فإذا بزوجتى تلح علىّ أن أؤدى صلاة الأول من صفر قبل خروجى مما أدى إلى تأخرى عن رفقائى، وحينما بلغت المكان المحدد كانوا قد رحلوا وذهبت فى إثرهم فإذا بى فى منتصف الطريق أعلم بأنهم قبضوا على ثلاثة منهم".

ويستطرد فى حديثه قائلاً:-

"وتوجه أحد رفقائى لينقل الخبر إلى باغ شاه".

أما عن مقتل اسماعيل خان فلذلك قصة أخرى:

فحينما أخذوه إلى باغ شاه، أمر الشاه بقتله، فقيده الخدم، وأحضروه إلى المكان المخصص للقتل، واستل أحد الجلادين خنجرًا من وسطه ليطعنه به من الخلف، فإذا به وق انتفض من مكانه وأسرع تجاه نير السلطان وصاح قائلاً: "لا تدعهم يقتلوننى". وحاول الفرار من المكان خوفًا على حياته لكنه لم يتمكن من ذلك واقترب الجلاد منه وقام بشنقه ثم علقه على البوابة وقدم محمد على ميرزا بنفسه لمشاهدة جثمانه. أما الشخصان الآخران اللذان كانا معه فقد زج بهما فى السجن ولا نعلم متى تم إطلاق سراحهما.

حرب سارى داغ الكبرى

نعود ثانية إلى تبريز، وكما ذكرنا، فقد اشتد أمر الطعام هنا وتفشت المجاعة. من ناحية أخرى عمت الخشية من أن يتذرع الروس بذلك ويقوموا بتوجيه جيوشهم إلى آذربايجان. وذكرنا كذلك إن ثقة الإسلام قد توجه إلى محمد على ميرزا وطالبه بالحل، وأن علماء النجف تطاولوا على سپهدار وصمصام السلطنة، إلا أن سردار وسالار وقادة الحرية أدركوا صعوبة هذا الأمر، وكانوا يرون عدم وجوب ترقب المساعدة من الغير ولم يعقدوا الأمل على محمد على ميرزا وعزموا على حل العقدة بأيديهم، وقرروا الإغارة على قوات الدولة بشكل متتال لمواجهتهم وصدهم. هذا وقد نمت هذه الفكرة لديهم بعد حرب هكماوار* واتفق الجميع على التضامن. ومنذ بداية الحرب كان المجاهدون دومًا فى حالة دفاع عن النفس وعزموا على القتال لإنهاء الأمر دفعة واحدة، هذا وقضى الجميع شهر فروردين من أوله إلى آخره فى العراك وقلما توقف القتال فى أحد أيامه.

ورغم كثرة هذه الحروب إلا أن أحدًا لم يدون أحداثها، وليست لدينا سوى معلومات بسيطة من بعض الأحداث الكبرى التى وقعت هناك، لكننا مضطرون إلى ذكرها هنا والتغاضى عن بعض الأحداث الأخرى.

فى ليلة الإثنين التاسع والعشرين من شهر صفر (الثانى من فروردين) هاجمت جماعة من مجاهدى خيابان أحد استحكامات الدولة واستولوا عليها. تقول صحيفة "مساوات":-

"تم القبض على خمسة من رجال الدولة وقُتل الباقون باستثناء عدد قليل منهم، كما وقعت المعدات والخيام وما يقرب من ثمان وعشرين بندقية فى قبضة المجاهدين."

وقد أبرقت الجمعية إلى اسطنبول بأنباء هذا النصر، تقول :

"تبريز – ليلة ٢٩، هاجم أحرار خيابان أحد معسكرات الاستبداد، واستولوا على أحد الحصون القوية، وتم القبض على ستة أفراد وقتل أربعة وثلاثين، كما عُثر على بعض الغنائم، فلتبرقوا إلى سائر بقاع إيران."

(الجمعية الإقليمية)

كانت هذه إحدى المعارك البسيطة، وكان الغرض منها اختبار نقاط الضعف والقوة لدى كل جانب، لكنهم قاموا بغارة كبرى يوم الأربعاء (٤ من فروردين) وعرفت تلك الغارة بإسم "حرب سارى داغ" وكان هذا اليوم أحد أيام تبريز العصيبة. وفيه توجهت مجاميع الأهالى إلى ميدان القتال فضلاً عن المجاهدين والبنادقة، وبذلوا السعى، واختلط دوى البنادق والقنابل وأزيز المدافع والصياح، ونشب العراك بشكل لم يسبق له نظير.

ومن العجيب أنهم لم يدونوا أحداث تلك الحرب، ولم نجد مصدرًا تناولها بالحديث. حتى أن صحيفتى "نالهء ملت" و "انجمن" لم تصدرا فى ذلك الوقت نتيجة لاشتداد أمر الخبز وصعوبة العيش [1].

أما صحيفة "مساوات" فاكتفت بنشر ثلاث جمل قصيرة حول الحادث فى آخر عدد لها، لكن من كان يعيش آنذاك فى تبريز يعلم جيدًا أية حرب دامية دارت آنذاك، وقد ظل اسم حرب سارى داغ يتردد على الألسنة لأعوام تالية. وقد ذكرت صحيفة "مساوات" إن هذه الحرب كانت أشد من غيرها من الحروب التى تمت خلال شهر سابق. كما تحدث سالار غير مرة عن تلك الحرب حيث كان مشاركًا فيها.

وكما ذكرنا، كانت هذه الجلبة وذلك العراك لمنع العدو من التقدم ولفتح طريق أمام المدينة، واشترك المجاهدون من كل صوب وحدب فى هذه الحرب باستثناء من كان يتولى حراسة الحصون. وقد توجه العديد منهم إلى خيابان ليلاً. من ناحية أخرى، تجمع الأهالى منذ الصباح الباكر فى ثكنات الجند برفقة أعضاء الجمعية وقادة الحرية وقاموا بعزف الموسيقى، واتجه الصائحون يهتفون (مدد يا على) إلى الشوارع للوقوف خلف المجاهدين، ودارت حرب شديدة من مارلان وسرقله وتلال سارى داغ، وكانت الطلقات تنهال وكأنها حبات المطر. وعلم رجال الدولة بحقيقة الحال، وتجمعوا فى بارنج، واستخدم كل جانب أقصى ما لديه من قوة.

كان المجاهدون يتجهون للإغارة ويحرزون تقدماً، لكن رجال الدولة كانوا يحكمون حصونهم فى تلك الناحية وأقروا فيها أعدادًا غفيرة من الفرسان والمشاة، وصمدوا بكل قوتهم. هذا وقد أقام رجال الدولة استحكامًا فوق قمة جبل هاچه "داغ

---

(١) توقفت صحيفة ناله" ملت عن الصدور منذ ذلك الحين، أما صحيفة انجمن فقد استأنفت نشاطها بعد توقف عدة أعداد عن النشر.

– يقع فى مواجهة سارى داغ ويفوقها ارتفاعًا – ولم يسمحوا لأحد بالمرور من فوق هذا الارتفاع. ولما كان المجاهدون يسعون للتقدم، كان يتم قتلهم بشكل متتال. وفى ذلك يقول أحد شهود العيان فى تلك الحرب :

"رأيت فى أحد الحصون سبعة عشر قتيلاً بجوارى."

وظل النزاع وسفك الدماء حتى الغروب، وسقطت أعداد غفيرة صرعى من كلا الجانبين، واستولى المجاهدون على حصون سارى داغ، وأخرجوا رجال للدولة منها، إلا أنهم لم يتمكنوا من القيام بأكثر من ذلك، وكان هذا فى حد ذاته نصرًا كبيراً، لكن لم تتحقق بغية الأهالى فى فتح الطريق.

يقول مشهدى محمد على خان الذى شاهد هذه الحرب :

"لقد أحكموا حصونهم فى اتجاه خطيب وعينوا حراسة عليها، ثم توجهنا ليلاً إلى خيابان برفقة خمسمائة من المجاهدين، ونشبت الحرب فى الصباح الباكر. وقد أرسلونى إلى مارالان لمعاضدة الحاج حسين خان، وكان على مسيو وميرزا رحيم خان صدقيانى يوصلان الطعام والمعدات إلى حصوننا. لقد كانت حرب جد شديدة. واليوم أدرك رجال الدولة ماهية قوة الأحرار، واجتمع الجند فى مكان واحد وجعلوا يتحاربون، وصمد فرسان قره داغى حتى النهاية، وكان من بينهم جماعات أرشد وضرغام وقد أبدوا بسالة لا نظير لها. وقُتل من جانبنا ما يقرب من مائة وخمسين شخصًا بيد القره داغيين. وفى الحصن الذى كنت متواجدًا فيه، تبقى ثلاثة فقط على قيد الحياة من بين أحد عشر وتم قتل ثمانية. وقد امتزج الخبز والماء الذى أحضروه لنا بالدماء، حتى أننا لم نتناول شيئًا حتى الغروب. وحينما هبطنا من الحصن وقت الغروب رأيت أسد آقا بجوار على مسيو وميرزا رحيم خان يتحدثون، وحينما دنوت منهم واستفسرت من أسد آقا عن أحوال حصوننا، انطلق فجأة مدفع بجوارنا، وأصاب طاحونة خربة. أعقب ذلك إطلاق وابلٍ من الرصاص، وقمنا بالقتال ثانية، لكن حينما حل الليل عم الهدوء ثانية، وتركنا الحصون إلى الحاج حسين خان وعدنا إلى خطيب."

هذه هى المعلومات التى لدينا عن هذه الحرب الكبرى، ويمكننا القول إن عددًا كبيرًا قد قُتل من جانب المجاهدين بشكل قلما وجد له نظير فى الحروب السابقة. كما قتل فتح الله آسيابان، وكان هذا الرجل أحد أوباش الدوتشى الذين ألحقوا الأذى بالأهالى وقد قتله المجاهدون فى إغارة واحدة وأحضروا جثته. ومن غد ذلك اليوم، نشبت الحرب من الناحية الغربية ضد أتباع صمدخان، لكن لم تمض عدة ساعات حتى عم الهدوء.

هذا وقد تفشت المجاعة فى العشرة أيام الأوائل من شهر فروردين، وشوهد الأهالى بوجوه شاحبة وعيون ذابلة. وكما ذكرنا، كان الطقس فى ذلك العام جيداً، وزادت مساحة المناطق الخضراء، وتدريجيًا تناول الأهالى الخضرة، واندفعوا إلى الحدائق يجتثون الأعشاب التى يمكن تناولها وبخاصة البرسيم الذى ظل الوجبة الرئيسية للفقراء منذ ذلك اليوم ولمدة تزيد عن الثلاثين يوما، يقول مشهدى محمد على خان :

"كانت حصوننا فى خطيب تقع بالقرب من حقول البرسيم، وكان الأطفال والنساء يندفعون إلى هناك كل يوم ويعودون بأكياس مملوءة بالبرسيم. وبعد فترة قصيرة خلت تلك الحقول من ذلك المحصول، فتوجه الأطفال وكذلك النسوة إلى حصون رجال الدولة بحثًا عن البرسيم وذات يوم أصيبت إحدى النساء، وقد ظلت قصة البرسيم هذه تتناولها الألسنة فى تبريز لعدة أعوام.[1]

فى تلك الأثناء التى ارتفع فيها ثمن الخبز بشكل ملحوظ، قام الخبازون فى تبريز ببعض الأعمال التى يجب ذكرها فى هذا المقام:

لقد أغلقت معظم المحال أما ما ظل منها مفتوحًا فلم يكن يعرض سوى أقل القليل من الخبز، لكن الحاج جواد – وكان يمتلك دكانًا لبيع الخبز فى ميدان انكج

---

(١) رأيت بعد أعوام رجلاً يتشاجر فى السوق مع أحد الحراس ويقول له: لقد أكلنا البرسيم وحصلنا على الحكم النيابى حتى لا يتجرأ أحد على الآخر.

– كان يخبز كل يوم عشرة أحمال من مخزنه الخاص ويبيعه إلى الفقراء بنفس سعره السابق (المن باثنى عشر عباسى). ويقول مشهدى محمد على خان :

"لو لم يقم الحاج جواد بهذا العمل لانهار أمر المدينة. إن صنيعه هذا لا يقل عن تضحيات المجاهدين. وقد حاول أعداء الحرية فى المدينة – الذين كانوا يسعون فى الخفاء – تقديم الأموال إليه كى يبيع القمح لهم سراً، وكان فى إمكانه القيام بذلك لأن ما من شخص كان يعلم شيئًا عن مخزنه وما به من قمح، لكنه لم ينخدع بالمال ولم يتخل عن القيام بواجبه."

ويقولون:

"ذات يوم استدعاه سردار إلى داره، وجعل يمتدحه ويثنى على صنيعه فى حضور بعض أعضاء الجمعية قائلاً: أيها الحاج، لقد قمت بعمل لا يستحق الثناء منى فقط بل من جميع أهالى إيران قاطبة. كما امتدحه الآخرون، ورد عليهم الحاج جواد بكل تواضع بقوله: أليس لهؤلاء الشباب الذين أريقت دماؤهم فى سبيل الحكم النيابى آباء وأمهات؟! أليست لى دماء مثلهم؟! فطالما لدى القمح سأعد الخبز وأقدمه إلى الأهالى، وسوف أحمل البندقية من بعد وأبذل الروح فى سبيل الحياة النيابية."

وقد تعمدت إيراد ذلك الموقف كى يُعلم بأية حمية وبأية نزاهة كان هؤلاء الأحرار يسعون فى طريقهم! أكتب لأولئك الذين كانوا يعيشون آنذاك فى طهران وغيرها من المدن ثم اندفعوا مرة واحدة بمجرد سقوط محمد على ميرزا والتفوا حول المائدة ونهموا منها واختزنوا، والآن يقضى كل منهم حياته هنيئاً، أحكى هذا الموقف كى يعلم هؤلاء آلام أولئك الذين أفنوا أنفسهم فى هذا السبيل.

حرب آناخاتون

كما أسلفنا، استمرت المعارك طوال شهر فروردين، وأحيانًا كانت تنشب معركة كبرى. وأحد هذه المعارك كانت يوم الأحد الثالث عشر من ربيع الأول

(١٥ فروردين) حيث تم قصف المدينة من قبل معسكر رجال الدولة واستمر القصف بشكل شديد حتى مساء ذلك اليوم، وكانت المدينة ترد بالمدافع. وطبقًا لما ورد فى كتاب "آبى" كانت الطلقات تصل حتى ميدان المدينة، وتم قتل العديد من الأبرياء.

وبدأ القصف ثانية فى الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول (٢٤ فروردين) لكنه لم يكن شديدًا هذه المرة، وسرعان ما انتهى. لكن من غد ذلك اليوم وقعت حرب شديدة عرفت باسم "حرب أناخاتون". وقد ذكر سالفاً، إن رحيم خان قدم إلى الوار فى منتصف شهر بهمن، واستقر مع جنده هناك، وأغلق طريق جلفا أمام المدينة، لكنه – كما رأينا – لم يلتفت إلى المدبنة، وتعارك فى الغالب مع مجاهدى صوفيان ومرند وآرونق، ونشبت الحرب مرة واحدة فقط حينما توجه سردار إلى الوار. وكان للمجاهدين حصون على طريق پل آجى، ولم يتركوا ذلك المكان قط دون دفاع.

وواقع الحال إنهم لم يحكموا ذلك المكان مثلما كانت الاستحكامات الأخرى. وفى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول (٢٥ فروردين) ظهر الحاج صمدخان فجأة مع حشد من الفرسان والمشاة هناك، واحتدم العراك بين الجانبين، ونشرت صحيفة انجمن ذلك الحدث، لكن بدا واضحًا أنها لم تكن تمتلك معلومات صحيحة حوله. ويقول أحد المقربين من صمدخان وكان برفقته فى تلك الأيام:

"استدعانى صمدخان ليلة الأربعاء، وحينما توجهت إليه أمرنى بأن أكتب فرمانا إلى جميع القادة كى يستعدوا قبل بزوغ الفجر بثلاث ساعات بفرسانهم وجندهم وبالطبول وبالنفير. وقد كتبت هذا وختم عليه صمدخان وسلمناه إلى الخادم لتوصيله. وحينما رغب فى الانصراف، سألنى: أتعلم إلى أين بغيتى؟ إننى أرغب فى التوجه إلى أناخاتون لاجتثاث شأفة تبريز فأدركت أنه ثمل، ولم أرد، واستأذنت وخرجت. وفى منتصف الليل وقبل بزوغ الفجر بثلاث ساعات كان الجند والفرسان

على أهبة الاستعداد، وقد امتطى هو نفسه أحد الجياد وتوجه برفقة قادته إلى أناخاتون".

ولما كان صمدخان – الذى سعى أكثر من غيره للاستيلاء على المدينة – قد أغار عدة مرات من طرق أخرى دون أن يحقق شيئاً، كان يظن هذه المرة أنه لو أغار بغتة عن طريق پل آجى سيتحقق له الاستيلاء على المدينة. ولما كان الفرسان والمشاة من مراغه وكردستان ينضمون إلى جيشه منذ اليوم الذى دخل فيه إلى قراملك وامتلك فى ذلك الوقت قوة لا بأس بها، لذا كان من الصعب عليه المكوث دون القيام بعمل، ورأى نفسه مضطرًا للإغارة من جديد، والعجيب أن رحيم خان لم يكن على علم بنيته تلك، ورغم أنه كان يرغب فى الإغارة على مقره إلا أنه لم يطلب العون. ويمكن أن ندرك هنا إنه كان يؤمن إيمانًا راسخًا بنصره، وأنه كان يرغب فى أن يكون له الفضل فى هذا الصنيع.

نعم، لقد دخلوا أناخاتون، ومن هناك اتجهوا إلى المدينة، وما أن شاهدهم المجاهدون حتى تشابكوا معهم، ونشب العراك دفعة واحدة، وعلمت المدينة بتلك الأحداث، فانتفضت، وبادر المجاهدون زرافات زرافات لمساعدة أعوانهم، كما بادر سردار نفسه إلى ميدان القتال برفقة كتيبة من الفرسان، وبوصوله احتدمت المعركة، واستمر إطلاق القذائف بشكل متتالٍ.

فى تلك الأثناء، عندما عُلم أن جيوش قراملك قد أغارت من هذا الطريق ظن البعض أنه ربما خلت قراملك من المدافعين عنها، لذا هاجموها عن طريق المدينة، وكانوا يأملون تحقيق بعض الظفر، لكن صمد خان كان قد ترك بعض الكتائب للدفاع عن تلك المنطقة ومن بينها كتيبة القوزاق المجهزة بالمدافع. وما أن اقترب المجاهدون حتى قاموا بإطلاق النيران، وصمد المجاهدون قليلاً لكنهم عادوا أدراجهم بعد أن استيأسوا من إحراز أى تقدم.

واستمر العراك خارج پل آجى لمدة ثلاث ساعات، ولما كان كلا الجانبين فى الصحراء لذا زاد ضغطهما حتى تحقق الظفر للمجاهدين وأطاحوا بعدد من

الفرسان من بينهم شجاع الملك بن قادر آقا قائد الأكراد، وكان رجلاً ضخم البنية شجاعاً، وقد امتطى جوادًا سريعاً، كما كان على دراية جيدة بالقتال. ويقال إن الرصاصة التى أصابته قد انطلقت من بندقية سردار، وأسقطته من فوق جواده فحمله الأكراد وعادوا به على الفور. كما سقط عدد آخر وفر الباقون. وزادت غلبة المجاهدين وتعقبوهم وأهلكوا عددًا كبيرًا منهم. ولو لم يصل رحيم خان من الوار لنجدتهم. ولو لم يصمد أمام المجاهدين، لما أنقذ منهم سوى القليل. هذا وقد وصل صمدخان إلى قراملك يائسًا مخذولاً. وكانت هذه هى المرة الثانية التى تعرض فيها لمثل هذه الهزيمة النكراء.

يقول الحاج صمدخان:

"لقد كنا نترقب الجيش فى قراملك حتى يعود، وليلاً، سمعنا صياح بعض الاشخاص وعويلهم بشكل عجيب، وأرسلنا شخصًا لاستطلاع الأمر فأخبرنا بمقتل شجاع الملك، وقد غطاه الأكراد بالأردية والورود وأحضروه وهم ينوحون، فحرجنا فوجدنا جلبة عظيمة، حيث عم العويل والصياح كافة القرى. من ناحية أخرى، تفرق الفرسان والجند وكانوا يصلون مضطربين وقد أصيب بعضهم، كما أصيب صولت السلطنة – قائد فرسان گورانلو – بإصابات بالغة إلا أنه ظل على قيد الحياة وتحسنت صحته بعد فترة....".

قام الأكراد بتغسيل جثمان شجاع الملك وكفنوه وظلوا ينوحون عليه، وفى الغد حملوه متجهين إلى كردستان[1]. وقد ذكرت صحيفة "انجمن" أن عدد القتلى من جانب جيوش صمدخان بلغ حوالى ثلاثين قتيلاً. لكن كما أسلفنا، لم يكن لدى هذه الصحيفة معلومات تفصيلية حول هذه المعركة، ويمكن الظن أن عدد القتلى كان

---

(١) من يعرفون حياة الأكراد واللاريين يعلمون مراسمهم فى الحداد على موتاهم خاصة وإن كان من القادة حيث يتخذ النواح والعويل طابعًا آخر ويقومون بأعمال غريبة. ومنذ ستمائة عام، توجه ابن بطوطة إلى لرستان، وشاهد مثل هذه المراسم وضمنها فى كتابه إلا أنها لا تزال تروج حتى الآن بين الأكراد واللاريين.

يربو على ذلك العدد. وعلى حد قول أتباع صمدخان أنفسهم إن هزيمته تلك كانت على نفس قدر هزيمته فى هكماوار.

وفى نفس هذا اليوم بدأ القصف من ناحية خيابان ومارالان، وتوالت قذائف رجال الدولة من فوق الجبال وظلت أصواتها تدوى حتى الغروب.

الاستعدادات الأخيرة للحرب

كانت المجاعة تزداد يومًا بعد يوم فى المدينة، وفى منتصف شهر فروردين قامت القنصليتان الروسية والإنجليزية – طبقا للأوامر الصادرة من سفارتيهما فى طهران – بالتباحث ثانية مع أحرار تبريز والتدخل للوساطة. إنهم كانوا يأملون فى التأثير على الأحرار تحت ضغط المجاعة التى حلت بالمدينة وحاولوا إثناءهم عن المطالبة بالحياة النيابية إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك. وبعد العديد من المباحثات قدم الأحرار المقترحات التالية لقبول الصلح:

(١) أن يقبل الشاه الحكم النيابى.

(٢) إعلان العفو العام، بحيث لا يتم القبض على شخص بجريرة مطالبته بالحرية.

(٣) سحب الجند المحاصرين للمدينة.

(٤) احتفاظ الأحرار بما فى حوزتهم من البنادق والمعدات الحربية.

(٥) موافقة الأهالى على والى آذربايجان الجديد.

وكان واضحًا أن محمد على ميرزا لن يخنع لهذه المطالب، خاصة فى ذلك الوقت الذى كان يأمل فيه أن تفتح المدينة أبوابها أمام رجال الدولة تحت ضغط المجاعة. من ناحية أخرى، قام السلطان عبد الحميد آنذاك باقتلاع شأفة الحرية فى اسطنبول، ولا شك أن محمد على ميرزا قد اطلع على تلك الأخبار وصارت باعثًا على تعنته أكثر من ذى قبل.

وفى التاسع عشر من شهر ربيع الأول (٢١ فروردين) اجتمع قناصلة انجلترا وروسيا والدولة العثمانية فى القنصلية الإنجليزية، وتباحثوا بشأن رعاياهم فى تبريز، واقترحوا مطالبة الدولة بمائة وخمس وسبعين حمل دقيق من أجل رعاياهم، وحينما أبرقوا إلى سفارتهم فى طهران، وتباحث مسئولو تلك السفارات مع البلاط فى هذا الشأن، رفض محمد على ميرزا مطالبهم موضحًا وجوب خروج الرعايا الأجانب من تبريز. وبلغ القناصلة هذا الأمر إلى رعاياهم لكنهم رفضوا تنفيذه.

فى تلك الأثناء لم يكف القناصلة عن القيام بأعمالهم، ولم يتركوا سفاراتهم فى طهران تنعم بالهدوء. وكما ذكرنا، كانوا يبدون خشية لا محل لها، فحينما نقرأ كتاب "آبى" نرى أن مستر راتسلاو يبرق أحيانًا بأن الجمعية ستمنع الخبز والقمح عن الرعايا الأجانب، وأحيانًا يخبر بوجود الخشية من اندفاع الجوعى إلى مقار القنصليات لسطوها ونهبها. ولا علم لنا لم كان يذكر مثل هذه الأكاذيب؟! فى حين أن الإيرانيين سلكوا سلوكًا لائقًا آنذاك، حيث سعوا فى الأوقات العصيبة لحماية الأجانب، ولم يلحق أدنى ضرر بأى أجنبى خلال العشرة شهور تلك التى عانت منها تبريز من تلك الأزمة. وفى الوقت الذى شح فيه الطعام كان الأوربيون ورعاياهم أكثر راحة من غيرهم، وسعت الجمعية قدر استطاعتها لتقليل شكواهم ولم تعهد بذلك إلى الدولة. وكل من كان فى تبريز آنذاك يعلم أن الأهالى لم يفقدوا زمام صبرهم وتماسكهم رغم كل ما كانوا يعانون من الجوع، ولم يبد أى منهم سلوكًا مشيناً. لكن ما كان يبدر عن هؤلاء القناصلة مما كان يثقل على أهالى تبريز. ولم تكف الجمعية عن مسعاها تجاه الفقراء والمساكين، وكانت تسعى عبر كل طريق لمد يد العون إليهم.

وفى الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول (٢٦ فروردين) اجتمع أعضاء الجمعية واستدعوا قنصلى روسيا وانجلترا، واقترحوا وساطتيهما لدى محمد على ميرزا وتقديم المقترحات التالية إليه:-

"يتم وقف إطلاق النار ويصدر الشاه أوامره إلى عين الدولة بإرسال مائة وخمسين حملاً من القمح يوميًا إلى الفقراء فى المدينة، ويتعهد القنصلان الروسى والإنجليزى بعدم حصول المجاهدين والأحرار على ذلك القمح، وإذا ما وافق الشاه على تلك المطالب تتباحث الجمعية ثانية - بالتضامن مع أحرار الرشت واصفهان وغيرهما من المدن - مع البلاط، ويتم إنهاء الصراع الدائر بين الجانبين."

وأرسل القنصل الإنجليزى بهذه المطالب إلى طهران، لكن محمد على ميرزا لم يخنع لها.

كانت هذه هى المساعى التى بذلتها الجمعبة لمنع تذرع الأحانب والوقوف بجانب الفقراء والجوعى. من ناحية أخرى، توجه المغفور له ثقة الإسلام - بأمر من محمد على ميرزا - برفقة الحاج سيد المحققين والحاج السيد آقا ميلانى إلى باسمنج وكانوا يتباحثون مع باغشاه عن طريق مكتب البرق هناك ويتبادلون البرقيات مع محمد على ميرزا والوزراء. لكن كما قلنا، كان للمجاهدين نية أخرى وكانوا يسعون من طريق آخر.

أثناء ذلك كان سردار وسالار وغيرهما من القادة يستعدون للإغارة ثانية، وكانوا يبذلون قصارى جهدهم فى هذا الصدد، وأعدوا عدتهم لذلك، ولما كان مسيو هوارد باسكرويل الأمريكى قد اشترك فى تلك الاستعدادات وكان أول ضحايا هذه الحرب الدامية، فعلينا أن نذكر قصته وما قام به من أعمال فى هذا الموضع.

مستر باسكرويل

قبل الحركة المطالبة بالحياة النيابية، وكذلك فى الأعوام الأولى منها كانت المدرسة الأمريكية فى تبريز - مموريال اسكول - تحظى بأهمية خاصة لدى الأحرار لأنها كانت المكان الوحيد الذى تُدرس فيه اللغة الإنجليزية والعلوم الأوربية، وقد التحق بها عدد كبير من الشباب المستنير.[١]

---

(١) كان المعفور له شريف زاده أحد معلميها.

وظهرت طائفة آنذاك كانت تنتمى إلى تلك المدرسة، وأبدت تأييدها للحركة الدستورية. وأدى ذلك التأييد إلى انضمام مستر باسكرويل – أحد معلمى المدرسة – إلى المجاهدين وقتله فى سبيل الحياة النيابية لإيران. وكان باسكرويل هذا شابًا فى الخامسة والعشرين من عمره، وقد قدم إلى تبريز للتدريس قبل تلك الحروب بفترة قليلة، وكما يقول مستر شيت، كان شابًا غيورًا قد تخرج مؤخرًا من جامعة برنستون وحصل على شهادة الـ B.A، وأول عمل مارسه هو مهنة التدريس فى هذه المدرسة.

وحينما وصل ذلك الشاب الغيور إلى تبريز، ووجد أرجاء المدينة مفعمة بالثورة والحركة، اعترته الحمية، وأظهر تضامنه إزاء حرية إيران. وعلى حد قول مستر شيت، كان شغوفًا بشريف زاده، وكان مقتله هذا نتاج حث الأخير له وإثارته. ولما تعرف على بعض الأحرار ممن يجيدون اللغة الإنجليزية تباحث معهم بشأن معاونته للأحرار، ولما كان قد أنهى فترة تجنيده فى أمريكا، لذا عزم على أن يجعل بعض الشباب تحت إمرته ليدربهم على الجندية.

فى تلك الأثناء اتحدت جماعة من الشباب وأبناء التجار والأثرياء، وشكلوا جماعة رغبت فى التدريب العسكرى، وقد تولى باسكرويل هذه المهمة منذ شهر بهمن، واختار إرك مقرًا لتدريباته ليكون بعيدًا عن عيون القنصل الأمريكى والمدرسة. وعلى هذا النحو تولى باسكرويل تلك المهمة وبث الآمال فى قلوب هؤلاء الشباب، وأطلقت جماعة منهم اسم "كتيبة النجاه" على نفسها وأقسمت على خوض المعارك، وأغاروا على الأعداء بفدائية لا نظير لها وقتلوا وقُتلوا. وعلى هذا النحو بدر هذا العمل اللائق من قبل أبناء الأثرياء غير المحنكين.

وكما ذكرنا، عمت فتنة أخرى فى المدينة بعد حرب هكماوار، وأمل بعض التجار والحرفيون فى الانضمام إلى الجهاد، وكانوا يتجمعون فى ثكنات الجند ليلاً. أثناء ذلك قدم باسكرويل وتلاميذه مع مستر مور الإنجليزى – مراسل صحيفة التايمز – إلى ثكنة الجند، ولما كان تلاميذ باسكرويل ممن تدربوا على يده من قبل،

قد تولى كل منهم تدريب إحدى الجماعات، وعلى هذا النحو كانت تعلو أصوات (١-٢) فى الثكنة من كل جانب.

أثناء ذلك، علم القنصل الأمريكى بأمر باسكرويل، فاستاء لذلك، وتوجه ذات ليلة إلى ثكنة الجند وهى محتشدة بالأهالى، وكان سردار وبعض أعضاء الجمعية هناك، وواجه القنصل باسكرويل وذكره بأن تدخله فى شئون إيران على هذا النحو هو نقض للدستور الأمريكى وأنه يستحق العقاب على ذلك الجرم وطالبه بالعودة لاستئناف عمله فى مهنة التدريس. ولم يتأثر باسكرويل بهذا الحديث ورد عليه فى صراحة :

"لما كان الإيرانيون يسعون فى طريق الحرية، فقد انضممت إليهم، وأنا لا أهاب الدستور الأمريكى".

وذكر البعض :

"لقد أخرج جواز سفره وقدمه إلى القنصل، وتحدث سردار وأعضاء الجمعية إليه كل فى دوره معربين له عن سعادتهم به إلا أنهم يخشون أن يلحق به الأذى فى سبيل حرية إيران وحثوه على العودة إلى عمله فى المدرسة، إلا أن باسكرويل لم يصغ لحديثهم، وانقطع منذ هذه اللحظة عن عمله وعن الأمريكيين وانضم إلى الإيرانيين".

كانت هذه هى قصة باسكرويل ونحن نقدر له نزاهته وتضحياته التى بذلها فى هذا الطريق. وفى حين كان هذا الأجنبى يقوم بتلك الأعمال، كان بعض قاطفى الثمار المرائين يبغون أخذه هو وتلاميذه إلى ستارخان وباقرخان والمجاهدين ليحاولوا إقناعه بالعودة عن هذا الطريق!

ولنعود إلى حديثنا، فكما ذكرنا، حث موضوع قلة الخبز والطعام، وكذلك مساعى قنصلى روسيا وانجلترا المريبة على أن يقوم سردار وسالار بحرب

أخرى، واختارا هذه المرة النواحى الغربية، وعزما على الإغارة على شام غازان – أحد معسكرات صمدخان – وحينما أعدا العدة لذلك رغب باسكرويل مشاركتهما فى هذه الحروب وجعل يسعى ليل نهار ويفكر فى كيفية الإغارة على العدو، وسانده سردار واستقبله فى بيته لمدة ثلاثة أيام، لكنه لم يكن يعقد عليه الأمل لقلة خبرته.

حرب غازان العامة (الحرب الأخيرة)

فى يوم الإثنين، الثلاثين من فروردين عم الضجيج والجلبة المدينة حيث نشبت الحرب الأخيرة بين رجال الدولة وأهالى تبريز، واجتمع كافة المجاهدين ليلة الإثنين فى قره آغاج وآخونى، وفى الفجر، وقبل شروق الشمس شنوا هجومًا على شام غازان من عدة جهات، وأبدى المجاهدون فى ذلك اليوم حماسة لا نظير لها لاقتلاع شأفة العدو، لكن مما يؤسف له أنهم فقدوا باسكرويل الأمريكى منذ اللحظات الأولى لهم وصار هذا باعثًا على انكسارهم.

وكما ذكرنا، أعد باسكرويل "كتيبة النجاة" وكان يرغب أن تكون فى طليعة الحرب، وتظهر كل ما لديها من قوة، ولم يغمض له جفن، ولم يسكن ليل نهار على أمل تحقيق هذه الرغبة. لكن مما يؤسف له أن التجربة أظهرت عدم حنكته وضاعت جهوده هباء، وفقد روحه فداء لهذه التجربة.

لقد بلغ عدد الموالين له قرابة الثلاثمائة شخص، لكن – كما يقال – لم يوافقه الرأى سوى أربعين شخصًا وانفض الباقون من حوله، وفى ليلة الإثنين أعد باسكرويل عدته وأمر بتجميع أتباعه فى مقر البلدية قبل منتصف الليل للتوجه إلى قره داغ، ثم أرسل البعض إلى ستارخان مطالبًا إياه بتسليمه مدفعًا. لكن لما كان ستارخان يفتقد الثقة فيه وفيما يقوم به رد عليه قائلاً :

"ستذهب وتدفع بالأمريكيين إلى القتل وتدع المدفع للأعداء وتهرب". وامتنع عن تقديم المدفع إليه. ونتيجة لرد فعله هذا وهنت معنويات عدد كبير من أتباع باسكرويل، وكان مستر مور أول من تنحى عنه جانبًا واكتفى بالمشاهدة فقط.

ويروى مستر مور قصة مطولة مفادها إنهم عهدوا إليه بثلاثمائة وخمسين من البنادقة وتولى قيادتهم، لكنهم لم يحضروا فى هذه الليلة وتركوه وحيداً. وتظاهر أنه متفق مع باسكرويل فى الحرب ووصف أهالى تبريز بالجبن وتطاول فى ذمهم. لكن كان هذا كله محض افتراء، وجميعنا يعلم أن هذا الإنجليزى لم يشارك قط فى هذا العراك، ولم يطلق رصاصة واحدة على الأعداء، والدليل على ذلك مرافقته لباسكرويل أثناء التدريبات ثم تنحيه عنه دفعة واحدة هذه الليلة.

لقد تحاورت فى هذا الشأن مع بعض المقربين من باسكرويل ممن لا يزالون على قيد الحياة حتى الآن، لذا سأورد بعضًا من أقوالهم فى هذا الموضع :

يقول على زاده(١) الذى انضم إلى المجاهدين فى بداية الحرب ثم تبع باسكرويل :

"وقتما تقرر الاجتماع ليلاً فى مقر البلدية، لم يحضر سوى أحد عشر شخصًا ممن أقسموا على الفداء، أما الآخرون، فقد تملك بعضهم الخوف على أنفسهم، وتخلى البعض الآخر عن موقفه، وحال آباء وأمهات البعض الآخر دون خروجهم نظرًا لعلمهم بنوايا باسكرويل، ومن حضروا توجهوا معنا إلى قره آغاج فى منتصف الليل، وكانت هذه المحلة مفعمة بالمجاهدين ورجال المدفعية والمقاتلين، وتوجهوا بنا إلى أحد المساجد لنأخذ قسطًا من الراحة. ولم يهدأ بال باسكرويل لحظة لدرجة أنه كان يقوم بتدريبنا داخل المسجد، وكان يقول لنا:

"سيأتى سردار ويبدأ الهجوم قبل بزوغ الفجر بساعة."

لكن سردار وصل متأخراً، ومع بزوغ الفجر، سلكنا الطريق. فى تلك الأثناء، كان المجاهدون يتقدمون زرافات زرافات كل مجموعة فى طريق، واقتربنا من الأعداء قبل شروق الشمس، واستولينا على كوچه باغى، وكنا نتقدم والحدائق تحفنا من الجانبين. وفى نهاية الضاحية بدت مزرعة شاسعة أقيمت حصون

(١) هو ابن الحاج مير محمد على أصفهانى الذى يعيش حاليًا فى طهران.

الفوزاق المزودة بالمدافع على أحد جانبيها وتحيط بها الحراسة. كنا نراهم من بعيد، كان أحدهم يقف جانبًا وفي يده شعلة بيد أنه لم يرنا، وما أن أنهينا كوچه باغى حتى أمر باسكرويل بالنحرك وتقدمنا وصار فى مواجهة حصون القوزاق ويتبعه البعض منا. أما الآخرون، فقد تخلوا عنه وانقسموا إلى فريقين بعدما شاهدوا الأسلحه والمدافع فى مواجهتهم، ودخل كل فريق منهم إلى أحد الجوانب التى تحيط بالحدائق وتحصنوا خلف الأشجار والأسوار، لكن ما أن أطلق باسكرويل رصاصته وخطا عدة خطوات حتى صوب القوراق أسلحتهم نحوه، وفى اللحظة التى سقط فيها كان يأمر أتباعه بالهجوم، ثم قال:

"ححلى آقا – مترجمه الخاص ميرزا حاجى آقا رضا زاده – لقد أصابونى".
وأسلم الروح بعدها، بينما كان القوزاق يطلقون نيرانهم، وقتلوا جميع من شاهدناهم فى المزرعة، واشتركنا فى القتال من خلف الأشجار والأسوار حتى نشغل الأعداء لكننا كنا نتحصن فى مكان سئ حيث كان عرضة للقصف، ولم يكف القوزاق عن القتال. فى تلك الأثناء، تقدم حاجى خان بن على مسيو مع بنادقته عن طريق آخر، وكانوا على ميمنة الأعداء، وحينما أطلقوا نيرانهم، اضطر القوزاق إلى الهجوم، واغتنمنا الفرصة، وقمنا بإنقاذ هؤلاء وإخراج جسد باسكرويل الدامى".

وعلى هذا النحو فقد ذلك الشاب الأمريكى النزيه روحه، فقد أطلق رصاصة وسقط صريع رصاصة، وأنا أعرف بعض من كانوا خلفه، وهم: ميرزا حاجى آقا رضا زاده مترجمه الخاص، وحسن على آقا على زاده، وحسن آقا الحريرى، وميررا أحمد القزوينى، ومحمد خان وحسين خان كرما نشاهى[1]. وكان الأخير أحد المجاهدين البواسل، وقد قدم برفقة يار محمد خان إلى تبريز.

---

(١) هو ميرزا حاجى آقا دكتور شفق، وكان على زاده يدعى بنفس الإسم، وهو يعيش حاليًا فى طهران، وكان يطلق على الحريرى اسم بيرنگ، وكن يقيم فى تبريز. أما ميرزا أحمد القزوينى فكان مبعوث علماء النجف، وعرف من بعد باسم "عمارلو"، ويطلق على محمد خان اسم نيسارى وهو فى شرطة طهران الآن.

يقول على زاده:

"فى ذلك الوقت الذى سقطنا فيه فى المزرعة سعى أفراد القوزاق لحمل جثمان باسكرويل، ولم يسمح لهم حسين خان بذلك، وأسقط اثنين صرعى برصاصتين، وكان الحاج حسن آقا كوزه كنانى وميرزا على خان يستخانه وغيرهما ضمن كتيبة باسكرويل، لكننا لا نعلم من أى فريق سقط القتلى. ويقول على زاده نفسه: "من الفريق الذى كان بين الحدائق."

وقد ساق مستر مور حديثًا حول مقتل باسكرويل، وكأنه يريد أن يوضح مشاركته فى قتال ذلك اليوم. لكن كل هذا محض افتراء، وما ذكره كان من صنع خياله. وكما ذكرنا، إنه لم يقم بشئ، ولم يشارك فى هذه الحرب. وما قام به من ذم الإيرانيين ومدح فدائى الأرمن هو أيضًا من حديثه الهراء، ولم يتفوه به من قبيل الفهم أو الصدق. أما ما قام به باسكرويل فهو يستحق التقدير إلا أنه ينطوى على شئ من الجرأة غير الواعية لقد تبعه تلاميذه، وسقط بعضهم فى منتصف الطريق، وبلغ البعض الآخر حصون الأعداء وسيطروا عليها. لكن، ما الذى فعلوه من بعد؟! هل تمكنوا من الدفاع عن تلك المناطق؟! من الصعوبة بمكان الإجابة على مثل هذا السؤال. وواقع الحال، كان هذا العمل يستوجب وجود رجال على دراية بفنون الحرب، فما الذى يمكن أن يبدر عن جماعة من أبناء الأثرياء؟!

نتائج الحروب

لقد أحضروا جثمان باسكرويل من ساحة القتال وأرسلوه إلى المدينة مع بعض أتباعه، وصمد الآخرون للقتال الذى اشتدت وطأته، وقاتلت طوائف المجاهدين ببسالة هنا وهناك. واتخذ سردار مقرًا له فوق سطح أحد المنازل فى باغ سازنده، وظل يراقب ميدان القتال بالمنظار ويصدر أوامره إلى القادة.

واختلطت أصوات البنادق وزمجرة المدافع، وكانت أصوات القنابل تُسمع بين الحين والآخر. وكانت هذه هى المرة الثانية التى يتضامن فيها كافة المجاهدين

وأتباع سالار وسردار والكرجيون والأرامنة والقوقازيون والإيرانيون، وانضمت إليهم طائفة من الفقراء. من ناحية أخرى، استخدم الحاج صمدخان كل قوته وتصدى في بسالة، وربما انضمت إليه جماعات أخرى من معسكر عين الدولة أورحيم خان. هذا وقد تصدى بقوة حتى فاق في قوته قوة المجاهدين.

وفضلا عن شام غازان، دارت رحى الحرب كذلك في خطيب، بل وظهر رجال الدولة للمرة الأولى في مواجهة ليلاوا وأهراب، ونشب الصراع في تلك الناحية، وزاد عدد القتلى وعلت الأصوات لدرجة أنها لا تزال تُسمع في أذني بعد مرور ما يربو عن الثلاثين عاماً. وكأن تساقط طلقات الرصاص في ذلك اليوم يبدو من بعيد وكأنه تساقط حبات المطر، وطوت الأصوات أرجاء المدينة ونشبت حرب جد عجيبة، واستمرت إراقة الدماء حتى الغروب، ودام اطلاق النار لفترة، وأبدى كل جانب قدرًا كبيرًا من الصمود، واشتد الحال على المدنيين والأحرار لأنهم على تلك النية التي كانت لديهم كانوا يسعون لفتح الطريق، ولم يُنجز شئ حتى الآن، ولم تظهر أية دلائل على ضعف الأعداء وخورهم، ونشرت صحيفة "انجمن" بعض ما ورد على لسان أحد المقربين من صمد خان:

"كلما مضت نصف ساعة في الحرب طلب الفرسان والجند الأمان نظرًا لتعرضهم للقصف من ثلاث جهات".

وربما كان حديثه هذا صادقاً، لكن لم تظهر علامة في الخارج للدلالة على ذلك.

وعلى هذا النحو كان المجاهدون يتقدمون وكان رجال الدولة يضغطون لمنعهم، وحل الغروب، ولم تنته الحرب بعد، وحضر القنصل الروسي ونظيره* البريطاني إلى مقر الجمعية وتقابلا مع أعضائها، وقدما إليهم البرقية الواردة من سفيريهما في طهران والتي تفيد بالمباحثات التي دارت بينهما وبين محمد علي ميرزا بشأن وقف إطلاق النار لمدة ستة أيام، وفتح طريق الطعام أمام المدينة حتى

يعم الهدوء. من ناحية أخرى، أفادا باستمرار المباحثات مع محمد على ميرزا لإنهاء حالة الحرب والعراك، وذكرا أن ذلك سيتم شريطة أن يكف الأحرار عن الهجوم على رجال الدولة(١).

وقبلت الجمعية، وأرسلت لتطلع سردار بالأمر، وقبل هو كذلك، وأرسل إلى المجاهدين يأمرهم بوقف القتال ومغادرة الحصون التى تم الاستيلاء عليها ثم العودة إلى أماكنهم.

وعلى هذا النحو انتهت آخر الحروب الدامية، هذا وسوف نورد قصة مباحثات السفيرين مع محمد على ميرزا فى موضع آخر. ونعود الآن إلى تتبع الأحداث فى تبريز.

لقد ثقل موت باسكرويل على الأهالى هناك واغتم الجميع لذلك. لقد قُتل الآلاف من أهالى تبريز، لكن لما كان هذا الشخص ضيفًا عليهم فقد حزنوا جميعًا عليه، وعزموا على دفنه فى مراسم عظيمة، ورغم تأثير المجاعة، ورغم وصول أنباء سيئة من جلفا، إلا أنهم لم يخنعوا ورعوا فى تكريم ذلك الشاب الأمريكى واصطف الأمريكيون المجاهدون هنا وهناك عبر الطريق بداية من المدينة حتى المقابر وهم منكسو البنادق، بينما وقف الأحرار كبيرهم وصغيرهم بباقات الزهور حول الجثمان وسلكوا طريقهم ومظاهر الأسى تعلو وجوه الجميع. وحينما وصل الجثمان إلى مقبرة الأمريكيين دار جدال، وعمت الصيحات، وكان البارون سدراك – أحد الأحرار الأرمن – ضمن من علت صيحاتهم وهو يقول :

"إننى لا أتوقع الآن تقدمًا للحياة النيابية فى إيران بعد أن أهدرت دماء ذلك الشاب الطاهر فى هذا السبيل."

وذكر فى موضع آخر وقتما عمت المجاعة تبريز وشحبت الوجوه وذبلت:

---

(١) سيُعرف من بعد الباعث على هذا الشرط.

"إن الشعب جائع لكنه حر .

ورغبت الجمعية في إرسال المال إلى والدة باسكرويل في أمريكا، لكن الدكتور واينمان رفض هذا. ولما عثروا على بندقيته في يده فقد كتبوا عليها اسمه وأسماء من قُتلوا في هذا السبيل وأرسلوها إلى أمه كتذكار عنه. كما التقطت جماعة من أتباعه وهي بزيها الخاص صورة وأرسلوها إلى أمريكا.

وتوقف القتال في هذه الأيام، ولما كان الحديث يدور عن الصلح فقد ظنوا أن الحزن على باسكرويل سيكون آخر الأحزان، لكن ثمة حزنًا كان أكثر ألمًا من ذلك الحزن قد وقع في تلك الأيام واستاء له الأحرار بشدة.

لقد ذكرنا اسم ميرهاشم خان خياباني كثيراً، واتسم هذا الرجل بالبسالة وحسن المظهر والحنكة وحسن الطباع. وفي تلك الآونة، أظهر فضلاً آخر، فقد كان هو الشخص المتفرد بعد سالار وسردار. وقد ذكرنا من قبل أن أزمة الأمور الخاصة بسالار كانت تقع في يديه. وفي يوم الأربعاء، الأول من شهر أردبيهشت، وقتما عم الصمت المدينة، ولم تكن هناك أية حركة أو صوت، فإذا به يخرج متمردًا على حصن ساري داغ فأطلقوا النيران عليه من حصون رجال الدولة وأصيب في وجنته اليمنى وحرجت الرصاصة من خلف رأسه وسقط ذلك الشاب الباسل صريعًا في التو.

وحينما وصلت هذه الأنباء إلى المدينة، ضج الأهالي وثار الجميع مثلما ثاروا يوم مقتل حسين خان باغبان، وأسرع مجاهدو خيابان إلى ساري داغ لإحضار جثمانه، وكانت المشكلة هنا تكمن في كيفية إطلاع أسرته وأقاربه على هذا الخبر، يقول الحاج محمد جعفر خامنه اي:

"لقد أسرعت إلى منزل ميرهاشم وتقابلت مع والده، وقلت له: لقد أصيب ميرهاشم. فاعترضني السيد مير جعفر، وقال: لا ضير طالما أنه لم يُقتل. أثناء ذلك كانوا ينزلون بجسد ذلك الشاب الدامي من الجبل، ووصلوا بالقرب منا، وعلت

الأصوات ناحية باكية خارجاً، وأدرك السيد ميرجعفر حقيقة ما حدث، ولم يتمكن من تمالك نفسه وسقط مغشيًا عليه، وحملت أمه حجرًا ودقت به على رأسها حتى كادت أن تتهشم، ووضع ابنه الصغير مير أحمد البندقية تحت كتفه وحاول أن ينتحر فمنعوه. وكان هذا نموذجًا على كمية الحزن التى تملكت هذه الأسرة."

هذا وقد تم دفنه فى مراسم جليلة لكننا سنكتفى بهذا القدر نظرًا لعدم وجود معلومات دقيقة لدينا فى هذا الشأن.

وساطة مبعوثى روسيا وانجلترا

حرى بنا فى هذا المقام أن نعود إلى طهران ثانية، ونقص ما وقع بها من أحداث ونوضح كيفية وساطة مبعوثى كلتا الدولتين.

لقد بدأ عم ١٢٨٨ هـ فى طهران بغصة دامية محزنة، فقد انضم ميرزا مصطفى آشتيانى مع بعض أعوانه إلى مجموعة المطالبين بالحياة النيابية المعتصمين فى عبد العظيم وقد ذكرنا ميرزا مصطفى هذا وأخاه الأكبر الحاج الشيخ مرتضى فى الأحداث الواردة فى بداية الحركة. وكما يعلم القراء، تعتبر أسرة آشتيانى من طلائع الحركة، وقد أبلى ميرزا مصطفى بلاء حسنًا فى تلك الأحداث، لكن هذه الأسرة تراجعت بعد ذلك، وكما راج بين الأهالى، مال الحاج الشيخ مرتضى إلى محمد على ميرزا وسعى لتحقيق أهدافه. ومع ذلك، فبينما سعى المطالبون بالحرية ثانية، لم يتمكن ميرزا مصطفى من التنحى وانضم إلى الآخرين فى عبد العظيم واتخذ منزلاً مع أتباعه ونزلوا فيه. ولما كان مقره خارج الاعتصام، أرسل مفاخر الدولة – رئيس التجارة ومعاون حاكم طهران – صنيع حضرت مع بعض أوباش طهران للهجوم عليه بغتة ليلة الأربعاء الرابع عشر من فروردين، وقتلوا ميرزا مصطفى وثلاثة آخرين.

وأدى هذا الحادث إلى استياء الأحرار كافة، وقدم محمد على ميرزا وأعوانه مواساتهم وبدوا وكأنهم لا يعلمون شيئًا عن الحادث. كما أدخل هذا الحادث الرعب

فى قلوب البعض وفكروا فى التراجع عن الحياة النيابية. من ناحية أخرى، لما كانت الحرب تحتدم فى تبريز آنذاك، ولما كان محمد على ميرزا وأعوانه يعلمون شدة أمر الطعام فى المدينة، لذا أشاعوا بأن ثمة أخبارًا سعيدة فى الطريق. وكما ذكرنا، كانت الثورة آنذاك تعم كافة الأرجاء، لكن محمد على ميرزا كان يعتبر تبريز هى مصدرها الأول، لذا اعتد بها أكثر من غيرها.

ومضت أيام عديدة على هذا النحو حتى وقع حادث المجاعة فى تبريز، ووصلت برقيات مبعوثى روسيا وانجلترا إلى طهران. وكانت حكومتا روسيا وانجلترا – اللتان تباحثتا مع محمد على ميرزا منذ بداية الحرب – تحثان الشاه على الابتعاد عن المطالبين بالحياة النيابية، وصب الماء على نار الثورة بافتتاح المجلس. وقد تدخلتا هذه المرة، وبعد العديد من المباحثات طالبتا بإيقاف الحرب ضد أهالى تبريز لمدة ستة أيام، على أن يقدم خلال تلك الفترة مقدارًا من الطعام والقمح إلى فقراء المدينة حتى ينتهز السفيران الفرصة وينهيان الصراع بمباحثاتهما ووساطتهما، ولم يوافق محمد على ميرزا على مطلبهما، وكان يرى أن الثائرين سينتهزون الفرصة ويغيرون على معسكرات الدولة. وكان يقول إنه أصدر أوامره منذ أربعة أيام إلى جنده المواجهين لتبريزكى يكفوا عن القتال وفتح المجال للحوار من أجل الصلح، إلا أن الثائرين بدأوا القتال من ليلة البارحة، ولا تزال نيران المعركة مشتعلة حتى الآن فيما حول تبريز.

هذا وقد اشترط السفيران أنه فى حالة قبول الشاه للمقترحات، لن يهب الثوار للقتال أو العراك وتعهدا بحث الأحرار على ذلك. وفى نهاية ذلك اليوم أبرقا إلى قنصليتيهما وحضرا إلى مقر الجمعية لإبلاغ تلك الرسالة، وكما ذكرنا، وافق الأحرار وكفوا عن القتال فى ذات اللحظة. وفى نفس هذه الأيام أصدرت الحكومة الروسية أوامرها مرة أخرى إلى كتائبها – التى أرسلتها إلى الحدود – كى تسرع إلى تبريز، وطلب محمد على ميرزا من انجلترا الحيلولة دون ذلك، فتوسطت الحكومة الإنجليزية، ووافقت الحكومة الروسية وأمرت جنودها بعدم التحرك من

جلفا والبقاء فيها فى وضع الاستعداد، لكن محمد على ميرزا لم يوف بعهده، ورغم تباحثه مع السفيرين وإصداره الأوامر إلى عين الدولة كى يفتحوا طريقًا للطعام إلى المدينة، لكن لم يُر دليل على ذلك فى تبريز. وظلت الطرق مغلقة، وتباحث السفيران ثانية مع الشاه الذى قدم وعوده ثانية لكن ظل الوضع كما هو عليه دون نتيجة تذكر.

هذا وقد يئست حكومتا روسيا وانجلترا منه، وعزمتا على إرسال الجيوش الروسية إلى الأراضى الإيرانية. وفى السادس من أردبيهشت عبرت كتائب من الجند وأفراد القوزاق وفرقة من المهندسين مزودين بالمدافع من جلفا متجهة إلى تبريز.

توجه أهالى تبريز نحو محمد على ميرزا

خمدت الحرب فى تبريز على نحو ما ذكرناه، وقام الأحرار خلال هذه الأيام ببعض الأعمال، ورغم عدم ظهور أية علامات تفيد بتنفيذ الوعود الخاصة بفتح الطريق ونقل الطعام إلا أنهم التزموا الصمت ولم يرغبوا فى تقديم الذريعة. لكن فى الخامس من أرديبهشت وصلت رسالة من القنصل الإنجليزى إلى الجمعية تفيد بأنه طالما امتنعت الحكومة الإيرانية عن فتح طريق الطعام، فقد عزمت الحكومتان الروسية والإنجليزية على القيام بهذا العمل.

واستاء أعضاء الجمعية والقادة من فحوى هذه الرسالة، وأرسلوا ثلاثة مندوبين عنهم إلى القنصل المذكور - وهم ميرزا محمد تقى رئيس الجمعية، وإجلال الملك والحاج على قره داغى - وطالبوه بأن يبرق إلى حكومته ويطالبها على لسان المطالبين بالحياة النيابية بالتوقف عن تنفيذ تلك النية، وأن يمنحوا الفرصة لهم للتباحث مع محمد على ميرزا وفتح الطريق للطعام. فى نفس تلك الأوقات، أسرع جميعهم إلى مكتب البرق وأرسلوا إلى محمد على ميرزا فى هذا الشأن "يقولون :

"إن الشاه هو الأب والشعب هم الأبناء، وإذا ما وقع اختلاف بين الأب وأبنائه يتدخل الجيران، وسوف نبذل قصارى وسعنا ونودع المدينة فى يد صاحب الجلالة ليفعل معنا ما يراه مناسبا، وليأمر صاحب الجلالة على الفور بفتح طريق الطعام، ولا يسمح للجيوش الروسية بالعبور داخل الأراضى الإيرانية".[1]

حقاً، لقد اشتد وقع هذا الحدث على أهالى تبريز إلى أقصى حد، ولم يعلموا ماذا يفعلون؟ وكانوا على استعداد لبذل التضحيات للحيلولة دون ذلك. وكان الحاج مهدى آقا يذرف الدمع من عينيه، أما ستارخان فكان يقول:- "تباحثوا مع محمد على ميرزا ولا شأن لكم بى، سأمتطى جوادى وأخرج من إيران عبر أى طريق واتجه إلى النجف".

ووصلت برقية أهالى تبريز إلى محمد على ميرزا ليلة الأحد، وحقق لهم رغبتهم، وقدم بعض رجال البلاط وغيرهم للتباحث معهم، وفى صباح ذلك اليوم، استدعى محمد على ميرزا الحاج إمام الجمعة خوى إلى باغشاه، وأمره بالتوجه إلى مكتب البرق للتباحث مع أهالى تبريز. وطلب الحاج إمام الجمعة أن يرسل محمد على ميرزا ردًا ممهورًا بخاتمه إلى أهالى تبريز، وأن يأمر عين الدولة بفتح طريق الى المدينة. ولما طلب إمام الجمعة خنوع محمد على ميرزا للحياة النيابية هب الحاج على أكبر البروجردى – أحد المقربين إلى الحاج الشيخ فضل الله فى البلاط- واعترض وحدث جدال لا داعى له، ولما كان بعض رجال البلاط حاضرين فى الجلسة تصاعد الجدال وبعد فترة أصدر محمد على ميرزا أوامره إلى إمام الجمعة مرة أخرى بالتوجه إلى مكتب البرق وأرسل معه نائب السلطنة كاميران ميرزا وسعد الدولة وحشمت الدولة وفرمان فرما. وفى تبريز توجه كل من: الحاج مهدى آقا، وتقى زاده، وميرزا اسماعيل النوبرى، ومعتمد التجار، ومعين الرعايا، وميرزا حسين الواعظ، والشيخ اسماعيل الهشترودى، والشيخ

---

(١) ليست لدينا نسخة من هذه البرقية لذا لم نوردها فى هذا الموضع

محمد خیابانی، والحاج إسماعیل أمیر خیزی، ومیرزا محمد تقی، وإجلال الملك، والحاج میرزا علی نقی گنجه ای، والحاج میر محمد علی الأصفهانی، والحاج علی دوافروش وغیرهم إلی مكتب البرق، وأصغوا إلی مطالب المجتمعین فیه. وأرسل محمد علی میرزا الرد التالی: "السادة الحضور فی مكتب البرق، لقد اطلعت علی رسالتكم بخصوص عبور القوات الروسیة من الحدود، وما یضایقنی أنكم تتصورون إننی أتجاهل ذلك، فكیف یمكننی الإقلال من الأعمال الجسام وتحقیرها؟! إن ذرائعهم كلها تتلخص فی نقل الطعام إلی المدینة والحفاظ علی رعایاهم، وقد أوقفت الحرب الآن وأكدت بشدة علی نقل الطعام إلی المدینة ولم تعد لهم حجة ثانیة ونحن عازمون علی منع أعمالهم بكل ما لدینا من قوة. ومن الأفضل لهم اتخاذ حجة ثانیة ونحن عازمون علی منع أعمالهم بكل ما لدینا من قوة. ومن الأفضل أن تتباحثوا الیوم مع السید نائب السلطنة، وأن تسمحوا بتدخل نائب الحكومة الأمیر عین الدولة وتهیئوا الترتیبات اللازمة لرفاهیة الأهالی بالشكل الذی لا یهین المملكة ویتم سد الطرق المغرضة. ونستطیع أن نقول إن أمور تبریز قد مرت بشكل جید ویجب البدء فی ترتیب الأوضاع وفق ما ترونه."

كما أرسل إلی عین الدولة یقول:

"یوجه الأمیر عین الدولة بهذه البرقیة علی الفور إلی القادة شجاع الدولة وسردار نصرت والأمیر معزز سالارجنگ وسردار أرشد بواسطة الحضور فی مكتب البرق. لقد أثر فیّ بشدة ما بلغنی عن أنباء تبریز، فتبریز وآذربایجان هما منزلی، فضلاً عن ذلك، فإننی لا أستطیع أن أتحمل استمرار هذه المجاعة واستئصال شأفة تبریز، وقد أوقفت الحرب تمامًا فی زمن وصول هذه البرقیة، وتم فتح طریق الطعام، بل ویمكنكم أن تتحركوا وتسعوا لنقل الطعام."

لكن ما هی النتیجة المرجوة من هذه البرقیات؟ ففی نفس الأوقات التی كان یتم فیها إرسال هذه البرقیات من طهران، أرسلت جلفا تفید بعبور القوات الروسیة

عبر الحدود، لذا دب اليأس فى قلوب الجميع، ولما كان رجال البلاط يترقبون الحوار فى مكتب البرق فى طهران، لذا أرسلوا إليهم بالتالى:

"السادة الحضور المبجلون، كان الذى خفت أن يكون، لقد وصلت أخبار سيئة غير متوقعة بعد إرسال البرقية، وإلى الآن ألحقت المذلة بالمملكة ... إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد وصلت برقية تفيد بعبور القوات الروسية من الحدود حيث عبر حتى الآن قرابة الثلاثمائة والخمسين شخص. وهم مشغولون بسحب القوات إلى هناك. لم يعد هناك أدنى إحساس لهؤلاء الذين ألحقوا الدمار بالمملكة، إن زوال مملكة الإسلام تلك يقع على عاتق أولى الأمر، ونريد أن يؤذن لنا كى نقوم بالمواساة فى مصيبة الوطن العزيز. إن القلوب ترتعد ولا طاقة لنا بالكتابة ثانية. السادة الحضور فى مكتب البرق، لو كان لديكم علاج فلتقدمونه إلى طهران، ولو كانت لديكم مطالب فلتعرضونها."

وتم تبادل البرقيات بين الجانبين آنذاك لكنها لم تكن ذات قيمة، لذا لن نوردها فى هذا الموضع. وفى نفس اليوم وصلت البرقية التالية من قنصليتى روسيا وانجلترا:

"الرابع من ربيع الآخر ١٣٢٧ هـ - نتقدم بوافر الاحترام إلى الجمعية الإقليمية المقدسة، لقد تقابل اليوم رئيس الجمعية آقا ميرزا محمد تقى سلمه الله تعالى وحضرة الأجل أقاى إجلال الملك دام الله إجلاله العالى وجناب الحاج على آقا دام إقباله مع دوستدار واستفسروا عن بعض الأمور وعن أسباب عبور القوات الروسية عبر طريق جلفا إلى الأراضى الإيرانية، وقد صرحنا بذلك تفصيليًا إلى السادة المبجلين، ونصرح به الآن إلى الجمعية الإقليمية المقدسة بكل الاحترام. ومن الضرورى - بناء على الموعد الذى قدمه صاحب الجلالة الملك خلد الله ملكه وسلطانه فى طهران إلى سفيرى روسيا وانجلترا - فتح طريق الطعام وإنهاء الجدال. إلا أن قادة جيوش الدولة لم يسمحوا قط بنقل الطعام إلى المدينة ولم

يراعوا حرمة شروط الهدنة. وبناءً عليه فإن حكومتى روسيا وانجلترا قد عزمتا – مراعاة للظروف الإنسانية – على فتح طريق جلفا لنقل الطعام لأهالى تبريز والرعايا الأجانب. ومن المسلم به أن نقل الطعام وتأمين الطريق للمارة ليس فى الإمكان فى وجود فرسان قراجه داغى، لذا تقرر إرسال قوة كافية كى تقوم بفتح الطريق وتؤمنه من شر الأشرار، وتنقل الطعام، وتقوم نفس القوة بالحفاظ على أهالى المدينة والرعايا الأجانب من شر فرسان الدولة الذين لن يتورعوا عن أذى الأهالى، وبعد استتباب الأمن وإقرار الهدوء، ستغادر هذه القوة الأراضى الإيرانية دون قيد أو شرط، ودون مطالبة الحكومة الإيرانية بأية حقوق وتعود إلى روسيا، وقد قرر أولو الأمر فى الدولة إعلام الجمعية بذلك كى تطمئن. وضمناً، نكرر احترامنا وفى الريادة مشقة."

(خاتم قنصلى روسيا وانجلترا – ميلروراتسلاو – وتوقيعهما)

خضوع محمد على ميرزا للحياة النيابية .

بعد وصول برقية محمد على ميرزا إلى عين الدولة، لم يصدق رحيم خان وفادته هذا الحديث منه، ولم يقبلوا الأوامر الصادرة منه، وأبرق بعضهم – ممن افتقدوا أية معلومات عن كيفية الأحداث ولم يتخيلوا أن أهالى المدينة قد ولوا وجوههم إلى محمد على ميرزا بسبب عجزهم – إلى البلاط يفيد بأن المدينة على مشارف السقوط فى يد الدولة بسبب ضغط المجاعة وإن فتح الطريق للطعام سيفسد ذلك. ووصلت برقية أخرى من محمد على ميرزا بأنهم يفتحون الطريق الآن، وتم فى البداية فتح طريق باسمنج من يوم الأحد ودخل المدينة ما يربو عن العشرين حملاً من الدقيق، وفى الغد تمكنوا من إدخال كميات قليلة من القمح عبر طرق أخرى، وفى يوم الخميس التاسع من أرديبهشت، وصلت القوات الروسية خارج المدينة وعسكرت بالقرب من پل آجى. هذا وقد نهضت قوات صمدخان من قراملك قبل وصول تلك القوات وفتحوا ذلك الطريق. وفى الغد، وصل ضيوف

جدد، ودخل الفرسان والمشاة إلى المدينة وعبروا الضواحى وهم ينشدون إلا أنهم لم يتمكنوا من المدينة وعادوا ثانية إلى پل آجى. وأحسن سردار وقادة الحرية وقادتهم قدر الإمكان، وأمروا المجاهدين بعدم الاصطدام بأحد منهم.

وعلى هذا النحو انتهى القتال فى تبريز وزالت المجاعة. من ناحية أخرى، أفضت المباحثات التى تمت مع محمد على ميرزا فى طهران، وما تم منها فى تبريز، وكذلك تقدم ثوار جيلان واصفهان إلى طهران إلى خنوع محمد على ميرزا – كرهًا أو طوعًا – وأصدر فرمان الحياة النيابية ثانية فى منتصف أرديبهشت، وعمت مظاهر الاحتفال فى تبريز وغيرها من المدن، كما تم إصدار العفو العام عن الثوار فى فرمان آخر وتم العفو كذلك عمن تم طردهم من إيران، وأصدر محمد على ميرزا المرسوم التالى:

"تعلن إقرار الحياة النيابية فى إيران استنادًا على بنوده المائة والثمانية والخمسين الموجودة حالياً."

من ناحية أخرى، كانت القوات الموالية للدولة تتراجع من حين إلى آخر، وتعود أدراجها، وكان محمد على ميرزا يرغب آنذاك فى دخول عين الدولة إلى المدينة ليتولى الولاية عليها. لكن أهالى تبريز رفضوا ذلك فتوجه إلى طهران، وتولى إجلال الملك نيابة الولاية وأمسك بزمام الأمور هناك.

وعلى هذا النحو حققت تبريز بغيتها بعد أحد عشر شهرًا من القتال والفتن، وأعيدت الحياة النيابية إلى إيران مرة ثانية. لكن مما يؤسف له أن الجميع كانوا مستاءين من قدوم الروس إلى إيران، ولم يعلم أحد أية أضرار ستظهر من هذا الضيف الذى حل دون دعوة.

وإلى هنا ننهى حديثنا فى هذا المؤلف.

المؤلف فى سطور:

أحمد كسروى تبريزى

ولد عام ١٨٩٠ م فى محلة هكماوار بمدينة تبريز بإيران، اشتغل بالمحاماة وتقلد بعض المناصب فى السلك القضائى ونظرا لآرائه الجريئة بشأن فساد المجتمع والانسياق وراء بعض المعتقدات المذهبية الخاطئة تم اغتياله عام ١٩٤٦م على يد أحد قادة منظمة فدائيان خلق.

المؤلفات

١- النجمة الدرية ، وهو كتاب فى الصرف والنحو العربى.

٢- تاريخ آذربايجان (باللغة العربية)

٣- تاريح طبرستان (باللغة الفارسية)

٤- تاريخ پانصد ساله ى خوزستان (باللغة الفارسية)

٥- آذرى يازبان باستان آذربايگان (باللغة الفارسية)

٦- نامه هاى شهرها وديه هاى ايران (باللغة الفارسية)

٧- الطريقة (باللغتين العربية والفارسية)

٨- التشيع والشيعة (باللغة العربية)

المترجم فى سطور:

أ د/ هويدا عزت محمد أحمد

أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب – جامعة المنوفية.

المؤلفات :

١- العلاقات الإيرانية الألمانية فى العصر الحديث وأثرها على الأدب الفارسى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، القاهرة ١٩٩٨م.

٢- المسرح الإيرانى فى الربع الأول من القرن العشرين، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية (٣٥)، ١٩٩٨م.

٣- اتجاهات فى إصلاح اللغة الفارسية فى القرن العشرين، القاهرة ١٩٩٩م.

٤- صورة المرأة فى الأدب الفارسى الحديث والمعاصر، القاهرة ٢٠٠٠م.

٥- رواية "لا تنسنى" لمريم جعفرى، دراسة نقدية تحليلية مع الترجمة، المجلس الأعلى للثقافة ، (٤٥٦)، ٢٠٠٢م.

٦- منطق الطير لفريد الدين العطار وتوارى الظلال فى الشمس لباربرا فرشموت، دراسة مقارنة، ندوة كلية الآداب، جامعة عين شمس، أبريل ٢٠٠٢م.

٧- يهود إيران منذ أقدم العصور حتى الآن، ترجمة عن الفارسية، مؤتمر كلية الآداب، جامعة المنصورة، مارس ٢٠٠٤م.

٨- الثورة الإسلامية فى إيران، الأسباب والمقدمات، دراسة تحليلية مع الترجمة، المجلس الأعلى للثقافة (٧٢٩)، ٢٠٠٤م.

٩- صورة مصر فى الأدب الفارسى الحديث والمعاصر، ندوة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م.

١٠- البنية الفنية فى المجموعة القصصية "امرأة فى مهب الريح"، القاهرة ٢٠٠٥م.

١١- فاطمة الزهراء، ترجمة إلى العربية للدكتور على شريعتى، القاهرة٢٠٠٦م.

١٢- رواية "سأطفئ المصابيح" لرويا پيرزاد، دراسة فى الفضاء الروائى، القاهرة ٢٠٠٦م.

١٣- أشعار نسيم الشمال، دراسه فى الشكل والمضمون والمستوى اللغوى، القاهرة ٢٠٠٧م.

١٤- العلاقات الإيرانية الإنجليزيه فى القرن العشرين، القاهرة ٢٠٠٨م.

١٥- على شريعتى، مناضلا سياسيا، مفكرا اجتماعيا، شاعرا، القاهرة ٢٠٠٨م.

المراجع فى سطور

أ. د/ بديع محمد جمعة

أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس.

عضو المجالس القومية والمستشار بالمركز الفومى للترجمة.

المؤلفات

١- ترجمة منطق الطير لفربد الدين العطار.

٢- پروين اعتصامى، صوت المرأة الشرقية فى إيران.

٣- دراسات فى الأدب المقارن.

٤- من روائع الأدب الفارسى.

٥- من قضايا الشعر الفارسى الحديث.

٦- الشاه عباس الكبير.

٧- قواعد اللغة الفارسية.

٨- فينوس وأدونيس.

٩- من وهى الشرق (مجموعة مقالات).

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حسن كامـــــــل



من الأسباب التى حثت السيد أحمد كسروى على القيام بالتأريخ لهذه الفترة ضرورة الوقوف على حقيقة الثورة الدستورية (1906م) وكنهها، والثناء على أولئك الذين حملوا على عاتقهم مسئولية القيام بها وتحملوا الكثير من أجلها، غير أن التاريخ بخسهم حقهم. فقدمهم كسروى إلى قرائه بالصورة التى تليق ومكانتهم والدور الذى قاموا به. وقد أمدنا كسروى من خلال مؤلفه هذا بمعلومات مهمة فى جميع النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الفترة التى أرخ لها، كما أنه بسط كلامه فى دقة ملحوظة؛ حيث تعرض لذكر ما وقع من أحداث كأنه كان شاهد عيان عليها جميعًا، وقد ساعده على ذلك تقربه بمن أسهموا فى هذه الأحداث وعلاقاته بهم، وهذا ما يضيف إلى الكتاب قيمة وأهمية. كما أنه لم يقف موقفًا سلبيًا من الأحداث التى ذكرها، بل كان يحكم فكره فيما يدور من أحداث، وهذا ما يجعله المؤرخ الذى يعول على كلامه لأنه يتحرى الدقة فى إيراد الأحداث، وجاء تاريخه فى معظمه مما لا يتطرق إليه الشك، حيث اعتمد فيه على مصادر تاريخية موثوق فيها، فجعل أصحاب المصادر اللاحقة يأخذون عنه عن ثقة ويجعلون كتابه فى صدر مراجعهم ومصادرهم، وهذا ما يدل على المكانة العلمية والتاريخي
حظى بها الكتاب الذى بين أيدينا الآن.



تصميم الغلاف: نادية كشك